تطور الجهود اللغوية في علم اللغة العام

تناول

تطور مفهوم النظم عند قدامى العرب
وصلة ذلك بالدراسات اللغوية المعاصرة

وليد محمد مراد

دار الرشيد
دمشق - بيروت

مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

الجمهورية التونسية

جامعة السربون رقم ٤
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
دراسات جامعية حديثة

تطور الجهود اللغوية في علم اللغة العام

تناول

تطور مفهوم النظم عند قدامى العرب وصلة ذلك بالدراسات اللغوية المعاصرة

بحث قدمه الطالب
وليد محمد مراد

تحت إشراف
الدكتور ميشيل بارو

لنيل
شهادة دكتوراه دولة في علم اللغة العام

دار الرشيد
دمشق - بيروت

مؤسسة الايمان
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

فهـرس الموضوعـات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

كان للدراسات والجهود الفكرية المتنوعة والمستمرة عبر التاريخ الإسلامي أثر كبير على تطور الدراسات اللغوية، فقد عملت الدراسات النحوية والبلاغية والأدبية والفلسفية لمستقبل الحركة اللغوية، فأدت إلى رفع المستوى الفكري والتطور الحضاري وكان ذلك منذ نشأة الحضارة الإسلاميـــة.

كان لهذه الجهود المستمرة عبر العصور أثرها الكبير ودورها الرائع في رسم خطوط شخصية الأمة العربية وريادتها الفكرية للعالم الإسلامي أجمــع.

جهود تمثلت بالتدفق والاستمرار، انصبغت بالصبغة العربية وانطبعت بطابع الإسلام، وفي ظلال الإسلام كان للغة العربية دورها الرائع في تصوير هذا التطور العظيم، وتلك الحضارة المجيدة، فكان دورها رائعاً وعظيماً في تصوير أركان العقيدة ونشر الإسلام في بقاع الأرض.

فقد عملت اللغة العربية على نشر الإسلام وتثبيت الإيمان في القلوب وتوضيح العقيدة ونشر العلم ومكافحة الجهل، ونشر الأمن والعدل والنظام، ثم أنها حملت الحضارة الإنسانية ثمانية قرون متواصلة دون أن يصيبها وهن أو ضعف.

هذا وقد كان للأمة العربية تراثها الفكري في شتى ميادين الحياة من فلسفة ومنطق وفلك وأدب ونحو وبلاغة وحساب وعلوم وطب وهندسة وجغرافيا وعمران ورسوم وألوان وأشكال، ثم لغة قادرة على صياغة كل شيء بالشكل المناسب لطبيعته، وكل هذه الجهود المتنوعة كانت تصب في بحر علم اللغة العام وتتقدم تلك الجهود الفكرية، جهود النقاد والنحاة وجهود رجال الأدب والدين وأهل الفلسفة وأصحاب البلاغة واللغويين.

جهود فكرية تناولت أسلوب القرآن الكريم بحثاً لها، عمدت الوصول إلى رأي في كنه البيان القرآني، ثم إلى السر البديع في نظمه ودقة سبكه وروعة تصويره وجودة صياغته.

دراسات أقامها اللغويون والمتكلمون والنقاد والمتفلسفة من سلفنا الصالح، تناولوا فيها قضايا اللفظ والمعنى، التي شغلت جل أبحاثهم طيلة خمسة قرون متواصلة أو ما يزيد ابتدأت بميلاد فكرة النظم، ثم استمرت في تطورها إلى أن بلغت درجة النظرية.

إن مفهوم النظم عند سلفنا الصالح هو صورة النظم التي يرى فيها الإعجاز مع حقيقة العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى واللغة والفكر بأنها علاقة يمكن إدراكها بالفكر والذوق.

فقد ربط السلف الصالح ما بين فكرة النظم وبين الإعجاز وبين اللفظ والمعنى مع التصوير وحسن الصياغة ليخدموا القرآن الكريم ويبرزوا سر الإعجاز اللغوي فيه وهم في ذلك ينهجون نحو البحث اللغوي باتجاه علمي

دقيق، وهو اتجاه شبيه بنظرة المعاصرين للغـة، اتجاه يـرفض أن تكون الكلمة أبسط عنصر لغوي ذي دلالة وهو اتجاه يرفض الفصل بين الفكر واللغة واللفظ والمعنى، لأن اللغة رداء الفكر والألفاظ خادمة للمعنى ومعبرة عنه كما أنها مصورة لـــه.

ومما هو جدير بالذكر والملاحظة أن فكرة النظم قد وصلت إلى درجة النضج والتطور الحاسم، إلى أن بلغت حد النظرية اللغوية الشاملة في القرن الخامس الهجري على يدي عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجـــاز.

وعبد القاهر الجرجاني بنظرية النظم بكل ما حوته من تقديم وتأخير وفصل ووصل وذكر وحذف، وتعريف وتنكير وقصر وإيجاز، وكل ما فيها من جوانب أخرى يعد رائد فكر وزعيم نهضة لغوية في عالمنا الفكري، وفي مكانة مرموقة عند الباحثين والدارسين في الماضي والحاضر، لدوره الكبير في إثراء الدراسات اللغوية العربية، وذلك بما ألفه في النحـو والصرف والبلاغة والنقد والأدب والإعجاز طيلة حياته.

من هنا رأيت الوقوف ملياً عند اكتمال الدراسات اللغوية التي أبدعها فكر عبد القاهر مع العناية بالمراحل اللغوية التي سبقته والتي عاصرته، فجعلت منها قاعدة علمية أساسية لتصوير تطور مفهوم فكرة النظم عنـد القدامى العرب ثم أثر ذلك على الدراسات اللغوية المعاصرة في الشرق والغرب.

إلا أن علم اللغة اليوم في عالمنا العربي غير مستقر على حال تتنازعه تيارات غربية ونظريات وأفكار ليست منه في شيء ذلك مـا أدى ببعض الباحثين العرب إلى الذهاب بعيداً وراء تلك الأفكار والتيارات، فقد أثاروا ضجة لغوية حول ندم الغرب بأبحاث علم اللغة العام وهم يمجدون بهذه

الجهود لا لشيء سوى الإشارة إلى منابع لغوية جديدة وشهرة ومجد مع الإلتفات نحو الروح الغربية، فقد أداروا أظهرهم للتراث العربي، فكان دأبهم الذهاب وراء تلك الاتجاهات أشواطاً بعيدة، وهم يعانون الغربة والاغتراب، الغربة عن دراسة التراث، والتجديد فيه، ثم اغتراب عنا بأخذ كل ما يقوله اللغويون الغربيون.

فكل ما كتبوه لا يتعدى التقليد والإقتباس عن أصحاب المدرسة اللغوية التحويلية التعدادية والتحليلية الغربية، أمثال «سكينر وتشومسكي وبنيامين روف وبيتر اندراسل وأنصارهم».

وأحب أن أشير هنا،أنه لا يمكن أن يكون لنا علم لغة خاص بنا،إذا تجاهل الباحثون اللغويون المحدثون تراثنا اللغوي،كما أنه لا يمكن أن تنتصر النظريات اللغوية الأوروبية إذا تجاهلوا ما في تراثنا الفكري من زاد أصيل من لغة ونحو وبلاغة وخصوبة فكريــة.

إن إعجابي الشديد بما تناوله السلف من جهود لغوية ونقدية ونحوية وبلاغية ودينية وفلسفية، دفعني إلى دراسة قضية لغوية هامة هي تطور مفهوم النظم عند القدامى العرب،ودفعتني إلى دراسة قضية إعجاز القرآن ونظم أسلوبه،وسر إعجاز العبارة القرآنية بوجه خاص.

فقد انفرد القرآن الكريم،عن سائر أساليب العرب بأسلوبه الرفيع المتناسق،الإيقاع في التعبير عن الحقائق الدنيوية والدينية الكبرى،والمتعلقة بصفات الله الكثيرة،معبراً بأسلوبه عن الأفكار المجردة إلى الصورة الحسية الشاخصة.

من إيمان عميق في إثراء فكرنا اللغوي، ومع اعتقاد راسخ أن الجهود اللغوية الحديثة تعمل على بعث حركة لغوية وفكرية تتناسب وتطورات العصر ومتطلباته، فيها أصالة التراث العربي والإسلامي مع روح العلم

الجديدة التي تخضع لمناهج الدراسات اللغوية الحديثة، المدعمة بالرصيد العامي، القائم على التجربة الدقيقة والخبرة الطويلة المتصلة بالروح العلمية المعاصرة، مع الثوب اللغوي المتجدد.

إن دراسة اللغة العربية، وطرق نظم الكلام والتعبير بشكل عام، هو خير سبيل لمعرفة وتعريف الشخصية العربية في خطوطها وملامحها وسماتها خلال العصور.

لذلك كانت دراسة طريقة اللغة العربية في تراكيب الكلام، تشغل بالي وتنال اهتمامي المتزايد منذ الصغر، ثم أن معرفة تراكيب الكلام العربي ونظمه وربط أجزائه، كان وما يزال مجال اهتمام أيضاً لعدد كبير من الدارسين والباحثين، ولا سيما الجملة القرآنية التي ترقى على كل الأساليب التعبيرية عند البشرية جمعاء، والتي كان لها الأثر الحاسم والبيِّنْ في الجمل والأساليب العربية على اختلاف أنواعها فقد تناولوها من الجملة البسيطة التركيب إلى جملة متعددة العناصر كثيرة الروابط مسايرة للتفكير العربي من طور البساطة إلى طور التركيب والتعقيد معبرة عن الفكر الديني والفلسفي والعلمي على اختلاف مناحيه.

هذا وقد استطاعت اللغة العربية على مَرِّ العصور التعبير بقدرة فائقة عما في القلب والعقل، وعما في الطبيعة من أفكار وألوان ورسوم وأشكال وعواطف خلال العصور الممتدة دون أن تستنفذ قوتها أو أن يصيبها إعياء أو قصور، أن الطريقة التي اتبعها القرآن في التعبير هي التي أبرزت أغراضه وموضوعاته.

من هنا كان دور الباحثين منَ السلف بجهودهم الفكرية مكانِ فخر واعتزاز وتمجيد لما بذلوه في مجال دراسة الإعجاز وذلك في تقريرهم قضية النظم وتطور مفهومه، ضمن اللفظ والمعنى في طريقة الأداء الحاسمة

لتصوير المعاني القدسية فإذا اختلفت طرق الأداء نظماً لا يجوز الحديث بعده عن المعاني والألفاظ كلا على انفراد أو الفصل بينهما بفاصل، ثم لن يبرز المعنى الواحد إلا في صورة واحدة، فإذا تغيرت الصورة الواحدة تغير المعنى بمقدارها، وأي تبدل بالألفاظ لا بد أن يقابله تبدل بالمعنى.

ومما هو جدير بالذكر والملاحظة الإشارة إلى مراكز الاهتمام عند اللغويين الغربيين اليوم وهي محاولاتهم الجادة في إخضاع المعاني للمنهج العلمي وذلك عندما أرادوا الوصول بأبحاثهم المعاصرة إلى درجة النظرية اللغوية العامة، النظرية القادرة على الإبداع والتحليل المنتج لعدد لا يحصى من الجمل التي لم يقلها أحد من قبل. ثم أنهم اهتموا بمعاني النحو كأساس مدعم لكل دراسة لغوية رائدة، فاعتبروا معاني النحو لُبّـاً للدراسات اللغوية المعاصرة وذلك عندما اعتمدوا المنهج اللغوي المدعم بالتجربة العميقة منهجاً لهـم.

فقد ربطوا بين الأصوات والمنطق أو بين الفكر واللغة، إلا أن أبحاثهم هذه لم تنتصر بعد لما فيها من ثغرات، ولما وجدته أمامها من صعوبات في إخضاع المعاني للمنهج العلمي، بل لما صادفوه من نقد.

هذا وقد امتزجت جُلّ أبحاثهم اللغوية بمباحث فلسفية وأخرى منطقية ونقـدية، لتصب جميعهـا في بحر علم اللغـة العام ولكن تلك الجهـود المستمرة اضطرتهم للبحث عن طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة، أو بين البنى العميقة، والبنى السطحية للغة، فوجدوا أن طبيعة هذه العلاقة ما زالت سراً غامضاً وحلقة مفقودة من حلقات علم اللغة العام.

من هنا بل من هذه الأبحاث مجتمعة كانت بداية التفكير عندي في تناول موضوع الرسالة، وهو تطور مفهوم النظم عند القدامى العرب وأثر ذلك على الدراسات اللغوية المعاصرة، وإنني على يقين مما تضمنته جهود

السلف من درر وجواهر وقيم علمية وأفكار سباقة لا حدث الأفكار الغربية المعاصرة، من دراسات ونظريات لغوية عديدة.

فقد ربط العرب الدراسات الصوتية مع المعاني بالفكر الديني وبالدرس اللغوي والفلسفي فقد أعطوا أهمية كبرى لمعاني النحو بمفهومها الواسع الشامل لأبوابه المختلفة ثم لأبواب الصرف المتعددة مع الموقف والمناسبة، ثم مع الذوق والإحساس جملة، أضف إلى ذلك كل المقومات والعناصر الجامعة لصنع عبارة في لغتنا العربية أو نص شعري وآخر نثري.

وليس غريباً على أحد أن العرب كانوا سباقين بأبحاثهم اللغوية لمعظم ما جاء به علماء اللغة في العصر الحديث، حينما وصلت جهود أولئك القدامى اللغوية والنقدية والبلاغية إلى مستوى النظرية، كما هو الحال عند قدامة ابن جعفر بجهوده النقدية في كتابه (نقد الشعر) ثم عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم في كتابه (دلائل الإعجاز).

هذا ولم أكن راضياً لبحثي اللغوي بأن يكون دراسة مقارنة لما هو عند الغرب من جهود حديثة وبين ما هو قديم في تراثنا الفكري بل كنت أسعى إلى دراسة لغوية أكثر شمولاً وأعظم سعة عما هو موجود في علم اللغة اليوم داخل الوطن العربي وخارجه، دراسة تسعى إلى ما هو مطلوب البحث فيه اليوم في علم اللغة وما يفرض نفسه على كل باحث عربي وغربي، ألا وهو الوصول إلى صحة طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة.

والتي قالوا عنها إنها سر غامض وحلقة ضائعة من حلقات علم اللغة العام.

فقد حشدت لهذا البحث جُلَّ الجهود الفكرية القادرة على وضع أطروحة هذه الرسالة في المسار العلمي المطلوب لكي أساهم ولو بنصيب

ضئيل في صنع منهج لغوي عربي يصحح مسيرة الاغتراب في علم اللغة عند العـــرب.

ومن الطبيعي أن يعمل مثل هذا النوع من الدراسات لمستقبل علم لغوي عربي خالص من كل ما هو غريب عنه، ومن أجل ذلك جمعت العديد من المصادر العربية والغربية،القديمة منها والحديثة، بل معظم ما قيل عن هذا الموضوع في الساحة العربية من كتب ومجلات، مروراً بالكويت وبغداد ودمشق وعمـان وبيـروت والقاهرة وتونس والجزائر كل ذلك من أجل أن يكون الطريق واضح المعالـم.

وجمعت له بعض ما قيل في كتب الفلسفة والمنطق، وكل ما يخدم البحث من قريب أو بعيد، وهيأت له من الأسباب ما يكفيه المؤونة والزاد، من الجهد والوقت لعلي أصنع شيئاً جديداً.

هذا وقد وضعت للبحث فرضية: هي طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر بسر غامض، ثم طلبت صحة طبيعة تلك العلاقة بين اللغة والفكر، بأنها حقيقة صميمة.

فقد أشـــار إلى طبيعة هذه العلاقة إنها سر غامض كل من الأساتذة الأفاضل الدكتور نايف خرما في كتابه (أضواء على الـدراسات اللغـوية) والدكتور ريمون طحان في الألسنيات، والدكتور كمال يوسف الحاج في الفلسفة اللغويـة، والدكتـور مصطفى منـدور في كتابـه اللغة بين العقـل والمغامرة، والدكتور حنفي بن عيسى في كتابه محاضرات في علم النفس اللغوي.

وقد أخذوا ذلـك عن المفكرين اللغـويين في الغرب منـذ أيام(دي سـوسير، وبلوم فيلد وسـابير وبيتـرانـدراسـل) وعن أصحـاب المـدرسـة التحويلية، أمثال بنيامين لي روف وزعيمهم نوم تشومسكي.

وأثبتُ في هذه الأبواب والفصول صحة وجود طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة وبرهنت على صحة وجودها ومقوماتها.

من حيث المولد والزمان والمكان، والضعف والقوة والظهور وهي أسمى ما تكون في أسلوب القرآن المعجز في لغتنا العربية، وقد مر البحث بجهود القدامى العرب، لغوية ونحوية وبلاغية قديمها وحديثها إلى أن وصل إلى أحدث الأبحاث اللغوية عند العرب.

وتجتمع تلك الجهود منتظمة لتوضيح طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة من أنها مولود طبيعي من حدث لغوي من أبوين اثنين :أحدهما المعنى والآخر اللفظ وهي الفكرة التي شغلت فكر النقاد والفلاسفة وأهل اللغة على مر العصور وقالوا عنها الشيء الكثير منذ أيام«أرسطو وأفلاطون».

ومن هذه الأسباب مجتمعة، مع رغبتي الأكيدة في تناول مثل هذا النوع من الدراسة والبحث، ورغبة أساتذتي الأكارم، غفر الله لهم وأخص بالذكر الأستاذ الفاضل الدكتور المشرف محمد رشاد الحمزاوي أستاذ اللسانيات في جامعة تونس، مدير القسم الثقافي الدولي في الحمامات وأستاذي الدكتور محمد وراد أستاذ مادة اللسانيات المشرف على الدراسات العليا في جامعة وهران، والأستاذ الفاضل الدكتور أحمد مطلوب مدرس مادة علم اللغة العام في جامعة بغداد، والأستاذ الدكتور شكري الخلوي مدرس مادة فقه اللغة في جامعة الجزائر والإسكندرية، لهم مني التقدير والمحبة والوفاء ما دمت حياً.

سرت في البحث متعثراً حيناً ومتقدماً تارة أخرى إلى أن لاح لي ضياء الأمل في الخروج بهذا البحث إلى المستوى المقدر له بين الجهود العلمية الأخرى المعاصرة له.

هذا وكثيرة هي الصعوبات التي واجهت البحث واذكر منها كيفية

الوصول بالبحث إلى نتائج علمية قيِّمة لم يصل إليها جديد لكي تكون النتائج مرضية لكل باحث عن حقيقة لغوية جديدة في التراث اللغوي العربي، وقد كان من الصعوبة بمكان الجمع بين ما هو قديم بالتراث اللغوي وتقديمه على أحدث ما هو جديد معاصر عند الغرب وبطريقة مقنعة بعيدة عن التمجيد والتشكيك بالماضي اللغوي الثري ثم الحاضر المتطور بالإضافة إلى رؤية جديدة بحثت بها عن قيم علمية تدفع بالبحث إلى النتائج المطلوبة، وقد كان لي ما طلبت من جمع ما بين هو قديم عند العرب وبين ما هو معاصر وفي طليعة هذه الأفكار اهتمام العرب بعلم المعاني بمفهومه الواسع واهتمام المعاصرين بعلم المعاني وإخضاعه للمنهج العلمي وبالخصوص اهتمام الجانبين بمعاني النحو وجعلها لُبًّا للدراسات اللغوية المعاصرة، وهي القدر العلمي المشترك بين الدراسات اللغوية القديمة مع الدراسات اللغوية المعاصرة وكان من الطبيعي أن أقف عند كل دراسة ناضجة في تراثنا الفكري كمنطلق علمي نحو واقع علمي أفضل، مثل دراسات الجاحظ وابن قتيبة ودراسات قدامة بن جعفر ونظرية حد الشعر، ونظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني وكان من الطبيعي أيضاً أن أشير إلى أفضل الجهود اللغوية عند اللغويين الغربيين أمثال دي سوسير صاحب الثورة اللغوية وبلوفيليد، وسابير وتشومسكي وبيترانداراسل وغيرهم من أصحاب الدراسات اللغوية المعاصـــرة.

وقضت طبيعة البحث أن أتناول الموضوع تناولاً موضوعياً وتاريخياً متطوراً وفق الجهود اللغوية والفكرية المبذولة عبر العصور في تاريخ أمتنا المجيد.

هذا وقد تضمن البحث أربعة أبواب متتالية: انطلاقاً من جهود السلف، ومروراً بكل ما هو جديد وحديث معاصر يعمل لمستقبل الحركة اللغوية في الوطن العربي.

خصصت الباب الأول بفصوله الأربعة للجهود اللغوية عند القدامى العرب بدءاً من ميلاد فكرة النظم ومروراً بجهود السلف التي تصور مراحل تطور فكرة النظم من الفكرة إلى النظرية تلك الجهود التي هيأت الظروف المواتية لنضج الفكرة وبعثت نظرية النظم على يدي عبد القاهر الجرجاني في الربع الثالث من القرن الخامس الهجري.

وضمنت الباب الثاني والثالث أبرز الجهود اللغوية المعاصرة عند الغربيين، أخص بالذكر أصحاب المدرسة التحويلية الإبداعية وبمحاولتهم الرائدة في إخضاع علم المعاني للمنهج العلمي من أجل الوصول بالدرس اللغوي إلى مستوى النظرية اللغوية القادرة على الإبداع والخلق لملايين من الجمل التي لم يقلها أحد من قبل.

ثم رأيت أنه من الضرورة بمكان تناول قضية هامة ما زالت تفرض نفسها على أصحاب علم اللغة العام في الماضي والحاضر وهي سر طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة أو بين الصوت والمنطق.

واستطعت في نهاية المطاف إثبات أن طبيعة العلاقة بين الصوت والمنطق من أنها حقيقة ولم تعد سراً غامضاً في علم اللغة العام ذلك من أسمى ما حققته في ثنايا البحث وأن هذه العلاقة صميمة ذات مكان وزمان وقوة وضعف ونمو وسمو، وذات أثر فعال في نظم العبارة عند الإنسان وفي صنع العبارة القادرة على التصوير والإبداع، وأن هذه العلاقة هادفة مبصرة متغلغلة في ثنايا حقائق الإنسان بل هي سر من أسرار الوجود.

ذلك ما أعده جديداً وحدثاً علمياً أضيفه إلى الحقائق اللغوية المعروفة في علم اللغة العام، ثم وجهت عناية خاصة لإخضاع علم المعاني لمنهاج رياضي حديث باحثاً عن البنية العميقة للغة، فأصبح ممكناً إخضاع المعاني لقانون التركيب الداخلي بخواصه التجميعية، والنظرية والتبديلية، مع العنصر

الإضادي المنفرد على اعتبار المعاني مجموعات معرفة.

ثم جعلت ثمرة هذا الاتجاه اللغوي المعاصر، إخضاع النصوص لدراسة لغوية تطبيقية حديثة، وفقاً لما مر في البحث من جهود، فاحتضن الباب الرابع بفصوله الثلاثة المنهاج الرياضي التطبيقي على علم المعاني لتجسيم طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة.

* * *

الفصـل الأول:

هذا ويبدأ الفصل الأول من الباب الأول بنصيب من جهود ابن المقفع والتي تشير إلى بداية مفهوم فكرة النظم، ثم أضف إليها شيئاً من دراسات الجاحظ اللغوية وبعضاً من جهود ابن قتيبة اللغوية والتي تدل على نمو الفكرة وتطورها خلال ردح طويل من الزمن لتغطي قرنين من حياة أمتنا، فشملت القرن الثالث الهجري.

ابتدأت بدور النشأة والفتوة دعمهـا البلغاء والنحـاة والنقاد والشعـراء والكتاب بجهودهم الشابة جهود متواصلة استـطاعت تثبيت أركان صيـاغة العبارة الرتيبة عند العرب بما فيها من رصانة ودقة ونصاعة ووضوح مع قدرة في اختيار الألفاظ ووضعها في مواضعها اللائقة بها أثناء صياغـة العبارة الرصينة ، وتوجت، هذه المرحلة بجهود ابن قتيبة اللغوية ورأيه بمفهوم النظم والتي تناولت أسلوب القرآن الكريم في كتابه (مشكل القرآن) وسمو تأليفه عن سائر كلام العرب ونظومهم الشعرية والنثرية، ثم أضفت إلى ذلك بعضاً من جهوده النقدية والتي صنف بها الشعر إلى أربعة مجاميع تتعلق جميعها بحسن اللفظ وجودة المعاني، من أن الشعر أربعة أنواع: أرقاها صنفاً ما جاد معناه وحسن لفظه، نظرية ضمنها كتابه (الشعراء أمراء).

الفصـل الثانـي:

وتزدهر الجهود اللغوية والنقدية والبلاغية والنحوية والفقهية في القرن الرابع الهجري، لتصب جميعها في بحر علم اللغة، وكان هذا الإزدهار

نتيجة حتمية لإزدهار الحياة العامة وتقدم الفكر وبعد أن قطع العرب خاصة والمسلمون كافة شوطاً بعيداً في مضمار الحياة الإنسانية.

وتفخر هذه الفترة من عمر أمتنا منذ بدايتها بجهود قدامة ابن جعفر اللغوية والنقدية المتوفي سنة ٣٣٧ هـ جهود ضمنها (نقد الشعر) وكتابه (نقد النثر).

ونظرية قدامة في حد الشعر:هي نظرية نقدية لغوية إبداعية قادرة على إبداع الجملة الشعرية والبيت الشعري والقطعة الشعرية في شتى الأغراض، نظرية قادرة على إنتاج العبارات التي لم يقلها أحد من قبل ولعدد مالا نهاية إلى حصره فتتساوى هذه الجهود مع أفضل الجهود اللغوية عند زعيمهم المدرسة التحويلية التعدادية في الغرب ألا وهو نوم تشومسكي. ثم أن جهود قدامة بن جعفر لم تكن وحيدة في هذا العصر بل وقفت إلى جانبها جهود عديدة وكثيرة بل وعظيمة مثل جهود الحسن ابن بشر الأمدي والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني وأبي فرج الأصفهاني وأعمال الرماني والخطابي في دراسة الإعجاز القرآني وجهود أبي هلال العسكري في اللغة شعراً ونثراً وابن جني اللغوي الفذ المتوفي سنة ٣٩٢ هـ.

استطاعت جهود السلف في هذه المرحلة التاريخية إخضاع الجملة العربية أو البنية الخارجية لمقاييس علمية مؤتنسة بروح العلم ومحافظة على الروح العربية، إن دل هذا على شيء فإنما يدل على تقدم التفكير ورقيه مع رقة الذوق ونمو الإحساس ثم القدرة على الإبداع في صنع العبارة الرصينة.

كانت هذه الجهود تدعم بعضها بعضاً لتدفع بعجلة التطور لتطوير فكرة النظم عند العرب وتوضيحها في مباحث علمية ومناهج دقيقة تخدم الإنسانية جمعاء.

الفصل الثالث:

يهل القرن الخامس الهجري بزخم من الجهود اللغوية والفكرية الراقية منها جهود المفكرين بالإعجاز القرآني مع جهود النقاد والفصحاء والبلغاء والأدباء، وتبرز في مطلع هذه المرحلة الفكرية جهود أبي بكر الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن وتفسيره الإعجاز من حيث النظم، وتليه جهود القاضي عبد الجبار الأسدي في كتابه المغني، ويفسر فكرة النظم والإعجاز من جهة الفصاحة ومعاني النحو، ثم جهود ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة وتقيمه للشعر حسب المعنى ودقة الألفاظ (اللفظ جسم روحه المعنى) ثم جهود ابن سِنان الخفاجي صاحب أسرار الفصاحة، ويُختم هذه المرحلة الفكرية جهود عبد القاهر الجرْجاني المتنوعة في النحو واللغة والنقد والفقه وبنظرية النظم التي ضمنها كتاب دلائل الإعجاز.

وإذا بفكرة النظم التي بدأت بمفهوم عند عبد الله بن المقفع تصبح نظرية شاملة لنظم تراكيب الجملة في لغتنا العربية.

إن أبرز ما يميز هذه الجهود من حياة الفكر الإسلامي الدقة والوضوح المتناهين في تناول قضايا النظم، مع ضبط المعايير النقدية واللغوية لصياغة العبارة النثرية والشعرية، حيث أن الكلام أولاً وأخيراً مبني على الفائدة في حقيقته ومجازه وأن عدل النظم عن هذه الطريقة فقد خرج عن الأصول العربية في صنع العبارة.

تمثل هذه المرحلة اللغوية في حياة فكرنا العربي والإسلامي مرحلة النضوج والإبداع فإذا اللغة تعيش عصرها الذهبي وتبلور كل علم وتصيغ كل شيء، من فلسفة، ومنطق ودين وتشريع وحساب وجبر وفلك وأدب ونحو وبلاغة وفنون وهندسة وعمران الخ.

حفلت هذه المرحلة بنظرية النظم التي أبدعها عبد القاهر الجرجاني

والتي كانت نتيجة طبيعية لتقدم الجهود، فالمعنى أصل في كل تعبير لغوي «واللغة خادمة للمعاني ومعاني النحو بمفهومها الواسع معيار لتلك التعابير».

الفصل الرابع:

وقد خصصت هذا الفصل لإبرز الجهود اللغوية التي أبدعها عبد القاهر الجرجاني داخل نظرية النظم لتوضيح المنهج اللغوي الذي اعتمد عليه فكره، وكيف استطاع إخضاع المعاني لمنهج لغوي ونقدي حديث فاق به عصره وتقدمه على زمانه، وبهذه الجهود الراقية يجعل علم المعاني أساساً للدراسات اللغوية والبلاغية الرائدة، إن هذه النظرية بكل ما تضمنه من تقديم وتأخير وفصل ووصل وذكر وحذف وتعريف وتنكير وقصر ومجاز وايجاز، ونفي وإثبات، قد شملت نظام التعبير بكل ما فيه من جوانب وبكل ما فيه من جزئيات وأن عبد القاهر الجرجاني هو من أنصار الصياغة والنظم.

هذا وقد جعلت لنظرية عبد القاهر قيمة علمية، وأثراً على الدراسات اللغوية المعاصرة فكان لها عندي قيمة علمية لمعاني النحو، وأخرى لحسن الدلالة،وثالثة للتصوير الفني،ورابعة للفصاحة وخامسة عبد القاهر من أنصار الصياغة.

لا يفصل عبد القاهر بين اللفظ والمعنى بل يؤمن بوجود علاقة طبيعية بين الفكر واللغة، وبمستويات عديدة فهي علاقة طبيعية هادفة لإبراز الدلالة على حقيقتها.

وبذلك يتقدم العرب بتفكيرهم اللغوي على أحدث الجهود اللغوية المعاصرة عند الغرب.

وقضت طبيعة الموضوع ذاته البحث في مرحلة لغوية أخرى هي أين يقف علم اللغة اليوم عند اللغويين الغربيين، فأفرزت له بابين هما: الباب الثاني والباب الثالث من هذا البحث.

الباب الثاني والثالث:

ضمنت هذين البابين من أطروحة هذا البحث جهود المفكرين في المجال اللغوي عامة، وجعلت كل باب ثلاثة فصول متتالية من الجهد اللغوي.

خصصت الحديث في هذين البابين لتوضيح صحة طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر وأثبتُّ أنها حقيقة واقعة بين الفكر واللغة، وهي علاقة طبيعية صميمة في فكرنا العربي.

ذات زمان ومكان وحياة وقوة وضعف، وهي علاقة هادفة مبصرة متغلغلة في كل شيء صائغة للدلالة، وأوضح ما تكون فيه من صفات وبروز وقوة نجدها في أسلوب القرآن الكريم وبذلك لم تعد سراً غامضاً ولا هي حلقة ضائعة من حلقات علم اللغة العام.

الفصل الأول: من الباب الثاني:

بدأت الحديث في هذا الفصل من الباب الثاني عن مشكلة اللغة والفكر في تفكير رجال الفكر قاطبة، ومن أن هذه المشكلة معظلة عند اللغويين خاصة لا يجوز عزلها عن معاظل الإنسان الأخرى... فاللغة تقدم للفكر تصاريف جاهزة وتساعده على وصف الأشياء بخصائصها وتساعده على اكتساب التجارب مع وصف الحقائق.

فالدماغ عضو التفكير والعمل والتعبير عن الفكر، والعلاقة بين الفكر والدماغ معقدة، فاللغة جوهر التفكير تبلوره وبذلك لا بد من أن يكون للغة علاقة وطيدة بعمل الفكر وينمو التفكير المنطقي عند الإنسان، فتضمن له الإتصال بالواقع دون انقطاع عن طريق الحواس وبواسطة اللغة التي قال عنها النقاد والأدباء والشعراء من أنها أشبه ما تكون بالسلاسل الفضية والذهبية فهي سلاسل كلامية مترابطة تعيش في مجاميع.

إن في دراسة العلماء لهذه السلاسل الكلامية كشف عن عادات لفظية متأصلة في الفكر والذهن، وهذا عائد في الحقيقة لوجود علاقة طبيعية بين الفكر واللغة.

الفصل الثاني:

يبحث هذا الفصل في مضامين فكرية عديدة تخص غموض العلاقة في فكر المحدثين والتي هي سر غامض في فكرهم فإن غموضها يجعل من العسير الكشف عن مقوماتها الصانعة لها، لذلك استمرت تلك العلاقة تفرض نفسها على كثير من المفكرين اللغويين مع الفلاسفة وأهل المنطق كذلك.

فأخذوا يتساءلون عن طبيعتها وطبيعة التفكير عند الإنسان ثم علاقة الفكر باللغة، وهل الفروق الظاهرية للغات هي فروق أساسية أم هي فروق نسبية، ثم وأين تكمن هذه الخلافات؟.

إن اللغة وسيلة التعبير عن المشاهد والأحاسيس والأفكار ماله وجود داخل الذهن وعما ليس له وجود، وهنا وقفت عند أولوية القضايا الهامة مثل الوقوف عند المعاني ثم أسبقية العاطفة للغة والتفكير معاً، فاللغة والفكر كتلة واحدة، لا وجود للفكر بدون لغة ولا لغة بدون فكر فالمعنى يستلزم اللفظ، واللفظ يستلزم المعنى، ومن الأهمية بمكان الكشف عن هذا التلازم والترابط بين الفكر واللغة.

والذي رآه علماء اللغة والفكر عند العرب هو: أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثاني منها بأول، وأن يضع المرء الجملة في النفس وضعاً واحداً، وأن يكون حال المتكلم بها، حال المستمع والقارىء لها على نفس المقدار من الدلالة والفهم(وليس النظم إلا

أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله).

وهو موقف صريح لسلفنا الصالح من بقية التراكيب اللغوية السطحية منها والعميقة.

الفصل الثالث:

خصصت هذا الفصل لتفاوت نظرة العلماء وتقاربهم حول طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة وأوضحت أسباب بعدهم عنها، وفي مثل هذه المرحلة من التفكير وجدت أن كثيراً من الآراء قد تفاوتت حول تلك الطبيعة أثناء بحثهم عن أسرارها فأسرار الإرتباط بين اللغة والفكر أو بين اللفظ والمعنى أو بين الصوت والمنطق مازال سراً غامضاً في تفكيرهم.

رأى بعض المفكرين الغربيين بعلم اللفظ والمعنى أمثال«سابير وبينامين لي رووف»بأن العلم بمواقع الألفاظ لا يكشف عن حقيقة الوجدان، حيث أن اللغة برأيهم وسيلة للتعبير والتبليغ وليست غاية بذاتها، وأن اللفظ أحياناً لا يعبر تعبيراً كاملاً عن المقاصد، بل رأى البعض الآخر أن اللغة في حد ذاتها غاية ووسيلة، يسعى إليها المرء وأن هذه النظرة العلمية تفيدنا بالكشف عن حقيقة الوجدان وتبرز كل الفائدة المرجوة للغة، ذلك ما قصد إليه العالم اللغوي الإنجليزي«جون لوك»،وهو من علماء القرن التاسع عشر والمعاصر لدى دي سوسير.

إذ لاحظ وجود هذا الحبك اللغوي المتين بين التعبير والتفكير وحجته في ذلك أن الكلمة تدل على معنى، وقد تدل على فكرة.

هذا وكان لبعض المفكرين اللغويين العرب رأيهم في مثل هذا الموضوع أمثال الدكتور ريمون طحان، والدكتور نايف خرما والدكتور عبد المعطي محمد، عندما اهتموا بدراسة العلاقة القائمة بين اللغة والغاية واللغة

والمنطق واللغة والفن، واللغة وما فوق الشعور، رأوا أن اللغة تتألف من أصوات تنتظم مجتمعة في وحدات صوتية تنتظم وفق نسق معين ضمن نظام نحوي وصرفي ومعجمي يصبغ الأسلوب بصفة معينة.

وكان لأحد علماء اللغة عند الغرب أمثال(لابتييز أحد فلاسفة اللاهوت) رأيه الخاص بتلك القضية ، أراد أن يجعل اللغة علماً وكتاباً كعلم الفيزياء والرياضيات، وعلينا أن نتعلمه ونقرأه، وأن اللغات بمثابة الكتاب علينا أن نحسن قراءته، ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى رأي أهل المنطق فلأهل المنطق رأيهم في هذا المجال أثناء تناولهم لأقسام الإدراك للأشياء المقررة، وهي وسيلتهم لإدراك التصورات وهي حصول صورة لكل شيء نراه ونحسه ونفكر فيه داخل الذهن.

ومن هذه الجهود يلاحظ المطلع تفاوت نظرة العلماء وتنوع تفكيرهم في تقديرهم لسر العلاقة بين الفكر واللغة فكان لكل من هؤلاء وغيرهم تقديراتهم.

فلأهل المنطق قضية وتقدير، ولأهل اللغة تفحصات ولأهل الفلسفة نظرات وفرضيات وحسابات، ولأهل الأدب موضوع. ولكل من هؤلاء نصيبه في خدمة علم اللغة العام لتوضيح طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر.

الباب الثالث:

الفصل الأول:

تضمن هذا الباب الكشف عن طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة ابتدأت الحديث في هذا الفصل بإشارات المحدثين اللغويين واهتماماتهم بقضية الصلة الطبيعية بين اللغة والفكر والتي أسموها علاقة ذات قطبين أو ذات مستويات، وذات زمان ومكان وأنها علاقة قائمة بين التعبير والمنطق، وأنها

علاقة قائمة بين اللغة والفكر وأنها لم تتضح بعد أو حلقة ضائعة من حلقات علم اللغة، كما ذكرت ذلك سابقاً والبحث عنها مستمر وقديم منذ أيام أفلاطون وأرسطو،وحديث منذ أيام دي سوسير وحتى يومنا الحاضر أمثال أصحاب مدرسة العالم اللغوي تشومسكي وأنصاره وطلابه.

من الأمور الطبيعية في مجالات النظم ونظم الكلم والعبارات المنطقية أن تزداد الألفاظ دقة والمعاني عمقاً ووضحاً كلما ازدادت دائرة معـارف الإنسان.

وبذلك تزداد المعاني تعقيداً بتوسع العلوم وتقدم الإنسـان في شتى مجالات الحياة الفكرية وبذلك يضطر المفكرون لإستعمال الفاظ جديدة.

هذا ومن الأهمية بمكان أن أتناول قضية توضيـح ما يحصـل داخل الدماغ من تفاعل فكري أثناء إلتقاء اللفظ بالمعاني وتفاعلهما بل ويعد ميلاد الحدث اللغوي داخل التفكير الصامت وفي ساحة الإحساس بـالمعاني، وذلك عندما يمر التفكير اللغوي من البنى العميقة نحو البنى السـطحية وقضت طبيعة البحث أيضاً تقديم مجسم صوري كشاهد لما ذهبت إليه.

فأوضحت أن التنظيم اللغوي يتألف من عناصر عديدة وأجزاء ووحدات ومستويات معقدة متداخلة، يقوم كل عنصر منها بوظيفة حيوية تسهم جميعها في خلق حياة داخل جملة وداخل نص من النصوص، وأوضحت أيضاً أن علاقة الكلمة بالشيء علاقة قوية متفاوتة ومتباينة من حين لآخر حسب ترتيب المعاني في النفس، وأن غاية الكلمة المستعملة التعبير والترويح عن النفس وإرضاء كي تقع في مواقعها، وتفصح عما تتضمنه وتعنيه من مفاهيم وأكدت على أن الإنسان هو الذي يعطي المعاني للمفردات.

وهكذا يشترك المفكرون اللغويون جميعاً في كثير من هذه القضـايا أمثال العالم اللغوي دي سوسير وسابير وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم

كثيرون من أهل التراث العربي من أن المعنى هو أساس في كل تعبير لغوي.

الفصل الثاني:

شمل هذا الفصل شرحاً وأيضاحاً لغوياً لقضايا الترابط الواقعة بين الألفاظ والمعاني، ثم كيف أن النحو الحديث قد اهتم بالكلمات التي تدخل في تراكيب العبارة، وكيف أن علماء اللغة قد اهتموا بوظائف الكلمة المفردة وفقاً لحركات النحو وأواخر الكلمات وحسب موقعها في الجملة، غير أن اهتمامهم المتزايد بمعاني النحو ومعناه الواسع والشامل لم يمكنهم بعد من الوصول إلى المنهج العلمي المتكامل، وبهذا الإهتمام المتزايد يقربهم من اهتمام اللغويين القدامى العرب. فالنظم قضية هامة وحاسمة في صياغة العبارة المنطقية عند العرب، فما النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو.

«فالنظم ليس شيئاً سوى توخي معاني النحو بين الكلم، وإنك ترتب المعاني في نفسك ثم تحذوا على ترتيبها الألفاظ في نطقك وأنا لو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعاني لم يتصور أن يجب فيها نظم وترتيب».

فاللغة في هذا المقام تستوعب الفكر وتتحكم فيه إلى حد بعيد وتؤثر فيه ويؤثر فيها، ولا خلاف في دور الكلمة وما تؤديه من وظائف مادية ومعنوية في شتى مجالات الحياة، ولكن الخلاف قائم حول طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة، تلك العلاقة التي استحقت الجهد من المفكرين طيلة العصور المواضي ولهذه القضايا عند العرب تفسيرات وشروح ونظرة عمق بمنتهى الدقة ولهم نظرية ألا وهي نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني. وخصصت لهذه النظرية قيمة علمية ضمنتها الباب الأول من هذا البحث. وهنا تشترك جهود وآراء مختلفة ومتنوعة من شتى علوم الفكر متعاونة جميعها

على توضيح بنيانية التفكير،والتي ستفيدنا كثيراً في معرفة تحركات الفكر وعمل الذهن أثناء ذلك، ثم كيف تتم العمليات المعقدة في صنع اللغة؟

من أجل هذا كله ذهبت باحثاً عن هذه العلاقة في فكر المحدثين والقدامى كي أصل إلى حقيقة وجودها، فوجدت الجاحظ قد اعتنى بالمعاني وجعلها مقادير وحالات ومقامات، وكذلك الألفاظ على تلك الحالات والمقامات وعلى المرء أن يعرف أقدار المعانى وأقدار الألفاظ لصنع العبارات، ثم رأيت جهود الخطابي، وقد اهتمت بالمعاني وجعلتها مقادير محمولة داخل الألفاظ، فهي نتائج العقول وولائد الأفهام وبنات الأفكار، وأما رسوم النظم أي الكلم المنظومة فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني.

هذا وتأخذ هذه المفاهيم طوراً جديداً ومفاهيم أخرى أكثر دقة وأوسع شمولاً مع مرور الزمن.

عندما أخذ العرب يهتمون بمعاني النحو جعلوها أساساً للدراسات البلاغية والنقدية واللغوية فاستمرت في تطورها إلى أن وصلت حد النضوج والإبداع في القرن الخامس الهجري.

«هذا كلام وجيز يطلع فيه الناظر على أصول النحو جملة، وكل ما به يكون النظم دفعة، وينظر منه المرء في مرآة تريه الأشياء المتباعدة والأمكنة قد التقت».

«هذا وأنت إذا أردت الحق لا تطلب اللفظ بحال، وإنما تطلب المعنى، فإذا ظفرت به فاللفظ أمامك وإزاء ناظرك».

الفصل الثالث:

خصصت هذا الفصل لتطبيقات لغوية عملية من جهود نوم تشومسكي

وأيضاً لأنصاره عرب وغير عرب، ثم ضمنته نصيباً من جهود السلف ورأيهم بقضية المجاميع، وتحليل المعاني ثم نظام الجملة القائم عند العرب جعلت منها موقفاً للمقارنة وأشرت في هذا الفصل إلى أن الثورة اللغوية قد بدأت عند الغربيين منذ أيام العالم اللغوي دي سوسير في القرن التاسع عشر، إلى أن بلغت ذروتها عند أصحاب المدرسة التحليلية في العصر الحديث بقيادة تشومسكي.

غير أن الثورة اللغوية عند العرب قد بدأت حينما انصبت جهود المفكرين العرب حول دراسة أسلوب القرآن الكريم وأصبحت النظرة العلمية تتجه نحو نظم القرآن وأسلوبه المعجز.

وفي العصر الحديث يلتقي القديم والحديث عند نقطة هامة ألا وهي أهمية المعاني بالنسبة للدراسات اللغوية المعاصرة، وأهمية معاني النحو على وجه الخصوص كأساس للدراسات اللغوية، وكل دراسة لغوية تخلت عن المعاني ومعاني النحو بالذات فهي دراسات لا يمكن لها أن تنتصر.

وقد أكد علماء الغرب اليوم في مجال الدراسات اللغوية على القواعد التحليلية والصرفية والنحوية وجعلها مستويات تساعد اللغوي على معرفة التراكيب النظمية للعبارات، ومعرفة البنى الداخلية والبنى العميقة وكيفية تحرك الفكر بين هذه المستويات جميعها.

هذا وتستمر الجهود عند الغربيين للوصول بالجهود اللغوية الى مستوى النظرية الناجحة، والطريق أمامهم طويل إذا لم يستعينوا بما عند العرب من فكر لغوي يخدم الحضـــارة الإنسانية جمعاء.

ومن هنا رأيت الوقوف ملياً عند اكتمال الدراسات اللغوية عند القدامى العرب، وكذلك عند أبرز الدراسات اللغوية المعاصرة في الغرب لمعرفة أين نحن اليوم من علم اللغة العام أملاً بهذه الجهود اللغوية المتواضعة أن تكون

عاملاً مساعداً ودافعاً لبعث حركة لغوية جديدة فيها روح التراث وفيها الرؤية الجديدة لما هو معاصر للعرب والغرب، وآمل بأن يكون لهذه الجهود قيمة علمية تدفع بالجهود اللغوية المستقبلية لإيجاد علم لغة خاص بأمتنا العربية فيه روح التراث العربي والإسلامي يظلها الإسلام بظله وترفع العرب راية جديدة في شتى بقاع الأرض.

البـاب الرابـع:

قضت طبيعة البحث الخروج من هذه الدراسة المتنوعة بنتائج تخدم علم اللغة العام، حيث أن الجهود اللغوية مستمرة في تطورها من المفهوم إلى النظرية ومن النظريات إلى التطبيق.

وفي العصر الحديث حاول علماء اللغة تسخير شتى العلوم لتخضيع علم المعاني للقياس والتجربة، وانتهجوا منهجاً علمياً من أجل الوصول بالأبحاث المعاصرة إلى مستوى النظرية القادرة على الإبداع، إبداع الجملة والفقرة ثم النص.

ومن باب المحاولة وعلى طريق الدرس، وجدت أن المعاني يمكن اخضاعها لبعض القوانين الرياضية الحديث وخاصة قانون التركيب الداخلي الخاص بالمجموعات المعرفة.

حيث أن المعاني قد تكون على شكل مجموعات معرفة على شكل كتلة ووحدات وزمر وعناصر، ثم أن هذه المعاني تربطها بالبنية السطحية ارتباطات عضوية، وتجمعها علاقات عديدة ومتنوعة كعلاقة الترابط وعلاقة التوافق وعلاقة النظير، وعلاقة التكامل، وعلاقة التعدي وعلاقة التعاكس لهذا خصصت الباب الرابع للدراسة التطبيقية القائمة على المنهج الرياضي، وذلك من باب إمكانية خضوع البحث للقياس الكمي والإحصائي المتماشي مع

المنهج الوصفي والعلمي، إلى جانب الإستقراء والمقارنة والتقييم، لإخضاع علم اللغة كعلم من العلوم الإنسانية للمنهج الرياضي.
وثمرة هذه الدراسة في معاني الجملة كوحدة ومجموعة معرفة وكتلة متميزة عن الجملة التي تليها، ثم الجمل داخل فقرة ثم إلى النص كوحدة موضوعية تجري عليها العمليات الإحصائية إحصاء الكلمات، وفرز للأسماء عن الأفعال والحروف بأنواعها ثم تصنيف كل نوع حسب الزمن والنوع والمناسبة ودور العقل والفعل كصانع للحدث ثم تعداد المعاني ونسبتها إلى البنية السطحية على أساس أن المعاني هي الصانع للبنى السطحية وبعد ذلك تتم عملية إخضاع المعاني للقانون الرياضي المعروف على أساس أنها مجموعات معرفة وأن هذا القانون بخواصه التجميعية والتبديلية والنظرية يملك عنصراً حيادياً واحداً.

وبعد ذلك بحثت عن نوع العلاقات في كل مجموعة، ثم العلاقات بين مجموعتين متميزتين، ثم العلاقات المتعدية لتشمل الفقرة والنص، وهذا بطبيعة الحال يوضح طبيعة العلاقة القائمة بين الفكر واللغة وأنها لم تعد سراً غامضاً.

ومن باب الإفادة حولنا المعاني إلى صور كركاتورية يمكن أن يقرأها الصغير والكبير، وأن نصنع منها لعباً للأطفال نعلمهم قراءة الصور كأفلام الصور المتحركة أو تداريب للدارسين على مائدة البحث اللغوي، وذلك عن طريق تحريك صور المعاني بتقديمها أو تأخيرها، أو عن طريقة إضافات صور لمعاني متقاربة، وبذلك نستطيع أن ننتج جملاً لم يقلها أحد من قبل، وهو الهدف المنشود الذي لم يعمل إليه المحدثون في الغرب.

الفصل الأول:

تضمن هذا الفصل من الباب الرابع، الحديث عن القوانين الرياضية

المعاصرة، ونخص بالذكر قانون التركيب الداخلي الخاصة بالمجموعات لمعرفة بمقوماته وخصائصه التجميعية والتبديلية والنظيرية وعنصره الاحادي، وينص هذا القانون على أن تعريف التركيب الداخلي أو العملية على المجموعة المعرفة «هو تثبيت قانون أو قاعدة تسمح بأن نلحق بعنصرين ما عن المجموعة ف متمايزين أو منطبقين ومأخوذين ضمن ترتيب معين، عنصراً ثالثاً من المجموعة المعرفة ف يدعى مركباً من العنصرين الأولين بواسطة هذا القانون».

يمكن اعتبار المجموعة المعرفة في قانون التركيب الداخلي، هي مجموعة من المعاني المعرفة بالحرف ف، وقد تكون هذه المجموعة عدة عناصر مشتركة ومرتبة ترتيباً معيناً حسب ترتيب المعاني في النفس، كأن تمثل هذه المجموعة من المعاني صوراً صوتية في جملة أو صورة صوتية في فقرة، أو أن تكون هذه المعاني مرتبة ترتيباً علمياً كالمعلومات التي تتناول تجربة من التجارب أو مجموعة من الفضائل الخاصة في خطبة أو مقالة.

وهذه المجموعة بحكم أنها معرفة فهي تخضع للقانون الرياضي الحديث الخاصة بالمجموعات المعرفة بخواصه التجميعية والتبديلية والنظرية وعنصره الاحادي ومع الحديث عن طبيعة العلاقات الناشئة بين عناصر كل مجموعة أو الحديث عن العلاقات الناشئة بين عناصر مجموعات متعددة.

وهذا معناه أن يشمل البنية العميقة للجملة وللفقرة التي انتجت البنية السطحية، وأن العلم في بنية المعاني هو علم بمعاني انتظام الألفاظ في جملة أو فقرة أو مقالة.

يقول الدكتور إبراهيم أنيس:

«فإذا انتظمت العبارة ورتبت ذلك الترتيب المعين، سرت فيها الحياة وعبرت عن مكنون الفكر، وما يدور في الأذهان، وليست اللغة في حقيقة

أمرها إلا نظاماً من الكلمات التي ارتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً تجمعه قوانين معينة لكل لغة».

تضمن هذا الفصل الحديث نصيباً من التطبيقات للظواهر اللغوية التي حملت المعاني على شكل مجموعات، من هـذه المجموعـات المتعددة والمتنوعة، أشكال مختلفة ومتساوية مع بعض المجموعات الأخرى كـأن تتساوى مجموعتان في الدلالة إذا اشتملت كل مجموعة على عناصر تساوي مع مجموعة أخرى، كأن نقول أن مجموعة عناصر الآية الكريمة في معانيها ﴿فالله يحكم بينهم﴾ تتساوى في عناصر معانيها مع عناصر مجموعة المعاني في الآية الكريمة ﴿والله خير الحاكمين﴾.

إلا أن قضية ترتيب العناصر في كل مجموعة يختلف عما هو عليه في زمر المعاني في المجموعة الثانية وقد تكون بعض مجموعات من المعاني خاوية نشير بها بإشارة ∅، وهذا ما يجده الباحثون في كلام مسيلمة الكذاب عندما أراد تقليد القرآن أو يجده المرء في كلام الثرثارين والمضطربين، ومن المعاني ما يكون على شكل مجموعات جزئية تنتمي إلى مجموعة أكبر منها نشير إليها بإشارة احتواء [ ] كأن تكون مجموعة من التفاح في سلة رب منزل تحتوي على مجموعة أو مجموعات غذائية، أو كـأن تكون هنـاك مجموعة من الفدائيين تنتمي إلى منظمة التحرير الفلسطينية أو إلى بعض الدول العربية بينهما علاقة احتواء أو انتماء هي مجموعات صغيرة ضمن مجموعات كبيرة.

وهناك مجموعات مكملة، ومجموعات من المعاني متممة داخل فقرة أو داخل نص وبالرجوع إلى الفصل ذاته وإلى الباب ذاته يتضح المنهج ككل.

الفصـل الثانـي:

تضمن هذا الفصل الحديث عن طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة وكيفية

تقريب المفاهيم الإنسانية إلى المفاهيم الرياضية كي تصبح العلاقات المبهمة مكشوفة، والأسرار الغامضة مرتبة ملموسة، تناول هذا الفصل الحديث عن الحدث اللغوي ومكوناته وزمانه ومكانه لتحديد ظواهر الحدث، ليتدرج في سياق المادة المفيدة، ومحاصرة هذا الحدث اللغوي لمعرفة منطلقاته من المعادلة المفقودة بين الظاهرة اللغوية والبعد الزمني والمكاني المحيط به.

وكان من الضروري تعريف مفهوم طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة، ومفهوم العلاقة الرياضية بين مجموعتين أو بين عناصر مجموعة واحدة معرفة، وبذلك يسهل فهم طبيعة المستويات الأفقية والعمودية والعلاقات المتشابكة بين الفكر واللغة مثل العلاقات الفردية والمزدوجة والرمزية، العلاقات المنظمة والمتشابكة وقد مثلنا لذلك بأشكال رياضية كي يسهل فهم العمليات الغامضة في قضايا علم اللغة.

فقد وضح هذا الفصل أشكال العلاقات وطبائعها ضمن عملية تفاعل الحدث الصوتي مع الفكر في محيط المكان والزمان.

فالعلاقة بين الفكر واللغة وهي من نوع العلاقة الدالة والمعرفة بين عناصر مجموعتين أو عناصر مجموعة مرتبة منظمة يمكن تجسيمها في مستويات تتضمن عناصر كل مجموعة، ويمكن تمثيل ذلك بمجموعة من المجسمات النقطية على المستويات المعينة نسميها تحويل نقطي، وبذلك يمكن تقسيم العلاقة إلى فروع وخطوط واصلة بين عناصر، المجموعات المشتركة والمتشابكة، وتحديد الصلة وطبيعتها بين العناصر المكونة لكل مجموعة معرفة، وقد مثلت لذلك بمجسمات وجداول.

إن مثل هذا النوع من الحديث يوضح طبيعة العلاقة ويحدد اتجاهها ونوعها داخل مجموعة من المعاني التي تمثل البنية العميقة أو دور هذه

المجموعة وقدرتها على بعث البنية السطحية وصلتهما بعضهما ببعض.

ومجمل القول في هذا الفصل أن بحثاً مثل هذا يعتمد على الحدث العلمي ويسلم بقدر العقل البشري عن طريق البراهين المحسوسة مع الشواهد لإدراك ما يقع من علاقات بين البنى العميقة والبنى السطحية، فالعلم يستخدم المفاهيم أولاً، ثم عندما يبلغ أعلى درجات الكمال يستخدم الرياضيات التي هي أكمل العلوم لذلك لجأت في بحثي هذا إلى استخدام بعض القوانين الرياضية الحديثة، وليس كل الرياضيات كي لا نبتعد عن طبيعة البحث كظاهرة لغوية اجتماعية. فقد استعنت بالإحصاء داخل العلوم الإجتماعية مع استخدام بعض الظواهر الرياضية كما سبق ذكره لإدراك طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة.

الفصل الثالث:

قضت طبيعة البحث أن يكون هذا الفصل هو الثمرة التي يجنيها غارس الأشجار المثمرة بعد صبر طويل، كي لا يكون الحديث عن طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة حديثاً وشرحاً وتفصيلاً على صفحات الكتب يخضع للبحث النظري، بل أردت أن يكون تطبيقاً ملموساً. خصصت هذا البحث التطبيقي العملي ليستعمله أصحاب علم اللغة في تحليلهم للجملة ولعناصر معاني الجملة ولتركيبها أيضاً، وفضلت الإنتقال من البنى العميقة والبنى الصوتية إلى التصوير حسب المعاني والمفاهيم، وتحويلها إلى صور كرتونية مرقمة.

بحيث نحول نصاً من النصوص إلى صور مجسمة إذا اجتمعت أعطت معنى تاماً لجملة أو فقرة أو نص فيها المعاني الجوهرية والإيحاءات ومعنى المعنى. وتخضع هذه الصور إلى عملية التحريك والتركيب عن طريق الترقيم من الخلف ليسهل على الباحث تحريك معنى مكان آخر، وتقديم معنى على آخر ليظهر العيب في ذلك أو الخطأ والصواب أو

الإضطراب، وبهذا نصنع من النصوص عمليات تجريبية خاضعة للتجريب، حتى يكشف المرء قضية ترتيب المعاني في النفس، وأن المعـاني هي الأصل في كل تعبير لغوي.

قضت طبيعة البحث اخضاع النص كوحدة موضوعية، وتخضيع المعاني والجمل كوحدات عضوية إلى عملية الإحصاء والعد والجمـع والمقارنـة والتقسيم والتعليل، وثمرة هذه الطريقة تكون:

أ ـ بالقراءة والفهم وتحديد المناسبة والمقام وعصر النص، وطبيعة الحياة العامة التي وجدت فيه.

ب ـ إحصاء عدد الكلمات التي صنعت النص، ثم تعداد لحروف المعاني والظروف ثم تعداد المعاني التي شملها النص، وبعد ذلك نفرز الأسماء والأفعال وأنواع حـروف المعاني.

جـ ـ نعود إلى الجمل بحثاً عن المستويات الصرفية، والمستويات النحوية والمعجمية ثم الفواصل النفسية التي تقع كدوافع في بعث البنية الشكلية للجملة وتوضيح طبيعة النوع من ذكر وأنثى، مفرد ومثنى وجمع، أحياء جماد، إنسان، ونبات وحيوان الخ.

د ـ تجسيم المعاني وتحديد طبيعتها، هل هي مجموعات متكاملة أم مجموعات متممة لبعضها، هل هذه المعاني لينه أم صلبة، هل بين هذه المجموعات من المعاني اتساع لمعان أخر، وبذلك يمكن توليد جمل لم يقلها أحد من قبل ويكون هذا بتقديم معان متقاربة متآلفة متجانسة، وهذا ممكن لتـوضيح المفـاهيم الغامضـة أو المعـاني التي تحتـاج إلى شـرح وتوضيح.

ق ـ يجب معرفة المعاني الجزئيـة والكلية لمعـرفة طـريقة تـركيبها وتجميعها على شكل كتل وزمر ومجموعات حتى يمكن تحديد المعاني

الجوهرية والمعاني الثانوية مع طبيعة الإيحاءات.

ن ــ بهذه الطريقة يمكن تحديد أنواع العلاقات وطبيعة كل منها في مجموعة معرفة من المعـاني أو من مجموعتين متجـانستين متناظـرتين أو متساويتين وتحديد أنواع هـذه العلاقـات بين الترابط والتـوافق، والإنتماء والإحتواء، والتناظر والتعدي والتعاكس.

ط ــ تحويل هذه المعاني إلى مجسمات كاركاتورية، أو صور متحركة ملونة مشخصة مرقمة يسهل تفكيكها وتجميعها عن طريق الأرقام من الخلف بحيث يمكن للمرء أن يقدم منها ما حقه التأخير أو أن يؤخر ما حقه التقديم ليدرس الدارس النص ويسجل ما يحصل من اضطرابات واختلافات ويقارن إلى أن يصل إلى طبيعة النص وحقيقته.

أجريت تجارب وفق هذا الطريق المرسوم على نصـوص من العصر الجاهلي وأخرى من العصر الإسلامي لسهولة البحث ومن باب التبسيط تركنا تمارين للدارسين، ثم اشرت إلى امكانية إجراء مثل هذه التجارب على أي نص أدبي كان أم علمي أو تاريخي، وسهولة اخضاع النصوص الى هذا المنهج.

واكتفيت بهذا القدر لأن تحليل نص من النصوص مهما كان صغيراً قد يحتاج إلى عشرات من الصفحات وقضت طبيعة البحث الأكاديمي أن يترك مثل هذا العمل إلى إخراج كتاب تطبيقي يتناول النصوص حسب العصور وحسب النوع وحسب المواضيع، وبذلك يكون لدارسي علم اللغة كتباً نظرية وأخرى عملية تطبيقية.

والله الموفــق

البـــاب الأول

الفصــل الأول

أ ــ مرحلة النشأة:

بلغ العرب في الجاهلية والإسلام مرتبة عالية من الفصاحة والبلاغة والبيان ظهرت في أشعارهم وفي أقوالهم وفي خطبهم فمن يرجع إلى أساليب الشعراء في الجاهلية أمثال أساليب أمرىء القيس وزهير بن أبي سلمى، وعنترة العبسي والنابغة يلمس ذلك، ومن يرجع إلى أساليب فطاحل الخطباء في الجاهلية أمثال قس بن ساعدة الأيادي وأكثم بن صيفي يلمس ما قصدنا إليه من أن العرب في الجاهلية كانوا أهل فصاحة وبيان.

ومن يمعن النظر في أساليب الشعراء بعد الإسلام يدرك ذلك، ومن يطلع على أساليب الخطاب عند الخلفاء والأمراء والولاة في الإسلام يعجب بفصاحة هؤلاء وبلاغتهم أمثال أبي بكر وعلي وعمر وزياد والحجاج، من هنا ندرك مكانة حجة الرسول (ﷺ) على قومه، عندما أتاهم بالقرآن الكريم حجة وموعظة ومعجزة من عند الله.

لذلك كانت الفصاحة والبلاغة وحسن البيان معجزة الرسول الكريم على قومه إذ دعاهم لمعارضة القرآن في بلاغته الباهرة فعجزوا وتحداهم فما استطاعوا.

﴿فأتوا بصورة من مثله، وادعوا شهداءكـم من دون الله، إن كنتم صادقين﴾[1].

ومن صحة الدعوة للتحدي والإعجاز، هي أن العرب كانوا على مقدرة كبيرة من تمييز أقدار المعاني، ومراتب الألفاظ، وما يجري فيها من جودة أو رداءة ولهم من الملكة ما يكفيهم مؤونة التمييز والإفهام والمهارة في التعبير، فقد كانوا يقفون عند اختيار الألفاظ وجودة المعاني ويسوقون الملاحظات البيانية مما يدل على عنايتهم بإحسان الكلام.

قال تعالى: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾[1] أخذت الظاهرة البلاغية تنمو بعد انتشار الإسلام بفضل عناية المسلمين بدينهم وحفظهم وفهمهم لكتابهم، ولبحثهم المستمر عن مكامن إعجاز القرآن فأصبح من الطبيعي أن يأخذ القرآن الصدارة على كل ما أنتجوه من أدب وعلم وبيان، وأنه الكتاب المعجز إلى كونه وحي السماء، وأساس التشريع والقانون المنظم للسلوك المرشد لجميع البشر.

﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[2] وفي ظلال القرآن، ومع روح الإسلام السمحة، تطورت العقلية العربية وتمت الظاهرة البلاغية للقرآن عند العرب، إلى أن أصبحت وباتت شغلهم الشاغل على مدى العصور والأيام عندما استعملوا أذهانهم وعبقرياتهم في دراستها فأعانتهم هذه الدراسة على فهم القرآن وإدراك أسراره، وأعانتهم أيضاً على إبراز كثير من العلوم اللغوية إلى حيز الوجود.

تحضر العرب وسكنوا المدن، وبنوا المساجد، ووسعوا حلقات العلم

(١) سورة البقـرة رقم ٢٩.

(٢) سورة البقرة رقم ٢٣ سورة يوسف آية رقم ٢.

والدرس والبحث، مظهراً للخير، وأخذوا يتدارسون شؤون الحياة السياسية والعقيدية، مؤنة للحياة الفكرية فنشروا العلم والدين والأمن والإستقرار، وساعدوا اللغة على الإنتشار، بانتشار القرآن والحديث.

وفي هذه الأجواء أخذ كثير من الكتاب والفقهاء والشعراء والخطباء يتقنون فصاحة العبارة وجودة الكتابة والتأليف.

ونخص بالذكر بعض الموالي في بداية عصر الترجمة أمثال عبد الله بن المقفع.

كان من الطبيعي أن تتجه أذهان المسلمين إلى العناية بالأسلوب القرآني فعنوا بشرح ألفاظه وتفسير آياته، والتعرف على دقة نظمه، فأخذ القرآن الصدارة في تفكيرهم كونه النص الأدبي الأول لهذه الأمة.

﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾[1] فأصبح القرآن محور تفكيرهم وهدفاً لتأليفاتهم، ونبعاً خيراً لا ينضب لكل من نهل منه.

لذلك أخذت هذه العناية تزدهر مع مضي الزمن، وبفضل مناهج القرآن وبلاغته، فآيات القرآن تتلى في كل مكان، وأحاديث الرسول تجول على كل لسان وتحفظ في القلوب والصدور فأخذ الخلفاء والولاة والأمراء يعنون في خطبهم ورسائلهم بتخير اللفظ، واقتباس كثير من العبارات القرآنية في أساليبهم حجة للإقناع، ووسيلة للإفهام، فكان من الطبيعي أن تنمو النظرة البلاغية في الكلام وتتضح الملاحظات البيانية في الشعر والخطابة والكتابة مع تطور العقلية العربية داخل الفكر اللغوي.

---

(١) سورة البقرة رقم (١)

ب ـ جهود ابن المقفع في النظم:

هذا وفي صدد الحديث عن جهود ابن المقفع اللغوية، لا بد من أن أشير إلى أسلوبه التعبيري وبما امتاز به، فلإبن المقفع صفات أدبية أسلوبية امتاز به أدبه، هي حصيلة ثقافات متنوعة فارسية وهندية وعربية ويونانية، مع قدرة فائقة على التعبير باللغتين العربية والفارسية.

ومن مميزاته التعبيرية ووضوح الأفكار المنسقة، وقوة المنطق في عرضها، ثم الوضوح والدقة المتناهيان، فألفاظه منتقاة سهلة ومعبرة، ومعانيه جلية بارزة، أسلوب امتاز بالتقسيم والتبويب، وأفكار تكاد تكون مرتبة متدرجة متسلسلة من الأسباب الى النتائج، وهو أسلوب ظل سائداً حتى ظهور أسلوب الجاحظ.

فقد عرف ابن المقفع البلاغة وخبرها، ومن أقواله فيها: « البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكون، ومنها ما يكون في الإستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الإحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون شجعاً وخطباً، ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة»[1].

امتاز أسلوب ابن المقفع بالنصاعة والدقة العلمية في اختيار الألفاظ ووضعها في مواضعها اللائقة بها، في صياغة العبارة الرصينة. وابن المقفع في تقسيم البلاغة على هذا النحو، يعتمد في قسمته على المنطق فيجعلها أقساماً ما بين الصمت والإستماع، وبين الإشارة والكلام، ثم يقسم الكلام إلى أنواع بين الشعر والنثر، ثم يلخص ذلك بالطابع العام ألا وهو أن

---

(١) البيان والتبين جـ ص ١٣٧ ـ للجاحظ.

الإيجاز هو البلاغة آخذاً برأي أكتم بن صيفي في خطبته أمامكسرى، والتي مطلعها إن أفضل الأشياء أعاليها...... (البلاغة الإيجاز) ويقصد ابن المقفع من هذا التقسيم إصابة المعنى، بحيث يصيب المعبر هدفه المباشر فيصيب معانيه دون عناء ودون تعقيد أو كلفة.

مما هو جدير بالذكر الإشارة إلى ميلاد مفهوم النظم عند ابن المقفع فهي أول إشارة للنظم نجدها في كتابات ابن المقفع المتوفي سنة ١٤٣ هـ.

داخل كتابه الأدب الصغير والأدب الكبير في مقال بعنوان الأدب ينمي العقول.

«فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيل، وأن يقولوا قولاً بديعاً فليعلم الواصفون المخبئون أن أحدهم، وأن أحسن وأبلغ ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص، وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً فنظمه قلائيد وسموطاً وأكاليل، ووضع كل فص موضعه وجمع إلى كل لون شبهه، وما يزيده بذلك حسناً، فسمي بذلك صانعاً رفيقاً، وكصاغة الذهب والفضة، صنعوا منها ما يعجب الناس من الحلي والآنية، وكالنحل وجدت ثمرات أخرجها الله طيبة، وسلكت سبيلاً جعلها الله ذللاً، فصار ذلك شفاء وطعاماً، وشراباً منسوباً إليها، مذكوراً به أمرها وصنعتها، فمن جرى على لسانه كلام يستحسنه أو يستحسن منه، فلا يعجبن إعجاب المخترع المبتدع فإنه إنما اجتناه كما وصفنا»[1].

النظم البديع عند عبد الله بن المقفع صنعة دقيقة وحرفة ذات حسن ومهارة كصياغة الذهب والفضة ، وكنظم شبيه بنظم حبات الجوهر يصنعون منها ما يليق بأذواق الناس على اختلاف مشاربهم فنظم الكلام كنظم القلائد والأكاليل والأسماط المرصعة بالياقوت واللآليء.

---

(١) ذكره الجاحظ في البيان والتبين جـ ١٣٧ ـ العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٦١.

وتمام حسن الكلام برأيه لا يتم إلا بحسن العمل ودقة الإتقان يقول: «لا يتم حسن الكلام إلا بحسن العمل، كالمريض الذي قد علم دواء نفسه فإذا هو لم يتداوَ به لم يغته علمه»(١) واستمر الكتاب بعد ابن المقفع يعنون بترقية أساليبهم وتجديد معانيهم ويأخذون أنفسهم بالتثقيف ثقافة متنوعة واسعة، يتقربون بثقافاتهم إلى الخلفاء والأمراء، فأصبح ذوقهم مترفاً، يعامل ما انغمسوا فيه.

من عوامل الحضارة بات المفكرون يتخيرون من الألفاظ ما يجمع الجزالة والرصانة والنصاعة مع السلامة والرونق مع الطلاوة وعلى هذا النحو أكثر الكتاب والشعراء والمفكرون الدينيون من ملاحظاتهم البلاغية عندما استوعبوا خصائص أدبهم. ولم يكن الشعراء والكتاب وحدهم يدرسون وجوه الفصاحة والبلاغة بل كان إلى جانبهم النحويون واللغويون عاملين على توضيح خصائص التعبير ودقة الإداء، أمثال سيبويه والكسائي وأمثال ابن المعتز.

لذلك ليس غريباً أن تكثر التعريفات البلاغية في كتب الأدب بعد ابن المقفع وأيام الجاحظ، ذلك ما أكده الجاحظ وذكره صاحب العقد الفريد.

قيل للفارسي: ما البلاغة؟ فقال:معرفة الفصل من الوصل .

وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال:تصحيح الأقسام واختيار الكلام.

وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال:حسن الإقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة.

وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال وضوح الدلالة وانتهاز الفرص وحسن الإشارة.

---

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير لإبن المقفع ص ١٢ وص ٢٧.

تدل هذه الملاحظات والشواهد دلالة واضحة على أن العرب قد عرفوا منذ القديم ما عند الأمم والأقوام من علوم وثقافة وأسلوب، وعرفوا أن لغيرهم من الأمم بلاغة وتفننا بالقول، ولعل اليونانيين هم أول من اعتنى بالبلاغة مع تدوين مسائلها.

لكن البلاغة عند العرب لم يستقر لها حال إلا في القرن السادس الهجري بالرغم من اشتغالهم فيها منذ بزوغ فجر الإسلام فقد اختلفوا في تعريفها، ولم يحددوا لها مفهوماً حتى عهد عبد القاهر بل بعده ذلك بكثير وبقيت كذلك إلى أن جاء أبو يعقوب يوسف السكاكي فأرسى قواعدها.

ويقول ابن خلدون: «وليس في تعريف القدماء ما يعطي صورة واضحة للبلاغة»[٢] فهي تعريفات مختلفة ولقد عرفها بعض السلف بقوله: «البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، ومقامات الكلام عند مقاومته»[٣] وقسمها بعضهم إلى أقسام.

ومهما اختلفت التسميات وانقسمت، فإن الدافع الأساسي في البحث فيها هو القرآن الكريم، كي يبرهنوا على إعجازه فتفهموا آياته وأسلوبه، ويستنبطوا الأحكام الشرعية منه فاتجهوا إليها باحثين عن فنونها موضحين أقسامها، ومحددين مجالاتها.

ولما كانت حاجة الناس ماسة، لمعرفة تمييز الكلام، جيدة من رديئة أصبح نظام الكلام أحق العلوم الإنسانية بالدراسة والتعليم بعد معرفة الله عز وجل، لذلك قال أبو هلال العسكري معرفاً الفصاحة والبلاغة:

---

(١) العقد الفريد آ ٢ ١٢٢.
(٢) البيان والتبيان جـ ٨٨.
(٣) المقدمة لإبن خلدون ١١١٨.
(٤) العقد الفريد لإبن عبد ربه جـ ص ٢٨٥.

«إن أحق العلوم بالتعليم وأولاها بالتحفظ بعد معرفة الله عز وجل ثناؤه، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي يعرف به أعجاز كتاب الله تعالى، وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علم له بأعجاز القرآن لما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب»[1].

وقد ذهبوا: إلى أبعد من ذلك من أمر البلاغة والفصاحة، وقرروا من أن ثمرة البلاغة والفصاحة هي فهم إعجاز القرآن، وهي في رأي البعض أعلى مراتب الكلام مع الكمال، فيما يختص بالألفاظ وانتقائها وجودة رصفها، وانتهى الأمر بالسلف إلى أن بلاغة الكلام ترجع إلى خصائص بالنظم، وجمال الكمال يرجع إلى مبلغ تأثيره في النفوس.

وانضم إلى هذا النوع من الدراسة، دراسات لغوية أخرى قام بها أبو الحسن الكسائي المتوفي سنة ١٨٣، والفراء في كتابه (معاني القرآن) وهو أحد أعلام النحو والمتوفي سنة ٢٠٧ هـ ثم كتاب «مشكل القرآن» لإبن قتيبة أحد نقاد القرن الثالث الهجري والمتوفي سنة ٢٧٦ هـ.

«وكتاب مجاز القرآن فقد كان في تفسير غريب القرآن، وفي بيان نهجه أو مجازه في التعبير ووجوه نظمه التي يوجد مثلها في كلام العرب من إضمار الكلمة أو الإستغناء عن تتمة الجملة أحياناً أو بإرجاع اللفظ لواحد بين اثنين»[2].

وهناك محاولة أخرى قام بها الأصمعي وأبو حاتم بن الأنباري سارت جميعها في ثلاث جداول.

جدول شمل التفسير المأثور من الأحاديث، والأخبار والسير وعادات

---

(١) كتاب الصناعتين ـ لأبي هلال العسكري ص: ٧.

(١) أبو هلال العسكري كتاب الصناعتين ص ٣ محمد زغلول ص ١١.

(٢) أحمد مطلوب ص ٣٠، القزويني وشروح التلخيص ـ نظرية النظم ص ١٦.

العرب عرف أصحابها بأصحاب التفسير.

وتضمن الجدول الثاني التفسير النحوي واللغوي لغريب ألفاظ القرآن ولغة تراكيبه حيث تفرع عن ذلك دراسات لغوية بعيدة عن النص القرآني من أجل حفظ اللغة وتنميتها، ثم قامت معها دراسات أخرى تصدرتها كتب الأضداد للأصمعي وإلى حاتم وابن الأنباري وغيرهم، تتعلق باللفظ والمعنى ومدلولها وصلة المعنى باللفظ، وبالمعنى العام للعبارة، فمضى اللغويون يعنون بدراسة خصائص العبارة دراسة لغوية ظلت تعطي ثمارها لتكون بجانب أعمال المتكلمين بالأعجاز، والذين توسعت دراساتهم في أعجاز القرآن، من حيث بيانه وبلاغته ودقة نظمه، فكان في أعمالهم اللغوية دقة وعمق تفكير ثم تلا ذلك جدول ثالث تمثل في أعمال المعتزلة، وقبل الخوض في التفاصيل نرجع لنؤكد أن مدرسة ابن المقفع كان لها التأسيس ثم دور البناء والتشيد في بناء نظم الكلام الفصيح وبقيت يؤدي دورها إلى أن تسلم الجاحظ مدرسة الريادة الفكرية في فكرنا الأدبي واللغوي والنقدي، واستمر تؤدي دورها إلى حلت مكانها طبقة من المفكرين في القرن الثالث والرابع الهجري.

جـ ـ جهود الجاحظ اللغوية:

الجاحظ: مولده ونشأته: ولد أبو عثمان عمر بن بحر، الملقب بالجاحظ لجحوظ كان في عينيه، في البصرة نحو ٧٧٥م / ١٥٩ هـ، ولما شب طلب العلم برغبة شديدة رافقته طيلة حياته رغم فقره، وكان لا يقع في يده كتاب حتى استوفاه.

تلقى اللغة والأدب عن أبي عبيدة الأصمعي، وأبي زيد الأنصاري وأبي الحسن الأخفش، وهم أئمة اللغة والأدب في عصره، وتلقى الفقه والحديث عن أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة، وتخرج في علم الكلام

والإعتزال على أبي اسحاق النظام.

وكان الجاحظ كثير الإختلاط بالناس يعاشر صغارهم وكبارهم، وفقراءهم وأغنياءهم فأفاده ذلك كثيراً وخبرة واسعة وتجارب مفيدة، وكان يزور سوق المريد في البصرة ويتلقى اللغة والأدب عن الأعراب مشافهة فغزرت الفاظه وقويت من لغته.

ولم يتقيد الجاحظ بآراء أساتذته في الإعتزال بل انفرد دونهم بآراء خاصة به واجتهادات في الموضوعات التي كانوا يخوضون فيها.

فظل يزاول فنون الأدب والأخبار واللغة والحكمة والكلام، ويكثر مطالعة الكتب ويعمل الفكر، ويتوسع فيما حصله حتى نمت ثقافته الراقية وكان الجاحظ علامة عصره يأخذ من كل شيء بطرف.. ويظهر أن الجاحظ كان قبل شهرته يؤلف الكتب وينحلها إلى غيره من المؤلفين كابن المقفع وسهل بن هارون ليقرأها الناس ثم تشيع بينهم ويدركوا قيمتها. انتقل الجاحظ في آخر حياته إلى سر من رأى ثم إلى البصرة فأقام فيها حتى مات فيها سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م انهالت عليه الكتب يوماً وهو جالس فقضت عليه ومات تحتها فيما يقوله الرواة فكان ضحية أعز أصدقائه وهو الكتاب.

مكانته العلمية:

كان الجاحظ دائرة معارف عصره، لم يترك علماً من العلوم أو فناً من الفنون إلا واطلع عليه وكتب فيه بل وكانت له فيه آرء وتأليف، فقد درس الفلسفة والمنطق والفلك والرياضيات والسياسة والتاريخ والأخلاق والفراسة والحيوان والنبات والموسيقى والغناء إلى جانب علوم اللغة والأدب، لم يترك شاردة أو واردة في عصره إلا وسجلها، فكان بحق مرآة عصره وبيئته.

ترك الجاحظ أثاراً كثيرة تزيد عن مائة وستين كتاباً وآثاره تؤلف مجموعة

علمية وأدبية كاملة هي خير مثال للثقافة العربية والنضج الفكري وللأدب وللأسلوب الرفيع وقد ضاع الكثير منها.

ويلاحظ المرء في كتبه كلها ثقافته الواسعة والمتنوعة، وهي مزيج من ثقافات يونانية وفارسية وهندية وعربية.

كلمة في كتابة الجاحظ:

اطلع الجاحظ على علوم الأعاجم والعرب فعرف فنونها وخبر آدابها فكتب في كل علم وفن منها غير مقتصر على ناحية واحدة، كما كتب في نواحي الحياة المختلفة في عصره صغيرها وكبيرها وحتى فيما لا يخطر على بال، فاستطاع أن يعطينا صورة واضحة شاملة دقيقة عن عصره في أسلوب جذاب جميل ولغة مرنة رشيقة، ولم يكتف كابن المقفع بنقل علوم الأوائل بل كان واضح الشخصية في كل ما يكتب، تعرف أن الكتابة له من خلال أسلوبه، بل ومن طراز تفكيره، ونوع حججه، من عاطفته وسخريته الغالبة عليه، فهو متحمس دائماً لكل ما يكتب وتراه يعمل عقله في كل ما يكتب، فهو لا يعتمد الرواية في كل شيء بل يناقش الأمور العقلية ويحقق في الأمور اللغوية والأدبية ثم يلاحظ ويجرب ويمحص في العلوم الطبيعية وما يتصل بها من أمور وبذلك امتاز تفكيره بتنوع النواحي الفكرية وسعة الأفق.
امتاز أسلوب الجاحظ بالمرونة باستعماله الجمل القصيرة، وترادفها مع العناية بجرسها الموسيقي وعذوبتها وأطالتها أحياناً بالجمل المعترضة، أو المؤكدة أو المفسرة أو المرادفة، مع الإكثار من ترداد فعل القول فيها، ومنها الوضوح والطلاوة والرشاقة مع إجادة التصوير لما يصف إجادة تبعثه حياً في ذهنك بما طبع عليه من دقة الوصف، مع لطف المدخل وحسن التعبير كان يؤثر الأسلوب المسهب على الموجز لأنه يعني بإيضاح الفكرة واستقصاء جزئياتها، فيكرر في سبيل ذلك المعاني على وجوه متعددة.

ومن مميزاته أيضاً غزارة الألفاظ، وحسن اختيارها للمعاني التي يريدها لها وتكون جيدة الدلالة عليها، ويميل في كتابته إلى الإزدواج والتوازن في الجمل أي تلاؤمها من حيث الطول والنغمة من غير أن يكون فيها سجع فهو موزع بين الميل إلى عدم التكلف، وبين ولعه بالموسيقا وتنغيم المقاطع وحسن إيقاع الألفاظ، فالألفاظ عنده خادمة للمعاني.

وخلاصة القول أن الجاحظ أعظم كاتب عرفته العربية، وأنه رأس المدرسة الجاحظية، وهو معتزلي وإمام من أئمة الكلام، ويعد من أوائل الرواد في تاريخ الفكر العربي، وأيسر ما يميز كتابة الجاحظ من حيث الفكر، سعة الأفق، والواقعية والإستطراد وتلوين المعنى.

ومن حيث التعبير والتلوين الموسيقي للجمل مع الوضوح وغزارة الألفاظ والمرونة والرشاقة التي تبدو في التلوين الموسيقي للجمل.

أقام اللغويون من المعتزلة مناهج علمية وعقلية تزعمها الجاحظ وواصل بن عطاء، واعتبروا محاولات أصحاب اللغة السابقين لهم محاولات ظاهرة لا تتعمق بالمعاني ولا تكشف عما وراء اللفظ من دلالة.

فوجهوا دراساتهم لبيان الأسلوب، فكانوا أقدر من غيرهم في تفهم دقائق النظم، لما توفر لهم من قدرة في خصائص الفصاحة والبيان وتنوع الثقافات وجمعهم لعيون الأدب شعراً ونثراً.

حاول المعتزلة الكشف عن معاني الأساليب المختلفة، ليصلوا منها إلى الوجه الذي يرضي ذوقهم، فلاحظوا ملاحظات عامة في الكلام ودونوها في كتبهم وإيضاحاًلما تقدم تجد الجاحظ، يطلب المناسبة بين الألفاظ والمعاني مع مراعاة مقتضى الحال بقوله:

«ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع

من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية والإسترسال في موضع الإسترسال»[1].

يهدف الجاحظ من هذه التقسيمات، وضوح الدلالة والإيجاز ثم البيان فاتضاح دقائق المعاني، ونظام الكلام على هذه الصور توضح الصلة القائمة بين اللفظ والمعنى، ولا بد للألفاظ أن تخدم المعاني وعلى أقدارها، وكل ميزة يتميز بها المعنى من حيث الصفة والمرتبة، تميز بها اللفظ، كي تؤدي دورها في أداء الدلالة بدقة تامة، لا تزيد ولا تنقص عن محتواها قدراً بقدر. فالمعاني مراتب والألفاظ كذلك، منها السخيف والخفيف ومنها الجيد والرديء، لكل منها موضع ولإبراز هذه المعاني بما يناسبها من لفظ طرق عديدة أحسنها ما يكون عليه الكلام، قليل لفظه ومعانيه واضحة جلية. «وأن أحسن الكلام ما كان يغنيك قليله عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه»[2].

ولن تكون المعاني واضحة بارزة جلية إلا إذا استحقت مرتبة البلاغة عندما تتلاحق الألفاظ مع المعاني والمعاني تلتحم مع الألفاظ في عملية تسابق. «لا يكون الكلام يستحق اسم بلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك»[3].

أدرك الجاحظ وعلى نحو جيد شدة التحام الألفاظ بالمعاني، وكل تعبير تنطبق عليه هذه الشروط يمكن أن يستحق صفة البلاغة والكمال.

اهتدى الجاحظ بفكره النير وبما توفر لديه من طول الباع في البيان العربي إلى مكانة الألفاظ في التعبير، واهتدى إلى أهمية المعاني فقد

---

(١) البيان والتبين جـ ٦ / ١٤٤ ص ٨٣.
(٢) البيان والتبين جـ ١ / ص ٤٩.
(٣) نفس المصدر جـ ١ / ص ١٤٤

اثمرت جهوده فألف كتابه (البيان والتبين) (ونظم القرآن) فـدرس أسلوبه الخالد مع بقية الأساليب اللغوية الأخرى عند العرب، ومن لطيف ما اهتدى إليه، هو أن الفاظ القرآن قد تأتي متصاحبة تكاد لا تفترق مثل الصلاة والزكاة والجوع والخوف والجنة والنار وأن لهذا التلازم أسباباً وعللاً، هي أن القرآن لم يذكر الجوع والخوف إلا في مكان العقاب.

كتاب نظم القرآن:

ألف الجاحظ كتاب نظم القرآن استجابة لدعوة ملحة في ذاته، ولقضية علمية ودينية ولغوية، كانت تفرض نفسها على رجال الفكر الديني وعلى النحاة وعلى اللغويين في عصره، وليس لأسباب مادية رآها الكثيرون أمثال الدكتور محمد زغلول من أن الجاحظ ألف للفتح بن خاقان من أجل هدية ينالها أو شهرة يسعى إليها.

لقد اتخذ الجاحظ لنفسه منهجاً خاصاً في تأليف وشرح آرائه في كتابه نظم القرآن، فتوسع في شرح آيات القرآن شرحاً دينياً ولغوياً ولم ير فيه رأي المعتزلة ولا النحاة ولا اللغويين في عصره بل كانت له آرء خاصة به.

يقول الدكتور محمد زغلول سلام: «ورأى الجاحظ أن بيـان القرآن ونظمه وتأليفه يحتاج إلى كتاب (نظم القرآن) وأثبت فيه آراءه في بيان القرآن بشكل يوضح الحجة في إعجازه»[1].

ومن المؤكد أن الكتاب (نظم القرآن) قد فقد مع كثير من كتب التراث وكل ما قيل عنه هو من باب الإستنتاج والمطالعة لبعض الكتب التي أشارت إليه منها أن الكتاب قد ذكر أنه ألف للفتح بن خاقان، ولم يقع عنده الموقع الذي أراده الجاحظ حيث أن (كتاب نظم القرآن) يبحث في تفصيل أسلوب

---

(١) الدكتور محمد زغلول سلام أثر القرآن ص ٧٦.

القرآن وعجيب نظمه، وقد أشار الباقلاني في مقدمة كتابه (أعجاز القرآن) إلى كتاب الجاحظ (نظم القرآن) فذكر:

«فكتبت لك كتاباً أجهدت فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الإحتجاج للقرآن والرد على كل طعان، فلم أدع فيه مسألة لرافضي ولا لحدثي ولا لحشوي ولا لكافر مياد ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب (النظام).. أتاني كتابك تذكر أنك لم ترد الإحتجاج لنظم القرآن، وإنما أردت الإحتجاج لخلق القرآن، وكانت مسألتك مبهمة فكتبت لك أشق الكتابين وأثقلهما وأغمضهما معنى وأطولهما طولاً»[1]..

فقد وصف الجاحظ كتابه نظم القرآن في كتابه (حجج النبوة). وتتضح معرفة الجاحظ لدقائق نظم الكلم مع اضطلاعه على ضروب القول عند العرب مع استيعاب الدقيق لبيان القرآن، ومرامي تعبيره، وإن نظم القرآن أعلى مستويات التعبير لا يقدر على مثله العباد.

«وفي كتابنا المنزل الذي يدلنا على أنه صدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به»[2].

يرى الجاحظ أن التنزيل قد أولى اللفظ عناية فائقة والمعنى مكانة هامة فالألفاظ تدل على المعاني بدقة فائقة، ولنظم القرآن براعة في تنزيل اللفظ منزلته في الوضع الذي أريد له، ويمتاز بروعته في الإختيار مع مراعاة الفروق بين الألفاظ.

هذا وكانت مشكلة مسألة الأعجاز من أبرز المسائل التي تفرض نفسها على كل مفكر في القرنين الثاني والثالث الهجري، فتناولها العلماء بالبحث

---

(١) الباقلاني أعجاز القرآن ص ٩.

(٢) كتاب الحيوان للجاحظ جـ ٤ / ص ٩٠.

أثناء تفسيرهم للقرآن.

وردهم على منكري النبوة، وخوضهم في علم الكلام، مثل كتاب علي بن زيد كاتب المتوكل في كتابه (الدين والدولة) وكتاب الجاحظ (الحجة في تثبيت النبوة) وكان علماء الإعتزال أكثر المثيرين للكلام في إعجاز القرآن.

وقد يقصد الجاحظ في كتابه الحيوان الإشارة إلى كتاب نظم القرآن بقوله:

«ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف فضل الإيجاز والحذف وفرق بين الزوائد والفضول والإستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز وترك الفضول»[1]. ويذكر صاحب الكشاف في مقدمته تفسير الكشاف أثناء سياق كلام أنه أطلع على كتاب نظم القرآن وأفاد منه في دراسته لبلاغة القرآن واعجازه البياني وبهذا نخلص إلى القول المفيد من أن الجاحظ تناول نظم القرآن الكريم في كتابين أحدهما (نظم القرآن) والآخر (حجج النبوة) ومن أقواله في حجج النبوة:

«ولو زعم القوم على ما ينبغي في أصل مقالتهم أن القرآن هو الجسم دون الصوت، والتقطيع والنظم والتأليف، وأنه ليس بصوت ولا تقطيع ولا تأليف.. إذ كان الصوت عندهم لا يخترع كاختراع الأجسام المصورة ولا يحتمل التقطيع كاحتمال الاجرام المتجسدة.. والصوت لا يحدث من جوهر إلا بدخول جوهر آخر عليه»[2].

وبهذا يتضح لنا حديث النظم أن له جذوراً بدأها الجاحظ بكتابه (نظم القرآن) وأضاف بعده أبو يزيد الواسطي كتاباً في أعجازه ونظمه، وبذلك توحي هذه الجهود أن فيها عوامل هامة وباعثة لجهود أخرى تدفع بتطور

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ جـ ٣ / ص ٨٦.

(٢) الأعجاز في دراسات السابقين عبد الكريم الخطيب ص ٤٤٩.

فكرة النظم في محيط الدراسات القرآنية.

د ـ جهود ابن قتيبة اللغوية:

أبو عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦ هـ، فارسي الأصل والنسب تتلمذ على يدي كبار العلماء والأئمة أمثال الأصمعي وأبي حاتم وأبي عبيدة وأبي عمر الشيباني، فامتزجت في ذاته الثقافات العربية واليونانية والفارسية والهندية، وغلب عليها الطابع العربي .

كان ابن قتيبة ناقداً بارعاً وأديباً لامعاً، ويعد علم من أعلام القرن الثالث الهجري في النقد والبلاغة والنحو.

كانت ثقافته العربية تقوم على القرآن والحديث واللغة والنحو والأدب شعراً ونثراً، وتخرج بذلك على علماء زمانه، وقد تأثر بكل من سبقوه أمثال الجاحظ وأستاذه أبي عبيدة صاحب كتاب (مجاز القرآن) وفي عصره شاعت المناظرات الكلامية بين المعتزلة، أصحاب الحديث والسنة مع اللغويين، فكان الجدل حول القرآن ميداناً فسيحاً للبحث طيلة القرنين الثاني والثالث الهجري وما بعدهما.

كان ابن قتيبة رأس أعلام أهل السنة، تناول القرآن وأسلوبه وناقش مسائل أسلوبه ومشكلات بيانية ليرد على آراء الجاحظ السابقة في كتابه نظم القرآن حيث كان الصراع الفكري محتدماً بين أهل السنة والمعتزلة كان على قدم وساق واستمر في تأدية جهوده الفكرية حتى توفاه الله عام ٢٧٦ هـ ومن خيرة ما تركه ابن قتيبة من جهود لغوية كتابين أحدهما كتاب (الشعر والشعراء) والآخر (مشكل القرآن).

بحث في كتابه (الشعر والشعراء) في مشاهير الشعراء الذين يستشهد بشعرهم من الجاهلية حتى أيام عصره، وأسلوبه في ذلك أن يذكر اسم

الأديب باختصار واسم قبيلته وأجود ما قال من شعر، ثم ما أخذ عليه وهذا جزء من عمل نقدي كبير. وينتهي به المطاف إلى نظرية نقدية لأهل عصره بتقسيم الشعر وتصنيفه، من حيث الجودة والرداءة إلى أربعة أصناف وفقاً لنظم الألفاظ والمعاني. يصنف الشعر من حيث الجودة إلى أربعة أصناف بحسب الإجادة في اللفظ والمعنى... لأنه يعتبرهما العنصرين المتلاومين في الشعر والنثر.

«فالصنف الأول هو شعر حسن لفظه وحسن معناه، والثاني شعر حسن لفظه دون معناه وقسم ثالث حسن معناه دون لفظه، وقسم رابع ساء معناه وساء لفظه»[1].

وقد أهمل ابن قتيبة ناحية العاطفة والخيال على الرغم من أنه كان مهتماً بهما، ونظريته النقدية هذه قد تكون بعيدة عن بحثنا، لذلك اكتفيت بالإشارة إلى جهوده اللغوية، كان ابن قتيبة من المناصرين لمذهب الروح القديم والحديث، ولا ينصر القديم لقدمه ولا الحديث لحداثته، وعنده أن الشعر كلام موزون مقفى يفصح عن الأهواء والنزعات وحاول أن يعرف عنصر الجودة فيه ومظاهر الضعف، مؤتنساً بروح العلم في التحديد والتقسيم.

مشكل القرآن:

يعتبر كتاب (مشكل القرآن) من المجموعة الأولى التي بدأ بها ابن قتيبة تأليفه فهو مذكور في تأويل الحديث وفي أدب الكاتب.

تناول ابن قتيبة في كتابه هذا مشكلة أعجاز القرآن ونظمه، فوضح فيه

(١) الدكتور أحمد مطلوب ـ القزويني وشروح التلخيص ص ٢٥١.
(٢) أنظر: الشعر والشعراء ص ٩.

رأي أهل السنة في أعجاز القرآن وسر نظمه وسمو تأليفه عن سائر كلام العرب ونظومهم. تناول قضية الأعجاز تناولاً منظماً مستعرضاً الفنون الأدبية واللغوية، ليستعرض بعد ذلك نظم القرآن من حيث نظم الألفاظ وضم بعضهما البعض لتتآلف مع المعاني، تآلف الروح في الجسد، فالألفاظ تتجارى في تلاحق كالسلاسل الفضية وكجداول الماء، لا تعثر فيها ولا وحشية ولا زيادة ولا نقصان قدر المعاني وحسب المقامات، ولم يفته تناول ما تحققه الألفاظ بانسجامها مع المعاني من موسيقى ونغم، تنسجم معها الروح الإنسانية، ومن أقواله في هذا المجال:

«وقطع منه يعجز التأليف أطماع الكافرين، وإبانة بعجيب النظم عن حيل الكفارين.... وجعله متلواً لا يمل على طول الطلاوة والتلاوة، ومسموعاً لا تمجه الآذان، وغضاً لا يخلق من كثرة الرد»[1]

وهو نظم يسمو على كل ما نظمه فطاحل الشعراء، وفحول الخطباء وأمراء الكلام، ويسمو قدره عن فصاحة الفصحاء وبلاغة البلغاء، وهو عجيب لا تنقضي عجائبه، تناول ابن قتيبة في كتابه مشكل القرآن قضايا عديدة منها، صفات القرآن تفوق كل أثر بياني للعرب ويسمو على كل فنون بلاغية انتجوها.

تناول غزارة المعاني وقدسيتها وأنها جامعة لزبدة الشرائع السماوية بل تزيد عليها «ومفيد لا تنقطع فوائده ونسخ به سالف الكتب»[2]

وقد جمع من دلائل الألوهية ومظاهرها المختلفة في الكون فما أعطى بيانه قوة روحية وهو عبرة للمؤمن، وملجأ ودعوة للشاك إلى التوحيد

---

(١) أثر القرآن على النقد الأدبي ص ١٠٧ - ١٠٩.
(٢) تأويل مشكل القرآن طبعة دار إحياء الكتب العربية ص ٢٣.

والإيمان، وما للقرآن من أثر نفسي في الوجدان من حث على الواجب وتقديس للفضيلة.

ويوضح ابن قتيبة جوانب الأعجاز في التأليف والنظم، فيرى أنها تتعلق بأمور عديدة أولها: النظم بمعنى سبق الألفاظ وضم بعضها لبعض في تآلف دقيق بينها وبين المعاني فيجريان معاً في سلاسة وعذوبة كالجداول.
وثانيها عنايته بالنغم الموسيقي فيشتمل النظم والإيقاع الداخلي في الآيات وهو الذي ينجم من تلاؤم الحروف داخل الكلمات وتلاحم النغم مع الروح الإنسانية فللفاصلة دورها، وللسجع وللإزدواج دورهما، وللجماليات الأخرى من جناس وطباق أدوارها الأخرى أيضاً.

فحلاوة النغم الرتيب المنبعث من الآيـات لها وقعهـا الموسيقي في النفس يكفي للمرء أن يصغي لتلاوة سورة من القرآن ﴿والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها، ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها﴾ فالقرآن بما جمع من هذه الصفات تفوق كل أثر بياني عند العرب.

تناول ابن قتيبة لغة القرآن كأداة للتعبير عن الرسالة، ثم بين قيمتها البيانية ومكانتها بالنسبة للغات الأخرى كما فعل الجاحظ، وهو احتجاج للإعجاز من أن الله قد اختار اللغة العربية لأنها أقدر الألسنة السماوية على إداء هذه المهمة في رأيهما، وينتهي به الكلام إلى موضوع فنون القول في مختلف الأساليب مع اختلاف ذلك باختلاف المتكلم.

«فالخطيب من العرب إذا ارتجل كلاماً في نكاح أو حمالة أو تحضيض أو صلح أو ما شابه ذلك لم يأت به من واد واحد بل يفنن فيختصر التخفيف ويصل تارة ارادة الإفهام، ويكرر تارة ارادة التوكيد. . . دون عناية ابن قتيبة بالكلام على حسب الحال وقدر الحفل وكثرة الحشد، وجلالة

المقام ثم لا يأتي بالكلام مهذباً كل التهذيب... بل نجده يمعن ويسوى ليدل على الناقص بالوافر وبالغث على السمين، ولو جعله كله بحراً... ومثل ذلك الشهاب من القبس تبرزه للشعاع، والكوكبان يفترقان فينقص النوران والسحاب، والسحاب ينظم بنظم الياقوت والمرجان والعقيق والعقيان ولا يجعل كله جنساً واحداً من الرفيع الثمين ولا النفيس المصون»[1] .

إن عناية ابن قتيبة بالمعاني واضحة لا تقل عن اهتمامه بالألفاظ فيرى أن العرب تتصرف فيها بمناسبة المعنى تصرفاً فيه دلالة على دقة اللفظ وقدرتها على التعبير وهذا دليل على دقة الملكة، فالدقة في تركيب اللغة دليل على دقة الملكات في أهلها. بحث ابن قتيبة في حروف الهجاء فوجدها تزيد على غيرها من اللغات، من أن اللغة العربية لغة معربة تمتاز باعرابها وحركات حروفها، ولها في ذلك لطائف تتصل بالتعبير، فقد يتغير المعنى بتغير أحد عناصر الجملة وقد زاد على ذلك أن تناول مبنى الكلمة واشتقاقها ثم تناول المجازات في الكلام العادي. وقد أشار إلى وجود المجازات وان هناك طرقاً للتعبير في القرآن مشابهة للتعابير عند العرب، وفي الوقت ذاته كان معجزاً لهم عن التقليد، وفي القرآن مثل ما في كلام العرب يقول ابن قتيبة:

«وبكل هذه المذاهب نزل القرآن ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء عن الألسنة كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله تعالى بالعربية»[2].

ولم تكن جهود ابن قتيبة وحيدة في هذا المجال خلال هذه الفترة من

---

(١) مشكل القرآن لإبن قتيبة ص ٣٨.
(٢) مشكل القرآن لإبن قتيبة ص ٤١.

تاريخ جهود السلف بل سبقتها جهود عديدة مثل جهود أبي عبيدة في كتابه (المجاز في القرآن) عام ثمان وثمانين ومائة، وهو من أعلام البصرة ذلك ما أشار إليه ياقوت الحموي.

ويؤكد صحة ذلك ابن خلكان أنه ألف مجاز القرآن وغريب القرآن ويبدو من تناقص الرأيين أنهما كتاب واحد.

ويذكر الدكتور أحمد مطلوب في كتابه القزويني وشروح التلخيص:

«ولعل أول ما وصل إلينا من الكتب وفيها مسائل بلاغية كثيرة كتب التفسير الأولى (معاني القرآن للفراء) سنة ٢٠٧ هـ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة المثنى سنة ٢٠٨ هـ، وتأويل مشكل القرآن لإبن قتيبة سنة ٢٧٦ هـ، والكامل لمحمد بن يزيد المبرد ٢٨٥ هـ، والبيان والتبين للجاحظ سنة ٢٥٥»[١].

تناول أبو عبيدة مسائل عامة في الأسلوب أتت عرضاً في تفسيره فتعرض للإيجاز والأطناب، وخلاصة القول في كتاب المجاز أنه كان خطوة في سبيل الكلام وطرق القول، وقد حاول أن يكشف عن بعض ما جاء من ذلك في أسلوب القرآن مع مقارنة بما جاء في الأدب العربي.

ثم أن باب تأويل المشكل وهو استحالة نظام أعجاز القرآن للأنس والجن، وما جاء به من الدراسات للأسلوب والنظم فهي مقدمات وتمهيدات لهذا الباب، وبعد ذلك تناول أسلوب القرآن خلال الأبواب الثلاثة الأخيرة تعرض فيها للفظ بأقسامه الإسم والفعل والحرف من الناحية اللغوية، وتمثل هذه الجهود نهاية المرحلة الأولى للدراسات القرآنية والتي بدأت بأبي عبيدة وانتهت بابن قتيبة.

---

(١) القزويني وشروح التلخيص: الدكتور أحمد مطلوب ص ٣٩.

ق ـ قدامة بن جعفر:

هو أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد، صاحب أول كتاب تناول نقد الشعر على غير ما ألفه الناس في تراثنا العربي وهو المتوفي سنة ٣٣٧ هـ.

دخل في الإسلام على يد الخليفة المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥) هـ واشتهر بثقافته المتنوعة والمعمقة بالفلسفة والمنطق، وقد دفعه عمله في الديوان العباسي إلى تأليف كتابه في الخراج، ومما يذكره ياقوت الحموي في معجم الأدباء، أن قدامة أدرك ثعلبا والمبرد وأبا سعيد السكري وابن قتيبة، ويقول الأستاذ كمال مصطفى: «وهذا القول يدلنا على أنه ولد سنة ٢٦٥ هـ فابن قتيبة توفي سنة ٢٧٦ وثعلب توفي سنة ٢٩١ وان قدامة قد أدرك ابن قتيبة وهو في الحادية عشرة وأدرك ثعلبا وهو في السادسة والعشرين تقريباً»[1].

كان قدامة من أوسع أهل زمانه علماً، وأغزرهم مادة، وأحسنهم معرفة، وقد أخذ نصيباً وافراً من الثقافة الفارسية والعربية ونبغ في اللغة والأدب والفقه والكلام والفلسفة والحساب، وكان ذكياً سليم الطبع قويم الخلق، شديد الشغف بالإطلاع والتحصيل.

يقول ابن النديم في الفهرست: «وكان قدامة بن جعفر أحد البلغاء والفصحاء والفلاسفة الفضلاء، وممن يشار إليه في علم المنطق...»[2] نشأ قدامة في بغداد، وفيها قرأ واجتهد وحصل، وبرع في صناعتي البلاغة والحساب والشعر والمنطق، وفي زمانه كبر شأن البلاغة كفن بين الدارسين، فجاء قدامة وكان له نصيب كبير في البلاغة والنقد.
فذاع صيته وعلا شأنه منذ الخليفة المستكفي بالله العباسي.

---

(١) معجم الأدباء في حياة قدامة نيالوت الحموي طبعة القاهرة جـ ٧ / ١١٧.
(٢) الفهرست لإبن النديم ص ٢٣١.

ومما جاء به الأستاذ كمال مصطفى من أن قدامة قد أثنى عليه ابن النديم صاحب الفهرست والحريري في ديباجه كتاب المقامات، والمطرزي في شرح المقامات الحريرية: «أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد الكاتب البغدادي المضروب به المثل في البلاغة، وقيل: هو أول من وضع الحساب»[1].

جهود قدامة اللغوية:

يتقدم قدامة بن جعفر بجهوده اللغوية طليعة الباحثين في القرن الرابع الهجري، ولنظرية قدامة اللغوية في صناعة الشعر قيم علمية هامة قديماً وحديثاً ومستقبلاً تمتد بأصولها إلى أحدث النظريات اللغوية المعاصرة.

تناول قدامة بن جعفر قضيتي اللفظ والمعنى تناول الخبير العارف لمقادير أعماله النقدية، فأعطى للفظ أهمية كبيرة وأولى المعاني عناية فائقة، وتنبه لحالات الإئتلاف بينهما في صناعة نظم الشعر.

جعل للألفاظ صفات وللمعاني نعوتاً كي يميز المرء جيدها من رديئها، فالمعاني عنده أقسام وأنواع لها مميزاتها ونعوتها الكثيرة التي تكاد لا تحصى.

نجد هذا واضحاً في قوله:

«ولما كانت أقسام المعاني التي يحتاج فيها إلى أن تكون على هذه الصفة مما لا نهاية لعدده، ولم يمكن أن يؤتى على تعديد جميع ذلك كي يبلغ آخره»[2].

ولهذه الآراء ما يماثلها عند الجاحظ بقوله:

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ـ الدكتور شوقي ضيف ص ٨٦.

(٢) نقد الشعر قدامة بن جعفر ص ٦١.

«المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك وإنماءالشعر صياغة»[1].

وهذه المعاني بشتى أنواعها وأقسامها لها ما يماثلها من اللفظ، فالمعاني الجيدة لها ما يماثلها من اللفظ الجيد.

«أن يكون اللفظ سمحاً، وسهلاً، مخارج الحروف من مواضعها عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة»[2].

تتجلى براعة قدامة اللغوية بإخضاعه المعاني والألفاظ إلى حالة ائتلاف والتحام ونسبية في صناعة الشعر إذ جعل لصناعة الشعر حداً ونظاماً وكأنها عملية حسابية أو صناعة، بل أشغال يدوية فيوضح هذه الطريق لنظم الشعر بقوله:

«إن أول ما يحتاج إليه في العبارة عن هذا الفن معرفة حد الشعر (الحائز) له عما ليس بشعر، وليس يوجد في العبارة عن ذلك أبلغ ولا أوجز مع تمام الدلالة من أن يقال فيه أنه قول موزون مقفى يدل على معنى، فقولنا: قول دال على أصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس للشعر، وقولنا موزون يفصله مما ليس بموزون إذ كان من القول موزون وغير موزون، وقولنا مقفى فصل بين ما له من الكلام الموزون قواف وبين ما لا قوافي له، ولا مقاطع، وقولنا يدل على معنى يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى فإنه لو أراد مزيد أن يعمل من ذلك شيئاً كثيراً على هذه الجهة لأمكنة وما تعذر عليه»[3].

---

(١) نقد الشعر- قدامة بن جعفر ص ٢٦.
(٢) نقد الشعر- قدامة بن جعفر ص ١٥.
(٣) كتاب الحيوان: للجاحظ جـ ٣ / ١٣١.

يفرق قدامة بين صياغة عبارة من العبارات وبين صياغة الشعر بوجود معايير لنظم الشعر، منها أن يكون قولاً موزوناً مقفى يدل على معنى، وهذه الحدود المجتمعة في صناعة الشعر لا تتوفر في صياغة الخطب أو المقامة أو القصص أو في نظم القرآن الكريم، فحدود الشعر معروفة يمكن للمرء أن يدركها ويمكن لمن يهوى الشعر أن يجري حظه في صياغة بيت أو قصيدة وستتراوح هذه الصنعة بين الجودة والرداءة.

«ولما كانت للشعر صناعة وكان الغرض في كل صناعة إجراء ما يصنع ويعمل بها على غاية التجويد والكمال، إذ كان جميع ما يؤلف ويصنع على سبيل الصناعات والمهن له طرفان، أحدهما غاية الجودة والأخرى غاية الرداءة، وحدود بينهما تسمى الوسائط... من تلك الغاية والبعد عنها كان الشعر أيضاً»[1].

يتضح لنا مما تقدم ذكره أن صناعة الشعر ونظمه هي صياغة لفظية حول معان مقصودة وذات دلالة على موقف وجداني معين يمكن تمثيلها بأي صنعة يدوية، ويمثل المعاني بالمادة الخاضعة للصنعة كمادة الخشب، وكالتصوير، وإذا أراد الإنسان أن يقول شعراً : «أن يتكلم فيه، إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعية والشعر فيها كالصورة، كما يوجد في كل صناعة من أن لا بد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها، مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة» وعلى الشاعر إذا رغب في طلب معنى من المعاني الحميدة أو الذميمة عليه أن يتوخى البلوغ من التجويد لفظاً ودلالة، إن معايير الشعر التي وضعها قدامة ينقصها شيء هام هو مادة الوجدان وليست القضية قضية أبنية وأوزان، بل هي مواقف إنسانية.

---

(١) نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر ص ١٦.

(٢) نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر ص ٧.

وجدير بالذكر الإشارة إلى قضية هامة عرض لها قدامة بن جعفر وهي حالة الإئتلاف بين اللفظ والمعنى، وحالة المقابلة بين الألفاظ والمعاني، فالنظم عنده حالة الإئتلاف بين الألفاظ والمعاني وذلك بعد أن يجعل المرء المعاني مقابلة الغرض المقصود، وعلى اعتبار المعاني موجودة في الطبيعة يدركها البادي والحضري، لها صورها في الأذهان فإذا طلبها كاتب أو شاعر أو خطيب أو أمير أو حقير، فما عليه إلا أن يختار لها للفظ المناسب للغرض المطلوب كي تصوره صورة بعد صورة، ومن نعت الإئتلاف اللفظ مع المعاني، المساواة:

«ومن أنواع ائتلاف اللفظ مع المعاني، المساواة وهو أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، وهذه هي البلاغة التي وصف بها بعض الكتاب رجلاً فقال، كانت الفاظه قوالب لمعانيه، أي هي مساوية لها لا يفضل أحدها على الآخر»[1].

بهذا ندرك أن قدامة بن جعفر قد أحس بوجود المقابلة بين اللفظ والمعنى ومجالات الإئتلاف الأخرى مثل الإشارة والأرداف.

وهو أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على معان كثيرة بإيماء إليها أو لمحة تدل عليها، أي الإكتفاء بالإشارة، ثم هناك الأرداف الذي هو نوع من ائتلاف اللفظ مع المعنى كما أشرت إليه سابقاً.

«وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له فإذا دل على التابع أبان على المتبوع»[2].

---

(١) نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر ص ١٧١.
(٢) نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر ص ١٧٨.

وينتقل قدامة بن جعفر إلى ائتلاف الوزن مع اللفظ، فيشير إلى الأفعال والأسماء في الشعر فيرى أن يكون مستقيمة تامة، كي لا يضطرب الأمر والوزن، كأن تأخذ الأفعال مواضعها والأسماء مواقعها كي تكون المعاني جلية بارزة، وكأن يكون الموصوف مقدماً والصفة مقولة عليها، وأن ترد وفق نظام مألوف.

يرى الدكتور شوقي ضيف في تفكير قدامة اللغوي أنه متأثر بالفكر اليوناني، وسيطر على فكره المنطق:

«وواضح أنه يستمد مباشرة من منطق أرسطو، وما ذكره عن الحدود والتعريفات وأجزائها التي تتكون منها... إذ تتكون من جنس وفواصل تصور جوهر ما تعرفه وعناصره التي تؤلفه، ولا يتركنا قدامة لإستنتاج هذه الدلالة بل يضع في أيدينا البرهان القاطع على أنه يستمد في حده من صورة الحدود اليونانية»[1].

ومن حالات الإئتلاف التي يعرضها قدامة هي حالة ائتلاف المعنى مع الوزن «كأن تكون المعاني تامة مستوفاة، ولم يضطر الوزن إلى نقضها على الواجب ولا إلى زيادة فيها عليه، وأن تكون المعاني أيضاً مواجهة للغرض، لم تمتنع عن ذلك ولم تعدل عنه من أجل إقامة الوزن والطلب لصحته»[2]

وينظم قدامة بن جعفر حالات الإئتلاف بين الألفاظ والمعاني إلى أقسام ويضع لكل حالة شروطاً وأسباباً، ومن أقسام الإئتلاف:

أ ــ ائتلاف اللفظ مع المعنى، ثم ائتلاف اللفظ مع الوزن، أضف إلى ذلك ائتلاف المعنى مع القافية، وبالتالي تصبح صناعة الشعر ونظمه أجناس

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ـ الدكتور شوقي ضيف ص ٨٠.
(٢) نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر ص ١٩٠.

عديدة جعلها ثمانية، ويعدد قدامة هذه الأقسام قائلا:

«ولما كان لكل واحد من هذه الثمانية صفات يمدح بها، وأحوال يعاب من أجلها، وجب أن يكون جيد ذلك ورديئه لاحقَيْنِ للشعر، إذ كان ليس يخرج شيء منه عنها، فلنبدأ بذكر أوصاف الجودة في واحد منها، ليكون مجموع ذلك إذا اجتمع للشعر كان في نهاية الجودة»(١).

ومن هنا تظهر عناصر نظريته في الشعر:

آ ـ ائتلاف اللفظ مع المعنى.

ب ـ ائتلاف اللفظ مع الوزن.

جـ ـ ائتلاف المعنى مع القافية.

د ـ ائتلاف المعنى مع الوزن.

وهذه العناصر الأربعة هي شروط ومعايير يخضع لها نظم الشعر بين الجودة والرداءة، والحياة والموت، بين جميع أوضاع التعبير مع حدود العلاقة الرابطة، من هذه الآراء جميعها تتضح لنا عناية قدامة بالمعنى، وجعله أساساً في نظريته للبناء اللغوي في الشعر، فللمعاني أحوال ونعوت، وهو أن يذكر الشاعر المعنى فلا يدع من الأحوال التي تتم بها صحته وتكمل معها جودته من هذه الصفات التي يذكرها للمعاني: المبالغة والتكافؤ والتتميم:

«وهو أن يذكر الشاعر المعنى فلا يدع من الأحوال التي تتمم بها صحته وتكتمل معها جودته شيئاً إلا أتي به»(٢).

---

(١) نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر ص ٢٤.
(٢) نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر ص ١٦٠.

ومن نعوت المعاني المبالغة: وهي أنواع ونعوت كأن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعره لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده، فلا يقف حتى يزيد معنى ما ذكره، من تلك الحال كأن يكون المعنى أبلغ فيما قصد له وأما بخصوص تكافؤ المعاني، هو أن يضيف الشاعر شيئاً أو يذم أو يتكلم فيه بمعنى ما أي معنى كان بمعنيين متكافئين، ولكن هذه المعاني لا بد أن تتناسب مع الألفاظ عندما يكون اللفظ قليلاً يشتمل على معان كثيرة، أو أن يشتمل على ألفاظ يسيرة حسب الموقف وحسب المناسبة.

والجديد في جهود قدامة بن جعفر اللغوية، نظرته الدقيقة المتفحصة لصياغة العبارة الشعرية والنقدية: ابتدأها بحالات الإئتلاف بين الألفاظ والمعاني مع الوزن والقافية، ثم المعاني وأقسامها.

إن دراسة قدامة هذه كانت أكثر وضوحاً وتقسيماً ودقة وتفصيلاً من كثير من الجهود السابقة كجهود الجاحظ وابن قتيبة.

وجد قدامة بن جعفر أن المعاني هي أساس للدراسة اللغوية؛ بحث قدامة ابن جعفر في بنية العبارة العميقة فهي الصانعة للبنية السطحية للجملة وهي دراسة ترشدنا إلى القواعد الصانعة لبنية الجملة العميقة والسطحية معاً بل وتساعدنا على تشكيل جمل جديدة وعديدة وخاصة التفعيلة والشطر ثم البيت الشعري مع القصيدة تمشياً مع المعاني وحسب الغرض، وميزة هذه الطريقة أنها تنظم الخطوات التركيبية ربطاً منظماً، كل خطوة فيها تعتمد على خطوة سابقة لها ثم تعطينا صورة واضحة للتركيب الزمني الذي تتكون منه بنية العبارة، فقد استطاع قدامة بن جعفر بنظريته تلك صناعة جمل لم يقلها أحد من قبل بل صناعة قصائد لم يقلها شاعر من قبل حسب الأغراض الشعرية المعروفة في عصره وبذلك تبرز القيمة العلمية التي نالتها نظرية حد

الشعر والتي ضمنها كتابه نقد الشعر. إن جهود قدامة هذه شبيهة بالقواعد التحويلية التوليدية عند اللغويين الغربيين اليوم، حيث يرى أحد علماء الغرب في الأبحاث اللغوية أننا عن طريق القواعد التحويلية التوليدية يمكننا توليد جمل لم يقلها أحد من قبل، بل وجمل لا حصر لها، ومن زعماء المدرسة التحويلية المشهورين (نوم تشومسكي وبنيامين رووف) كأن نضيف إسماً إلى فعل، ثم اسماً ثم فعلاً آخر أو فعلين أو إضافة إسمين فإننا نضاعف أعداد الجمل المراد صياغتها.

يقول الدكتور نايف خرما عن لسان هؤلاء:

«فإننا إذا أضفنا فعلاً آخر أو فعلين واسماً آخر أو اسمين فإننا نضاعف أعداد الجمل التي لا يمكن أن نركبها أو تولدها باستعمال هذه القاعدة، فإذا وصل عدد هذه الأسماء إلى ألف وعدد الأفعال إلى ألف أمكننا أن نولد مليوناً من الجمل باستعمال هذه القاعدة البسيطة»(١).

والمقصود بهذه القواعد هو قاعدة الخلق والتوليد للجمل وهي طريقة تركيب وتحليل للجمل اللغوية كأن نحلل ما قصدنا إليه.

الـ + اسم + فعل + الـ + اسم + فعلين + اسمين.

وبذلك تكون جهود قدامة اللغوية متقدمة على أحدث النظريات اللغوية المعاصرة فقد سبق قدامة إلى إخضاع المعاني إلى منهج لغوي مبتكر ليس للعرب عهد به، نفذ قدامة إلى جهوده قواعده اللغوية عن طريق حسه النامي وبصيرته الحادة، وبهذه الجهود يفتح للباحثين عهداً جديداً وآمالاً جديدة للوصول بالبحث اللغوي إلى جهود أفضل ونظرية لغوية أرقى.

---

(١) أضواء على الدراسات اللغوية ـ الدكتور نايف خرما ص ٣٠٤.

من خلال نظرتنا المتفحصة لجهود قدامة اللغوية في القرن الثالث الهجري وجزء من القرن الرابع، نجد أن قدامة قد أحس بوجود المقابلة بين اللفظ والمعنى وبحالات الإئتلاف بينهما، وهي آراء قريبة من حيث المنهج والإتجاه من جهود ابن قتيبة في حسن سبك الكلام، يرى قدامة أن حالة الإئتلاف هذه قضية عقلية بحتة، بحيث تكون المعاني مساوية الألفاظ، وأن تكون الألفاظ أردية للمعاني قدراً بقدر، لا تزيد ولا تنقص عنها حتى تحقيق المساواة الحقيقية بينهما، إذن هي: مسألة حسابية قياسية استبعدت الوجدان منها، وبذلك تكون الجملة بعيدة عن الذوق الأدبي.

ويشير معظم الدارسين إلى أن قدامة متأثر بالمنطق اليوناني المكتسب من آراء أرسطو من كتابي الخطابة والشعر، ويقول الدكتور شوقي ضيف: «أن في صناعة المنطق والنحو ما يغني عن الإفاضة في ذلك، وكأنه يشير إلى صنيع أرسطو في كتابيه الشعر والخطابة، من الوقوف الطويل عند هذه الجوانب وبذلك ينهي قدامة كلامه في صفات جودة الشعر وهي كما رأينا مقاييس لبلاغته منها ما تمثله من كتابي الخطابة والشعر لأرسطو ومنها ما تمثله من كتابات الجاحظ وابن المعتز والأصمعي وغيرهم من سابقيه»[1].

وجديرٌ بالذكر أن أعمال قدامة اللغوية قد ساهمت في عملية تطوير الدراسات اللغوية وخاصة دراسته للمعاني والتي استمر صدها حتى عهد ابن خلدون.

يقول ابن خلدون: «فالمعاني موجودة عند كل واحد، وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضي، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة، كما قلنا بمثابة القوالب للمعاني.

---

(١) البلاغة: تطور وتاريخ: الدكتور شوقي ضيف ص ٩١.
(٢) مقدمة ابن خلدون: ص ١١١١.

فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحر، منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد في نفسه.

وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الإستعمال تختلف باختلاف طبقات الكـلام في تأليفه وباعتبـار تطبيقه على المقاصد والمعاني واحدة في نفسها»(١)

ويلي جهود قدامة بن جعفر جهود المتكلمين أمثال الروماني والخطابي والباقلاني.

ط ـ تطور الدراسات اللغوية في القرن الرابع الهجري:

تعد الجهود اللغوية المبذولة في هذا القرن جهوداً متطورة، متقدمة على سواها في القرون السابقة، وهي دراسات، شارك فيها بعض المتفلسفة أمثال قدامة بن جعفر المتوفي ٣٣٧ هـ، وعدد من المتكلمين أمثال علي بن عيسى الروماني المتوفي سنة ٣٨٦ هـ وحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي والمتوفي سنة ٨٨ هـ، ومحمد بن يزيد الواسطي.

ومن المتأدبين أبو هلال العسكري الحسن بن عبدالله العسكري المتوفي سنة ٣٩٥ هـ صاحب كتاب الصناعتين، وقفت إلى جانب هـذه الدراسـات، دراسات أخرى قادها النقـاد، وفي طليعتهم أبو القـاسم الحسن بن بشر الأمدي صاحب كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري المتوفي سنة ٣٧١ هـ، وعلي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه المتوفي سنة ٣٩٢ هـ ثم أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتـاب

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص (١١١١).

الأغاني، وكذلك ابن العميد، وبديع الزمان الهمذاني.

تعد هذه المرحلة التاريخية من حياة فكرنا اللغوي فترة خصوبة، كان للنقاد فيها نصيب عظيم، فقد خصب النقد في هذا القرن واتسع أفقه، وتنوعت نظراته، واعتمد على مقاييس ومعايير أكثر دقة من مقاييس العصور السابقة، باعتماد النقاد على الذوق السليم والجوهر والروح وعلى مناحي العلم في الصورة والشكل والمضمون فيها التعليلات المنطقية، وفيها استقصاء للأفكار التي كانوا يعالجونها، وكانوا يأنسون بأساليب الجدل والحوار التي شاعت في عهدهم يصيغون نظراتهم وأحكامهم بها ضمن هذه الإعتبارات.

فالشعر في نظرة نقاد القرن الرابع الهجري، إصابة معنى وإدراك غرض بألفاظ عربية سهلة عذبة خالية من التكلف والتطويل والإخلال، وهو صحة سبك وحسن نظم وحلاوة نفس وقرب متناول، وقبل نهاية هذا القرن انقطع أثر المذهب المنطقي، مذهب قدامة بن جعفر. الذي تعد جهوده حلقة وصل بين القرنين الثالث والرابع الهجري.

ن ــ القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني:

هو أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني المشهور بالقاضي للقضاء في عهد الدولة البويهية في إيران، والمتوفي سنة ٣٩٢ هـ، ويقول المحقق محمد أبو الفضل لكتاب الوساطة أن مؤلف هذا الكتاب «هو أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، ولد في جرجان سنة ٣٩٠ هـ ونشأ بها، وكانت الدولة الإسلامية قد بلغت نضجها العلمي، وتعددت الحواضر الإسلامية تزخر بالعلم والعلماء، وأصبحت الرحلة سبيل التعلم والدرس، فجاب الأرض وزار العراق والشام والحجاز، ولقي مشايخ وقته وعلماء عصره

واقتبس العلوم والآداب، وصار فيها علماً وإماماً»[1].

وفي هذه المرحلة التاريخية من فكرنا اللغوي والنقدي، وصلت الجهود اللغوية والنقدية إلى درجة راقية جداً، فصار النقد خصباً، متسع الآفاق معتمداً على الذوق الأدبي السليم مؤتنساً بروح العلم في الصورة والشكل وامتازت أبحاث الدارسين باستقصاء البحث وشمول الفكرة والتوضيح والمقارنة والموازنة العام بين الشعراء، وفي طليعة الباحثين في تراثنا النقدي الثري أبو الفرج الأصفهاني، وابن العميد، والصاحب ابن عباد، وأبو علي الحاتمي والآمدي، وأبو الحسن الجرجاني، فقد كان أوسعهم أفقاً وأشملهم بحثاً.

الجهود اللغوية:

جعل كتاب الوساطة للحكم بين المتنبي وخصومه، وجعل كتاب الموازنة للمقارنة بين أعمال أبي تمام وأعمال البحتري، وهذان الكتابان يمثلان أرقى ما وصل إليه النقد اللغوي في القرن الرابع الهجري، وقد تصدى المفكران الجليلان لمسائل هامة بحثاً في مسائل بلاغية ولغوية واحدة ، وكثيراً ما انتهيا إلى رأي وحكم واحد، فكلاهما قد حلل ما ظهر في شعر المحدثين من خصائص بلاغية وسوء نظم، وضعف ورداءة وركاكة، وكل ما يهمنا من تلك الدراسات التي تناولوها الحقائق اللغوية التي وصلوا إليها، فقد أدرك الجرجاني مثلما أدرك الأمدي، أدركا، دور اللفظ في التعبير لإعتماد اللفظ على ما يثيره من المعاني في النفس ثم لما له من صلة بين المعاني المثارة وغيرها من معاني الألفاظ المنظومة في العبارة.

---

(١) الوساطة: للقاضي عبد العزيز الجرجاني ص ٩.
(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٢.

ولولا لطيف المعاني وإجادة الشعراء فيها واقبالهم عليها لما تفاوتت منازل الشعراء عند نقاد عصرنا، ويبدو أن آراء الأمدي أن البحتري قد فاق جميع شعراء عصره بما سبق ذكره من حسن الديباجة وكثرة الماء وقرب المأخذ وسلامة التعبير.

ويضيف النقاد بعد عصر قدامة بن جعفر آراء عديدة في صناعة الشعر، أنها صناعة لا تجود إلا بأربعة أشياء هي:

«جودة الآلة، وإصابة الغرض المقصود، وصحة التأليف، والإنتماء إلى نهاية الصنعة، من غير نقص منها ولا زيادة عليها»[1].

والذي يدقق في هذه الآراء في صناعة الشعر أو بناء العبارة الشعرية يدرك أنها متأثرة بآراء سابقة لها وجدناها عند قدامة، كأن يكون صاحب العبارة جيد اللغة قادراً على إصابة المعنى المقصود! أضف إلى ذلك صحة التركيب الخارجي للبنية، ثم الإنتهاء إلى الغرض.

ولا جديد في هذه العملية إلا أنها صنعة يستعان عليها بالفكر، وهذا ما أجمع (عليه شيوخ أهل العلم بالشعر) وهم الذين يقسمون فضائل الكلام إلى أقسام عديدة جعلوها خمسة أقسام فقالوا:

«إن فضائل الكلام خمس لو نقص منها فضيلة واحدة سقط فضل سائرها، وهي أن يكون الكلام صدقاً، وأن يوقع موقع الإقناع به، وأن يتكلم به في حينه، وأن يحسن تأليفه، وأن يستعمل منه مقدار الحاجة»[2].

يعرض الأمدي آراء عديدة وغالباً ما يتركها دون تعليل علمي لها، بل يوعز جَلَّ القضايا إلى الذوق والإحساس فهي المعيار الصحيح في نظم

---

(١) الأمدي ـ الموازنة ص ٢٥٢.
(٢) الأمدي ـ الموازنة ص ٢٥٤.

العبارة، بل على الشاعر والخطيب والكاتب أن يحسن التأليف ويصدق الخبر ويجيد الوصف.

«أن يحسن تأليفه، ولا يزيد فيه شيئاً على قدر حاجته، فصحة التأليف في الشعر وفي كل صنعة هي أقوى دعائمه بعد صحة المعنى وكلما كان أصح تأليفاً كان أقوم بتلك الصناعة مما أضطرب تأليفه»(١).

أدرك الأمدي وعلى نحو معين مكانة نظم العبارة من حيث التأليف وشكل البنية العميقة إلا أن هذه الآراء لم تمكنه من الوصول إلى نظرية ما.

أدرك الأمدي مثلما أدرك الجرجاني أن رداءة اللفظ وسوء التأليف يفسدان المعاني ويعتبر حسن التأليف براعة ومهارة يحسن استعمال اللفظ، بحيث يزيد المعنى وضوحاً وكشفاً وحسناً وبهاءاً وررونقاً.

أحس الأمدي بقضية ائتلاف اللفظ والمعنى، وجعلها سبباً في حسن التأليف وادرك أن هذا التآلف ناتج من صحة المعاني ووضوح الرؤية، وأن الإضطراب في اللفظ يعمي المعنى حتى يحتاج المستمع للكلام إلى تأمل. «وحسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاءاً وحسناً، وررونقاً حتى كأنه أحدث فيه غرابة لم تكن، وزيادة لم تعهد، وذلك مذهب البحتري»(٢).

وجدير بالذكر أن جهود الأمدي اللغوية والنقدية قد ساهمت بدفع عجلة التطور، ومهدت لغيرها من الجهود الجادة، فقد حصر جهوده النقدية بالتقيم العام مؤتنساً بروح العلم، معتمداً على الإحساس.

أدرك دور اللفظة في صياغة العبارة، وأدرك مكانة المعاني في نظم العبارة الشعرية، وطالب بأن يكون المعنى مكشوفاً، واللفظ مناسباً للغرض

الذي وضع لأجله، وألا تستعار اللفظة لغير ما هي له إلا إذا احتملت معنى يصلح لذلك الشيء الذي استعيرت لأجله ولاقت به وفق المقام وحسب مقتضى الحال.

وتنبه أيضاً إلى قضية بنية الجملة العميقة وما تتضمنه من معان حقيقية، وأن الكلام يجب أن يبنى على فائدة تامة غير ناقصة.

ذلك هو الكلام الذي يدل بعضه على بعض، ويأخذ بعضه برقاب بعض، وأن يكون القصد من تأليف العبارة الشعرية أو النثرية هو طلب المعاني، ساق الأمدي نصوصاً كثيرة إلا أنه لم يشر صراحة إلى أهمية المعاني الثانوية، أو معاني النحو، بل اكتفى بالإشارة إلى مواقع الألفاظ في مواقعها، وتلاحقها وتآخيها ومجاورتها للمعاني المرتبة في النفس.

ومما يلمسه المرء من تلك الجهود، أن الأمدي أدرك ما أدركه علماء المعاني كناقد بارع، من أنه علم يرشد إلى ما تحمله النصوص من دقيق المعاني وخفي الإيحاءات وذلك بدراسة هذه النصوص وتقليب دلالتها على وجوه مختلفة، وتوضح ما يعطيه متن النص أو جانبه. فعلم المعاني عنده يحدد معاني كل فن وما يجب على الشاعر أن ينشده وما على الخطيب أن يقوله، كون الغرض مواجهاً اللفظ المقصود.

علي بن عبد العزيز الجرجاني وجهوده:

في مقدمة الجهود التي بذلها القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني تناوله مواقع الكلام وهذا أمر تستحبه النفوس المهذبة وتستشهد عليه الأذهان المثقفة.

«وإنما الكلام أصوات محلها من الأسماع محل النواظر من الأبصار، وأنت ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن، وتستوفي أوصاف الكمال،

وتذهب في الأنفس كل مذهب، وتقف في التمام بكل طريق، ثم تجد أخرى دونها في انتظام المحاسن والتئام والخلقة، وتناسق الأجزاء، وتقابل الأقسام، وهي أحظى بالحلاوة وأدنى إلى القبول، وأعلق بالنفس، وأسرع ممازجة للقلب»[1].

يمثل هذا النص طبيعة اللغة كأصوات، ودورها كوظيفة تعبيرية تصويرية تستوفي أوصاف الكمال وتذهب في الأنفس كل مذهب، فاللغة في تعريف القاضي الجرجاني، أصوات ومعان لصور متحركة، وأخرى جامدة جيدة أو رديئة، حلوة أو بشعة، لينة أو صلبة، فكرة ولدت أم لم تولد فهي حس وحركة، أو ألم وفرح، فالمعاني هي صور نحركها ونبعث بها الحياة والوجود بواسطة تلاؤم الألفاظ مع المعاني، لتصبح صورة متكاملة أو صوراً متواصلة متلاحقة مقصورة على نفسها وليس ما يشابهها ويتم ذلك بترتيب الصياغة وفقاً لترتيب المعاني، ولنصل إلى أوصاف الكمال بل الوصول إلى الحقيقة وغاية ما في الأمر أن تقول:

«موقعه في القلب ألطف، وهو بالطبع أليق، كذلك الكلام منثوره ومنظومه ومجمله ومفصله، تجد منها المحكم الوثيق والجزل القوي، والمصنع المحكم والمنمق الموشح، قد هذب كل التهذيب، وثقف غاية التثقيف وجهد فيه الفكر، وأتعب لأجله الخاطر»[2].

يبرز القاضي الجرجاني مزايا جيد الكلام المنظوم والمنثور ويجعل من تلك الميزات وسيلة وطريقاً لنظم أفضل أنواع الكلام وأحسنه، وهو اهتمام منصب حول الألفاظ التي تشكل البنية الظاهرية للجملة، من حيث الشكل

---

(١) كتاب الوساطة ـ القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ص ٤١٢.
(٢) كتاب الوساطة ـ القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ص ٤١٢.

والنظم والأحكام والرقة والدقة في الإختيار شارك الخاطر والإحساس بهذا الإختيار.

ودعم هذه البنية الموسيقى اللفظية الرتيبة التي تواكب الألفاظ وتنسجم مع المعاني، وترافق العواطف، وتلهب الإحساس.

وفي هذا الكلام نلمس إشارات إلى البنية العميقة ومستوياتها الصرفية والنحوية والدلالية، إلا أن التصريح في الرأي لم يكن على مستوى حسن الوضوح يدعمه رأي آخر.

«وأقل الناس حظاً في هذه الصناعة، من اقتصر في اختياره ونفيه وفي استجادته، استسقاطه على سلامة الوزن، وإقامة الإعراب، وأداء اللغة ثم كان همه وبغيته أن يجد لفظاً مروقاً، وكلاماً مزوقاً، قد حشي تبخيساً وترصيعاً وشحن مطابقة وبديعاً أو معنى غامضاً... ثم لا يعبأ باختلاف الترتيب، واضطراب النظم، وسوء التأليف، وهلهلة النسج ولا يقابل بين الألفاظ ومعانيها، ولا يسبر ما بينهما من نسب، ولا يمتحن ما يجتمعان فيه من سبب، ولا يرى اللفظ إلا ما أدى إليه المعنى، ولا الكلام إلا ما صور له الغرض»[1].

يطلب صاحب الوساطة من ناظم الشعر، وكاتب العبارة، وقائل الخطبة أن يهتم بالمعنى، بقدر اهتمامه باللفظ، وأن يحسن المقابلة بينهما وأما من يقصد اللفظ على حساب المعاني، بأن يجعل الكلفة في العبارة هدفاً فإن ذلك سيبعده عن الهدف المقصود، وهي زخرفة وصنعة واهتمام قد أوصل المعنى إلى درجة المبالغة، وهو ما لا يقبله ناقد القرن الرابع الهجري، يتضح للمرء أن ما أراده الجرجاني أن تأتي الألفاظ قدر المعاني

---

(١) الوساطة ـ القاضي علي بن عزيز الجرجاني ص ٤١٣.

لا تزيد ولا تنقص عنها، تؤدي المعنى بجدارة.

ولا يرى اللفظ إلا ما أدى إليه المعنى... ولا الكلام إلا ما صور الغرض،ويستأنس القاضي الجرجاني في دراسته هذه بالروح العلمية التي سادت عصره بقوله:

«فأنا أول موافق لك على ما ادعيته وراض منك بالمقدار الذي أوردته غير أن العصبية ربما كدرت صفو الطبع، وفلت حدّ الذهن، ولبست العلم بالشك، وحسنت للمنصف الميل، ومتى استحكمت رسخت وصورت لك الشيء بغير صورته وحالت بينك وبين تأمله، وتخطت بك الإحسان الظاهر إلى العيب الغامض»[1].

ينبغي للمرء أن يدرك سوء النظم، وجودته، فإن رديء اللفظ يذهب حلاوة المعنى وأفسدت الذوق، فحسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى كشفاً وبهاءاً وحسناً ورونقاً حتى كأنه أحدث فيه زيادة لم تحصل، ونقصاً مشيناً، يفسد الصورة ويبعد فكرة التأمل.

وفي التأمل الدقيق لما مر من نصوص يتضح منها أن العرب في هذه المرحلة قد عرفوا مقاييس جمالية عرفتها دراستهم البلاغية، ومن هذه المقاييس معايير لغوية منها تماسك الكلام وشدة ارتباطه وأخذ بعضه برقاب بعض وكأنها أفرغ لينبوع واحد.

اهتم شعراء هذه المرحلة بالمعاني، مع جودة السبك، فالشعر في نظرهم كما اشرت سابقاً هو إصابة معنى وادراك غرض بألفاظ عذبة خالية من التكليف، وقد جعل أبو الطيب المتنبي الشعراء أمراء الكلام وأباح لهم التصرف على غير ما هو مألوف، وأن يتناولوا ما أرادوا عن قرب. «فيثقل كل مخفف، ويخفف كل مثقل، ويحذف ويزيد، ويغير الجموع ويتحكم في

(١) الوساطة ـ القاضي علي بن عزيز الجرجاني ص ٤١٤.

التصريف ويتعدى ذلك إلى حركات الإعراب، ويتجاوزه إلى ترتيب الحروف فلا بد من حد يقف عنده الشاعر وينتهي إليه الفرق بين النظم والنثر.... ويرجع إلى ما قالت العلماء فيه وما أجيز للمطر من التسهيل، وفضل به النظم من التسامح، وهي أبواب معروفة ووجوه محصور أكثرها»[1].

من هذا النص ندرك مقدرة نقاد القرن الرابع الهجري، على ضبط معايير النظم كشعر، ونظم العبارة كنثر، ويدركون اهتمامات الشعراء بالمعاني ومدى عنايتهم بالألفاظ، أن معاني النحو كنظام، ونظم الكلام وربط بعضه ببعض هي مقدرة تسابق بها الفصحاء والبلغاء... فهناك ضوابط وحدود لكل نوع من أنواع الصياغة شعراً كان أم نثراً.

بهذا القدر من الشواهد اللغوية عند علي بن عبد العزيز الجرجاني ندرك قيمة ما قدمه من جهود لغوية متقدمة على سواها عند نقاد هذه الفترة.

يشير الدكتور شوقي ضيف إلى جهود علي بن عبد العزيز الجرجاني وقدرته على إبراز اهتمام الشعراء بالمعاني في نظم الشعر ويخص بالذكر أبا الطيب المتنبي بقوله:

«ومعنى يصور المعاني المشتركة والمتداولة، مبيناً أن المتنازعين في هذه المعاني قد ينفرد أحدهم فيها بلفظ يستعذب أو ترتيب يستحسن أو زيادة يهتدي إليها فيصبح المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع»[2] يدرك المرء أن الجهود اللغوية في تطورها عملية فكرية متطورة وفقاً لتطور الحياة العامة، ولتطور العقلية العربية في العصر العباسي ، وبالخصوص في القرن الرابع الهجري، حيث حفل هذا العصر بأمراء الشعر ونقاده.

وتسير هذه التطورات بل وهذه الجهود إلى مدى حرص العرب على

---

(١) الوساطة ـ علي بن عبد العزيز الجرجاني ص ٤٥٣.
(٢) البلاغة تطور وتاريخ.

تجويد لغتهم وتحسينها كي تساير حركة الحياة العامة.

ف ـ الجهود اللغوية عند الحسن بن بشر الأمدي:

الأمدي: هو أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الأمدي عربي الأصل بصري المولد صاحب كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري، والمتوفي سنة ٣٧٠ هـ للهجرة له مصنفات أخرى في اللغة والشعر منها كتابه (المؤتلف والمختلف).

أخذ العلم عن الأخفش والزجاج، وابن دريد، كان حسن الفهم واسع الإطلاع، ويعتبر كتابه الموازنة بين أبي تمام والبحتري، من الكتب النقدية الهامة في القرن الرابع الهجري.

ألف الأمدي كتاب الموازنة في المقارنة بين أعمال أبي تمام الشعرية وأعمال البحتري وتناول مسائل لغوية هامة، ومن الدارسين يعتبرها من صميم البلاغة، وآخرون يجعلونها في ميادين النقد، ومن خلال هذه الإتجاهات نختار بعض الجهود اللغوية الهامة: وهي المقابلة بين الألفاظ والمعاني.

يرى نقاد هذه المرحلة، نظم الشعر هي إصابة معنى وإدراك غرض بألفاظ عذبة خالية من التكلف والتطويل والاخلال، وهي صنعة لغوية فيها صحة سبك وحسن نظم وحلاوة نفس وقرب متناول وانكشاف عرض وكثرة ماء وصحة طبع، يقول الآمدي:

«فهذا هو الكلام الذي يدل بعضه على بعض، ويأخذ بعضه برقاب بعض إذا أنشدت صدر البيت عملت ما يأتي في عجزه، فالشعر الجيد أو أكثره هذا مبنى، وليست بنا حاجة إلى الزيادة في التمثيل على هذه الأبيات»[1].

---

(١) الموازنة : الأمدي ص ٨.

تناول الآمدي الألفاظ والمعاني في دراسته تناولاً ينم عن المعرفة والعلم الدقة والوضوح، لأن دراسته النقدية كانت تتناول الألفاظ والمعاني، وهي مادة الشعراء وعدة الخطباء وحجة النقاد، ودليلهم إلى قيمة النص ومقوماته: وفي حديث الآمدي عن اللفظ ودوره في النظم بقوله:

«هذه ألفاظ صنعتها صنعة الحقيقة، وهي بعيدة عن المجاز، لأن المجاز في هذا له صورة معروفة، وألفاظ مألوفة معتادة، لا يتجاوز في النظر بها إلى ما سواها وهي قول الناس: عشنا في خفض ودعة زماناً طويلاً عريضاً وما زلنا في رخاء ونعمة، الدهر الطويل العريض وإنما أرادوا إتمامه وكماله وسعته»[1].

فالدقة في أبحاث الآمدي واضحة في ترتيبه الفكري وفي عرضه للفظ، إن الكلام أولاً وأخيراً مبني على الفائدة في حقيقته ومجازه، إذا عدل الكلام عن هذه الطريقة إلى ما يشابه الحقيقة أو ما يقاربها كان الخطأ يقول الآمدي:

«فإن قيل، لا يدل قول الشاعر في كلمة (الأرض) هو لفظ عموم البلدان التي هي مخصوصة، ولا يكون اللفظ إلا هكذا أن يريد القائل لفظة تدل على معنى، ويأتي بأخرى ليست فيها على ذلك المعنى دلالة»[2].

فالدقة المتناهية في استعمال اللفظ كي يؤدي دلالته، هي الطريقة المثلى عند الآمدي، فهو يهدف من وراء ذلك، أن يؤدي اللفظ حقيقة ما جعل إليه من معنى، وإذا استعمل اللفظ لغير ما هو له من دلالة تعد مستعاراً شريطة أن يصلح لذلك الشيء.

يعتقد الآمدي أن الكلام المبني على الفائدة يجب أن يدل بعضه على

---

(١) معجم الأدباء ـ ياقوت الحموي جـ ٨ / ٧٥.
(٢) الموازنة ـ الآمدي ـ ص ٢٤١ و١٦١ و١٦٧.

بعض ويأخذ بعضه برقاب بعض، وأن تعلق كل لفظة بما يليها ومن أقواله:

«فإن قال قائل: إن هذا الذي انكرته وذممته في الأبيات المتقدمة وفي هذا البيت من تشبث الكلام بعضه ببعض، وتعلق كل لفظة بما يليها وادخال كلمة من أجل أخرى تشبهها وتجانسها، هو المحمود من الكلام، وليس من المعاظلة في شيء»[1].

إن هذا الاعتقاد وحده غير كاف، لفقدان عنصر هام في الموضوع ألا وهي المعاني، فهي عماد دراسته، بل الجوهر الذي بنى عليه دراسته فيقول:

«ألا ترى أن البلغاء والفصحاء لما وصفوا ما يستجاد ويستحب من النثر والنظم قالوا: هذا كلام يدل بعضه على بعض وأخذ بعضه برقاب بعض.

قيل: هذا صحيح من قولهم، ولم يريدوا هذا الجنس من النثر والنظم ولا قصدوا هذا النوع من التأليف، وإنما أرادوا المعاني»[2].

يضع الآمدي طلب المعاني شريطة أن تقع الألفاظ في مواقعها، وأن تأتي الكلمة مع أختها المشاركة لها التي تقتضي أن تجاورها لمعناها: إما على الاتفاق أو على التضاد حسبما تقتضيه طبيعة الكلام، إنما أرادوا المعاني إذا وقعت ألفاظها في مواقعها وجاءت الكلمة مع أختها المشاركة لها التي تقتضي أن تجاورها لمعناها: إما على الاتفاق أو التضاد حسب توجيه قسمة الكلام وأكثر الشعر الجيد هذا سبيله.

يتضح من كلام الآمدي وآرائه المتفاوتة والمتصفة بالدقة والوضوح، إنه كان ينشد المعنى داخل ألفاظ معبرة عن المعنى بوضوح، ورأى أن في حسن نظم صياغة العبارة حسناً ما بعده حسن إذا طلب المعبر المعنى مع

---

(١) الموازنة ـ الآمدي ـ ص ١٦٧.
(٢) الموازنة ـ الآمدي ص ٢٣٩ ـ ٢٣٩.

الألفاظ المعبرة عن المقاصد، وبالخصوص إذا وقعت الألفاظ في أماكنها ومكنت من الغرض في مواقعها، وجاءت اللفظة مع أختها المشاكلة لها في الحسن والقدرة على التعبير، وفي مواقع تقتضي كونها هناك حسبما تقتضيه المعاني، ثم وفقا لما ترتضيه قسمة أنواع الكلام قال الآمدي:

«ينبغي لمن نظر في هذا الكتاب أن لا يعجّل بأن يقول: هذا مأخوذ من هذا حتى يتأمل المعنى دون اللفظ، ويعمل الفكر فيما خفي، وإنما السرقة في الشعر ما نقل معناه دون لفظه، وأبعد آخذه في آخذه قال: ومن الناس من يبعد ذهنه إلا عن ـ ..... وقال وفي الناس طبقة أخرى يحتاجون إلى دليل من اللفظ مع المعنى»[1].

يلاحظ المرء من هذا النص وسواه، أن الآمدي من أنصار المعاني وتارة أخرى من أنصار الصياغة التي لا تعطي للفظ مزية على المعنى، ولا للمعنى مزية على اللفظ، فكلاهما قطب من أقطاب الدراسة النقدية واللغوية وهما عناصر للصياغة، ويقصد الآمدي بالمعنى المعنى المجرد دون معاني النحو والصرف، قال الآمدي:

«إن كلمة دون معناها التقصير عن الغاية، وليست من الأضداد في شيء إنما اعتبرها اللغويون منها لما رأوها تستعمل في وجوه مختلفة»[2].

تبرز دقة استعمال اللفظ في صياغة العبارة الشعرية عند البحتري فيفوز بالمنزلة الأولى عند الآمدي ويعتبر أسلوبه أسلوب العرب الصحيح.

فشعر البحتري حلو اللفظ، حسن الديباجة، كثير الماء، جميل الوصف قريب المتناول.

---

(١) الآمدي ـ الموازنة ص ٢٨٨.
(٢) الآمدي ـ الموازنة ص ١٦٢.

«وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأني، وقرب المأخذ واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد. . . . فإن الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف وتلك طريقة البحتري»[1].

وهذا الأسلوب أصيل يحتاج إليه الشاعر والخطيب، وأن أجود الشعر أبلغه، والبلاغة هي إصابة المعنى، وإدراك الغرض بألفاظ سهلة عذبة بعيدة عن التكلف.

س ـ النكت في إعجاز القــرآن:

هذا الكتاب لأبي الحسن بن عيسى الرماني المتـوفي سنة ٣٨٤ هـ للهجرة، كان الرماني نحوياً متكلماً، شغوفاً بالمنطق وباللغة ضليعاً، بالنحو بارعاً، وإماماً للشرح القرآني والحديث، وهو معتزلي المذهب، له مصنفات كثيرة في التفسير واللغة والنحو وقد تحدث عنه صاحب معجم الأدباء قائلاً:

«كان الرماني إماماً في علم العربية، علامة في الأدب، في طبقة أبي علي الفارسي وأبي سعيد السيرافي، وله تصانيف في جميع العلوم: من النحو واللغة والنجوم والفقه والكلام على رأي المعتزلة وكان يمزج كلامه في النحو بالمنطق»[2].

من مصنفاته رسالة النكت في إعجاز القرآن، يستهلها برد هذه النكت إلى سبع جهات منها:

«ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة والتحدي للكافة والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ونقص العادة

---

(١) الآمدي ـ الموازنة ـ ص ٣٥١.
(٢) معجم الأدباء ـ ياقوت الحموي جـ ١٤.

وقياس القرآن بكل معجز»[1].

ويهمنا من هذه الرسالة حديث الرماني عن البلاغة وتقسيمه إياها إلى ثلاثة طبقات فيها جهود لغوية بارزة، تمثل طبيعة المستوى اللغوي في عصره.

الجهـــود اللغويـــة:

يستهل الرماني رسالته بالحديث عن البلاغة، فيتعرض للمعاني وأهميتها وإلى الألفاظ ودورها الدلالي، ثم دور البلغاء في صنع البلاغة لمعرفة الإعجاز، وخدمة القرآن الكريم، جعل الرماني بلاغة البلغـاء من الناس ممكنة، وإن أعلى طبقات البلاغة هي بلاغة القرآن، وهدف البلاغة هو إيصال المعنى إلى القلوب في أحسن صورة من اللفظ، فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن، وهي بلاغة خاصة، ثم جعل هذه البلاغة عشرة أقسام عـددها وهي على التـوالي الإيجاز والتشبيـه والاستعـارة، والتـلاؤم، ثم الفواصل، والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان.

يقول الرماني في البلاغة وتقسيماتها في عصره:

«فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس، وليست البلاغة إفهام المعنى لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عي، ولا البلاغة أيضاً بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنه قد يتحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف، وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن

---

(1) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٣.

صورة من اللفظ، فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم... والبلاغة عشرة أقسام»[1].

نخلص من تقسيم الرماني للبلاغة من أنها ثلاثة طبقات ثم من حيث الفروع هي عشرة أقسام، ثم نخلص إلى عمق فكرة الرماني، ونظرته الثاقبة من أن المعنى أساس في كل تعبير لغوي، وإنما البلاغة في إيصال المعنى إلى القلب بأحسن صورة دون مبالغة أو قصور بحيث يستوي الناس جميعاً في فهم المعاني فهماً واحداً، ولا يتأتى هذا بالعناية اللفظية على حساب المعاني، بل بالعناية لكل من اللفظ والمعنى قدراً بقدر ولا نجد مثل هذا الأسلوب من حيث المستوى إلا في أسلوب القرآن الكريم وهو الأسلوب البليغ المعجز، وبهذه الآراء يتجاوز الرماني كل الآراء السابقة في تعريف البلاغة.

يقول الدكتور محمد زغلول سلام:

«ولا يأخذ الرماني بأقوال السابقين في البلاغة، فيما ورد عن بعضهم في صور مقتضبة متواترة ذكر أكثرها الجاحظ في البيان والتبيين ومنها أنهم كانوا يسألون عن البلاغة فيجيبون: هي إفهام المعنى وهي تحقيق اللفظ على المعنى، ولكن الرماني يرى أن البلاغة ليست مجرد إفهام المعنى لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عي»[2].

وقد جعل الرماني هذه القسمة البلاغية مظهراً من مظاهر القرآن وحجة من حجج الفنون اللغوية، وفي هذه الآراء عمق فكري ونظرة عميقة، من

---

(١) ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن ص ٧٥.
(٢) أثــر القرآن في تطور النقد العربي ص ٢٣٥.

أن البلاغة ليست بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره، أو نافر متفكك، من أن البلاغـة هي إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة وهو الجديد في فكر الرماني اللغوي، من أن الكلام في الأصل موضوع للابانة عن الأغراض التي في النفوس وذلك بأن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب، ومن جهوده اللغوية البارزة في هذا المثال باب الإيجاز.

الإيجـــاز :

وقد عرفه بأنه التقليل من الكلام دون إخلال بالمعنى أو القصر، وهو بناء الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف ويضرب أمثلة لذلك: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ فيقول: «الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة، ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز، والإيجاز على وجهين، حذف وقصر، فالحذف إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام. والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف»(١).

يتضح من هذا النص أن الرماني أولى اهتماماً بـالغاً لبنيـة الجملية الخارجية والعميقة، من حيث الشكل الخارجي ومن حيث المعنى يتمسك الرماني بحكمة قديمة عند العرب في الجاهلية (البلاغة الإيجاز).

ويقول شوقي ضيف: «وبذلك صور الرماني الإيجاز تصـويراً نهـائياً بحيث لم يضف إليها البلاغيون شيئاً، وقد مضى يفرق تفريقاً بينـاً بين

---

(١) ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن ـ محمد زغلول سلام ـ ص ٧٦.

الإيجاز والإفلال والأطناب والتطويل».

ويرى شوقي ضيــف:

«إن حسن البيان على مراتب، فاعلاها ما اكتملت فيه البلاغة، من جمال التعبير وروعة الأداء، وكأنما يلتقي عنده حسن البيان بما سماه التلاؤم، مما يجمع في أسلوبه بين جمال التأليف وأحكام التعبير، وجودة اللفظ وصفاته وتقاسيمه»[1].

ومن جهود الرماني اللغوية الهامة، هي قضية التلاؤم، وهي حسن النظم وجودة الرصف، ويستوحي شيئاً من أفكار الجاحظ وآراء قدامة في قضية تلاؤم اللفظ مع المعنى، يتحدث عن تنافر الحروف والكلمات، وما ينبغي أن يكون الكلام عليه من تلاحم كي يكون مسبوكاً سبكاً دقيقاً، ويجعل الرماني هذه الحالات أقساماً ومراتب.

آ ــ متلائم في الطبقة العليا وتدخل فيه فصاحة البلغاء.

ب ــ متنافر يستثقله اللسان، وتمجه الأذان.

جـ ــ ومتلائم في الطبقة العليا وهو أسلوب القرآن الكريم تصغي إليه القلوب وفي رأيه أن التلاؤم حالة لغوية، تمس تعديل الحروف وتأليف الكلام بقوله:

«والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله، وذلك بين لمن تأمله، والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى، وبعض الناس أشد إحساساً بذلك وفطنه له من بعض، كما أن بعضهم أشد إحساساً بتمييز الموزون في الشعر من

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ـ الدكتور شوقي ضيف ص ١٠٧.

المكسور واختلاف الناس في ذلك من جهة الطباع كاختلافهم في الصور والأخلاق...... والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ، وتقبيل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة..»[1].

إن التلاؤم هذا هدفه تحقيق الكلام لدوره من الدلالة والإفهام، وبمستويات عديدة منها تلاؤم الأصوات وتدرجها وتدفقها نحو الأسماع وما يحققه من إنسجام نفسي، ثم المستوى النحوي والصرفي ومدى وقع الكلمات في الفكر بين مفرد ومذكر وجمع ومثنى الخ، ثم المستوى الدلالي من حسن للصورة المطلوبة بحيث يقع المعنى في نفس القارىء والسامع على نفس الدرجة من الفهم والإلمام والإفهام، بهذا يضع الرماني الكلام البليغ في المرتبة الوسطى دون مرتبة أسلوب القـــرآن.

يرى الرماني أن بعض الأسباب المؤدية إلى هذا التلاؤم عائدة إلى موهبة الموجهيين في التعبير، يتحقق لدى البعض بالفطنة وشدة الإحساس، ثم هناك سبب آخر كان قد سبق إليه الخليل بن أحمد هو مخارج الحروف وتناسبها بين البعد والطول والقصر والقرب والاعتدال في الأمور هو مطلب عند الرماني، ذلك ما أشار إليه الجاحظ عندما تناول قضية تنافر الحروف والكلمات وما ينبغي أن يكون الكلام عليه، فذكر الوحشي، واللفظ المتوعر، دون أن يعلل لهذه الوعورة، لكن الرماني أضاف لجهود السابقين في هذا الميدان تعليلات للتنافر والتلاؤم وسلامة اللفظ ورقته وحلاوته يقول الرماني:

«ومخارج الحروف مختلفة، فمنها ما هو من أقصى الحلق ومنها ما هو من أدنى الفم، ومنها ما هو في الوسائط، ومنها ما هو في الوسائط بين

---

(١) ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن ص ٩٥ ـ الدكتور محمد سعد زغلول سلام.

ذلك، والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد ويظهر بسهولته على اللسان وحسنه في الاسماع وتقبله في الطباع فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام»[1].

يعتبر الرماني باب الفصل وفنه نوعاً من أنواع السلوك اللفظي والمستوى الموسيقي المؤثر في النفس وفي الطباع، من حيث جرس الحروف وأثر وقعها رتيبة في النفوس، عندما فرق بين الفاصلة والسجع من حيث الدور الوظيفي قال:

«الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن الإفهام للمعاني والفواصل بلاغة، والإسجاع عيب، ذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وإما الاسجاع فالمعاني تابعة لها، وهو قلبه توجيه الحكمة في الدلالة إذا كان الغرض الذي هو حكمه هو الإبانة عن المعاني التي الحاجة إليها ماسة، فإذا كانت المشاكلة وصلت إليه فهو بلاغة»[2].

المراد من هذا القول إيضاح دور السجع والفواصل وما تحققانه من جو موسيقي داخل نص من النصوص لإيضاح المعاني.

ويتناول الرماني في كتابه قضايا عديدة أخرى غير موضوع التلاؤم مثل باب الفواصل لشدة أهميته بموضوع المعاني، ثم يوضح الفرق بينه وبين السجع، فيجعل البلاغة خاصة بالفواصل، توجب حسن الإفهام، ويقول كل فواصل القرآن بلاغة.

«وفواصل القرآن كلها بلاغة، وحكم، لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها»[3].

(١) ثلاثة رسائل في الإعجاز القرآن ص ٩٦ ـ ٩٧.
(٢) ثلاثة رسائل ـ الدكتور محمد سعد زغلول سلام ص ٩٨ / ٩٩.
(٣) نفس المرجع ص ١٠١

وينتقل بعد ذلك للحديث عن باب التجانس، وهو جانب لغوي هام يتناول الأسلوب ويجعله جانباً من أبحاث أو أقسام البلاغة. لما له من أهمية في صياغة العبارة وطرق تأديتها.

«تجانس البلاغة هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة والتجانس على وجهين، مزاوجة ومناسبه فالمزاوجة تقع في الجزاء كقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ فجاء على مزاوجه الكلام لحسن البيان، ومن قوله تعالى: ﴿مستهزئون، الله يستهزىء بهم﴾ و﴿مكروا ومكر الله، والله خير الماكرين﴾[1].

ومن الأبحاث اللغوية البارزة في الكتاب، باب التصريف، ويعنى هذا الباب بالمعاني وأقسامها ثم تصريفها كتصريف الأصل في الاشتقاق:

«التصريف تصريف المعنى في المعاني المختلفة، كتصريفه في الدلالات المختلفة، وهو عقدها به من جهة التعاقب، فتصريف المعنى في المعاني كتصريف الأصل في الاشتقاق في المعاني المختلفة، وهو عقدها به على جهة المعاقبة، كتصريف الملك في معاني الصفات»[2].

يقول الدكتور محمد زغلول سلام:

«والواقع أن الوزن والفاصلة في القرآن أكسبا نظمه قوة في التعبير، لأن انسياب النغم في الآيات بهما وتدفقه مع المعاني قوة ولين متمم للأثر القوي الذي يحدثه القرآن في نفوس السامعين عن طريق الحس السمعي»[3].

---

(١) سورة آل عمران ـ قرآن كريم ٣ / ٥٤.
(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص ١٢.
(٣) ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن ص ١٢ ـ ونظرية النظم ص ٢٤، وثلاثة رسائل محمد سعد زغلول ص ٢٧.

ويعتمد الجمال الصوتي على ما يحققه الصوت من الانسجام في الأذهان، بحيث يكون لصياغة العبارة نظم خاص، يحقق الانسجام النفسي، لكن يتصرف اللفظ والمعنى تصرفياً متناسباً في صياغة رتيبة.

ينتهي الرماني من أقواله السابقة إلى رأي هام في جمال التعبير وروعة أدائه، وكأنما يلتقي عنده حسن البيان وجودة اللفظ وتلائمه، واستواء تقاسيمه مع المعاني في النفس وبهذا يترك مجالاً واسعاً للباحثين بأن يتناول الدارس من أبحاثه الشيء الكثير. منهم من تناول أبحاثه من الجانب النقدي أو البلاغي أو اللغوي، وبهذه الأبحاث اللغوية نصل إلى جهود أخرى كان لها دورها في إثراء تراثنا اللغوي خاصة والفكري عامة هي جهود حمد بن حميد الخطابي

*** .... *** ... *** ... ***

بيـــان إعجاز القرآن

ش ـ لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي:

ولد حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البيستي سنة ٣١٩ للهجرة والمتوفي سنة ٣٨٨ هـ، وهو أحد أعلام الفكر الإسلامي في القــرن الرابع الهجري، وهو المعاصر بجهوده اللغوية لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني المتوفي سنة ٣٨٤م، امتازت دراسات الخطابي وكتبه بغزارة المادة، وعمق الفكر، ودقة الاستنباط، من كتبه المعروفة: (غريب البخاري) و(إعجـاز القرآن). يعتبر الخطابي من علماء المسلمين المجيـدين في البحث عن الإعجاز القرآني من وجهة النظرة اللغوية العلمية.

بدأ الخطابي رسالته بالكشف عن السبب الذي من أجله تناول إعجاز القرآن من حيث نظمه، وتعداد الوجوه التي بها كان القرآن معجزاً. وقد أعاب على المقلدين تصور كلامهم عن الإعجاز.

جهود الخطابي اللغويـــة :

تبرز أعمال حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي اللغوية في كتابه بيان إعجاز القرآن المتمثلة بجهوده اللغوية، وتتمثل هذه الجهود مرحلة متطورة في قضية النظم القرآني خاصة، والنظم عامة، بعنايته الفائقة للعلاقة التي

تربط الألفاظ بعضها ببعض داخل العبارة أو الآية، وقد قسم الكلام إلى ثلاثة أقسام: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لها ناظم، واللفظ والمعنى لا يفترقان.

لأن كل لفظ مقرون بمعنى خاص داخل الذهن، ولا يمكن للمعاني أن تقوم بدون ألفاظ.

يقول الخطابي عن نظم القرآن:

«وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجدل ولا أعذب من ألفاظه ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه»(١).

تناول رجال الفكر الديني في العالم الإسلامي القرآن الكريم باحثين عن أسباب إعجازه للإنس والجن على مدى العصور، فتعددت آراؤهم وتفاوتت جهودهم من طور الملاحظة والفكرة إلى طور الدراسات الناضجة والنظرية فقد ربطوا بين علاقة الفكر الديني واللغة المعبر عنها لأنها لغة القرآن، فأعانهم سر الارتباط على توضيح قمة الفكر الديني وقمة التعبير.

ومن هؤلاء الباحثين عن سر الإعجاز حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي تناول البلاغة بداية لدراسته كي ينتقل إلى فكرة النظم وهي الجديدة في بحثه، اعتمد البلاغة طريقاً للبحث على سنن الباحثين الأقدمين فقال:

---

(١) ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن ـ محمد زغلول سلام ص ٢٩.

«ثم أعلم أن عمود هذه البلاغة التي نجمع لها هذه الصفات، هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام، موضعه الأخص والأشكل به، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة، ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أغلب الناس إنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطابي كالعلم والمعرفة والحمد والشكر والبخل والشح، كالنعت والصفة وكقولك اقعدْ واجلسْ، وبلى ونعم، وذلك وذاك، ومن وعن، ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف والصفات»[1].

طابع بحوث إعجاز القرآن في القرن الرابع الهجري:

برزت في القرن الرابع الهجري دراسات لغوية شاملة لإعجاز القرآن من ناحية نظمه وطرق تعبيراته المختلفة، وهي دراسات سبق إليها الجاحظ في كتابه نظم القرآن وابن قتيبة في كتابه مشكل القرآن واستمر هذا النوع من الدراسات مدة طويلة خلال القرن الرابع والخامس الهجري واحتضن المعتزلة هذه الدراسات وأثروها من أجل خدمة القرآن الكريم وبالتالي خدمة اللغة وتطوير مقوماتها من نحو وصرف ولغة وبلاغة وبيان وبديع ودلالة ومعنى.

ظهرت في القرن الرابع دراسات علي بن عيسى الرماني ودراسات حمد ابن محمد بن إبراهيم الخطابي، وتعتبر جهود الباقلاني مرحلة هامة بين القرنين الرابع والخامس الهجري.

وقد امتازت هذه المرحلة بأنها محاولات خاصة بإدراك حقيقة إعجاز القرآن، ومعرفة أسرار أسلوبه، فسخروا منهج البيان لتقريب تلك الحقيقة للعقول، وارتبطت أبحاثهم بمناهج بلاغية ونقدية ولغوية، ربطت دراساتهم

بدراسات أعلام القرن الثالث والثاني الهجري، فكانت بطبيعة الحال روحاً فكرية مستمرة، مستمدة طاقتها من القرآن الكريم الذي كان له الأثر البالغ في تطوير فنون القول وأسرار الجمال في الأسلوب العربي.

تنبـه الرماني أن الكلام أربع أنواع، كلام وحال وإشارة وإعلام وهي فكرة أشار إليها الجاحظ:

«إن جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى النصبـة»[1].

ولجودة الكلام خصائص تتعلق بالصيغة، هي: حسن الوقع في السمع والخفة أو الفصاحة والبديهة، وحسن التقبل في النفس، وإن يكون المقال على قدر المقام.

ورأى أن القرآن اعتمد في تعبيره على التصوير الفني تدعيماً للمعاني.

وتأتي جهود الخطابي لتتمم جهود الرماني، ممهدة لنظرية النظم، وصلة الألفاظ بعضها ببعض في الآية، وتقسيم الكلام إلى أقسام ثلاث لفظ حامل ومعنى به قائم، وربط لها ناظم، وير ان سر الإعجاز في القرآن تتعلق بهذه الشروط: «إن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف متضمناً أصح المعاني»[2].

ومما تجدر الإشارة إليه هو فكرة النظم وشمولها للفظ والمعنى والأثر النفسي وللبلاغة وعدم إمكانة الفصل بين اللفظ والمعنى تجمعهما وحدة عضوية داخل النظم، هو الجديد في هذه المرحلة، ومن الأمور الهامة عند

(١) البيـان والتبيين جـ / ١ ص ٧٥.
(٢) ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن ـ محمد زغلول سلام ص ٢٧.

الخطابي في نظم القرآن، هو حسن يليق بالنظم وما يتضمنه من تلاؤم، فتأتي المعاني معبر عنها بألفاظ تماثلها في الحسن وتساويها في القدر والجودة، ويراعى فيهما حال مقتضى الحال من طرق الكلام والمتكلم والسامع، وكذلك بالنسبة للمعاني التي يراد التعبير عنها، ثم ما تتطلبه عناصر الأسلوب من مقومات ويقول الخطابي.

«فأما المعاني التي تحملها الالفاظ، فالأمر في معاناتها أشد لأنها نتائج العقول وولائد الإفهام وبنات الأفكار، وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لحام الألفاظ، وزمام المعاني، وبه تنتظم أجزاء الكلام، ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان»(١).

تتضح لنا من هذا النص، دقة التفكير وسعة الأفق في نظم العبارة فالمعاني هي نتائج العقول، وهي ولائد الإفهام وبنات الأفكار.

ثم إن الألفاظ مقترنة بالمعاني، كل لفظ فيها مقرون بمعنى خاص في الذهن وهي ألفاظ خاضعة للسياق ومقتضى الحال يجمعها النظم. والجديد في فكر الخطابي اللغوي: هو مفهوم النظم المتطور بحيث يشمل اللفظ والمعنى في إطار الوحدة اللغوية العضوية، فالنظم هو مادة اللحام الجامعة للألفاظ والمعاني معاً، فهي الجامعة لشتى عناصر التعبير، من معاني جوهرية وثانوية ومستويات صرفية وأخرى دلالية، بحيث تلتئم أجزاء الكلام بعضه ببعض، وعماد هذا النظم ليس البديهة وحدها، بل الحاجة ماسة إلى الثقافة التي رباطها الحكمة يقول الدكتور محمد زغلول في جهود الخطابي اللغويـــة:

---

(١) ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن ـ الدكتور محمد سعد زغلول ص ٣٦.

«فالنظم عنده صورة اللفظ المتفاعل مع المعاني للتعبير عن التجربة الفنية، وليس للألفاظ وحدها، ولا للمعاني وحدها أهمية في النظم. وهو تقدير له قيمته لأنه ينقص من اللفظ بعض أهميته التي ركز حولها السابقون دراستهم»[1].

ومن شدة عناية الخطابي بالنظم، أفرد بحثاً للألفاظ، وأفرد بحثاً آخر للمعاني، فالمعـاني والألفاظ والنـظم هي عناصـر الأسلوب فهي الصورة والشكل والمضمون في عرف نقاد اللغة، وبذلك يقضي على فكرة الفصل بين الفكر واللغة، فاللفظ والمعنى لا يفترقان، نبه الخطابي إلى فكرة النظم بشكل متطور عن رؤية السابقين له، فقضية التلاؤم، وفكرة مقتضى الحال، والتحام اللفظ بالمعنى جميعها تجتمع بالنظم وهو المعيار الوحيد للإعجاز القرآني.

يقـــول الخطابـــي:

«وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منها في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح، ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وإما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشاهد لهما العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها»[2].

فالقرآن الكريم صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ وأقدس المعاني في أحسن نظوم التأليف مضمناً الفكر الديني، من توحيد وتنزيه ودعاء وأمر

---

(١) أثر القرآن في النقد العربي ص ٢٥٩ ـ محمد سعد زغلول.
(٢) ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن ـ الدكتور محمد سعد زغلول سلام ص: ٢٦

وطاعة، وبيان لمناهج العبادة، وإيضاح لما فيه من تحليل وتحريم وحظر وإباحة ووعظ وإرشاد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر..... فيضع النظم كل شيء في موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه.

ونجد الإشارة للأثر النفسي الذي يقف بجانب فكرة النظم السابقة تدعم الأسلوب، فأسلوب القرآن الكريم له أثر حاسم في النفس، فإن المرء لا يمكن أن يسمع أصواتاً أو كلاماً منظوماً أو منثوراً أحلى من ترتيل القرآن الكريم.

عرض الخطابي للعبارة كوحدة بلفظها ومعناها ونظمها، وركز دراسته على نظم القرآن المعجز للإنس والجن، وأن أسلوب القرآن هو الذي يحقق النظم في صورة رائعة لا تتحقق لمخلوق.

يقول الدكتور محمد سعد زغلول سلام: «وهكذا يضع الخطابي أمامنا صورة للنظم الذي يرى فيه سر الإعجاز»[1].

كانت الدراسات السابقة للخطابي مركزة لبحوث الألفاظ وصلاتها بالمعاني لتتجه بالدراسات اللغوية منحاً أكثر دقة وأعظم جدية فأدت إلى رفض التفريق بين اللفظ والمعنى.

ل ــ أبو هلال العسكري:

صاحب كتاب الصناعتين في الشعر والنثر، والمتوفي سنة ٣٩٥ للهجرة، وهو كتاب جامع لفنون القول والبديع والبلاغة، وقد افتتحه بمقدمة نوه فيها بمعرفة علم البلاغة وأنه ضروري لفهم الإعجاز ولتمييز جيد الكلام من رديئه، ولمعرفة الشاعر والكاتب لأساليب اللغة وألفاظها ويعتبر كتاب الصناعتين وسيلة لتبصير الدارسين بأصول الكتابة والطرق السليمة للتعبير في

---

(١) أثر القرآن على النقد العربي : ص ٢٥٩.

اللغة من ناحية معاني النحو وسلامة البناء ، سخر أبو هلال العسكري دراسة السابقين له، وانتفع بها اعتباراً منذ القرن الثاني الهجري وحتى أيام عصره، واستعان بها لتأليف كتابه ومن هؤلاء

«ابن سلام الجمي في كتابه طبقات الشعراء ـ والجاحظ في كتابه البيان والتبين وابن قتيبة في كتابه المعاني الكبير ـ والشعر والشعراء، وابن المعتز في كتابه البديع وقدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر ـ والآمدي في كتابه الموازنة والقاضي الجرجاني في كتابه الوساطة عن المتنبي وخصومه»(١).

وقد استطاع أن يعرض لنا زبدة هذه الكتب في كتابه،وجعل الكتاب عشرة أبواب: خص باباً منه لموضوع البلاغة وحدودها وما جاء فيها من أقوال السابقين. وخص باباً آخر لتمييز الكلام جيده من رديئه، ومحموده من مذمومه وباباً ثالثاً ضمنه صحة معرفة صنعة الكلام، وترتيب الألفاظ، تلاه باب آخر ضمنه حسن النظم وجودة الرصف مهتدياً بآراء سابقيه.

هذه هي أهم الأبواب التي تناول فيها الجانب الخاص ببنية الجملة العميقة، كانت واهتمامات أبو هلال العسكري في هذه القضايا عظيمة مردها إلى خدمة اللغة، وخدمة القرآن الكريم، أسوة بالباحثين السابقين بالبلاغة والنقد، وصلتها بأعجاز القرآن طيلة القرن الثالث الهجري، يقول الدكتور محمد سعد زغلول سلام:

«وكتاب الصناعتين يمثل مذهب أبي هلال، فهو جامع للدراسات السابقة وألوانها المختلفة، ومن بينها الدراسات القرآنية فيكثر النقل عن ابن قتيبة والجاحظ، ويجمع ألواناً من دراسات الرماني وغيره ممن بحثوا في

---

(١) مقدمة كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري تحقيق علي محمد البخاوي، محمد أبو الفضل ابراهيم.

أعجاز القرآن»[1]

ساهم العسكري بأعمال لغوية عظيمة كان لها آثارها في دراسات الباحثين أمثال القزويني في كتابه شروح التلخيص التي وقفت جهوده اللغوية الى جانب دراسات المتكلمين في الأعجاز لتنضم إلى دراسات أخرى خلال هذه المرحلة التي ساهمت في عملية تطوير الدراسات الفكرية عامة.

جهود العسكري اللغوية:

قسم العسكري الحديث في نظم الكلام في بداية كتابه (الصناعتان) إلى بلاغة وفصاحة فتكلم عن البلاغة وخصها بالمعاني، ثم تكلم عن الفصاحة وخصها باللفظ، ورأى أن الكلام عبارة عن الفاظ ومعاني فأولى عناية لكليهما، وأحس بوجود رابطة عضوية بينهما وهي نظرة (لغوية جديدة) ثاقبة في إتجاه لغوي جديد للربط بين الفكر واللغة، ومن أقواله في هذا المجال:

«إن الكلام الفاظ تشتمل على معان تدل عليها ويعبر عنها، ويحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ، لأن المدار بعد على إصابة المعنى ولأن المعاني تحل محل الأبدان والألفاظ، تجري معها مجرى الكسوة ومرتبة أحداهما على الأخرى معروفة»[2]

أدرك العسكري مكانة العلاقة بين اللفظ والمعنى وقيمة اللفظ ودوره في التعبير ونظم الكلام في إبراز المعاني، واعتبر المعاني روحاً في أجساد حية متكاملة فالغاية القصوى من الكلام هي إصابة المعنى وابراز الغرض بالفاظ

---

(١) أثر القرآن في النقد العربي - الدكتور محمد خلف الله ص ٣١٤.
(٢) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٧٥.

قادرة على أداء وظيفتها، فهي أردية للمعاني، تصورها وتجللها صورة اثر صورة وهذه الأفكار لها مكانتها في مجالات الدراسات اللغوية قديماً وحديثاً.

تناول العسكري المعاني مثلما تناولها الجاحظ وجعلها مقادير حسب الأشخاص، وتبعاً للحالات والظروف وعلى المرء أن يوازن بينها وبين مقادير الكلام فيقول:

«وينبغي أن تعرف أقدار المعاني، فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين وبين أقدار الحالات، فتجعل لكل طبقة كلاماً، ولكل حال مقاماً حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات. وأعلم أن المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال»[1]..

ويعتبر العسكري المعاني عنصراً هاماً في بناء نظم العبارة الشعرية والنثرية، ويوحي لكل من أراد قول قصيد، بأن يحضر المعاني التي يريد أن ينظم حولها القصيد، وما على المرء إلا أن يعرض المعاني على قلبه ثم يطلب لها وزناً تأتي فيه، وقافية يحتملها ثم إذا توصل المرء إلى القصيدة لم يبق له إلا أن ينقحها ويهذبها.

«وإذا أردت أن تعمل شعراً فاحضر المعاني التي تريد نظمها فكرك واخطرها على قلبك واطلب لها وزناً يأتي فيه إيرادها وقافية يحتملها»[2] نظر العسكري إلى الألفاظ نظرة الخبير العارف والمقدر لأنواع الكلام، فأولاها لأهميته على أنها عنصر أساسي من عناصر التعبير ونلحظ مثل هذه العناية بقوله:

---

(١) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ١٤١.
(٢) كتاب الصناعتين لأبي هلال ص ١٤٥.

«يجب أن يكون لفظك شريفاً عذباً وفخماً سهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً، فإن كانت هذه لا تواتيك ولا تسنح لك عند أول خاطر وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصل إلى مركزها، ولم تتصل سبكها، وكانت قلقة في موضعها نافرة من مكانها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها»(١).

لكل لفظة موضعها في صياغة التركيب يجب ألا تتعداه إلى غيره، ويجب أن تأتي المفردات في التعبير متلاحقة كحبات اللآليء في سلك يجمعها، عند ذلك يكون اللفظ فخماً وسهلاً وعذباً يكون معناه مكشوفاً، ومن تمام حسن الوصف أن يخرج الكلام مخرجاً يكون له رونق، قليل يشير إلى معان كثيرة بإيماء يشير إليه ولمحة تدل عليه، وهو كثير في القرآن الكريم.

﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾(٢).

يقول أبو هلال العسكري:

«وهو أن يكون مبدأ الكلام ينبيء عن مقطعه، وأوله يخبر بآخره وصوره يشهد بعجزه، حتى لو سمعت شعراً، وعرفت روية ثم سمعت صدر بيت منه، وقفت على عجزه قبل بلوغ السماع إليه وخير الشعر ما تسابق صدوره أعجازه، ومعانيه الفاظه مسابقة فتراه سلساً في النظام، جارياً على اللسان، رأيناه لا يتنافر كأنه سبيكة مفرغة، أو وشي منهم، أو عقد منظم من جوهر متشاكل متمكن القوافي غير قلقة، وثابتة غير مرجة ألفاظه متطابقة وقوافيه متوافقة، ومعانيه متعادلة، كل شيء منه موضوع في موضعه وواقع في موقعه»(٢).

---

(١) نفس المرجع ص ١٤٠.
(٢) كتاب الصناعتين لأبي هلال ص ٣٩٧.

أشار العسكري بهذا النص إلى البنية السطحية والبنية العميقة وطبيعة الربط بينهما، ومدى مستوى كل واحد منها في النثر والشعر، فهي شمولية الفكر ودقة العمل اللغوي التي فاقت سابقتها من جهود. والصلة الروحية بين تفكير العسكري والتفكير اللغوي للجاحظ والخطابي والرماني وقدامة بن جعفر، فهي روح واضحة تمثل روح العصر المتطور ويدلي العسكري برأيه في نظم الكلام وحسن رصفه داخل السياق من أن تأخذ الألفاظ مواضعها، وتمكن من أمكنتها في داخل العبارة لتعبر عن دلالتها وهي في الأمكنة التي يجب أن تكون فيها بحيث تؤدي دورها بقدرة فائقة وعلى أتم وجه من الإداء، فارتباط البنية السطحية للعبارة مع البنية العميقة للمعاني هو رابط عضوي متين، مع حقيقة المضمون الفكري، يقول العسكري:

«ومن حسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكنها، ولا يستخدم فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يفسد الكلام ولا يعمي المعنى، وتنضم كل لفظة إلى شاكلتها وتضاف إلى لفظها»[1].

يرى العسكري بهذا القول توضحاً لرصف الكلام وما تحتاج إليه جودة تركيب التعبير، كي يؤدي المعنى كاملاً، ولكي يزداد المعنى وضوحاً واشراقاً فلن يكون ذلك إلا بوضع الألفاظ في مواضعها بحيث تأتي اللفظة بجانب اختها منسجمة متلاحمة، تنتظم في العبارة، كانتظام الجواهر داخل عقد شكلاً ولوناً على عنق حسناء، وهذا إذا الكلام انقطعت أجزاؤه، ولم تتصل فصوله، ذهبت فائدته وضاع رونقه، وأصبح أصواتاً لبست ذات معنى ضاعت حقيقته، ويشير العسكري إلى أحسن الكلام:

«وأجود الكلام، ما يكون جزلاً سهلاً، لا ينغلق معناه، ولا يستبهم

---

(١) كتاب الصناعتين: ص ١٦٧ - ٦٦.

مغزاه ولا يكون مكدوداً مستكرهاً ومتوعرة متقعراً. . . ولا خير في المعاني إذا استكرهت قهراً، والألفاظ إذا اجبرت قسراً، ولا خير فيما أجيد لفظه وإذا اسخف معناه»[1].

وعندما تتفاعل الألفاظ مع معانيها ينتج عنها جمال التعبير وصدق التصوير.

قال العسكري:

«أيدك الله. . . . بحسن نظم الكلام بسلاسته وسهولته ونصاعته وتخير لفظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعة، ولين مقاطعة واستواء تقاسيمه وتعادل أطرافه. . . فتجد المنظوم مثل المنثور (في علاقته الطبيعية العضوية) في سهولة مطلعه، وجودة مقطعه وحسن رصفه وتأليفه وكمال صوغه وتركيبه، فإذا كان الكلام كذلك، كان بالقبول حقيقياً وبالتحفظ خليقاً»[2].

هذا ويكثر العسكري من الملاحظات الدقيقة في شروط الكلام، لينتقل منها إلى الحديث عن أحسن التأليف ثم سوء التأليف.

«أجناس الكلام المنظوم ثلاثة، الرسائل والخطب والشعر، وجميعها تحتاج إلى حسن تأليف وجودة تركيب، وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وإشراقاً، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب سفينة من التعميه، فإذا كان المعنى سيئاً، ورصف الكلام رديئاً لم يوحد له فيقول، ولم تظهر عليه طلاوة، وإذا كان المعنى وسطاً ورصف الكلام جيداً، كان أحسن موقعاً، وأطيب مستمعاً.

فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعاً في

(١) كتاب الصناعتين: ص ٦١.
(٢) كتاب الصناعتين ص ٦١.

المرأى وإن لم يكن مرتفعاً جليلاً»[1].

أجهد العسكري فكره في عرض الشروط الواجب توفرها في حسن الكلام نثراً وشعراً فيجمع من السلف آراءهم، وإضافها إلى جهده، فجعلها عشرة شروط ضمنها النص السابق، إلا أنه لم يشر إلى معاني النحو التي تنبه إليها من جاءوا بعده من الباحثين، وهي شروط حساسة تضمن صحة العبارة ورونقها في تحقيق الدلالة وهي على التوالي السلاسة والسهولة والنصاعة وتخير الألفاظ، وإصابة المعنى، وجودة المطلع واستواء التقاسيم، ولين المفاصل، وتعادل الأطراف، وحسن الرصف وكمال الصياغة، وإذا كان الكلام كذلك ضمن هذه الشروط لقي القبول في كل نفس وأدى نفس الدلالة.

فاجناس الكلام المنظوم ثلاثة أنواع هي الرسائل والخطب والشعر وجميعها بحاجة إلى عناية ودراية وحسن تأليف وجودة تركيب، دقة صياغة وجودة فكر، يقول العسكري:

«وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً، ومع سوء التأليف ورداءة الوصف والتركيب شعبة من التعمية، فاذا كان المعنى سبياً، ورصف الكلام رديئاً لم يوجد له قبولاً، ولم تظهر له طلاوة، وإذا كان المعنى وسطاً، ورصف الكلام جيداً كان أحسن موقعاً وأطيب مستمعاً، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعاً في المرأى، وإن لم يكن مرتقاً جليلاً، وأصل نظمه فصمت الحبة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقاً ثميناً»[2].

فحسن التأليف لأجناس الكلام يحتاج إلى وضع الألفاظ في مواضعها

---

(1) كتاب الصناعتين ص ١٦٧.

(2) كتاب الصناعتين ـ لأبي هلال العسكري ص ١٦٧.

كما ذكرت هذا سابقاً، وتمكن في أماكنها ولا يستخدم فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة لا تفسد الكلام ولا تعمي المعنى.

قال العتابي: مهتماً بالمعاني معتبراً إياها أرواحاً تحرك الأجسام «الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخراً، أو أخرت منها مقدماً فسدت الصورة وغيرت المعنى كما لو حول رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل لتحولت الخلقة وتغيرت الحلية»[1].

يتضح للمرء أن العسكري قد اهتم بالمعاني اهتماماً عظيماً إلى أن جعلها أرواحاً في الأجساد وهو اهتمام متزايد عما سبق عند المفكرين السابقين، وهي لفتة قيمة تشير إلى أن العرب منذ أن أدركوا مكانتهم الحضارية شعروا أن للمعاني مكانة وقيمة في جميع مباحثهم على اختلاف مناحيها، وعلى الخصوص في دراستهم اللغوية والبلاغية والفلسفية فتناولوها بالدرس والبحث.

فالإهتمام بالمعنى قديم عند العرب وهو أصل في كل دراسة لغوية وهو أصل إلا أن هذا الإهتمام وهذا النضوج لم يستطع الوصول إلى مستوى النظرية حتى قطع العرب شوطاً بعيداً في مضمار التراث الإنساني، فتتابعت الجهود بعد العسكري.

ومما ينبغي أن يعلمه المرء في صياغة الكلام، هو وضع كل عنصر من عناصر البناء في مكانه، كي يؤدي الكلام الدلالة التامة، وبالتالي لن يقع المؤلف والكاتب والشاعر في سوء النظم أو أن يبتعد عن الدلالة.

يقول العسكري:

«ونحن نقول أن من النظم ما لا يمكن حله أصلاً بتأخير لفظه وتقديم

---

(١) كتاب الصناعتين ـ لأبي هلال العسكري ص ١٦٧.

أخرى منه، حتى يلحق به التغير والزيادة والنقصان».

مثل قول الشاعر:

«لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم»[1]
فالمصراع الأول إذا حل يمكن أن تؤخر الفاظه، وتقدم فيصير نثراً مستقيماً وهو أن يقول: فؤاد الفتى نصف ولسانه نصف وهذا غير ممكن بالنسبة للمصراع الثاني، هذا وان مجمل القول فيما ورد بين أيدينا من نصوص العسكري نجدها تدعم جل ما سبق من دراسات، وتتكثف في جداول الفكر اللغوي من جديد، وهو ما ينبغي للمرء أن يعلمه في صياغة النظم وحسن التأليف وجودة الرصف، هي بجملها آراء لغوية قيمة إلا أنها بحاجة إلى التعليل والوضوح والكيف والدقة العلمية البعيدة عن الإبهام، غير كاف أن يقول العسكري حسن الرصف أن توضع الألفاظ في أماكنها أو مواضعها، وتمكن في أماكنها وسوء النظم تقديم ما ينبغي تأخيره وصرفها عن وجهها.

لم يشر إلى الطريقة الممكنة والخلاقة لإيجاد جمل عديدة بنفس المقياس من الجودة وحسن الرصف، بحيث يستطيع المرء صياغة عبارات حسنة الرصف وكلام حسن المخرج له رونق وحلاوة.

إلا أن العسكري كان يكتفي بالإشارة إلى ما ينبغي أن يقبل عليه الخطيب والشاعر والكاتب، يقول العسكري في آخر كتابه:

«فأول ما ينبغي أن تعلمه أنك إذا قدمت الفاظاً تقتضي جواباً، فالمرضي أن تأتي بتلك الألفاظ في الجواب، ولا تنتقل عنها إلى غيرها مما هو في معناها كقول الله تعالى ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾»[2].

---

(١) كتاب الصناعتين ـ لأبي هلال العسكري ص ٤٠٠.
(٢) كتاب الصناعتين ـ لأبي هلال العسكري ص ٣٩٥.

وعلى المرء أن يدرك معرفة إيراد الجملة حسب المقامات من الإستفهام والجواب ثم ينتقل إلى إيراد جملة مماثلة لما سبق، ويوصي العسكري المرء أن يستوفي المعنى قبل بلوغ نهاية الكلام ومقطعه.

«وهو أن تستوفي معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ثم تأتي بالمقطع فتزيد معنى آخر يزيد وضوحاً وشرحاً وتوكيداً وحسناً»(١).

يظهر للمتفحص لأقوال العسكري أن لمحات فكرية موفقة وبصيص ضياء ثاقب يمتد عبر الأزمنة ليصل إلينا في أيامنا المعاصرة، وهو أن الجديد في فكر العسكري ترتيب صياغة العبارة من حيث البنية الخارجية ترتيباً علمياً وفقاً لمتطلبات البنية العميقة، وهو ما يفعله اللغوي المعاصر من حيث الإهتمام بالمعاني وأنها أصل في كل دراسة لغوية.

ويرى العسكري أن على المرء أن يستوفي معنى الكلمات قبل بلوغ مقطعه ومن ثم يباشر التفكير في معنى آخر، وليس بكلام آخر مثلما يفعله علماء اللغة اليوم.

فنظم العبارة مرهون بترتيب المعاني بل أن شئت قل نظمها قبل نظم الكلمات، فالمعاني ركن وأصل في دراسة العسكري، بل هي جوهر الدراسات القديمة عند العرب.

ويأخذ الإهتمام بالمعاني على مر العصور وعلى الدوام منذ أيام ابن المقفع أو قبل ذلك بكثير، يأخذ أطواراً ومراحل متطورة متتابعة إلى أن وصلت إلى أبي هلال ليرسلها إلى عصر أكثر تطور، وأغنى ثراء، ألا وهو القرن الخامس الهجري، فتأخذ ظاهرة الإهتمام بالمعاني مرحلة جديدة وزخماً عظيماً لتصل هذه الأفكار أيام الباقلاني والقاضي عبد الجبار، وابن

(١) كتاب الصناعتين ـ لأبي هلال العسكري ص ٥٣.

رشيق القيرواني وابن سنان الخفاجي، ثم لتصل أيادي عبد القاهر الجرجاني فيصنع من هذه الجهود اللغوية نظرية لغوية هي نظرية علم المعاني.

ويدعم قول الجاحظ ما ذهبت إليه من أن ظاهرة الإهتمام بالمعاني هي ظاهرة أصيلة وهامة عند كل مفكر.

يقول الجاحظ:

«من أعاره الله عز وجل من معونته نصيباً، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً، حبب إليه المعاني، وسلس له نظام اللفظ»[1]. وتأخذ هذه العناية بالمعاني مراتب عليا واهتمامات متزايدة، ارتقت مع مرور الأيام وعلى أيدي المفكرين إلى درجة النظرية كما سيتضح لنا في دراسات عبد القاهر الجرجاني.

---

(١) كتاب الصناعتين ـ لأبي هلال العسكري ص: ٥٣.

الفصل الثاني

تطور الجهود اللغوية في القرن الخامس الهجري:

أ ـ أبو بكر الباقلاني:

هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، المعروف بالباقلاني هو من أعلام المتكلمين في أعجاز القرآن، على مذهب الأشاعرة ولد في مدينة البصرة من أرض العراق، وتلقى العلم على أيدي أعلامها، ولما ذاعت شهرته رحل إلى بغداد وأخذها مقاماً له وبقي فيها إلى أن أدركته المنية عام ٤٠٣ هـ.

عاصر الباقلاني عضد الدولة في بغداد حينما كانت محجاً للعلماء والمفكرين أرسله عضد الدولة رئيس بعثة إلى ملك الروم سنة ٣٧١ هـ في القسطنطينية، وقد اتيحت للباقلاني أن يتتلمذ لطائفة من العلماء الذين جمعوا العلم والعمل ليصبح فيما بعد حجة في العلم والقضاء.

(١) إعجاز القرآن ـ الباقلاني: ص ٣٥.

صنف الباقلاني كتاب أعجاز القرآن، وكتاب الإنتصار، فهي من أبحاثه الخاصة بأعجاز القرآن، حيث تجلت فيها شخصيته الدينية والفكرية.

وتعتبر جهود الباقلاني في أعجاز القرآن مرحلة متطورة ومتكاملة مع جهود المتكلمين السابقين، ولم تقصر دراسته هذه في الأعجاز على الوجهة الكلامية والنظرة الدينية، بل تعرض للناحية الأسلوبية والبيانية ونظم الكلام وخصائصه، لأن القرآن الكريم بنظمه، كان حجة الرسول الكريم على قومه ومثار فكر للباحثين.

جهود الباقلاني اللغوية:

يمثل كتاب أعجاز القرآن بالدراسة الناضجة لأراء الباقلاني في نظم القرآن وأعجازه، وهي جهود مرتبة ترتيباً منطقياً معتمداً على ما جاء بـه السابقون في نظم القرآن وأعجازه للأنس والجن. تناول آراء السابقين في الأعجاز شارحاً لها ومفصلاً مقوماتها، ومفنداً حجج المعارضين والمخالفين منتهياً إلى تلخيص النتائج التي توصل لها.

تحدث عن نظم القرآن بوجه عام، وعن تأليف الألفاظ بعضها ببعض بوجه خاص وذكر أسلوب القرآن، وطرق التعبير فيه، مبتدئاً بفنون القول عند العرب، فقسم الكلام إلى أنواع، وجعل الأعجاز ثلاثة وجوه أهمها عندي الوجه الثالث، وهو الوجه اللغوي بقوله:

«والوجه الثالث أنه بديع النظم عجيب التأليف، متناه في البلاغة على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه، خارج عن المعهود من نظم جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص ويتميز في فصوله عن أساليب الكلام المعتاد، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى

أنواع الكلام الموزون غير المقفى ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع وترتيب لطيف»[1].

يتضح من هذا النص أن الباقلاني قد أدرك طرق التعبير جميعها وقارن تلك الطرق التعبيرية بشتى أنواعها، مع نظم القرآن، فنظم القرآن في طرقه المعاني ويختلف في طرق تأدية التعبير الأخرى أنه ليس من باب السجع ولا هو من قبيل الشعر، ويمكن للمرء أن يدرك هذه الإعتبارات عن طريق التأمل بخروج هذا النظم عن أصناف كلام البشر وعن أساليبهم المتنوعة.

بل أنه خارج عن العادة وأنه معجز، وهذه مميزات لغوية ترجع إلى جملة القرآن في جميع سوره، وقضية التأمل هذه واردة في أقوال الباقلاني «وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها، على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف لا تتفاوت فيه ولا انحطاط من المنزلة العليا، ولا اسفاف منه إلى الرتبة الدنيا، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الأعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف»[2] والقرآن الكريم بطريقة نظمة مخالفة لأصناف كلام الناس في تعبيراتهم وليس لنظم القرآن مثال يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به، ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً.

«والذي يصور لك ما ضمنا تصويره، ويحصل لديك معرفته إذا كنت في صنعة الأدب متوسطاً، ومن علم العربية مبيناً، أن تنظر أولاً في نظم القرآن ثم في شيء من كلام النبي (ﷺ) فتعرف الفصل بين النظمين والفرق بين الكلامين فإن تبين لك الفصل، وقعت على جلية الأمر وحقيقة الفرق،

---

(١) إعجاز القرآن ـ الباقلاني ص ٣٥.

(٢) إعجاز القرآن ـ الباقلاني ص ٣٧.

فقد أدركت الغرض وصادفت المقصد»[1].

ونظم القرآن نوع متميز وأسلوب متخصص له شأن عظيم فهو أحسن الكلام عند العرب، فقد حيرهم أسلوبه وهم أهل فصاحة وبلاغة وبراعة، فانظر إلى قول الله تعالى:

﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾[2].

تناول الباقلاني اللفظ والمعنى ودورهما في صياغة الكلام من خلال النظم فالمدار في بحثه قائم على نظم القرآن المعجز، قائم قبل كل شيء على الصياغة، والنظم ثم على العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى وما يقومه اللفظ من دور وأثر في الوجدان والمخيلة.

فاللفظ جزء من النظم يوجه المعنى، وأنه أداة التعبير، ويهتم الباقلاني بدقة اللفظ ودوره في دقة أداء المعاني وتحقيق الدلالة.

وقد سيطرت فكرة نظم القرآن على جل كتابه:

«وهو أن نظم القرآن وقع موقعاً في البلاغة، يخرج عن عادة كلام الجن كما يخرج عن كلام الإنس»[3].

فهم يعجزون عن الإثبات بمثله كعجزنا ويقصرون دونه كقصورنا.

قال الله تعالى:

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[4].

---

(١) أعجاز القرآن ـ الباقلاني ص ١٢٨.
(٢) سورة الشورى رقم ٣٥.
(٣) الباقلاني ـ أعجاز القرآن: ص ١١٣.
(٤) سورة الإسراء رقم ٨٧.

يرى الباقلاني أن من سبقه من المتكلمين ومن اللغويين قد اختلفوا في تقدير أنواع الكلام بين الحسن والرداءة، لذلك تباينت آراؤهم في تفضيل بعض الكلام عن بعضه الآخر، ثم أنه لا يأخذ بأقوال البعض من القائلين، أن فصاحة الكلام راجعة وحدها إلى الحروف.

«ليس الأعجاز في نفس الحروف وإنما في نظمها وأحكام وصفها وليس وصفها أكثر من وجودها متقدمة أو متأخرة ومرتبة في الوجود فإن من كان قد تناهى في معرفة اللسان العربي، ووقف على طرقها ومذاهبها، فهو يعرف القدر الذي ينتهي إليه وسع المتكلم من الفصاحة ويعرف ما يخرج عن الوسع ويتجاوز حدود القدرة، فليس يخفي عليه أعجازه القرآن، كما يميز جنس الخطب والرسائل والشعر، كما يميز بين الشعر الجيد والرديء والفصيح والبديع والنادر والبارع والغريب»[1] والباقلاني بكل ما عرضه من نصوص نجده متأثراً بسابقيه وعلى الخصوص بفكرة الخطابي من حيث النظم وأن الألفاظ في العبارة خاضعة لترتيب المعاني في النفس، ويختلف القرآن في نظمه عن سائر الكتب السماوية.

لم يكتف الباقلاني بالإشارة إلى النظم، كمقوم لعبارة القرآن بل نجده يشير تارة للبلاغة وتارة أخرى يشير للفصاحة، ويجعلها دعائم من جوانب نظم القرآن، يقول الباقلاني:

«وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد، في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف لا تفاوت ولا انحطاط عن المنزلة العليا...

ونظرنا إلى القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة، فرأينا غير مختلف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة، فعلّمنا بذلك أنه مما

(١) الباقلاني - إعجاز القرآن ص ١١٣.

لا يقدر عليه البشر، لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار وعند تباين الوجوه واختلاف الأسباب التي يتضمن»[١]

يشير الباقلاني إلى نظم عبارة القرآن من أنها في أعلى مرتبة من النظم لأنها في نهاية البلاغة، وكأن تعريف البلاغة أعلى مستوى في المضمون من مفهوم النظم وهناك نصوص أخرى أشار إلى البلاغة من أنها أعلى مرتبة في النظم من المفهوم اللغوي.

«وهو أن نظم القرآن وقع موقعاً من البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن كما يخرج عن عادة كلام الإنس، فهم يعجزون على الإتيان بمثله ويقصرون دونه كقصورنا»[٢].

إن مفهوم الفصاحة عند الباقلاني خاضع لنظم العبارة عند الفصحاء فكلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بينا في الفصل والوصل، والعلو والنزول والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الكلام.

«وقد علمت أن كلام فصحائهم وشعر بلغائهم لا ينفك من تصرف في غريب مستنكر أو وحشي مستكره ومعان مستبعدة. ولولا هذه الوجوه التي بيناها لم يتخير فيه أهل الفصاحة، ولكانوا يفزعون إلى التعمل للمقابلة والتصنع والمعارضة وكانوا ينظرون في أمرهم، ويراجعون أنفسهم إن كان يراجع بعضهم بعضاً في معارضته ويتوقفون لها»[٣].

وللباقلاني آراء متفاوتة بخصوص بحثه عن إعجاز القرآن وعامة هذه الآراء نالت اهتمامه بالمعاني وبالألفاظ، وللمعاني اعتبارات وللألفاظ المناسبة للمعاني القدسية صفات وخصائص لغوية ونحوية دقيقة

---

(١) إعجاز القرآن ـ للباقلاني: ص ٣٧ ـ ٣٨.
(٢) إعجاز القرآن ـ للباقلاني: ص ٤٦ ـ ٤٣.

«وهو أن المعاني التي تضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين والرد على الملحدين على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ويمتنع وذلك أنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعاني مبتكرة وأسباب مؤسسة مستحدثة. فإذا برع اللفظ في المعنى البارع كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر، والأمر المتقرر المتصور، ثم انضاف إلى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأيداً ما يبتدأ تأسيسه، ويراد تحقيقه بأن التفاضل في البراعة والفصاحة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى، والمعاني وفقها لا يفضل أحدهما على الآخر، فالبراعة أظهر والفصاحة أتم»[1].

اهتم الباقلاني بالمعاني، ولم يبلغ هذا الاهتمام مكانة تنسيه أهمية الألفاظ في التعبير فكلاهما عناصر من عناصر الأسلوب بينهما علاقة ذات طبيعة عاقلة مبصرة، فالاهتمام بالألفاظ على نفس القدر من المستوى، والاهتمام بالمعاني، فالألفاظ وفق المعاني وهو الجديد عند الباقلاني، وقضية التلاؤم بين الألفاظ والمعاني، والمساواة، والمقابلة شرطان قد سبق إليهما قدامة بن جعفر، ويظهر فضل الكلام ورجحانه من أسلوب كلام آخر بأن نذكر كلمة واحدة في تضاعيف كلامين، وسيظهر أثرها في الكلام واضحاً داخل التفكير. من أننا نجد الكلمة فصيحة في موضع وغير فصيحة في مواضع عديدة، ويشير الباقلاني إلى ظاهرة التلاؤم ويحدد دلالتها من أنها حسن الكلام في السمع وسهولة في اللفظ ووضوح للمعنى، ويصل الأمر بالباقلاني أن جعل التلاؤم من دراية الإعجاز..

---

(١) إعجاز القرآن ــ للباقلاني : ص ٢٧٠.

«والتلاؤم حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، ووقع المعنى في القلب وذلك كالخط الحسن والبيان الشافي والمتنافر، كالخط القبيح فإذا انضاف إلى التلاؤم حسن البيان وصحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز لمن كان جيد الطبع، وبصيراً بجواهر الكلام، كما يظهر له أعلى طبقة الشعر»[1].

هذا وبكل ما قدمته من شواهد على جهود الباقلاني اللغوية، إنها تمثل مرحلة جامعة لجهود المفكرين السابقين في القرن الثالث والرابع الهجري، إلا أن جدية التناول وتخير الطاقات الفكرية لخدمة القرآن وإبراز نظمه، وبأنه معجز هي دراسته أكثر دقة وأوسع شمولاً لما مضى من الدراسات اللغوية والنقدية عند المتكلمين كذلك وستنبعث مثل هذه الأفكار، بأفكار جديدة عند مفكري عصره أمثال القاضي عبد الجبار الأسدي، وابن خفاجه، صاحب كتاب سر الفصاحـــــة.

ومما هو جدير بالذكر الإشارة لمن تناول دراسة الباقلاني أمثال الدكتور محمد زغلول سلام بقوله:

«من أهم ما يسترعي النظر في منهج الباقلاني لدراسة إعجاز القرآن اعتبار الوحدة الفنية، التي تتضمن موضوعاً واحداً، ويظهر هذا من تناوله بالتحليل سورة بتمامها، يتدرج فيها ليظهر ما تنطوي عليه من خصائص في النظم لا تقتصر على مجرد روعة استعارة أو بلاغة تشبيه يرد في آية أو عبارة قصيرة وإنما إعجازه منصب عليه جملة لا تفصيــلاً. . . . . . .

فالسورة وحدة فنية موضوعية في القرآن الحكيم عليها بإعجاز النظم أو بالبلاغة وروعة البيان لأنها يمكن أن تتوفر لها شروط الإعجاز السليمة»[2].

---

(١) إعجاز القرآن ـ للباقلاني : ص ٢٧٠.
(٢) أثر القرآن في النقد العربي: ص ٢٨٦.

ويضيف الدكتور شوقي ضيف رأياً آخر إلى ما سبق يدعم ما ذهبت إليه من أن الباقلاني لم يستطع أن يجعل مفهوم النظم وحده حجة للإعجاز بل إلى مفهوم البلاغة، وقارن ذلك بفصاحة الفصحاء.

يقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه البلاغة تطور وتاريخ:

«وفي تفسير الباقلاني لنظريته في الإعجاز القرآني على هذا النحو المجمل ما يدل دلالة واضحة على أنه لم يستطع تفسير الإعجاز القرآني من حيث نظمه تفسيراً مفصلاً دقيقاً على الرغم من اطنابه وتطويله، وأخذ بعد ذلك يصور أطرافاً مما أجمله من بيان الإعجاز»[1].

وأضيف رأياً آخر للرافعي، وهي شهادة خير للباقلاني يثني بها على جهوده قائلاً:

«على أن كتاب الباقلاني، أن كان فيه الجيد الكثير، كان الرجل قد هذبه، وصفاه، وتصنع له، إلا أنه لم يترك فيه بادرة أصابها هو من غيره ولم يتحاشى وجهاً من التأليف لم يرضه من سواه»[2].

لهذا اعتبرت جهود الباقلاني اللغوية جهوداً جامعة للجهود السابقة ومنسقة عاملة على بعث غيرها في مجال الفكر اللغوي والنقدي والديني، وسيتضح ذلك للمطلع عندما يدرك جهود المفكرين الذين أتوا بعد عصر الباقلاني واحداً بعد الآخـــــر.

*** ... *** ... ***

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ص ١٠٩.

(٢) إعجاز القرآن للرافعي : ص ١٧١ عن دراسة الإعجاز للخطاب: ص ٣٢٧.

القاضي عبد الجبار الأسدي:

هو أبو الحسن القاضي عبد الجبار الأسدي الأيادي، صاحب كتاب المغني، عمل قاضياً أيام الدولة البويهية في إيران إلى أن توفاه الله في بداية القرن الخامس الهجري عام ٤١٥ هـ، تتلمذ للجبائي أبي هاشم في الفصاحة والبلاغة والاعتزال إلى أن أصبح علماً من أعلام الاعتزال في عصره، اهتم بالفصاحة والبلاغة والنظم ليخدم القرآن الكريم، ويساهم بنصيب عظيم في مجال الدراسات التي تناولت الإعجاز.

ب ـ جهود عبد الجبار اللغوية:

تناول عبد الجبار قضية إعجاز القرآن في كتابه المغني في أبواب التوحيد والعدل وفي جزئه السادس عشر، أشار فيه إلى أسلوب القرآن بأنه في المرتبة الرفيعة من البلاغة والفصاحة، وهي فكرة تناولها كثير من الباحثين السابقين له أمثال الباقلاني والعسكري والخطابي وابن قتيبة.

اهتم عبد الجبار بمفهوم الفصاحة، مقابل اهتمام البعض بنظم القرآن في القرن الرابع، واعتبر الفصاحة في الكلام راجعة للفظ والمعنى بحيث يكون اللفظ جزلاً والمعنى جيداً.

فلاحظ صورة تراكيب الكلام وهي أساسية في بلاغة العبارة وفصاحتها قال عبد الجبار على لسان أستاذه أبي هاشم (الجبائي):

«قال شيخنا أبو هاشم: إنما يكون الكلام فصيحاً لجزالة لفظه وحسن معناه ولا بد من اعتبار الأمرين لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم

يعد فصيحاً، فإذن يجب أن يكون جامعاً لهذين الأمرين، وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص، لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر، والنظم مختلف إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة، وقد يكون النظم واحداً، وتقع المزية في الفصاحة فالمعتبر ما ذكرناه لأنه الذي يتبين في كل نظم وكل طريقة، وإنما يختص النظم بأن يقع لبعض الفصحاء، يسبق إليه، ثم يساويه في غيره من الفصحاء فيساويه في ذلك النظم، ومن يفضل عليه يفضله في ذلك النظم»[1].

يتضح من هذا النص مفهوم الفصاحة عند عبد الجبار من أنه يقابل النظم عند الباقلاني، ويبدو للمرء أن عبد الجبار كان على اطلاع واف على كل ما انتجه المتكلمون والأدباء في مجال البحث عن إعجاز القرآن، ثم نظام العبارات وصور التراكيب.

والعلم لإدراك الكلام وتراكيبه ضروري، وعلى المرء أن يدرك كيفية ضم الكلام بعضه إلى بعض أو تفريقه بعضه عن بعض، ثم أن الكلام الفصيح مراتب ويبرز عبد الجبار أفكاره بكثير من النصوص والشواهد منها.

«ثم إن الكلام الفصيح مراتب ونهايات، وأن جملة الكلمات وإن كانت محصورة فتأليفها يقع على طرق مختلفة، من الوجوه التي يتبناها فتختلف لذلك مراتبه في الفصاحة، فيجب أن لا يمتنع أن يقع فيه التفاضل، وتتبين بعض مراتبه من بعض ويزيد عليه قدراً يسيراً»[2].

ويفرز صاحب المغني فصلاً خاصاً لهذا العلم... ويعتبره علماً من العلوم التي تجري مجرى العلم بالصناعات يقول عبد الجبار:

---

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل ـ عبد الجبار الأسدي ـ جـ ١٦ / ١٩٧.
(٢) المغني في أبواب التوحيد والعدل ـ عبد الجبار الأسدي جـ ١٦ / ٢١٤.

«وهذا حال الكلام، لأنه يعرف بالعادة، ما إذا انضم بعضه إلى بعض صار خبراً إلى غير ذلك من سائر أقسام الكلام، ويكون منظوماً نظم الشعر والخطب، أو غير ذلك، ويشير هـذا الكلام ضمنياً لمفهوم النـظم عند الخطابي والباقلاني من حيث انضمام الكـلام بعضه إلى بعض كـالنسج والصياغة.

لأن الكلام على ما بينا ذكره، هـو من الأفعال المحكمـة، كالبنـاء والنساجة والصياغة فإذا لم يؤثر في صحة ذلك إلا العلم الذي يفارق به من يتعذر عليه ذلك، فكذلك القول في الكلام»[1].

ومعرفة نـظم الكلام شيء ضـروري، كمعرفـة العلوم الأخرى كعلم الحساب في الجمع والضرب والتقسيم كذلك هو شأن نظم الكلام يجب معرفته وخاصة عندما ينضم بعضه إلى بعض ويشير إلى الفصاحة قائلاً:

«إن الفصاحة في الكلام معقولة، وإنها تتفاضل ويكون لها مراتب، ولا تمتنع الزيادة فيها وأن يكـون الزائـد خارجـاً عن طرق العـادة كالأفعـال العظيمة»[2].

يرى ابن خلدون أن تلقين العلوم يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك تحصل الملكة في ذلك العلم، ولما كانت الفصاحة ونظم الكلام علماً في مفهوم عبد الجبار، إذن لا بد أن يمر على مراحل من حيث الترتيب والاكتساب والاهتمام، أن يمر بانتظام الحروف داخل الكلمات، ثم تنقل معرفة المرء لإدراك معرفة ائتلاف الكلمات بعضها مع بعض وهي مؤتلفة من حروف، وهناك فرق بين الكلام المؤتلف والكلام الوحشي الغير مؤتلف.

---

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل ـ عبد الجبار الأسدي جـ / ١٦/ ص ٢٠٧.
(٢) المغني في أبواب التوحيد والعدل ـ عبد الجبار الأسدي جـ ١٦ / ٢١٥.

يقول عبد الجبـــار الأســـدي:

«وإنمــا يعــرف أحــدنــا الحــروف بــالإدراك، والكلمــة مؤتـلفــة من الحـروف، فالعلم بهـا هـو العلم بـالحـروف، وكـذلـك القـول في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض، فكل ذلك من باب الإدراك وكيفيته، فكما أن العلم بالجواهر، والفرق بين المؤتلف منها وغير المؤتلف والتفرقة بين الأشكال المؤلفات ضروري، فكذلك القول في الكلام»[1].

إن الكلام الفصيح عند عبد الجبار مراتب ونهايات، وتآلف الجمل يقع على طرق مختلفة، وبالتالي تكون الفصاحة مراتب، ومكانات متفـاوتة، ومجالاً للتفاضل بين الناس جميعاً، وفي هذه المجالات يكون التحـدي صحيحاً.

ويجري مناقشة حول الوجوه التي يمكن أن يتحدى القرآن العرب في طليعتها التحدي بالمعاني والألفاظ، وهي مجالات ممكنة بحفظ مثيل من اللفظ، ويفهم معاني مماثلة لمعانيه، وقد يظن البعض أن التحدي وقع في مجالات أخرى غير الألفاظ والمعاني مثل الأخبار الصادقة لأنه من الممكن أن يأتي بعض الشعراء أو الخطباء، بتنظيم يدور حول تلك المعاني، وإذا أراد البعض جعل التحدي بنظمه لأن نظم القرآن يخالف ما ألفه العرب لما صح ذلك.

«وإن قلتم تحداهم بمثل نظمه، فالنظم عندكم ليس بمعنى سواه ولو كان معنى سواه لكان يمكنهم أن يأتوا به على طريق الحكاية، وإذا حفظوه وآتوا بمثله بأن يجعلوا بدل كل كلمة غيرها»[2].

---

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل ـ عبد الجبار الأسدي جـ١٦ / ص ٢١٠.
(٢) المغني ـ للقاضي عبد الجبار ص ٢٢٠.

ويدلي برأي صريح هو إنما يقع التحدي بالكلام في الوجه الذي عليه يصح التفاضل فيه والمباينة..... فالتحدي بذلك ممتنع في العقول لأن الفصل فيه لا يظهر فكذلك القول في السبق إلى ما يمكن فيه المشاركة.

ومـــن أقوالـــه:

«وقد علمنا أنه لا معتبر بالمعاني في هذا الباب، سواء لورودها المورد على طريقة الإبداع، أو السبــق، فالتحدي بالقرآن لا يصــح أن يصــرف إلى هــذه الـوجـوه، إن التحـدي وقــع بــالقـرآن لا بــالمعـاني.... وبينــا أنــه الــذي يبيني فيــه التفــاضــل دون المعــاني، وإن كــان حسن المعاني كالشرط، وكالمؤثر في هذا الباب، فإذا صح ذلك، فالواجب أن يكون التحدي واقعاً في القرآن على الطريقة التي ذكرناها.... بين ذلك أنها الطريقة المعتادة في الفصحـاء، لأنهم قد كـانوا يتبـارون، ويتحدى بعضهم بعضاً في الكلام الفصيح، من منظوم ومنثور، ومرادهم ما ذكرناه، من أن يأتي أحدهم بما تبلغ رتبته في قدر الفصاحة رتبة الكلام الذي أورده فيجب في القرآن أن يكون التحدي واقعاً به على المعتاد»(١).

ومما يؤيد ذلك قول عبد الجبـــار:

«أعلم أن الذي قدمناه من الأبواب يبين أن الكلام الفصيح مـراتب ونهايات، وأن جملة الكلمات، وإن كانت محصورة فتأليفها يقع على طرائق مختلفة من الوجوه التي بيناها، فتختلف لذلك مراتب الفصاحة، فيجب أن لا يمنع أن يقع فيها التفاضل وتبين مراتبه من بعض، ويزيد عليه قدراً يسيراً أو كبيراً وما هذا حالة، فالتحدي صحيح فيه، لأن فيه مقادير معتادة تصح فيها. زيادات في الرتب غير معتادة، في بابه بمنزله مقادير ما يمكن القادر

---

(١) المغني ـ القاضي عبد الجبار ص ٢٢٠.

منا أن يفعله»[1].

يجعل عبد الجبار من الفصاحة ميداناً ومقادير للسباق والمنافسة، وفيها يتنافس الفصحاء والبلغاء، وهي مراتب ونهايات، ينتهي إليها كل من بلغت فيه الفصاحة مرتبة عالية ينتهي إليها وفقاً لطاقته اللغوية والفكرية.

إلا أن هذه الفصاحة عند البشر لا ترقى إلى مستوى فصاحة أسلوب القرآن الكريم لأن القرآن جاء معجزاً وهي معجزة الرسول (ﷺ) لقومه، وهم فصحاء، بلغاء وأن القرآن في أوج الإعجاز وإنه دال على النبوة، ولا يصح أن يكون نظم القرآن ميداناً للتحدي لأنه معجز، لأنه لم تجر العادة بمثله، لأن الذي كان يعتاده القوم هو الشعر، وما يجري مجراه، والخطب وما شاكلها من الكلام المنثور فجاءهم القرآن بطريقة في البيان خارجة عما ألفوه.

رأى عبد الجبار، أن التحدي وقع في مجالات مثل الفصاحة والبلاغة وهما الوجهان اللذان يصح فيهما التحدي، ويقول أنه لا يوجد في الكلام إلا اللفظ والمعنى والفصاحة راجعة لهما.

«وإذا صح أنه تحداهم به لمزيته في الفصاحة والبلاغة فالمسألة قائمة لأنا نقول لكم: تحداهم بأن يأتوا بمثل لفظه أو بما يخالف لفظه ومعناه»[2].

أرى أن التحدي وقع في القرآن، وليس بمعانيه فقط وهي المجالات التي تبارى بها الفصحاء والبلغاء، ويمضي عبد الجبار طويلاً في توضيح فكرة الفصاحة، معترضاً على مفهوم النظم عند السابقين قائلاً:

«إن العادة لم تجر بأن يختص واحد بنظم دون غيره، فصارت الطرق

---

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل ـ عبد الجبار الأسدي جـ ١٦ / ص ٢١٤.
(٢) المغني في أبواب التوحيد والعدل ـ عبد الجبار الأسدي ص ٢٢١.

التي عليها يقع نظم الكلام الفصيح معتاد، كما أن قدر الفصاحة معتاد، فلا بد من مزية فيهما، ولذلك لا يصح عندنا أن يكون اختصاص القرآن بطريقة في النظم دون الفصاحة التي هي جزالة اللفظ وحسن المعنى، ومتى قال القائل إني وإن اعتبرت طريقة النظم فلا بد من اعتبار المزية في الفصاحة فقد عاد إلى ما أردناه»[١].

إن فصاحة الكلام بهذه النظرة المتفحصة، تتضمن جزالة اللفظ وحسن المعنى وبهذه الفكرة يقترب كثيراً من مفهوم النظم الذي سبق إليه الباقلاني.

وعبد الجبار في آرائه المختلفة نافذ البصيرة، أدت جهوده إلى إبراز صورة تركيب الكلام، وهي أساسية في بلاغة العبارة وفصاحتها، وبذلك يقترب من الرماني في آرائه وتعريفه البلاغة عندما خصها باللفظ والمعنى. ويعارض مفهوم النظم عند الباقلاني وينتهي عبد الجبار إلى تعريف شامل للفصاحة قائلاً:

«وأعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون الاعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع. وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع، لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة، أو حركاتها أو موقعها، ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بد من اعتبار مثله من الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها، وموقعها، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه، إنما تظهر الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها»[١].

وبتفسير الفصاحة على هذه الوجوه يلتقي مع مفهوم النظم عند الأقدمين

---

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل ـ للقاضي عبد الجبار الأسدي جـ١٦ / ١٩٩.

واللاحقين، فالفصاحة عند عبد الجبار بهذا المفهوم الواسع، من نظرة ثاقبة يجعله في مقدمة الباحثين المتوسعين في فكرة الإعجاز اللغوي.

وتظهر الفصاحة بضم الكلام بعضه إلى بعض، ولا تظهر بالكلمة المفردة وإن المعاني لا تتزايد ولكن تتزايد بالألفاظ، ويجب أن يراعي المرء أثناء ضم الكلام مواقع الكلمات ودورها في إيضاح الدلالة، وأن يمعن النظر جيداً في معان النحو التي هي الآن صميم الدراسات اللغوية المعاصرة، وذلك بأن ننظر إلى موقع الكلمة في الجملة ثم إلى وظيفتها النحوية والصرفية، وحركاتها عندما تنضم إلى بعضها بعضاً في تعبير معين، وتظهر الفصاحة على شكل معقول ضمن هذه الاعتبارات المذكورة دون سواها، فإذا احتجت إلى جملة من الجمل فسرعان ما تظهر المزية التي تبرز التركيب شكلاً ومضموناً ودلالة، ذلك ما يجعل الكلمات تختص بوظيفة معينة حسب الإعراب والموقع الصرفي، والأثر النفسي الذي تتركه في نفوس القائلين والسامعين.

ثم إن الفصاحة في عرف عبد الجبار هي جزالة اللفظ، وحسن المعنى، وهو أن يكون اختصاص القرآن بطريقة في النظم دون الفصاحة، بل يجب اعتبار صفة كل كلمة ووضعها الذي يتناول الضم وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع والجديد في منهج عبد الجبار إضافاته على أبحاث الأقدمين المزيد من الدراسة والعمق والشمولية، لتشمل مفهوم معاني النحو بمعناه الواسع الشامل من موقع الكلام وحركاتها وإعرابها، وصرفها بين المفرد والجمع والتذكير والتأنيث.

وملاحظة موقعها في التقديم والتأخير. وسنجد لهذه الأفكار صداها وتطورها عند المفكرين الذين جاءوا بعد عبد الجبار أمثال عبد القاهر الجرجاني، يقول الدكتور شوقي ضيف:

«وحقاً إن عبد الجبار لم يستطع أن يبين عن شيء من هذا المعنى ولكنه وأمثاله من الأشعرية إنما كانوا يريدونه وعجزوا عن بيانه، والمهم أن عبد الجبار يودع بين أيدينا الآن مفاتيح النغمة التي استمدها عبد القاهر من توقيعه عليها كتابه دلائل الإعجاز، وحقاً إن عبد القاهر حاول تفسيره بتوخي بمعاني النحو، ولكن حين نحلل هذه المعاني نجدها تنحل إلى نفس الكلام الذي حاول به عبد الجبار تصوير الوجوه الذي يقع بها التفاضل في فصاحة الكلام، وعبد الجبار يشير بصراحة إلى حركات النحو وما ترسم من فروق في العبارات»[1].

وتعتبر جهود عبد الجبار اللغوية فتحاً جديداً وطوراً حديثاً لإدراكه أهمية معاني النحو في التعبير، وإن الفصاحة مراتب وهي دعامة لإعجاز القرآن يقول عبد الجبار:

«فقد بين شيخنا أبو هاشم: «إن فصاحة الكلام، إذا كانت تظهر بحسن معانيه واستقامتها، والحاجة إليها، فيجب أن يكون الكلام بحسبها، فلا بد إذا اختلفت أحوال المعاني أن يختلف الكلام. فأما قول من يدعي أنه مقتصر في البيان عما يجب أن يكون عليه كلام الحكيم فقد بينا أن الأمر بالضد مما ذكرناه، وبينا اختلاف العلماء في أنه في أعلى مراتب الفصحاء»[1].

ويشير في مطلع كتابه المغني إلى أن الفعل هو الحادث من جهة القادر وقد يكثر ويقل لأنه على حسب قدرة القادر، ودواعي حاجته إليه، وإذا كان القادر قادراً لذاته يصح أن يحدث منه مالا نهاية لـه.

«أعلم أنا قد بينا في أول باب العدل أن الفعل هو الحادث من جهة

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ د. شوقي ضيف ص ١١٧.
(٢) المغني في أبواب التوحيد ص ٤٠١.

القادر وقد يكثر ويقل لأنه على حسب قدرة القادر ودواعيه وحاجته إليه، وإذا كان القادر قادراً لذاته يصح أن يحدث منه ما لا نهاية له من كل وجه، ولا يصح من القادر بقدرة أن يحدث إلا ما ينحصر ويتناهى على ما سبق القول فيه، فإذا ثبت ذلك فكل فعلين ليس أحدهما هو الآخر فيجب أن يكون غيره»(١).

إن هذه الجهود تضعنا أمام مرحلة فكرية جديـة هي مرحلة النبـوغ الفكري، بل هي مرحلة تطورية وفقاً لتطور الحياة العقلية العربية والحياة العامة.

مجمـل القول بجهود عبد الجبار اللغوية:

تمثل جهود عبد الجبار اللغوية مرحلة جديدة في الفكر اللغوي هي مطالع النبوغ الفكري، تماشت مع تطور الحياة العقلية عند العرب خاصة والمسلمين عامة، تناول عبد الجبار مسألة الإعجاز القرآني، وجعل الأسلوب القرآني في المرتبة الرفيعة من البلاغة والفصاحة، وأن الفصاحـة مراتب يتفاضل بهـا بعض الكلام بعضـه الآخر عن بعض وأنهـا راجعـة للفظ والمعنى بحيث يكون اللفظ جزلاً والمعنى حسناً، وبناء على ذلك تتضح صور تراكيب الكلام وهي أساسية في بلاغة العبارة وفصاحتها، وأن هذه الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام وإنما تظهر بالضم، بضم الكلام على طريقة مخصوصة من أن يكـون لكل كلمـة صفة، وتكـون هذه الصفـة بالمواضعة التي تتناول الضم وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وعلى هذا النحو تظهر فصاحة الكلام ومزيته، ثم أن الكلمة الواحدة داخل العبارة لها موضع ومكان تؤدي منه دورها فإذا تقدمته لموضع آخر أدت دوراً آخر

---

(١) المغني في أبواب التوحيد ص ٥٠.

قد ينقص من قدرتها في أداء المعنى الذي كانت هي من أجله، فإذا قامت كل لفظة داخل نسق العبارة بدورها تأكدت صورة المعنى الذي تؤديه العبارة المنظومة، ولم تقف جهود عبد الجبار عند هذا الحد من التوضيح بل تعداه إلى وجوه التفاضل بفصاحة التعبير وإلى الحديث عن أبواب النحو وما ترسمه من فروق دلالية في العبارة وضح عبد الجبار أن الصفة التي يكتسبها اللفظ داخل نظم العبارة هي صفة مؤقتة والمعاني ثابتة محددة، فالمعول عنده هو النظم لابراز المعاني على حقيقتها والأصل في الألفاظ برأيه أن يختص كل لفظ داخل العبارة بمعنى معين وأن يشير في الذهن دلالة معينة وبالتوالي لا عبرة في الفصاحة بقصر الكلام وطوله.

«إنه لا عبرة في الفصاحة بقصر الكلام وطوله، ولا بأي شيء من هذه الأشياء لأن كل ضرب منها ربما يكون في موضع خير منه في موضع آخر، وإذن فليس هناك إلا ضم الكلم بعضه إلى بعض وتعليق بعضه ببعض»[1].

يقـــول الدكتـــور شوقي ضيف:

«وعبد الجبار بتفسيره للفصاحة على هذا النحو يلتقي بالأشعرية في قولهم بالنظم لا بالمعنى العام الذي فهمه الجبائي»[2].

وقف عبد الجبار طويلاً عند قضية الفصاحة موضحاً مجالاتها وشروطها وذلك أثناء المقابلة بين اللفظ والمعنى، وبجعل الفصاحة مقابلة لفكرة النظم عند الباقلاني، وعند عبد القاهر الجرجاني، وقد اقترب بها كثيراً من أفكار عبد القاهر مدعماً أفكاره بآراء جد متقدمة على ما مر بنا من جهود منها، وضع كل لفظة من الألفاظ المكونة للعبارة في المكان الذي تتطلبه أبواب النحو المختلفة وأن الفصاحة لا يمكن أن تظهر في أفراد الكلام وإنما تظهر بالضم.

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجانـي ص .

بضم الكلام بعضه إلى بعض كي تؤدي العبارة وظيفتها الدلالية.

وبهذا يضعنا أمام مرحلة حاسمة هي مرحلة الإبداع ووضع النظرية.... التي ولدت على أيدي عبد القاهر الجرجاني، ويكون قد استفاد من جهود السابقين ونظمها وانتفع بها في جهوده اللغوية الهامة داخل نظرية النظم.

*** .. *** ... *** ... ***

جـ ــ جهود ابن رشيق القيرواني:

ألف ابن رشيق القيرواني كتاب العمدة في أواسط القرن الخامس الهجري والمتوفي سنة ٤٥٦ هـ، وهو من النقاد البارزين في المغرب العربي، له جهود فكرية عديدة أشهرها كتاب العمدة، حيث كان جامعاً لموضوعات متعددة عرضها في أبواب عديدة وفق منهج علمي دقيق، ثم وزعها على نحو مائة باب.

حاول أن يجمع ما كتب عن صناعة الشعر، مع المسائل البيانية والبديعية عند المصنفين لها قبله، وكتاب العمدة جزءان استهله بالحديث عن فضل الشعر وأن الإسلام لم يحاربه، وإنه ظل يجري على ألسنة الخلفاء والقضاة والفقهاء، وقد تضمن الكتاب باباً خاصاً أطلق عليه باب اللفظ والمعنى بين الأبواب البلاغية والنقدية الأخرى، وهو فصل خاص للحديث عن اللفظ والمعنى، قال إنهما متلازمان، ومن الأبواب الأخرى التي تناولها باب الأوزان والقوافي، تحدث فيه عن دوائر البحور وأجزائها وألقابها وما يدخل بها من زخارف، ثم يفرز باباً خاصاً للبلاغة ويعقد فصلاً للمجاز وآخر للاستعارة وللكتاب مكانة هامة عند الدارسين البلاغيين والأدباء واللغويين والنقاد ومن أبرز الجهود التي تناولها في صدد الحديث عن المجالات اللغوية هي فكرة اللفظ والمعنى، التي شغلت آراء رجال الفكر

على مر العصور وكانت مجال اهتماماتهم إلى يومنا هذا، فكان لكل جيل نصيبه من أعباء تلك الجهــود.

توصل ابن رشيق في جهوده اللغوية إلى أن اللفظ والمعنى متلازمان تلازم الروح في الجسد، إذ اللفظ جسم روحه المعنى، وما يصيب أحدهما من خلل أو اضطراب يصيب الآخر، كما أن ما يتصف به اللفظ يتصفه به المعنى، وما يعتري الجسم من علل وأمراض تنعكس على الروح والحيوية فإذا وصف اللفظ بالغرابة أو بالابتذال والسخف أو الخفة والرشاقة والجزالة كانت هذه الأوصاف تنعكس على المعنى، وكذلك هو الشأن في المعنى فإن وصف بالوضوح والجلاء والجودة أو الرداءة أو البساطة والسطحية كان ذلك وصفاً للفظ الذي يعرض المعنى، وبه يبرز حيز الوجود وليس اللفظ والمعنى شيئين منفصلين عن بعضهما، بل هما متفاعلان مترابطان ترابط الروح بالجسد، فإن اختل اللفظ جملة، فلن يصح له معنى على الاطلاق، لأنه لا يعقل أن نجد روحاً في غير جسم حي وذلك ما لا يجهله عاقل.

ومن أقواله الهامة في مجال العلاقة بين اللفظ والمعنى والفكر واللغة قوله:

«اللفظ جسم روحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ، كان نقصاً للشعر وجنة عليه، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور.

وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظاً، كالذي يعرض للأجسام من المرض مرض الأرواح، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ، وجرى به فيه على غير الواجب قياساً على ما قدمت من أدواء الجسم والأرواح، فإن

اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيـه»[1].

رأى ابن رشيق أن المفكرين السابقين له، وبعض المعاصـرين له، والذين تناولوا في أبحاثهم قضايا اللفظ وقضايا المعـاني*وطبيعة العـلاقة بينهما، وجد أن منهم من كان يؤثر اللفظ على المعنى ويجعله غايته، ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ، فيطلب صحته ولا يبالي حيث وقع اللفظ من حيث قبحه أو خشونته وهجنته وأكثر الناس في عصر ابن رشيق كانوا يفضلون اللفظ على المعنى، إلا أن ابن رشيق قـد انتفع بجهـود السابقين له وقيم وقدر، وأعطى فضلاً من جهده للفظ من حيث أنه عدة الأديب وزاد المتكلم ورأى الأديب وصوت البليغ والكاتب والشاعر. . الخ.

وخص المعاني بالأهمية التي يجب أن يوليها كل مفكر عنايته من أنها أساس لكل تعبير لغوي، فهي برأي ابن رشيق روح واللفظ جسم ولا معنى للجسم بدون روح، فالارتباط حتمي والتلاحم واجب، ولا يمكن الفصل بينهما، فالعلاقة عضوية.

وقف ابن رشيق القيرواني من أعمال الفريقين وقفة المتبصر والخبير العارف، فوصل إلى رأي حاسم في مجال العلاقة بين اللفظ والمعنى من أنه لا يمكن أن يهمل اللفظ على حساب المعنى، ولا أن يهمل المعنى على حساب اللفظ، وخاصة في مجال المقابلة بينهما، في العبارة الواحدة أو النص الكامل، العلاقة العضوية وحدة متكاملة يجب استمرارها فهي ذات روح متغلغلة تمتد بعروقها إلى أعماق خصائص اللفظ وخصائص المعنى، وبهذه الآراء نقتربُ كثيراً من آراء عبد القاهر الجرجاني في مجال المقابلة

---

(١) انظر ترجمة ابن رشيق القيرواني ـ معجم الأدباء جـ / ١١٠.
(٢) انظرْ وروضات الجنان ص ٢١٧، وشذرات الذهب ٣ / ص ٢٩٧.
(٣) وفوات الوفيات ٢ / ٢٥٥ ـ وانباه الرواة جـ ١ / ٢٧٨.
(٤) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص ٧٥.

بين اللفظ والمعنى.

وقفت هذه الجهود إلى جهود ثرية أخرى عاصرت ابن رشيق وعاصرت عبد القاهر ألا وهي جهود ابن سنان الخفاجي صاحب كتاب سر الفصاحة.

د ـ جهود ابن سنان الخفاجي اللغويـــة:

تهل علينا جهود ابن سنان الخفاجي في مجال الدراسات اللغوية أثناء حديثه عن إعجاز القرآن في كتـابه الشهيـر (سر الفصـاحة) وابن سنـان الخفاجي بجهوده اللغوية هذه معاصر لابن رشيق القيرواني ولعبد القاهر الجرجاني توفاه الله عام ٤٦٦ هـ.

عني ابن سنان بتفسير الفصاحة وما تنطوي عليه من صور البيان والبديع واللفظ وصفاته وخصائصه، وفرق ابن سنان بين الفصاحة والبلاغة للوصول إلى أسلوب القرآن المعجز، فجعل الفروق واضحة بين الفصاحة والبلاغة، وبها ابتدأ الحديث بعد المقدمات فخص الفصاحة بالألفاظ وجعل البلاغة عامة في الألفاظ والمعاني.

إن الفصاحة ضمن هذا المفهوم وهذه الاعتبارات مقصورة على وصف اللفظ، وتكون البلاغة شاملة للفظ والمعنى، ولهذا لا يقال في كل كلمة واحدة بليغة فصيحة، بل يمكن أن يقال كل كلام فصيح من أنه كلام بليغ نسبة لجودة معانيه لأن الألفاظ والمعاني يسيران معاً في جسم حي واحد.

ومـــن أقـــواله:

«إن الفصاحة على ما قدمنا نعت للألفاظ، إذا وجدت على شروط عدة ومتى تكاملت تلك الشروط، فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ، وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف، وبوجود أضدادها تستحق الأطراح

والذم»[1].

واشترط ابن سنان لهذه الفصاحة شروطاً خاصة بالألفاظ وهي منظومة وجعلها ثمانية شروط نجملها فيما يلي:

أن يكون تأليف اللفظ الواحدة من حروف متباعدة المخارج، وأن تجد لتأليف اللفظ بالسمع حسناً ومزيته على غيرها، وأن تساويها في التأليف من الحروف المتباعدة، وأن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح وأن تكون قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره، وإذا وردت غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت، فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة والمعروفة قبحت إلينا وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة، ويمكن أن تكون مصغرة في موضع عبر بها عن شيء لطيف أو خفي أو قليل.

لذلك كان لبحث الخفاجي في الفصاحة أثر على من جاءوا بعده وجعلوها في مقدمة بحوثهم البلاغية أمثال السكاكي والقزويني.

لاحظ ابن سنان أثناء حديثه عن شروط الفصاحة، أن من الكلام متنافر كلماته على نحو تنافر حروف الكلمة الواحدة، ويتقبل الخفاجي قسمة الرماني بقسمة الكلام من أن الكلام ثلاثة أضرب: متنافر، تمجه الآذان وترفضه العقول، وكلام متلائم في الطبقة الوسطى، وكلام متلائم في الطبقة العليا وهو أسلوب القرآن الكريم، وما خلا ذلك موفور في كلام الناس فقهاء وخطباء وشعراء.

ويوضح الخفاجي آراءه الخاصة بالفصاحة ويدعمها بالحديث عن الكلام المتآلف وهو المناسبة بين الألفاظ والمعاني، فيشير إلى السجع والأزدواج والفواصل والمساواة، ويعتمد في كل ذلك على جهود السابقين

(١) سر الفصاحة ـ ابن سنان الخفاجي ص ٦٥.
(٢) البلاغة تطور وتاريخ ـ ص ١٥٧، وسر الفصاحة ص ١٨٣.

أمثال الجاحظ والرماني، وقدامة، والعسكري وعبد الجبار وناقش البعض في آرائهم أمثال الرماني عندما اعتبر الفواصل والسجع طريقاً في مراعاة النظير وقال البعض منهم أن الفواصل بلاغة والسجع عيب لأن الفواصل تتبع المعاني، ويرى أن لا فرق بين الفواصل والسجع في مجال الفصاحة.

ويضطره الموضوع ذاته إلى تناول الحديث عن التناسب بين الألفاظ عن طريق المعاني، ويضيف إلى شروطه السابقة في الفصاحة، الإيجاز وحذف فضول الكلام ومطابقة الكلام المقتضى الحال، ثم أثر الكلام في السمع والتكرار.

إن كل هذه الشروط التي وضعها ابن سنان هي شروطاً للفصاحة في الكلام قد تناولها السابقون له في مجال البحث اللغوي، جمعها المتأخرون من البلاغين وجعلوها طريقاً علمياً للكشف عن أسلوب القرآن المعجز. وكل ما يمكن قوله هنا في أبحاث الخفاجي اللغوية هو أنه أجمل شروط الفصاحة عند السابقين منذ أيام الجاحظ، وعرضها عرضاً جديداً لينجعل منها كلا متكاملاً يخدم به القرآن الكريم، وما يؤخذ عليه أنه لم يشر إلى معاني النحو التي تناولها القاضي عبد الجبار الأسدي صاحب كتاب المغني. ومن لطيف ما تنبه إليه أثناء مقارنته بين نظم الشعر، ونظم العبارة النثرية وما يقال في تفضيل الكلام في كلاِ النظمين، وما يحتاجه لمؤلف الكلام هو حديثه عن نظم العبارة الشعرية ونظم العبارة النثريـــــة.

يقول الدكتور شوقي ضيف في جهود الخفاجي المتنوعة في كتابه سر الفصاحة:

«وواضح أن الكتاب عالج فنون البلاغة والبديع في ثنايا حديثه عن سر

(١) انظر سر الفصاحة ص ٦٣، للخفاجي.

الفصاحة، إذ هي عنده تشتمل حسن اللفظ وحسن المعنى بالضبط كما أطلقها من قبله أبو هاشم الجبائي، وقد نقل عنه مراراً في حديثه عن الأصوات والحروف وفي بعض صور الكلام... ومناقشاته دقيقة لمن سبقوه»(١).

والواقع أن الخفاجي أقام كتابه سر الفصاحة على أساس إيضاح الفرق الفاصل بين الفصاحة والبلاغة، ومن أقواله في هذا الميدان الهام حيث أن هذين التعريفين بقيا ممتزجان في بعضهما عهداً طويلاً فقال فيهما:

«الفصاحة مقصورة على وصف اللفظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ والمعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغه، وإن قيل فيها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح،وليس كل فصيح بليغاً كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه»(٢).

وبهذا تتعلق الفصاحة في اللفظ الواحدة وهي منظومة مع بعضها ثم إلى ما يخص وضع الألفاظ بين الحقيقة والمجاز، وألا يكون في الكلام تقديم وتأخير يفسدان المعنى وتصرفه عن وجهه.

وختم كتابه بفصل يحتاج مؤلف الكلام إلى معرفته:

«إن مؤلف الكلام لو عرف حقيقة كل علم، واطلع على كل صناعة لأثر ذلك في تأليفه ومعانيه وألفاظه، لأنه يدفع إلى أشياء يصفها فإذا خير كل شيء وتحققه كان وصفه له أسهل ونعته أمكن»(٣).

ويقول الدكتور أحمد مطلوب في جهود ابن سنان اللغوية:

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ص ١٥٨.
(٢) سر الفصاحة للخفاجي : ص ٦٠.
(٣) سر الفصاحة : ص ٣٤٣.

«وكان بحثه في اللفظة المفردة من أحسن ما كتب في هذا الموضوع الذي جعله المتأخرون مقدمة لكتبهم، ولم يقصر الكلام على اللفظة المفردة ولكنه تجاوزها إلى الكل الذي ينشأ من مجموع الكلمات»[٤].

وبهذه الجهود اللغوية التي قدمها الخفاجي في كشفه عن أسرار الفصاحة من حسن اللفظ وجودة المعنى في صور الكلام، بهذه الجهود اللغوية التي اتصفت بالعمق وسعة الأفق نصل إلى مرحلة الإبداع الفكري عند عبد القاهر الجرجاني.

سخر الخفاجي هذه الجهود ليخدم القرآن الكريم اسوة بمن سبقه من المتكلمين والمتأدبين.

وينتهي به المطاف في إثبات الإعجاز إنه راجع لصرف الله العرب عن معارضته، مع إن فصاحة القرآن كانت ممكنة وفي مقدورهم لولا الصرفة وأن القرآن معجز بالصرفة، صرف العرب عن معارضته قال الخفاجي:

«إن وجه الإعجاز في القرآن صرف العرب عن المعارضة مع إن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم لولا الصرف، وأمر القائل بهذا يجري، مجرى الأول في الحاجة إلى تحقق الفصاحة، ما هي فيقطع على أنها كانت في مقدورهم من جنس فصاحتهم»[٢].

ويضيف إلى أقواله هذه أقوالاً أخرى من أن إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته منها:

«وإذا كان الأمر على هذا فنحن بمعزل عن ادعاء ما ذهب إليه، من أن بين تأليف حروف القرآن ومن غيره من كلام العرب، كي يبين المتنافر

---

(١) الدكتور أحمد مطلوب ـ القزويني وشروح التلخيص ص ٥٦.
(٢) سر الفصاحة ص ٤ و١١٠.

والمتلائم ثم لو ذهبنا إلى أن وجه إعجاز القرآن الفصاحة وادعينا أنه أفصح من جميع كلام العرب بدرجة ما بين المعجز والممكن لم يغتفر في ذلك إلى ادعاء ما قاله من مخالفة تأليف حروفه لتأليف الحروف الواقعة في الفصيح من كلام العرب، وذلك أنه لم يكن بنفس هذا التأليف فقط فصيحاً، وإنما الفصاحة لأمور عدة تقع في الكلام من جملتها التلائم في الحروف وغيره»(١).

وبهذا تنضم جهود الخفاجي إلى جهود ابن رشيق لتدعم رصيد الأسبقين في الجهود اللغوية. وتكون عاملاً في وقع الجهود من الملاحظات والأفكار إلى بعث النظرية اللغوية الشهيرة في النظم عند عبدالقاهر الجرجاني.

---

(١) المرجع نفسه.

الفصل الثالث

أبرز الجهود اللغوية

عند عبد القاهر الجرجاني:

الإمام عبد القاهر الجرجاني بن عبد الرحمن بن محمد أبو بكر الجرجاني النحوي المشهور صاحب نظرية النظم، وهو من كبار أئمة العربية في عصره والمتوفي سنة ٤٧٤ هـ.

ولد عبد القاهر في مطلع القرن الخامس الهجري بجرجان إحدى المدن الفارسية الجميلة بمياهها، وبساتينها، وفواكهها ونخيلها، ظل في مدينته لا يبرحها، عاكفاً على العلم والتعليم إلى أن توفاه الله فيها عام اربعمائة وواحد وسبعين، وقيل اربع وسبعون واربعمائة للهجرة كان عبد القاهر على علم كبير باللغتين العربية والفارسية، وعنده ذواقه للأسلوب القرآني، متكلم أشعري، شافعي المذهب، ومن المؤسسين الأوائل لعلم البلاغة العربية.

أرخت له مراجع تاريخية وثقافية عديدة وهي على التوالي:

ترجم له السيوطي في كتابه بغية الوعاة، والجاحظ الذهبي في تاريخه،

دول الإسلام،والسبكي في طبقات الشافعية، وابن العماد في كتابه شذرات الذهب وصاحب كتاب فوات الوفيات لمحمد الكتبي.

وهي كتب لم تؤرخ لحياة العلامة الجليل تأريخاً مفصلاً، بل كان جل اهتمامها منصباً على أصالته العلمية ومكانته الدينية، وشهرته النحوية التي ذاعت في الأصقاع. ويعتبر الشيخ أبو الحسين محمد الفارسي بن أخت الشيخ أبي علي الفارسي والإمام المشهور والمقصود من جميع الجهات من أعظم الأساتذة الذين تثقف على أيديهم. أخذ عبد القاهر عنه علم النحو، ولم يأخذه على أحد سواه، وتتلمذت روحه على الصاحب بن عباد، ولعلي بن عبد العزيز الجرجاني، ولابن جني، وبأن روح عبد القاهر شربت من كل ما كتبوه ومهما يكن من أمر حياة عبد القاهر ونشأته العلمية، ومصنفاته العديدة، فإني أرى أن حياته الفكرية كانت تتمثل صورة عصره المزدهر أصدق تمثيل، والمتمثل بامتزاج الثقافات المتنوعة والمختلفة، من عربية وفارسية وهندية ، ويونانية مترجمة، وتلك هي حتمية احتكاك الحضارات الإنسانية بعضها ببعض وانتقالها بين الأمم.

آ ــ منزلة عبد القاهر العلمية:

لم يقف عبد القاهر في تعلمه وأخذ العلم عن شيخه المفضل الذي كان يشير إليه في أكثر من مناسبة دون أن يذكر اسمه فيقول: «وقال شيخنا رحمه الله» أو أنشدنا شيخنا رحمه الله أو حكى شيخنا رحمه الله، بل قرأ

---

(١) انظر فوات الوفيات لمحمد الكتبي جـ ٢ / ٢٩٧.
(٢) شذرات الذهب جـ / ٣٤٠ لإبن العماد.
(٣) النجوم الزاهرة جـ / ١٠٨.
(٤) معجم الأدباء ـ لياقوت الحموي جـ ٢٩٤/٥.
(٥) انظر حياة عبد القاهر الجرجاني ـ نظرية النظم عند عبد القاهر وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية ص ٣٨ ـ ٤٨.
(٦) احمد مطلوب ـ عبد القاهر بلاغة ونقد ـ ص ١٥ ـ دلائل الأعجاز تحقيق المرافي ص ٩.

الكتب الكثيرة التي موضوعها اللغة، والنحو، والفقه، والبلاغة، والأدب.

قرأ بعقل وفكر واع للكثيرين الذين اشتهروا باللغة والنحو والبلاغة والأدب، وللمعاصرين له، وللسابقين في ميدان الفكر، أمثال كتب سيبويه وما كتبه الجاحظ، والمبرد وابن دريد العسكري والمرزباني، والآمدي والقاضي الجرجاني، ولابن جني كذلك، فكان ثمرة هذا الإطلاع الثقافي الواسع، أن تصدر في جرجان، وذاع صيته وشدت إليه الرحال من قبل طلاب العلم في زمانه، يقرأون عليه كتبه، ويأخذون عنه علماً غزيراً نافعاً ومن طلابه المشهورين (علي ابن زيد الفصيحي) فقد تخرج على يدي عبد القاهر، ثم أوفد إلى بغداد فكان له فيها سمعة علمية عظيمة، فاستفاد الناس من علمه، مثلما استفادوا من استاذه عبد القاهر الجرجاني، وكذلك هو الأمر بالنسبة لطلاب آخرين ممن ذكرتهم كتب الرواة أمثال (نصير أحمد بن ابراهيم ابن محمد الشجري) واحمد بن عبد الله المبايدي الضرير) صاحب شرح كتاب اللمع لابن جني.

وقد اعجب المؤرخون بعلم عبد القاهر، وخلقه وأدبه، وترجموا له واعترفوا بفضله، فكان لا بد لرجل عظيم في العلم والجاه مثل عبد القاهر أن يحظى بمنزلة عظيمة، ويتصدر مجالس العلم في جرجان للمؤلفات العلمية العديدة التي تركها مثل: المغني وشرح الفاتحة، والمعتضد، والعمدة في التصريف، وكتاب العروض ودلائل الأعجاز، وأسرار البلاغية.

ومما قاله القفطي في أنباه الرواة في هذا العلامة: «وقرأ ونظر في تصانيف النحاة والأدب، وتصدر بجرجان وشدت إليه الرحال، وصنف التصانيف الجليلة، وكان إلى جانب علمه، عظيم الخلق ورعا تقيا»[1]

---

(١) أنظر دلائل الأعجاز ص ١١٢ ـ ١٣٢ ـ ١٧٦.
(٢) انظر ـ نظرية النظم ـ وليد مراد ص ٤٠ ـ ٤٨.
(٣) أنباه الرواة للمقفطي جـ /١٨٨.

يعتبر فضل عبد القاهر جليلاً، في صياغته نظرية النظم لجملتنا العربية، فقد اكتملت عنده الدراسات اللغـوية، وانتـظمت بفضله الجهود اللغـوية بمنهج علمي منظم في كتابيه دلائل الأعجاز وأسرار البلاغة.

ب ـ نظرية النظم:

نظرية النظم التي أبرز معالمها عبد القاهر الجرجاني إلى حيز الوجود، هي صورة النظم التي يرى فيها الأعجاز القرآني، مع حقيقة العلاقة العضوية الرابطة بين الألفاظ والمعاني، واللغة والفكر، هي نتيجة لجهود لغـوية وفكرية متواصلة، شارك فيها الباحثون في مجال الفكر والمعرفة منذ عصر الجاحظ أو قبل ذلك بكثير. جمع عبد القاهر شتات الآراء ووحد بينها في إطار منظم، ثم وضـع الخطوط ورسم الحـدود وجعل التقسيمـات وأبرز المعالم، ثم أرجعها إلى أسس علمية منظمة في نظم الكلام فجاء منهجه اللغوي فيها واضحاً.

لذلك لم تكن نظرية النظم التي وضعها عبد القاهـر وليدة اللحـظة والصدفة، بل كانت نتيجة جهود متواصلة، إلا أن هذه الجهود لم تتخذ منهجاً علمياً إلا في الربع الأخير من القرن الخامس الهجري، ربط عبد القاهر بين نظريته اللغوية في النظم وبين الأعجاز القرآني، واللفظ والمعنى مع التصوير الفني ورقي الصياغة، ليخدم القرآن، ويبرز الإعجاز منه.

إن الإتجاه اللغوي الذي سار عليه عبد القاهر في نظريته، وأشار إليه السلف، هو إتجاه علمي يرفض أن تكون الكلمة أبسط عنصر لغوي ذي دلالة، وهو إتجاه يرفض الفصل بين اللغة والفكر، بينهما علاقة عضوية ثابتة، لأن اللغة رداء للأفكار والألفاظ خادمة للمعاني، ومعبرة عنها، كما أنها مصورة لها، إن الطريقة التي اتبعها القرآن في التعبير هي التي أبرزت

أغراضه وموضوعاته ومن هنا كان دور عبد القاهر عظيماً في تقرير قضية النظم ضمن اللفظ والمعنى في طريقة الإداء الحاسم لتصوير المعنى.

فإذا اختلفت طرق التعبير عن المعنى الواحد ، لا بد أن يتبع هذا الإختلاف تبدل يصور هذا المعنى في النفس والذهن، وبذلك يربط المعاني بطرق الإداء ربطاً لا يجوز الحديث بعده عن المعاني والألفاظ كل على انفراد. ولا نفصل بينهما بفاصل ولن يبرز المعنى الواحد بوضوح، إلا في صورة واحدة، فإذا تغيرت الصورة الواحدة للتعبير تغير المعنى بمقدارها وأي تبدل بالألفاظ لا بد أن يقابله تبدل بالمعنى.

مفهوم النظم عند عبد القاهر:

النظم هو تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض وتوخي معاني النحو بين الكلام حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام وحسب كل تعبير لغوي مفهوم بأن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، وأن يشتد ارتباط ثان بأول، وأن توضع الجملة في النفس وضعاً واحداً، والنظم والترتيب في الكلام، عمل يعمله مؤلف الكلام في معاني الكلم، ليس في الفاظها والناظم بما يصنع سبيل من يـأخذ الأصباغ المختلفة فيتوحى منها ترتيباً يحدث عنه ضروباً من النقش والوشي.

قال عبد القاهر:

«وأعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي لا تراها في قولك.

زيد منطلق ـ وزيد ينطلق ـ وينطلق زيد ـ ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق ـ وزيد هو منطلق.

وفي الشرط والجزاء: إلى الوجوه التي تراها في قولك ـ إن تخرج أخرج، وأن خرجت خرجت، وان تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج. وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك:

جاءني زيد مسرعاً، وجاءني يسرع، وجاءني وهو مسرع، أو وهو يسرع، وجاءني قد أسرع وجاءني وقد أسرع، فيعرف لكل ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له، وينظر في الحروف التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصيته في ذلك المعنى، فيضع كل من ذلك في خاص معناه، نحو أن يجيء بما في نفي الحال، وبلا إذا أراد نفي الإستقبال، وبأن فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون، وبإذا فيما علم أنه كائن.

ونظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع ثم، وموضع أو من موضع أم، وموضع لكن من موضع بل، ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار، فيضع كلا من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له.

هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأً بالنظم، ويدخل تحت هذا الإسم، ألا وهو معنى من معاني النحو، قد أصيب به موضعه ووضع حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة

---

(١) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٥٦.

فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا تره كلا ما قد وصف بصحة نظمه أو فساده، أو وصف بمنزلة وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو أحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه.

في هذا النص دقة علمية، وقيم فكرية، ومنهج لغوي علمي فريد إلى يومنا هذا.

تضمن هذا النص منهجاً لغوياً دقيقاً لنظرية النظم، مقوماتها، ضم الكلام ضماً منظماً وفقاً لأبواب النحو المختلفة، متقيداً بصحة التعابير وفقاً لمعاني النحو ومناهجها وأصولها ومستوياتها الصرفية والدلالية، فهي إشارات لبني الجمل العميقة والخارجية معاً. تضمن هذا النص بعض جوانب نظرية النظم، توجها عبد القاهر بنظم الكلم وفقاً لقوانين النحو وأصولها ومناهجها، فهي أساس الصحة اللغوية في كل تركيب لغوي، تلي تلك الجوانب الهامة من هذه النظرية اللغوية الهامة، قضايا أخرى كقضية أحوال الخبر المتنوعة بين الإيجاز والوجوب، وما تمر فيه الجملة الخبرية من أحوال متنوعة حسب تناوب المقامات وتغير الأحوال، وحسب ترتيب المعاني في النفس، ثم من العسير شمولية هذا الباب وتغطيته بآلاف من الأمثلة من موافقة الخبر للمبتدأ في النوع والعدد إلى مسوغات الإبتداء بنكرة ثم إلى جواز الحذف أم وجوبه أو تأخيره أو تقديمه جوازاً أو وجوباً وبرجوع المرء لكتب النحو يدرك هذه الفوارق العديدة في وجوه الخبر وتعددها، وفقاً لأوضاع المعاني المقصودة بين المتكلم والسامع، وكذلك هو حال شأن الشرط والجزاء في التعبير، وتعدد وجوه الشرط والجواب حسب المقامات والظروف وترتيب المعاني فالفرق واضح بين أن تخرج أخرج، وأنا خارج ان خرجت وهي تعبيرات شرطية، فيها الهدوء وتحمل طابع التهديد الذي يحتمل التريث والتفكر، بينما تعبيرات، وأنا خارج أن خرجت وأنا ان خرجت خارج هي تعبيرات

تستعمل عندما يضيع الصبر ويحل مكانه سرعة التصرف والإنفعال، فهي دليل النفوس المتهيجة التي لا تحتمل الصبر، فلكل تعبير مكانته في نظم الكلام ونفوس الناس. تضمن النص جانباً آخر هو وضعية الجملة الحالية، ومواضعها في النفوس وأثرها في الطبائع، ومتى تستعمل كل حالة في تعبيراتنا، متى يكون الحال مضارعه به ظاهر، ومتى يجب أن يكون جملة فعلية أو مصدراً أو فعلاً ماضياً ومضارعاً، ومتى نستعمل الضمير أو قد وواو الحال في الجملة الحالية.

هذا هو نظام دقيق تسير عليه لغتنا في نظم الكلام منظمه الأساس، ـ معاني النحو.

يشير عبد القاهر في السابق إلى جوانب هامة أخرى، مثل وضعية التعريف والتنكير في بناء الجملة العربية، وإلى حروف المعاني ودقة استعمالها والطرق الواجب السير عليها، أي ننهج الصوابْ وننشد الدقة العلمية في تعبيراتنا، ومما أشار إليه في ذلك النص، مواضع الفصل في الجمل، وأهميتها ثم مواضع الوصل وضرورت ذلك في نظام الجمل العربية وأهمية هذه الجوانب لتحرير المعاني الثانوية في النفس، وعلى المرء أن يدرك أهمية هذا الباب، وأن يكون على علم به، من أن يعرف ما حقه الفصل وما هو حقه الوصل، وأن يفرق بين استعمال حرف الواو، ثم ولكن وبل، وبين موضع أم، من موضع أو، فلكل منهم موضع في نظام التعبير عند العرب، يجب ألا يخل المرء به، فهذا هو سبيل نظم الكلام، نظام قائم بذاته، معياره دقة استعمال معاني النحو أو البعد عنها، تلك هي شروط واضحة لإدراك الصحة من الخطأ.

يمثل النص السابق نظاماً علمياً دقيقاً يساعدنا على خلق الجمل المولدة الغير متناهية دون خطأ، فهي أفكار شاملة للبنية العميقة للكلام وللبنية السطحية التي أشار إليها المحدثون مقتبسين ذلك عن زعيم المدرسة الغربية

المفكر الأمريكي (نوم تشومسكي). وسنشرح أقسام هذه النظرية مفصلين بنودها، ومقوماتها كي تبرز في صدر علم اللغة المعاصر جوهرة يرجع إليها كل من أحب تدارس عمق فكر عبد القاهر اللغوي.

وجدير بالذكر أن هذه النظرية اللغوية تربط بين النظم ونظم الكلام على شتى مستوياته، وبين نظم القرآن وأعجازه، كي يدرك المرء طبيعة العلاقة الرابطة بين اللغة والفكر في القرآن الكريم، فيحسها بالذوق ويدركها بالعقل، ويقارن بين كلام الله وكلام الناس، وبذلك تتمتع هذه النظرية بتقدير الباحثين منذ أن ظهرت على صفحات دلائل الأعجاز، وحتى يومنا هذا، وبذلك استحقت تقديرنا، كزاد لغوي وعلمي، نضاهي به جهود المعاصرين اللغويين عند الغرب.

يقول الدكتور شوقي في هذا النص:

«وهذه القطعة من كلام عبد القاهر تحمل مباحث علم المعاني، فقد ذكر الإسناد، والمسند والمسند إليه، وما يجريان فيه من صور كثيرة»[1] تناول فيه حالات الخبر وأوضاعه المختلفة، والشرط والجزاء بصورهما المتعددة والحال عندما يكون اسماً أو فعلاً أو جملة اسمية، ولكل ذلك وضعه وكذلك هو حال شأن الفصل والوصل بين العبارات.

ومما جاء في كتاب الدكتور احمد مطلوب «القزويني وشروح التلخيص» حول النص ذاته وأخذ القزويني عن عبد القاهر فكرة النظم: أنه توخي معاني النحو فيما بين الكلام على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام، ولم يسمه القزويني بهذا الإسم وإنما سماه تطبيق الكلام على مقتضى الحال:

---

(١) انظر: نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية رسالة جامعية ـ وليد مراد. ·

«إن مقتضى الحال مختلف فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقامات التقيد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه»[1].

وهذا ما سماه القزويني مقتضى الحال ومقامات الكلام:

«إن النظم عند عبد القاهر هو توخي معاني النحو بمعناه الواسع من دلالة وصرف واعراب، ومواضع ورسم، وهي مستويات متهاونة لتحرير المعاني الإضافية التي تصورها معاني النحو، وهو تجاوز لمفهوم أواخر الكلمات الذي أشار إليه السلف، وأن رعاية هذا النظام والإهتمام به واتباع قوانينه هي السبيل إلى الإبانة والإفهام.

يقول الدكتور أحمد مطلوب:

«وكان عبد القاهر سباقاً إلى شرح نظرية النظم ومن أوائل الذين حللوا الكلام تحليلاً يعتمد على نظرية النظم، ومنهجه منهج اللغوي لأنه اهتم بالنحو بمعناه الواسع»[1].

إن علم المعاني هدفه تتبع خواص تراكيب الكلام ويعمل على الإفادة مع إبراز لما يتصل بالكلام من استحسان، وكفيل بإبعاد النظم من الوقوع في الخطأ، عند تطبيق الكلام وفقاً لما يتطلبه مقتضى الحال، وقالت بنت الشاطيء في قول الجرجاني السابق: ويحدد معنى النظم والتأليف فيما بين الكلم بأنه ليس شيئاً إلا توخي معاني النحو وأحكامه بين الكلم. . . . .

---

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ـ الدكتور شوقي ضيف ص ١٦٩.
(٣) الدكتور احمد مطلوب ـ القزويني وشروح التلخيص ص ٢١٢.
(٤) الدكتورة بنت الشاطيء ـ الأعجاز البياني للقرآن ـ ص ١٠٧ ـ ١١١.
(١) الدكتورة بنت الشاطيء ـ الأعجاز البياني للقرآن ص ١٠٧ ـ ١١١.

وهو يتجه بمعاني النحو إلى مواضعها في نسق الكلام ونظم الأسلوب لا إلى الصنعة الإعرابية التي تجري بمعزل عن المعنى... ومن ثم بمعنى في مباحثه البلاغية ما استوفى القول في تحقيق الفصاحة والبلاغة، وتوقف النظم على التركيب النحو، ونظم الكلام ومكان النحو منه، ومزايا النظم بحسب المعاني والأغراض، والتقديم والتأخير، والحذف، والإثبات والتعريف والتنكير، والقصر والإختصاص.

قدم عبد القاهر ملاحظات دقيقة وإشارات لإسرار نظام اللغة العربية وحدد جوانب لهذه النظرية لها مكانتها في الدراسات اللغوية المعاصرة مثلما كان لها قيمتها في الدراسات البلاغية، فالنظم بهذه الصور يشمل الخبر وأركانه في الجملة العربية، وما يحدث فيها من تقديم وتأخير، وكون المسند اسماً أو فعلاً، وما يتعلق المسند إليه والمسند من شرط وجزاء ومن وضع للحال، وكذلك الفصل الواصل ومعرفة استعمال حروف المعاني وإدراك الحذف والذكر والإضمار والإظهار والتعريف والتنكير.

جـ ــ بين اللفظ والمعنى:

تعتبر آراء الجاحظ وعبد القاهر في نظرتهما المتفحصة للألفاظ والمعاني، أحسن ما يمثل جهود المفكرين في مجال الفكر اللغوي فإن الجاحظ مع جنوحه إلى إلى اللفظ نجده يؤكد على أهمية المعاني ونرى عبد القاهر يفضل المعنى على اللفظ ويجعله هدفاً ومطلباً لكل مفكر، وأن الألفاظ لا قيمة لها من غير نظم، نجده لا يتخلى عن قيمة الألفاظ الدلالية وأهميتها.

إن عبد القاهر المؤمن بنظرية النظم القائمة على حسن الصياغة وتوخي معاني النحو ودقة استعمال الألفاظ ووضعها في مواضعها نجده ينظر إلى ما ينشأ بين الألفاظ والمعاني من علاقات لغوية نتيجة التحامهما، وشدة

ارتباطهما، نظر إلى كليهما نظرة الخبير المتفحص، والخبير العارف لمقادير الكلام وتفاوت المقامات عرف دور اللفظ وقيمته في النظم، وعرف طريقة تصوير المعاني على حقيقتها ثم جمع بين اللفظ والمعنى وسوى بين خصائصها، ورأى أن اللفظ جسداً والمعنى روحاً، وجعل من اللفظ والمعنى كلا عضوياً واحداً اعتمد عبد القاهر على حسن الصياغة ودقة التصوير التي برزت في بحوثه، وبذلك يقضي على فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى التي شغلت فكر بعض النقاد والبلاغيين قبل عصره.

تحدث عبد القاهر عن اللفظ ومكانته داخل النظم، ثم تحدث عن المعاني وكيفية إيرادها وجودتها ثم ربط بينهما، مع حسن نظمها ضمن شروط معاني النحو، بحيث تقوم الألفاظ بأداء وظائفها، وبذلك برزت نظريته.

يقول الدكتور أحمد مطلوب:

«ولكن هل ترك أصحاب اللفظ والمعنى، وهجر أصحاب المعنى اللفظ أن الباحث في آراء المتقدمين لا يجد حداً فاصلاً بين الرأي الأول والرأي الثاني، والذي يفضل اللفظ لا يترك المعنى، والذي يفضل المعنى لا يطرح اللفظ، وإن كان جنوحه إلى أحدها أكثر، وسبب ذلك أن النقاد والبلاغيين القدماء أحسوا أن لكل منهما أهمية وميـــــزة»[1].

وقد أشرت سابقاً إلى أن ابن رشيق القيرواني قد أفرد فصلاً خاصاً للحديث عن اللفظ والمعنى وجعلهما متلازمين، علماً بأن معظم المعاصرين لإبن رشيق وللجرجاني كانوا يفضلون اللفظ على المعنى.

---

(١) الدكتور احمد مطلوب - القزويني وشروح التلخيص ص ٢٦٠.

قال ابن جني:

«اعلم أنه لما كانت الألفاظ للمعاني أزمة، وعليها أدلة، وإليها وصول وعلى المراد منها محصلة، عنيت العرب بها فأولتها صدراً صالحاً من تثقيفها واصلاحها»[1].

ولإبن جني مواقف أخرى تجاه المعنى، من أن المعاني عند العرب أشرف من الألفاظ قال: «اعلم أن هذا موضع قد استعملته العرب، واتبعتها فيه العلماء والسبب في هذا الإتساع أن المعنى المراد مفاد من الموضعين جميعاً، فلما آذنا به وأديا إليه سامحوا أنفسهم في العبارة عنه إذ المعانى عندهم أشرف من الألفاظ»[2].

ومما جاء عند ابن خلدون بهذا الخصوص من رأى صريح: قوله:

«واللفظ والمعنى متلازمان متضايقان كما علمت، فإذا علم المعاني وعلم البيان هما جزءا البلاغة، وبهما كمال الإفادة، وأعلم أن الكلام الذي هو العبارة والخطاب إنما سره وروحه في إفادة المعنى»[3].

وعبد القاهر صريح في قوله من أن الألفاظ تتبع المعاني المرتبة في النفس ضرورة لإستحسان التعبير، مع تناسق الدلالات الأسلوبية على الوجه الذي يرتضيه العقل.

«أن ليس الغرض بنظم الكلم إن توالت ألفاظها في النطق بل إن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل»[4] ودليل

---

(١) الخصائص - لابن جني - جـ ١ ص ٣١٢ (باب اصلاح اللفظ).
(٢) الخصائص - لابن جني - باب في إيراد المعنى المراد ص ٤٦٦.
(٣) مقدمة ابن خلدون - ص ١١١٨.
(٤) الخصائص لابن جني - باب في إيراد المعنى المراد ص ٤٦٦.

آخر: وهو أنه لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على جذرها لكان ينبغي أن يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن، لأنهما يحسنان بتوال الألفاظ في النطق احساساً واحداً ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئاً يجهله الآخر»[٢].

ويتضح من هذا كله وهو أن هذا النظم الذي يتواصفه البلغاء والفصحاء وتتفاضل فيه مراتب البلاغة من أجله، صنعة يستعان عليها بالفكرة لا محالة، ويدافع عبد القاهر عن فكرته قائلاً:

«واعلم أن ما ترى أنه لا بد منه من ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص ليس هو الذي طلبته بالفكر، ولكنه شيء يقع بسبب الأول ضرورة من حيث الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب المعنى أن يكون أولاً في النفس وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق»[٣].

ومجمل القول في رأي عبد القاهر في دفاعه عن أن المعنى هو الأصل في كل تعبير لغوي، وما أردت إيضاحه هو لا بد لكل كلام نستحسنه أو لفظ تستجيده من وجهة نظر لذلك الإستحسان ووجهة نظر معلومة وعلة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل وعلى صحة ما أدعيناه من ذلك دليل»[٤].

ويتضح لنا بعد هذا أيضاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي مفردات مجردة أو كلم مفردة بل تثبيت لها القيمة والفضيلة في حسن ملائمة معناها المعنى

---

(١) الخصائص لابن جني باب في ايراد المعنى المراد ص ٤٦٦.
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١١١٨.
(٣) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر ص ٣٦ ـ ٣٧.

اللفظة التي تليها في النظم.

وتوضيحاً لما تقدم من نصوص تناولت اللفظ والمعنى، نضيف إليها آراء عبد القاهر في اللفظ واهتمامه به، ثم آراءه بالمعاني ومكانتها لديه.

د ــ مكانة اللفظ عند عبد القاهر:

إن قضية الإهتمام بالألفاظ وتقديمها على المعاني، أو قضية الفصل بينهما كانت سائدة بين اللغويين والنقاد منذ عهد الجاحظ وابن قتيبة وقبلهما بكثير. وسبق أن أشرت إلى أن الجاحظ قد خصص لكل ضرب من الحديث ضرباً من اللفظ ولكل نوع من أنواع المعاني نوعاً من الأسماء.

«لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل والإفصاح في موضع الإفصاح»[1].

رأينا كيف قسم ابن قتيبة الشعر وأغراضه إلى أربعة أصناف حسب نظرته إلى اللفظ، ثم نظرته إلى المعنى، ورأى أن هناك شعراً حسن معناه وحسن لفظه، وشعراً حسن معناه وساء لفظه، وشعراً حسن لفظه وساء معناه، وشعراً ساء لفظه وساء معناه.

والواقع العلمي يرفض هذه القسمة، واستحالة وجود لفظ سيء ومعنى جيد.

إلا أن عبد القاهر يضع حداً لهذه الآراء ويقضي على فكرة الفصل بين اللفظ والمعنى لإدراكه ما بينهما من شدة التحام، وهي آراء بمجملها ترفض الإتجاه القديم وتوضح طريقاً علمياً لذلك، قائماً على نظرية النظم بكل

---

(١) البيان والتبين جـ ص ٩٧.

مقوماتها والتي كشف بها عن طرائق التعبير المختلفة في نظام لغتنا العربية ومن أقواله الكثيرة في هذا المجال قوله:

«الكلام على ضربين، ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض»[1] فالكلام نوعان، أحدهما يوضح المعنى مباشرة ويوضح المقصود كالأساليب العلمية، ونوع آخر يوضح المعنى العام، وما وراءه من معان ثانوية كالأساليب الأدبية من رمزية ورومنسية وواقعية، وليس للألفاظ مزية وهي منفردة بعيدة عن التعبير، إنما ميزتها وتخصيصها يكون إذا توخي بها نظم معين، حسب ضروب الكلام وأغراضه وأن مدلول الألفاظ وهي متجمعة هي التي تحدد لكل لفظة دورها في أداء الدلالة.

يقول عبد القاهر:

«واعلم أنه لا سبيل إلى أن تعرف صحة هذه الجملة حتى يبلغ للقول غايته، وينتهي إلى آخر ما أردت جمعه لك، وتصويره في نفسك، وتقريره عندك»[2] ومن المعلوم أن لا معنى لهذه الجملة وسائر ما يجري مجراها، مما ينفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة، وينسب فيه الفضل والمزية إلى دون المعنى، غير وصف الكلام بحسن الدلالة، وهكذا يتضح هنا اتضاح لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاوت من حيث هي الفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظ لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك مما يتعلق بصريح اللفظ.

---

(١) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٢٧.
(٢) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ١٧٣.

وبالرغم من اهتمام عبد القاهر بالألفاظ ودورها في أداء الدلالة ولم يستطع إهمال المعاني، بل ربط كل صفة باللفظ وكل ميزة له بترتيب المعاني في النفس.

هذا وأمر اللفظ لا يسمح للمفردة الواحدة أن تكون دائماً على حالة واحدة فهي فصيحة معبرة في موضع، وغير فصيحة ضعيفة التعبير بذاتها في مواضع كثيرة من الكلام، وبذلك لا يمكن أن تخصص الفاظاً خاصة لكل نوع من ضروب الكلام وأنواع الأحاديث.

يقول عبد القاهر:

«فأنا نرى اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضع ونراها بعينها فيما لا يحصى من المواضع، وليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير»[1] وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها في النظم ثم وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لإخواتها في نص من النصوص، أو في تعبير من القول.

فإذا قيل أن لفظة اشتعل في قوله تعالى ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ في أعلى مراتب الفصاحة، فإننا لا نوجب تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولاً بها الرأس معرفاً بالألف واللام ومقروناً إليها الشيب منكراً منصوباً، وبهذا ينكر عبد القاهر أن تكون الفصاحة صنعة للفظ من حيث هي لفظ مفرد.

ومن أقوال عبد القاهر:

«فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظه، وإذا

(١) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٢٦١.
(٢) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ١٧٣.

استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع اخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلفت بها الحال ولكانت أما أن تحسن أبداً أو لا تحسن أبداً»[١].

وفي نظم الكلام وفقاً لما تتطلبه أبواب النحو، وحسب مقتضى الحال مظهر لدور اللفظة في صياغة التعبير، فأما أن تحسن أبداً أو أن ينبذ أبداً وهو دليل يبرز مكانة اللفظ في النظم: «وهو إنه لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه، لأنهما يحسنان بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئاً يجهله الآخر»[٢].

ويستحسن عبد القاهر اللفظ، إذا استحق المزية والشرف ضمن الشروط التي أشرت إليها سابقاً، أهمها حسن تلاؤم حالات اللفظة مع حالات الألفاظ المجاورة لها في النظم، ثم حسب ترتيب المعاني في النفس ثم تناسق دلالاتها وتلاقي معانيها على الوجه الذي يرتضيه العقل، مع اعتبار حال المنظوم بعضة مع بعض، ومراعاة حالات مقتضى الحال، وجملة ما أردت أن أبينه لك أنه لا بد لكل كلام تستحسنه ولفظ تستجيده سبباً.

«من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة أو علة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل، وعلى صحة ما أدعيناه من ذلك دليل، وهو باب من العلم إذا فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة، ومعاني شريفة ورأينا له أثراً في الدين عظيماً، وفائدة جسيمة»[٣].

---

(١) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٣٤.
(٢) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر ـ ص ٣٤.
(٣) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر ـ ص ٣٦.

من الواضح أن لا معنى للعبارة، وسائر ما يجري مجراها مما ينفرد فيه اللفظ وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى، ولا طريق لابراز خصال اللفظ ألا أن يؤتى بالمعنى من الوجهة بل ومن الجهة التي هي أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذي هو أخص به ليكسبه نبلاً، وتظهر فيه مزية ومن أجل ذلك وجب أن ينظر في اللفظة قبل دخولها التعبير وقبل أن تصبح صورة أو جزءاً من الصورة التي يكون فيها الكلام اخباراً وأمراً ونهياً أو وصفاً لحاله.

وقد سبق ابن جني إلى الإشارة باهتمام العرب بالألفاظ لأنها تخدم المعاني بقوله:

«فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها، وحسنوا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها، وأرهفوها، فلا ترى أن العناية إذ ذاك إنما هي للألفاظ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني»[1].

«فكان للعرب إنما تحلى ألفاظها وتدبجها، وتوشيتها وتزخرفها، عناية منها بالمعاني التي وراءها، وتواصلاً بها إلى إدراك مطالبها»[2].

ذلك ما يدل على اهتمام العرب بالألفاظ والمعاني قبل عبد القاهر الجرجاني.

يقول عبد القاهـــر:

«بان ذلك أن الأمر على ما قلنا من أن اللفظ تبع للمعنى في النظم وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتيب معانيها في النفس»[3].

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر ـ ص ٣٩.
(٢) ابن جني ـ الخصائص ـ جـ ١ ص ٢١٧.
(٣) ابن جني ـ الخصائص ـ جـ ١ ص٢٢٠.

أي لا نظم ولا تأليف وترتيب بين الكلمات إلا وفقاً لما هو عليه المعنى حيث يعلق بعضه ببعض ويبني أحدهما على الآخر، ويجعل هذا بسبب من ذلك، وهناك حالات أخرى يستحسن فيها اللفظ، ترجع إلى اللفظ وحده دون اشتراك المعاني فيه، كون هذا الاستحسان سبباً من أسبابه ودواعيه، يكاد يكون نمطاً واحداً، وهو أن يكون اللفظ مما تعارف عليه الناس في زمانهم، وتداولته ألستهم، وألا يكون وحشياً غريباً أو عامياً سخيفاً بعيداً عن موضوع اللغة.

ونظرة عبد القاهر هذه الخاصة باستحسان اللفظ كانت سبباً في رفضه فصاحة اللفظة المفردة، وأن هذه الفصاحة موجودة في ضم الكلام بعضه إلى بعض، وأن يكون اللفظ فصيحاً من أجل مزية تقع في معناه وليس من أجل جرسه الموسيقي، وتقع بمعنى ما يليه من الألفاظ.

وتقودنا هذه الآراء الخاصة باستحسان اللفظ إلى قضية هامة هي مكانة المعاني عند عبد القاهر وهي هامة بل وهي عماد نظريته اللغوية من أن المعاني هي الأصل في كل تعبير لغوي.

ق ـ مكانة المعاني عند عبد القاهر:

إن غاية ما يسعى إليه عبد القاهر من نظريته اللغوية هو الوصول بتعبيراتنا اللغوية إلى مستوى رفيع، ليأتي التعبير عن المعاني مساوياً الحقيقة الراسخة في نفس السامع والقارىء والمتكلم، دون زيادة أو نقصان ودون حاجة إلى اجتهاد في تأويل أو تفسير بل ويجب أن تأتي صور الكلام مساوية المعاني صورة بصورة حساً وحركة وحيوية وألواناً ومفهوماً دون أي ملابسة.

فتوخي المعاني في نظريته هو اتحاد أجزاء الكلام واشتداد ارتباط بعضها ببعض بحيث توضع الجملة في النفس وتأخذ لها موضعاً واحداً لا تتعداه إلى غير.

ويذلك تنتظم صور الكلام في النفس انتظاماً حسناً. يقول عبد القاهر:

«واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمس المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً، وأن يكون حالك فيها حال الباني، يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيمينه ما يضع بيساره هناك»[1].

يجعل عبد القاهر من معـانيه أصبغـة تعمل منهـا الصورة أو النقش والنحت ولا معنى لهذا النحت والتصوير والنقش بدون ايحاءات، فالصورة تنطق بما تملك من ايحاءات ومعاني، والنقش يرى بما فيه من إبداع لوضع النمانم والأشكال، والألوان، فالأشكال المنحوتة تعبر عما فيها من لمسات فنية، تنبض بالواقعية والجمال، وكذلك هو حال النظم الذي يتواصفه البلغاء عندما تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن يضعها المرء في نفسه وضعاً واحداً، يقول عبد القاهر:

«وإنما سبيل هـذه المعاني سبيـل الاصباغ التي تعمـل منها الصـور والنقوش، فكما أنك ترى الرجل قد اهتدى في الاصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التحبير والتدبر في أنفس الاصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه له وترتيبه إياها إلى ما لم يهتد إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيهما معاني النحو ووجوهه التي عملت أنها محصول النظم»[2].

وفي نظم رفيع مثل هذا نقتفي فيه آثار المعاني نتحسسها ونتتبع ترتيبها

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ ص ٦٤.
(٢) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٦١.

في النفس الإنسانية، ليتضح لنا منه حال المنظوم بعضه مع بعض وحسن انسجام المعاني في ذاته، وطريق صدورها وحلاوة أصواتها، فالألفاظ تقع مرتبة في النفس وفقاً لترتيب المعاني في النفس كذلك. ويدلي عبد القاهر برأيه حول هذه القضية:

«واعلم أن ما ترى أنه لا بد منه بن ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص ليس هو الذي طلبته بالفكر، ولكنه شيء يقع بسبب الأول ضرورة من حيث أن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق»[1].

وأرى أن أي تبدل في التفكير يجب أن يتبعه تبديل في الكلام زيادة أو كثرة وأي اضطراب بالفكر يتبعه اضطراب في تركيب الكلام، ويبدل من صورة حقيقة المعاني، وكذلك هو شأن تبديل المعاني من موضع إلى آخر ومن مجال إلى مجال يتبعه لا محالة تبدل بالألفاظ لأن الألفاظ تتبع المعاني في تحركها أو تغيرها في كل تغير كبير أو صغيــر.

وفي تناسق الكلام والإبداع في الرصف، وتلاحق في الصور، لما كان هناك جمال للمشهد أو الخبر، ولولا دقة النظم وحسن الصنعة، والابتكار في المعاني لما كان هناك روعة في النظم وحسن في المسلك.

فالإعجاب للمشهد الكلي قادم من مقوماته المتممة لبعضها بعضاً ذلك هو حال حسن النظم في شكله ومضمونه وفي إطاره العام، ومن الآراء المدعمة لرأي عبد القاهر:

«واعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه الحسن على أجزاء

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٢٤٣.

من الصبغ، تتلاحق وتنضم بعضها إلى بعض حتى تكبر في العين ومنه ما أنت ترى الحسن، يهجم عليك منه مندفعة، ويأتيك منه ما يملأ العين غرابة حتى تعرف من البيت الواحد، مكان الرجل من الفضل، وموضعه من الحذق، وتشهد له بفضل المنة وطول الباع»[1].

يطالب عبد القاهر ناظم الكلم أن يكون صاحب ذوق في رصف المفردات ونظمها كما تنظم حبات اللاليء في سلك يمنعها من التفرقة بحيث ترى في العين مجموعة واحدة.

ويعتبر عبد القاهر الجرجاني في نظريته اللغوية هذه من أنصار الصياغة ومن أنصار الصلة والالتحام بين الألفاظ والمعاني وعدم امكانية الفصل بينهما، وأن الصلة وثيقة وقوية بين اللغة والفكر، ذلك أن عملية التفكير اللغوي هذه تتم في آن واحد.

فالكاتب حينما يكتب رسالة أو رواية، والشاعر حينما ينظم قصيدة والخطيب عندما يلقي كلمة لا يفكر في الألفاظ ولا يطلبها بأي حال من الأحوال، بل يطلب المعاني، فتجيء ألفاظه لمعانيه قدراً بقدر حسب ما طلبه من معان. فالأديب حينما يكتب لا يفكر بالألفاظ ولا يطلبها وإنما يطلب المعنى وإذا ظفر به فاللفظ معه وإزاء ناظره.

يقول عبد القاهر:

«أن تعرف اللفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وإنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكرة هناك، فإذا تم لك ذلك اتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها، وإنك إذا فرغت من عملية ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن

(١) الدكتور أحمد مطلوب ـ عبد القاهر ـ بلاغة ونقد ـ ص ١١٦.

تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولا حق بها، والعلم بموقع المعاني في النفس علم بموقع الألفاظ الدالة عليها في النطق».[1].

ويعتبر عبد القاهر المعـاني هي الأصل في التعبيـر، فالألفـاظ خدم للمعاني تنتظم من أجلها وتتلاحق كي تصورها، وعلى المـرء أن يطلب المعاني ويعمل بها فكرة كي تنتظم داخل النفس انتظاماً قائماً على الدقة العلمية بل لتلحقها الألفاظ وتنتظم وفقاً لتـرتيبها، وبـذلك تؤدي دورهـا الذاتي».

يقول عبــد القاهـــر:

«وكيف يصعب مرام اللفظ بسبب المعنى، وأنت إن أردت الحق لا تطلب اللفظ بحال، وإنما تطلب المعنى، وإذا ظفرت بالمعنى، فاللفظ معك وازاء ناظرك»[2].

فالتفكير بالمعاني يبعد المرء عن الوقوع في الخطأ، وكل تفكير ناضج تتبعه ألفاظ تعبر عن فكرة ناضجة، بعيدة عن الارتباك والاضطراب اللفظي وبهذا يرفض عبد القاهر أن يكون في الألفاظ وحدة فكر، والذي يجعل في الألفاظ فكراً لا يخلو من أحد أمرين.

«أولهما أن يخرج هذه المعاني من أن يكون لواضع الكلام فيها فكر ويجعل الفكر كله باللفظ، وثانيهما أن يجعل له فكراً في اللفظ مفرداً عن الفكرة في هذه المعاني»[3].

---

(١) الدكتور أحمد مطلوب ـ عبد القاهر ـ بلاغة ونقد ـ ص ١١٦.
(٢) نفـــس المرجــــع.
(٣) دلائل الإعجاز ـ ص ٤٤.

والواقع أن المعـاني هي التي يفكر فيهـا الأديب، أما الألفـاظ تتبع المعاني ولا يمكن للمعاني أن تتبع الألفاظ.

ونجد لهذه الأفكار صداها عند علماء اللغة المحدثين في الفكر العربي والغربي، مما يدل على رقي الفكرة عند عبد القاهر وتقدمها على عصرها، وتستمر في ثباتها حتى عصرنا الحالي، ونذكر على سبيـل المثال بعض اللغويين والمفكرين المؤيدين لهذه الأفكار أمثال (نوديبه) وقوله «من أن الكلمة ثمـرة للفكرة»[1]

وجوبير بقوله: «عندما تصل الفكـرة إلى تمامها نصيح بكلماتها»[2].

هذه هي فكرة علمية لنظرة عبد القاهر اللغوي وقيمتهـا العلمية في تقديره للعلاقات اللغوية القائمة من التحام اللفظ بالمعنى ومتانة العـلاقة القـائمة بين اللغـة والفكر، والتي سنـوضحها بجـلاء في فصـل خـاص بها....».

يقول عبـد القاهـر:

«ما في اللفظ لولا المعنى، وهل الكلام إلا بمعناه»[3].

وعبد القاهر بكل ما تقدم من أفكار ليس من أنصار اللفظ من حيث هي كلم مفردة وليس من أنصار المعاني التي هي أساس كل تركيب لغوي مع الإحساس بالتلاحم العضوي بين الألفاظ والمعاني، إنما هو من أنصـار الصياغة السليمة والتصوير الفني».

«واعلم أن مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب والفضة

---

(١) بلاغة أرسطو - إبراهيم سلامة - ص ٣٧١.
(٢) دلائل الإعجاز: ٢٦٨ - .
(٣) دلائل الإعجاز : ص ٩٣.

فيذيب بعضها في بعض، حتى تصير قطعة واحدة»(١).

فقد سوى بين خصائص اللفظ والمعنى وجعل منهما كلاً عضوياً واحد يعتمد على الصياغة التي برزت ونضجت في عصره وعلى يده، ويضع عبد القاهر قانوناً لهذا النظم الجامع للبنية السطحية والبنية العميقة، هو قانون جامع للفظ والمعنى ليسير عليه كل من طلب النظم اللغوي السليم، والتعبير الراقي، فيقول:

«واعلم أن معك دستوراً لك فيه، أن تأملت غني عن كل ما سواه، هو أنه لا يجوز أن يكون لنظم الكلام وترتيب أجزائه في الاستفهام معنى لا يكون له في ذلك المعنى الخبر، وذاك أن الاستفهام استخبار، والاستخبار هو طلب من المخاطب أن يخبرك.... فإذا كان كذلك كان محالاً أن يفترق الحال بين تقديم الاسم وتأخيره في الاستفهام، وجملة الأمر أن المعنى في ادخالك حرف الاستفهام أم في مثالك أزيد قام، غيره إذا قلت أقام زيد، ثم لا يكون هذا في الافتراض في الخبر، ويكون قولك زيد قام وقام زيد سواء ذلك لأنه يؤدي إلى أن تستعمله أمراً لا سبيل فيه إلى جواب»(٢).

إن التقارب كبير بين أفكار عبد القاهر وجهوده اللغوية وبين جهود العالم اللغوي الأمريكي (نوم تشومسكي).

إن أهم ما قدمه تشومسكي في نظريته اللغوية هي الدقة والوضوح المتناهيان اللذان استعملهما في القواعد التي وضعها وأصبحت تدعى بالقواعد التحويلية.

لقد ربط العالم اللغوي تشومسكي المعنى مباشرة بالبنية النحوية التي

---

(١) الدكتور أحمد مطلوب عبد القاهر ـ بلاغة ونقد ـ ص ١٠٨.
(٢) أضواء على الدراسات المعاصرة ـ نايف خرما ـ ص ٢٩٩.

جعلها خطوة متوسطة للتركيب والمعنى، وبإمكانية حل المشاكل المتعلقة بالمعنى كغموض بعض العبارات مع المعاني المختلفة، لجملتين تركيبهما الخارجي واحد، وبافتراضه بنية عميقة لتفسيرها داخل الجزء من الجملة الذي يتعلق بالمعنى وهي دراسات مباشرة دون وسيط.

وبذلك اشتهر تشومسكي بصاحب أحدث نظرية لغوية عند الغرب في عصرنا هذا.

«فقد اعتبر القواعد موقع النحو من اللغة هو بمثابة القلب من جسم الإنسان، أما كلمة القواعد فهي عنده تشمل النحو بالإضافة إلى الصرف كما تمثل النظام الصرفي والنظام الصوتي ونظام المعاني أيضاً.

فهو بهذا الاصطلاح يشمل جميع القواعد التي لها علاقة بجميع وجوه اللغة المختلفة»[1].

مما هو جديراً بالذكر في هذا المقام أن عبد القاهر قد اعتبر معاني النحو لب الدراسات اللغوية، ألا وهي تراكيب الكلام وضمها بعضها إلى بعض مع مراعاة معاني النحو بقوله:

«واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل عنها في شيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه.....

وإذا قد عرفت ذلك فاعمد إلى ما تواصفوه بالحسن، وتشاهدوا له بالفضل ثم جعلوه كذلك من أجل النظم خصوصاً... وإذا قد عرفت أن

---

(١) أضواء على الدراسات المعاصرة ـ نايف خرما ـ ص ٢٩٩.

مداراً في النظم على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازيداداً بعدها»(١).

وعلى المرء أن يعلم أن المزية في نظم الكلام حسبما تقتضيه علم النحو وقوانينه غير محصورة فيها إلى هذا الحد، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يصاغ فيها الكلام، ثم بحسب مواقع بعضها من بعض، كي تؤدي دلالاتها على خير وجه، فللمعاني قيمة عظيمة عند عبد القاهر والتي صاغ لها نظريته، وإنها بمثابة الألوان التي نصنع منها الصورة والنقش والنسج.

هذا وفي صدد المقارنة بين عمق الجهود الفكرية بين القديم والمعاصر، نجد في جهود الأقدمين عمق فكري ودقة علمية وسعة أفق، تمتد لتصل الماضي بالحاضر، وتطل على أحدث الجهود المعاصرة.

والذي نجده في جهود المعاصرين اللغويين اليوم، هو عرض لبعض جهود الأقدمين العرب، وأما بخصوص ما ورد عند الغربيين من جهود ، فهو لا يتعدى عرض بعض الجوانب التي انتجها الفكر العربي في القرن الخامس الهجري، بل ويقصر عنه وخاصة ما وجد في نظرية تشومسكي من ثغرات وقصور.

فقد استعرض رواد المدرسة التحويلية قضية السياق اللغوي الذي يحدد المعنى أو معاني المفردات ودلالاتها، وأضافوا إلى هذه الآراء فكرة القرينة وهي الموقف والمناسبة التي يقال فيها الكلام، والتي أطلق عليها اللغويون العرب عبارة المقام فقالوا لكل مقام مقال، وهذا يؤثر في المعنى.

---

(١) دلائل الإعجاز ! ص ٥٥ ـ ٥٨ ـ ٦٠.

«وعناصر هذا المقام عند الغربيين عديدة أولها المتكلم نفسه، إن كان ذكر، أو أنثى، وهل هو صغير أم كبير، شخص أم أكثر، اثنان أم جماعة ثم الثقافة والنبرات واللهجة والمكان والزمان، والحالة الاجتماعية، ثم علاقة المتكلم من حيث القرابة والصداقة، ثم موضوع الكلام وفي أي جو قيل، وفي أي مكان وأي زمان، وكيف يقال؟ وما هو الداعي لقوله»[1].

وأشير هنا إلى قضية المقام وحسنه، إلى أن هذه المجالات عالجها عبد القاهر في النظم وأشار إليها الجاحظ، وتناولها الخفاجي في سر الفصاحة، وتوسع بها السكاكي والزمخشري بعد عبد القاهر، واستبدل كلمة النظم بقضية المقام ومقتضى الحال بعد أن سار القزويني على خطا السكاكي في بحث علم المعاني وهو عنده:

«علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال»[1].

وهو أن تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ».

«ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره»[3].

وقد حصر علم المعاني في ثمانية أبواب: أحوال الإسناد الخبري وأحوال المسند إليه وأحوال المسند، وأحوال متعلقات الفصل، والقصر والإنشاء، والفصل والوصل والإيجاز والاطناب والمساواة، ووجه الحصر أن الكلام إما خبر أو إنشاء.

---

(١) أضواء على الدراسات اللغوية ص ١٢١.
(٢) الإيضـــاح ـ للقزويني ـ ص ١٢.
(٣) مفتاح العلوم للسكاكـي ـ ص ٧٧.

آراء المحدثين بجهود عبد القاهـر:

يقول الدكتور أحمد مطلوب:

«وكان عبد القاهر سباقاً إلى شرح نظرية النظم، ومن أوائل الذين حللوا الكلام تحليلاً يعتمد على نظرية النظم، ومنهجه منهج اللغوي لأنه اهتم بالنحو بمعناه الواسع..... وأثرت نظرية النـظم في البلاغـة، فادخلهـا البلاغيون في بحوثهم، وجعلوها أحد أقسام البلاغة الثـلاثة، وهـو علم المعاني»[1].

ويعتبر فصل عبد القاهر عظيماً في نظريته التي كان لها الأثر الكبير في إظهار هذا النوع من الدراسات، وقد وضحت معالم هذه النظرية، وبلغت أوج نضجها على يديه، فالنظم عنده ليس إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله إلخ......

ويقول الدكتور بدوي طبانـة:

«إن المعنى عند عبد القاهر أساس في صياغة العبارة، وليس هو كل شيء له يجب اعتبار جودة العبارة التابعة لجودة الفكر، وبهذا الرأي يعتبر عبد القاهر من أنصار زعماء المدرسة التي تنتصر للمعاني، ينظر في المعاني وفي حقيقتها وفي الأشكال والصورة»[2].

ويشيد بجهود عبد القاهر اللغوية وبنظريته الفذة كثيـر من المفكرين المحدثين وفي طليعتهم الدكتور محمد مندور... بقوله عن هذا المنهج اللغوي الذي اتبعه عبد القاهر:

«إنه يستند إلى نظرية في اللغة، أرى ويرى معي كل من يمعن النظر

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ـ الدكتور شوقي ضيف ص ١٨٩ .

(٢) طه حسين ـ

إنها تتماشى مع ما وصل إليه علم اللسان الحديث من آراء، ونقطة البدء نجدها في آخر دلائل الإعجاز، حيث يقرر المؤلف ما قرره علماء اليوم من أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات، وعلى هذا الأساس العام بني عبد القاهر وكل تفكيره اللغوي الفني»[١].

ويقول الدكتور شوقي ضيف مشيداً بجهود عبد القاهر في نظرية النظم وإنه فسر نظريته تفسيراً رده إلى المعاني الإضافة التي تلمس بها ترتيب الكلام حسب مضامينه ودلالته في النفوس:

«نظرية نشأ عنها فيما بعد علم مستقل من علوم البلاغة، وهو علم المعاني الذي وضع عبد القاهر أصوله، وصور فصوله وحدودها وشعبها تصويراً دقيقاً»[٢].

وتناول طه حسين عبد القاهر بالبحث قائلاً:

«إن من يقرأ كتاب دلائل الإعجاز لا يسعه إلا أن يعترف بما أنفق عبد القاهر من جهد خصب صادق في التأليف بين قواعد النحو العربي وبين آراء أرسطو في الجملة والأسلوب والفصول، ويقرر: إنه إذا كان الجاحظ هو واضع أساس البيان العربي حقاً فعبد القاهر الجرجاني هو الذي رفع قواعده وأحكم بناءه»[٣].

وعلم المعاني هو الوسيلة الكاشفة عن المعاني ودلالات الألفاظ التي يصاغ لها الكلام، وهي الدلالة العقلية المسماة عند الغربيين بخواص التركيب، وعلم التركيب للكلام ونظمه هذا يقابله عند العرب كما أشرت سابقاً، النظم المرتبط بمعاني النحو، ثم أن معاني النحو الشاملة للدراسة

---

(١) الدكتور محمد عيد ـ في اللغة ودراستها ص ٢٤٨ ط ١٩٧٤.
(٢) القزويني وشروح التلخيص ـ الدكتور أحمد مطلوب ص ٢٨٨.
(٣) الدكتور بدوي طبانة ـ النقد الأدبي ص ٩٨.

الصرفية والنحوية وهو فرع من الدراسات اللغوية مهمته البحث في خواص الجملة وكلياتها من حيث تأليفها ومواقعها. كل لفظة في العبارة من لفظة مجاورة لها، وعلاقة كل لفظة بالألفاظ المكونة للتعبير.

ويقول الدكتور محمد عيد حول علم التركيب:

«أما علم التركيب فهو من أهم فروع الدراسات اللغوية الحديثة، بل غاية الفروع الأخرى، التي تستعمل في تحليل النصوص ضمن مستوى الأصوات، وعلم الصرف ويقابله في دراستنا اللغوية علم النحو»[1].

لذلك يجب أن تهتم الدراسات النحوية المعاصرة بالعلاقة التركيبية بين مفردات التعبير على اعتبار أنها أساس في دراسة المستوى الدلالي في الاستخدام اللغوي، وهنا تتركز الدراسات على ائتلاف المفردات.

وبهذا تجمع معاني النحو ما بين وضح العلاقات التركيبية والإعراب مع الأبنية الصرفية، يقول محمد المبارك:

«اتضح لنا أننا لا نستطيع الفصل بين النحو والصرف في المواقف الوظيفية أو أن دراسة الصرف تكون في خدمة السياق النحوي، ولا نستطيع الاهتمام بإحداهما دون الآخر، ولا يمكن الفصل بينهما بفاصل»[2].

هذا فالاهتمام بالمعاني عند العرب قديم جداً، بدأ يأخذ طابعه الجدي والعلمي منذ فجر الإسلام، ولو كان لغويوا الغرب على علم بهذا المنهج الذي سلكه عبد القاهر في نظرية النظم لكانت دراساتهم انضج وأعظم، ولما وقفت عند حدود نوم تشومسكي، وبنيامين رؤوف، بل لأتت باهتمامات

---

(١) الميزان الجديد ـ الدكتور محمد مندور ص ١٤٧.
(٢) محمد المبارك ـ فقه اللغة وخصائص العربية ص ٣١.

أعظم أهمية لما توصلوا إليه الآن، من هنا كـانت الدراسـات التركيبيـة والنحـوية خـاصة في الـدراسات التحـويلية هي لب الـدراسات اللغـوية المعاصرة.

من هنا كان واجباً علينا تناول القيمة العلمية لنظرية النظم وأثرها في الدراسات اللغوية المعاصــرة.

* . . * . . * . . *

* . . *

الفصــل الرابع

القيمة العلمية لنظرية النظم، وجهود القدماء العــرب

آ ــ التصويــر الفنــي:

وجد عبد القاهر أن لقضية التصوير الفني في العبارة القـرآنية قيمـة عظمى لا تعادلها قيمة في نظم العبارات، وتراكيب الكلام، لذلك أطال الحديث عن التصوير في كتابيه: «أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز». موضحاً الوسائل والطرق والأساليب التي تجعل الصورة حسنة مقبولة في نظم العبارة اللغوية عند العرب.

وقد تناول عبد القاهر مسألة التصوير الفني، تناول الفنان البارع والأديب المبدع في الرسم والموسيقى والنحت والصياغة والنقش والنسج والألوان، وقد أدرك أهمية هذه القضية، بعيداً عن مسايرة السابقين من السلف في تشبيه، نظم الكلام بغيره من الفنون.

ويهدف عبد القاهر بأبحاثه هذه الوصول بتعبيراتنا اللغوية إلى مستوى رفيع لكي يأتي التعبير عن المعاني مساوي الحقيقة الـراسخة في نفس

السامع والقارىء والمتكلم، دون زيادة أو نقصان، ودون حاجة إلى اجتهاد في تأويل أو تفسير بل يجب أن تأتي صور الكلام مساوية المعاني المطلوبة تصويرها، صورة صورة، حساً وحركة وحيوية ولوناً ومفهوماً دون ملابسة.

وعبد القاهر، كرائد فكر، بإحساسه المرهف، وذوقه النامي يقارن صياغة الكلام بصياغة المعادن النفيسة، ونسج الكلام بنسج الحرير، وترتيب النظم بالتصوير المبدع بقوله:

«ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وإن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير أو الصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منها خاتم أو سوار»[1].

ينظر عبد القاهر إلى الفضة الحاملة لتلك الصنعة، وإلى الذهب الذي وقع فيه العمل ويمعن في جودة الصناعة أو رداءتها، ليعرف الفضل والمزية في نظم الكلام وجودة المعاني، وإنه لا يتأتى لنا أن ننظم كلاماً من غير رؤية وتأتي وفكر، ثم أن الأدب أرقى الفنون، لمكانة الفكر والروية فيه، ولأن أسلوبه يغاير بقية أساليب الفنون التعبيرية الأخرى.

فسبيل المعاني، كسبيل الأصبغة، أو الأحجار الملونة، التي تعمل منها الصورة والنقش. ولا معنى للنقش والتصوير بدون إيحاءات، وتحسن الصورة بما تملكه من مقومات فنية، ويرى النقش بما فيه من إبداع، في وضع النمانم بألوانها وأشكالها، مع رقة الإحساس بالترابط العضوي بين الألوان والصورة وفيما عبرت عنه، لتمثل جميعها وجوداً متكاملاً حققته الألفاظ بانسجامها مع المعاني لذلك:

«ترى الرجل قد اهتدى في الاصباغ التي عمل منها الصورة، والنقش

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ١٦٩.

في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التعبير والتدبير في أنفس الإصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه وترتيبه إياها إلى ما لم يهتد إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب، وكذلك حال الشاعر الخطيب في توخيهما معاني النحو، ووجوهه التي عملت أنها محصول النظم»[1]

إن دور الألوان والاصباغ والنقوش، والنمنمة والترصيع والتطعيم في وحدة العمل الفني كبير، وحسن إيداعها في أماكنها، كحسن استخدام المعاني وابرازها في نظم من التعبير.

وعبد القاهر في تقريره للصورة والتصوير الذي أفاض عنه الكلام، قد أبرز قيمة التصوير الفني في نظم العبارة، وأن هذا التصوير يكمن في ترتيب الألفاظ حسب ترتيب المعاني في النفس مع التأليف بينها في صورة مزدهرة للأديب يبتكرها ويقصد إليها وأضيف شاهداً لهذا من أقوال عبد القاهر، لهذا العمل الفني الكبير.

«واعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزية في نظم الحسن، كالأجزاء من الصبغ تتلاحق وينضم بعضها إلى بعض حتى تكثر في العين.........

ومنه ما أنت ترى الحسن يهجم عليك منه دفعة، ويأتيك فيه ما يملأ العين غرابة حتى تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل وموضعه من الحذق، وتشهد له بفضل المنة وطول الباع»[2].

وتكبر قيمة التصوير الفني في التعبير عند عبد القاهر في نظريته اللغوية من اهتمامه بالصياغة وبالمعاني، وأن دور الألفاظ في هذا المجال، ألوان

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر ص ٦١.

وأردية تكسو المعاني وتجللها بحلة رائعة، بل تمثل الصورة بألوانها وملامحها التي أرادها صاحب النظم بنظمه شعراً كان أم نثراً.

وجملة الأمر أنه لا يكون ترتيب في شيء حتى يكون قصد إلى صورة وصنعة لأن النظم والترتيب في الكلام كما بينا عمل يعمله مؤلف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظها وهو بما يصنع سبيل من يأخذ الاصباغ المختلفة فيتوخى فيها ترتيباً يحدث عنه ضروباً من النقش والوشي.

«إنه لا يكون ترتيب في شيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصنعة إن لم يقدم فيه ما قدم، ولم يؤخر ما أخر، وبديء بالذي ثنى به أو ثنى بالذي به، لم تحصل لك تلك الصورة، وتلك الصنعة»[1].

فالنظم والترتيب في الكلام عمل يعمله مؤلف الكلام في المعاني، وليس في ألفاظها، وهو في ذلك سبيل من يأخذ الألوان المختلفة، فيتوخى فيها مزجاً، ثم تنظيماً، ثم ذوقاً وعرضاً وإبداعاً، لما قصد من معنى أو صورة يحدث عنه ضروباً من النقش والوشي.

ومن الطبيعي أن ينظر إلى ما يقصده واضع النظم، وبما يحصل عنده من الصور والصنعة من تنظيم وإبداع، وإن الفضة والذهب لن تكون خاتماً أو سواراً أو تحفة أو غير ذلك من أصناف الحلي، إلا بما يحدثه فيها من مهارات وعجائب صنعة، لتكون في أبدع صورة، وأحسن حالة وكذلك هي حالة نظم الكلام الراقي والرفيع، ومن أجل ظاهرة التصوير الفني في القرآن الكريم واهتمامه بذلك، كتب سيد قطب فصلاً خاصاً توج به كتابه التصوير الفني في القرآن، معتبراً التصوير الفني هو الأداة المفضلة في التعبير عن الصورة الحسية والمعاني الذهنية والحالة النفسية، وخاصة في أسلوب القرآن الكريم.

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص : ٢٣٦.

يقول سيد قطب:

«إن فضل عبد القاهر في تقريره هذه القضية عظيم ولو خطا خطوة واحدة في التعبير الحاسم عنها لبلغ الذروة.

إن طريقة الأداء حاسمة في تصوير المعنى... أن فضل الطريقة التصويرية في القرآن عظيمة، هي التي جعلت للمعاني، والأغراض والموضوعات الدينية صورتها التي تراها»(٢).

وهناك آفاق أخرى استعرضها عبد القاهر وراء التصوير الفني في القرآن وجده تصويراً بالحركة وتصويراً بالإيقاع، وتصويراً بالمشهد وجرساً بالكلمات وتعمقاً في العبارات وموسيقى مع السياق تصوير حي منتزع من عالم الأحياء، تصوير مصور للمشاعر والوجدان، تتفاعل جميعاً لتعبر عن المعاني القدسية الجيدة ولتعبر عما في الحس والفكر والذوق بأفضل حلة من اللفظ.

أضف إلى ظاهرة التصوير الفني هذه ظواهر أخرى تساعد على ابراز هذه القيمة الفنية مثل ظاهرة الايقاع الموسيقي الناشئة من تخير الألفاظ وجودة المعاني في نسق عام أو خاص، وهي أوضح ما تكون في كتاب الله عز وجل، ثم ظاهرة التناسق الفني في التعبير وقضية تلاؤم الأجواء النفسية السابقة واللاحقة للتعبير مع النواحي البلاغية والنحوية، ثم الفصاحة مع التناسق النفسي في ترتيب المعاني في النفس الإنسانية.

يتضح مما تقدم أن أجدادنا من السلف قد تنبهوا إلى كثير من هذه الخواص الفنية، ونخص بالذكر قضية التناسق في الانتقال من غرض إلى غرض من أجل الوصول إلى أعلى درجات التناسق الفني المتوفر في القرآن الكريم.

---

(١) دلائل الإعجاز: ص ٤٢.

(٢) سيد قطب ص ٣٥ - ٧٥ - ١٩٤.

لأن الجمال الفني في السياق يرجع إلى المعاني المرتبة في النفس دون الألفاظ التي ينبغي لها أن تأتي حسب مقتضى الحال لتحصل على الصورة المراد ابرازها، ومما هو جدير بالذكر، أن أشير إلى قضية هامة، وهي أن المعنى هو الأصل في التعبير عند عبد القاهر، وهذه الخاصة تبرز في حسن الصياغة.

فالأديب حينما يكتب لا يفكر بالألفاظ ولا يطلبها، وإنما يطلب المعنى وإذا ظفر به فاللفظ معه وإزاء ناظره ذلك يعني أن عملية التفكير بالمعاني سابقة للتفكير بالألفاظ.

يقول عبد القاهـــــر:

«أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه ولا تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وإنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكرة هناك، فإذا تم لك ذلك اتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها وإنك إذا فرغت من عملية ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها، ولاحقة بها، والعلم بموقع المعاني في النفس، علم بموقع الألفاظ الدالة عليها في النطق»[1].

هذا ويعترف القرطاجني بهذه المزايا المتعددة ويشيد بالطريقة التصويرية في التعبير، وإن قضية التصوير الفني، مثلها في ذلك مثل الألوان والنقوش والصور.

«واعلم أن منزلة حسن اللفظ المحاكى به وأحكام تأليفه من القول

---

(١) دلائل الإعجـاز ـ ص ٤٢.

المحاكى به، ومن المحاكاة بمنزلة عشاق الاصباغ أو حسن تأليف بعضها إلى بعض وتناسب أوضاعها من الصور التي يمثلها الصانع، وكما أن الصورة إذا كانت أصباغها رديئة، وأوضاعها متنافرة وجدنا العين نابية عنها غير مستلذة لمراعاتها. . »[1].

فالنفوس والمسامع إذا كانت متدرجة من فن الكلام إلى فنون متشابهة له، ومنتقلة من معنى إلى معنى مناسب له، ثم انتقل بها من فَنٍّ إلى فن من غير جامع بينهما أو ملائمة بين طرفيها أوجدت الأنفس في طباعها نفوراً منه.

«ويتضح من ذلك كله أن عبد القاهر، يرد أعجاز القرآن إلى خصائص في أسلوبه وراء جمال اللفظ وجمال المعنى، أو بعبارة أخرى إلى خصائص في نظمه تطرد في جميع آياته، ولكن كيف يكتشف عن هذه الخصائص، وبأي المصابيح يهتدى؟ في تبينها وفي الوقوف على كيفياتها»[2].

ويقول ميخائيل نعيمة في الغربال، مؤيداً فكرة عبد القاهر من أن المعنى سابق للغة.

«الفكر كائن قبل اللغة؛ والعاطفة قبل الفكر فهو الجوهر وهي القشور»[3].

وتتجلى قضية التصوير الفني في القرآن الكريم، في كل آية، وفي كل سورة من سور القرآن الكريم ، نتيجة عوامل عديدة أشار إليها عبد القاهر في كتابه دلائل الأعجاز، وهي مقومات صانعة للأسلوب المعبرة عن المعاني القدسية بأرفع الأساليب وأرقى السبل، وفي هذه الأساليب يلمس

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ـ حازم القرطاجني ـ ص ١٨.

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ـ د. شوقي ضيف ـ ص ١٦٦.

(٣) ميخائيل نعيمة ـ الغربال ـ ص ٤١٤.

المرء قمة طبيعة العلاقة الرابطة بين الفكر واللغة، والتي سأتناولها في فصل خاص بها.

فأحكام الألفاظ المحاكى بها، وأحكام تكوينها، يجعل من العبارة أو النص لوحة تصويرية لكل جانب من جوانب الفكر المادية والمعنوية.

ينبغي لناظم الكلام، أديباً كان أو فيلسوفاً، عليه مراعاة الظروف المهيئة لنظم الكلم، مع المقومات المطلوبة، ولبعث نظم قادر على تصوير المفاهيم، والجواهر، والذرات، والقضايا، والأحاسيس بأدق الصور وأجودها، فالصور السمعية يجب أن تأتي موضحة للمضامين الفكرية، وهو النظم الراقي.

يقول عبد القاهر:

«أن الحاكي هو من يأتي بمثل ما أتي به المحكي عنه، ولا بد له وأن يكون بها عاملاً مثل عمل المحكي عنه، نحو أن يصوغ انسان خاتماً فيبدع فيه أن تكون حكايته فعلاً صنعة ويأتي في صناعته بخاصة تستغرب فيعمد واحد آخر، فيعمل خاتماً على تلك الصورة والهيئة ويجيء بمثل صنعته فيه ويؤديها كما هي فقال: عند ذلك أنه قد حكى عمل فلان وصنعة فلان.

والنظم والترتيب في الكلام كما بينا عمل يعمله مؤلف الكلام في معاني الكلم. لا في الفاظها وهو بما يصنع في سبيل من يأخذ الأصباغ المختلفة فيتوخى فيها ترتيباً يحدث عنه ضروباً من النقش والوشي»[1]

وقد جرت العادة بأن تكون المعاملة مع الألفاظ، فيقولون عن شاعر أو كاتب قد نظم الفاظاً فأحسن نظمها، وألف كلاماً فأجاد تأليفه وواقع الأمر أن لا نظم ولا تأليف حتى يتوخى معاني النحو ومعاني الكلم يكشف القرآن

---

(١) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر ص ٢٣٢.

الكريم عن ذخائر قيمة تزيد في قيمة التصوير الفني، وهي وحدة التكامل العضوي في السور والآيات وهي أشبه ما تكون بوحدة العمل الفني، ويتجلى هذا في قصص القرآن الكريم فهي معرض حي لأحداث ووقائع ماضية، إنك تقرأ في كتاب الله قصة سيدنا يوسف، فإذا أنت أمام مشاهد وأحداث وأزمنة وحوار في أزمنة غير أزمنتنا ومكان بعيد عنا.

إنك مع حياة عاشت فيها تلك القصة، ومع أهلها فإنهم وما يتقلبون فيه من حياة، تتألم وتفرح، وتسيطر عليك روعة المشاهد، ومن دقة النظم ورشاقة الألفاظ وجزالتها وسلامة الحوار وانسجام مع الزمان والمكان وتقليل للأحداث، مع جودة للغرض وقدسية للمعاني تعجب من دقة التعبير وحسن الصياغة.

وكذلك هو الحال والشأن لقصة موسى وفرعون وابراهيم.

فإذا بك تنتقل من عصرنا هذا إلى أزمنة سحيقة ما قبل الميلاد وفي بلاد مصر، فيها فراعنة، واعتقادات وسلطة وأحداث كأنها وقعت حديثة بين موسى وفرعون، تراها بمشاهدها حية، وأصوات أهلها، فيسيطر المقام عليك من روعة المشاهد، وسبب ذلك هو قدرة أسلوب القرآن الكريم المعجز. أسلوب القرآن المعبر بدقة ورقي عظيم لتصوير المشاهد وبدلالات راقية عظيمة، وتقودنا هذه القيمة التصويرية إلى قيمة هامة تضمنتها نظرية النظم، هي القيمة العلمية لمعاني النحو.

ب ـ القيمة العلمية لمعاني النحو:

من خاصية توخي معاني النحو، أن تتحد أجزاء الكلام، ويتداخل بعضها مع بعض في بناء محكم، وأن توضع الجملة في النفس وضعاً واحداً لا تتعداه إلى غيره، وخاصة أن ناظم الكلام مثله مثل من يأخذ قطعاً من الذهب والفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تثير قطعة واحدة. ونظرة

العرب لمعاني النحو نظرة متطورة كما أشرت سابقاً وأرقاها نظرة معاني النحو نظرة متطورة كما أشرت سابقاً وأرقاها نظرة معاني النحو عند عبد القاهر الجرجاني في قوله:

«وليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها»(١).

يؤكد عبد القاهر على معاني النحو في النظم أكثر من مرة، في كتابه دلائل الأعجاز، ويركز على خاصية معاني النحو، بأن تتحد أجزاء الكلام وأن يدخل بعضها في بعض ويشتد ارتباط ثاني منها بأول، وأن توضع في النفس وضعاً واحداً، وأن يكون حالك فيها حال الثاني من يضع في يساره هناك ما تضع في يمينه هنا.

«ذاك لأن إذا كان لا يكون النظم شيئاً غير توخي معاني النحو، وأحكامه فيما يبين الكلم، كان من أعجب العجب أن يزعم زاعم أنه يطلب المزية في النظم ثم لا يطلبها في معاني النحو وأحكامه التي النظم عبارة عن توخيها فيما بين الكلم»(٢).

يقصد عبد القاهر من هذه القيم الفكرية الإشارة إلى المعاني الإضافية التي يصورها علم النحو في مختلف أبوابه، دون الهدف إلى موضوعية الفاعل أو المفعول مثلاً، إنما الهدف من ذلك الإشارة إلى وجهيها في نظم صحيح معين، لأن ميزة النظم متكاملة تفوق كل المميزات الجمالية، وعبد القاهر كنحوي بارع يرفض أن تقتصر مهمة النحو على صحة التركيب من الناحية الإعرابية.

---

(١) دلائل الأعجاز - عبد القاهر ص ٥٥ - ٦٤.
(٢) دلائل الأعجاز - عبد القاهر ص ٢٥٥.

فالفاعل أساس في الجملة الفعلية، والصفة والظروف تدلان على العلاقات المتصلة بالفعل والإسم، وبعض لا تحتاج إليها إلا في تقرير العلاقات المنطقية بين الأفكار، أمثال الضمائر والحروف، وأسماء الإشارة فهي روابط منطقية للدلالة لا غنى عنها، وليس لها في ذاتها معنى.

«فالفعل يبحث عن الفاعل والمفعول، والصفة تبحث عن الموصوف، والظرف يبحث عن مستقر للجملة»[1].

إن دراسة الوحدات اللغوية يختص بكل منها علم من العلوم، والذي يختص بدراسة وظائف التركيب هو علم النحو، وهذه الوظائف تشمل دراسة التركيب من حيث تأليفه وعلاقة الكلمات بعضها البعض الآخر ويوضح عبد القاهر مفهوم توخي معاني النحو.

بقوله: «معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته، وبين وضع الحروف في مواضعها، وبين تأليف الكلام، بالتقديم والتأخير»[2] وغيرها فالنحو برأيه يبحث في الحركات والسكنات وفي الحروف وكيفية تأليف الكلام والجمل في الدراسة اللغوية.

يشير الدكتور أحمد مطلوب إلى معاني النحو عند عبد القاهر بقوله:

«إن النظم عنده ليس إلا توخي معاني النحو وأحكامه بين الكلم، ولا يقصد بالنحو معناه الضيق الذي فهمه المتأخرون، وإنما يريد المعاني الإضافية التي يصورها النحو، وبذلك رسم في (دلائل الأعجاز) طريقاً جديداً للبحث النحوي، تجاوزاً لأواخر الكلمات، وعلامات الإعراب، وبين أن للكلام نظماً وأن رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل إلى الإبانة

---

(١) بلاغة ارسطو ـ د. ابراهيم سلامة ص ٣٢٩.
(٢) القزويني وشروح التلخيص ص ٢٨٨.

والإفهام، وبرهن على أهمية النظم، ورجوع ميزة الكلام إلى أصوله. ولا يكون الضم فيها ضماً ولا الموقع موقعاً، حتى يكون قد توخى فيها معاني النحو، وإنك وان عمدت إلى الفاظ فجعلتها تتبع بعضها بعضاً من غير أن تتوخى معاني النحو لم تكن صنعت شيئاً تدعى به مؤلفاً، وتشبه معه بمن عمل نسجاً، أو صنع على الجملة صنيعاً ولم يتصور أن تكون قد تخيرت لها المواقع»(١).

احتفظت اللغة العربية بظاهرة الإعراب، وهي من صفات اللغة العربية الموغلة في القدم، ومن خصائصها الحركات الإعرابية ومعاني النحو تلك التي تنبه لها الأقدمون أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه وابن فارس وابن جني ورأوا أن الحركات الإعرابية جزء من بنية الكلمة واجمعوا على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني.

وأشار أحمد بن فارس إلى هذه الظاهرة بقوله:

«من العلوم الجليلة التي خصت العرب، الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام ولولاه لما ميز بين فاعل ومفعول، ولا مضاف من منصوب، ولا تعجب من الإستفهام، ولا نعت من توكيد، ولما أصابت العربية حظاً من التطور أضحى الإعراب أقوى عناصرها وأبرز خصائصها بل سر جمالها. وأمست قوانينه وضوابطه هي العاصمة من الزلل والمعوضة عن السليقة»(٢).

هذا ويتصل الدرس النحوي العربي بالإسم والفعل والحرف الذي يربط المعنى مع غيره في ائتلاف الكلمات، والصلة بين النحو والصرف صلة متينة في اللغة العربية، وأن أحكام الكلمة تأتي في إطار الجملة مع العلاقات

(١) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر ص ٢٤٠

(٢) دراسات فقه اللغة ـ صبحي الصالح ـ ص ١١٨

انظر : الصاحبي ص ٦١ ، أحمد بن فارس ـ المزهر ص ٣٢٩.

النحوية التركيبية، وتكون في خدمتها، وبذلك لا يمكن الفصل بين النحو والصرف في المواقف الوظيفية، وأن دراسة الصرف تكون في خدمة السياق النحوي، ثم لا نستطيع الإهتمام بأحدها دون الآخر.

يقول عبد القاهر: «هذا وأمر النظم في أنه ليس شيئاً غير توخي معاني النحو بين الكلم، وأنك ترتب المعاني في نفسك ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك، وأنا لو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعاني لم يتصور أن يجب فيها نظم جو ترتيب»(١).

وبهذا لم تعد قواعد النحو لدى عبد القاهر جافة مقصورة على الإعراب كعهدنا بها وإنما أضحت من وسائل التصوير والصياغة، ومقياساً دقيقاً يهتدى به ناظم الكلام ويتفاوت به الأدباء وعلى هذا كان الحسن للنظم من حيث تصوير المعنى أو من حيث هو مدلول عليه في النظم. وتقول الدكتورة بنت الشاطيء في معاني النحو عند عبد القاهر:

«ويحدد معنى النظم والتأليف بأنه ليس شيئاً غير نوخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم....

وهو يتجه بمعاني النحو إلى مواضعها في نسق الكلام، ونظم الأسلوب إلى الصنعة الإعرابية التي تجري بمعزل عن المعنى»(٢).

فالميزة المطلوبة في النظم أن تأتي الألفاظ مرتبة في النطق وعلى الورق ويرتبط هذا بترتيب المعاني في النفس، ذلك أن المعاني هي الأصل في التعبير، ولا يظهر النظم في الكلمة إلا بحسب موقعها في الجملة وبهذا الموقع تتأثر الصورة التي يهدف إليها المرء، ولا يظهر حسن الجملة ونظمها

---

(١) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر ـ ٢٩٥.
(٢) الأعجاز البياني للقرآن ـ الدكتورة بنت الشاطيء ص ١٠٧ ـ دار المعارف مصر ١٩٧١.

داخل النص، إلا إذا ائتلفت بدورها مع جاراتها وفيما تهدف إليه الجملة من معنى كي يتألف من مجموع الجمل صور لموضوع أو لفكرة، قد أعمل الفكر على نظمها.

يقول عبد القاهر:

«ولا يكون الضم فيها ضماً، ولا الموقع موقعاً، حتى يكون قد توخى فيها معنى النحو، وإنك وان عمدت إلى الألفاظ، فجعلت تتبع بعضها بعضاً من غير توخي فيها معاني النحو، لم تكن صنعت شيئاً ندعي به مؤلفاً»[٢]

فالنظرة للتركيب اللغوي، نظرة متكاملة كلية بعيدة عن الجزئية، نظرة إعجاب وتقدير وذلك هو حال معاني النحو في النظم، فهو من أعظم مقومات النظم، . وقد أشار المحدثون إلى أهمية معاني النحو ودورها في التفريق بين المعاني وأكدوا على قضية المميز النحوي أو الحركات ودوره في إزالة اللبس.

قال الدكتور ريمون طحان:

«فالمميز النحوي رمز في غاية الإيجاز يحول دون اختلاط المعاني، ويمتنع الإلتباس، ويضيف المفردات المضبوطة بالحركات في باب من أبواب النحو»[١]

ويسهم النحو الحديث في تفحص وظائف المفردات وفق حركات أواخرها ويستأنس المرء بالحركة عندما يغيب عنه المعنى أو الفكرة،

---

(٢) الألسنية العربية ـ الدكتور ريمون طحان ص ١٣ ـ ٤٢.
(٢) دلائل الأعجاز ٢٤٠.
(١) الألسنية العربية ـ الدكتور ريمون طحان ص ١٣ ـ ٤٢.

ويحدث التباس، وتحافظ اللغة العربية على مثل هذه الإشارات وتجعلها عاملاً بارزاً في لغتنا الفصحى الغزيرة بالمفردات، أضف إلى ما في اللغة العربية من معان وصيغ وقوالب فكرية منطقية فيها المعاني أو المفاهيم، فتقيد معنى الفاعلية أو المفعولية أو الزمانية والمكانية، فالمميز النحوي ذات طبيعة وظيفية، للكشف عن هوية الكلمة، ويربط أجزاء الكلمات في الجملة ويضمها في نسق من السياق، وبرباط لا ينقسم. هدفه الرئيسي الترابط بين اعضاء الجملة مع النص.

ذلك ما أشار إليه السلف وفي طليعتهم أحمد بن فارس في باب الخطاب إلى قضية الإعراب وموضوع المميز النحوي قائلاً:

«فالمميز النحوي سر جمال اللغة العربية وضابط من ضوابط سر المعاني وجامع لتركيب الجملة وضم الكلم.»ويؤيد ابن جني هذه الظاهرة في فكرنا القديم، ومما ذكره ابن جني في كتابه الخصائص في باب القول على الإعراب، كظاهرة في لغتنا العربية، قال:

«هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنك إذا سمعت: أكرم سعيد أباه وشكر سعيداً أبوه؛ علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرحاً واحداً لاستبهم أحدهما من صاحبه»[1]

فالمميز النحوي يكشف عن المعاني ويبعد الإلتباس عنها ويحدد وظيفة الكلمة ويرسم دلالتها، فالإهتمام متواصل بمعاني النحو عند كل دارس لنظام لغتنا النحوي والصرفي واللغوي.

---

(١) الخصائص لإبن جني ـ جـ ١ باب القول على الإعراب ص ٣٥.

ويؤرخ العـلامة ابن خلدون لعلم النحـو وفوائـده، في التعبيـر عن المقصود وبواسطة العبارات التي هي فعل لساني ناشيء عن القصد بإفادة الكلام قائلاً:

«وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعـاني قبل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور غير المضاف ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال أي الحركات إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى»(٣).

وبهذا يظهر ابن خلدون فائدة النحو ومعانيه، وحركات أواخر الكلمات وما لها من فوائد في تحرير المعاني وتوضيح المقاصـد. وتحديـد مواقـع الكلمات داخل نظم العبارات ، وبذلك تستمر عملية الإهتمام بمعاني النحو على مر العصور عند العرب لأهميتها ولدورها الهام في تحديد المقاصد وتحرير المعاني الإضافية وابراز الدلالة.

وقد يكون للعرب في ذلك ما ليس لغيرهم، فهم يفرقون بين المعاني بواسطة الحركات النحوية.

ويتضح من النصوص السابقة، أن دقة الإعراب ومعاني النحو، ليست مانعة لأحد من التخاطب بلغة معربة، ويقتصر عمل النحو في دراسة التراكيب الجملية، ويتمثل ذلك في التمييز بين أنواع الجمل المختلفة، ثم بتعين المجموعات التي تسير على نظام ثابت في كل نـوع، وبالنـظرة العلمية الشاملة لهذه القيمـة لا تفصل بين قـوانين الأصوات وقـوانين التغيرات، وقوانين العلاقـات الجملية للتـركيب، كما أنهـا لا تعزل ذلـك كله عن العـلاقات التـركيبية التي تقـوم بين المفردات المعجميـة التي تتألف في

التركيب.

إن هذه النظرة الشمولية نحو وظيفة النحو المتكاملة تبرز بصورة جلية في الدراسات اللغوية المعاصرة وتعتبرها لباً للدراسات اللغوية الحاضرة، فالإعراب والحركات ومواقع الكلمات في السياق، صفات أساسية في التعبير عن المقاصد، فهي التي تجدد صلتها بالألفاظ المتجاورة وتحدد صلة معناها بمعانيها، كونها فاعلاً بالنسبة للفعل أو خبراً بالنسبة للمبتدأ، وهذا هو الذي يدخل في تراكيب الكلام.

لذلك يتألف معنى الكلمة من اجتماع عدة عناصر يضاف بعضها إلى بعض ويحدوها الأصل الإشتقاقي، ثم المادة الأصلية التي ترجع إليها، ثم البناء الصرفي والصيغة، وحياة الكلمة ثم حدود استعمالاتها ووجوه معانيها المتعددة يحدد سياق الكلام الموضوع أو الفكرة والغرض.

يقول الدكتور نايف خرما حول هذه المستويات التي تحدد معاني النحو داخل السياق قائلاً:

«وتعتبر الجملة في نظر أنصار المدرسة السلوكية أو التحويلية علاقات أفقية، تتألف من شريط متسلسل من الكلمات المصفوفة بجانب بعضها بعضاً وأن معنى تلك الجملة يتألف من معاني المفردات بالإضافة إلى العلاقات الأفقية الظاهرة لبنيتها، والتي تنظمها قواعد اللغة»[1].

وبهذا يلعب الدور النحوي والصرفي دوراً هاماً في المميز ويدفعانه على جمع شتى عناصر الجملة والتحامها، وبذلك يسهل علينا دراسة الجملة

---

(١) أضواء على الدراسات اللغوية ـ نايف خرما ـ ص ١٣٩.

المكونة من مجموعة متناسقة من الكلمات والتي غايتها تأدية معنى معيناً، فينظر المرء إلى ترابط أجزائها من حيث مميزات الجنس والعدد والزمان والمكان والشخص والإعراب وما يطرأ على أجزائها من تقديم وتأخير وذكر وحذف وفصل ووصل... واضمار. وبذلك تكون معاني النحو أساساً للدراسات اللغوية عند القدامى، وأنها العامل المنتج لعدد لا يحصى من الجمل.

ومجمل القول في فضل قيمة معاني النحو على السياق، أنها تأخذ مكانها في لغتنا العربية الفصحى على مدى العصور والأيام وتثبت مكانتها بجدارة في كل الدراسات، فهي العامل الأساسي في إتحاد أجزاء الكلام وتداخل أجزائه بعضه مع بعض، ضمن مناهج وقوانين وأصول، بحيث توضع الجملة في النفس وضعاً واحداً، ويقصد عبد القاهر بمعاني النحو، المعاني الفكرية والمعاني الإضافية، دون الهدف إلى موضوعية الفاعلية أو المفعولية، إنما الإشارة إلى وجهيهما في نظم صحيح، ويرفض أن تقتصر معاني النحو، على صحة التركيب من الناحية الإعرابية، وبذلك تكون معاني النحو لباً للدراسات اللغوية عند العرب على مدى العصور. فلا نظم دون توخي معاني النحو وأحكامه بين الكلمات، وأن معاني النحو هذه منقسمة بين حركات الألفاظ وسكناتها وبين وضع الحروف والكلمات والجمل وفي التقديم والتأخير والفصل والوصل، والحذف والإضمار والذكر والحذف، فهي مجتمعة قادرة على تحرير المعاني الإضافية، وبذلك لا يمكن أن نفصل بين المجالات الصرفية والنحوية المتفاعلة والمتعاونة في صنع جملة أو سياق معين أو بعث الحياة داخل النص.

«ولا يكون الضم ضماً ولا الموقع موقعاً حتى يكون قد توخى فيها معاني النحو»[1]

(١) دلائل الأعجاز - عبد القاهر الجرجاني ص ٢٤٠.

يجد المرء في معاني النحو طاقة تعبيرية ناظمة وفيها قدرة تصويرية قادرة على تصوير أدق المشاعر وأدق الأفكار.. . وبذلك احتفظت اللغة العربية بظاهرة الإعراب وخاصية المميز والحركات الإعرابية. ومعاني النحو جملة، وتمسكت بها إلى يومنا هذا، وبذلك لم تعد معاني النحو خاصة مقتصرة على الحركات، بل هي مستويات متعددة من النحو، والصرف والصوت والدلالة وللزمان والمكان والموقف والغرض والمادة الفكرية مع الجانب الإنساني، وهذا ما أشار إليه أصحاب المدرسة التحويلية من أن معاني النحو باتت جوهر الدراسات اللغوية المعاصرة.

فالميزة المطلوبة بالنظم أن تأتي الألفاظ مرتبة في النطق وعلى الورق ذلك أن المعاني هي الأصل في التعبير، وبهذا تبقى أفكار عبد القاهر أرقى بكثير عما وصلنا من فكر غربي.

إن مفهوم معاني النحو يتضمن تخير الألفاظ مع سهولتها، ونصاعها وسلامتها، وجودة مطلعها في إصابة المعنى، ثم إستواء التقاسيم هو وليد المفاصل وحسن الرصف وكمال الصياغة مع الإحتكام إلى معاني النحو الشاملة لأبواب النحو والصرف في بعث الدلالة حية جلية داخل نص متكامل وتقودنا هذه القيمة إلى قيمة هامة تضمنتها نظرية النظم، وهي قيمة حسن الدلالة.

جـ ـ حسن الدلالـة:

وجد عبد القاهر الجرجاني أن بعد دلالة الألفاظ على معانيها دلالة أخرى أسماها الدلالة الإضافية الموضحة معنى المعنى، فخص الدلالـة الأصلية بالمعاني الحقيقية، وخص المعاني الإضافيـة بالـدلالة الإضـافية الخاصة بالمعاني الإضافية والهامشية.

---

(١) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ ص ٢٤٠.

فالدلالة عند عبد القاهر دلالتان، أو نوعان من الدلالة.

يقــول:

«وإذا قد عرفت هذه الجملة، فقد حصل لنا منها، إن المفسر يكون له دلالتان، دلالة اللفظ على المعنى، ودلالة المعنى الذي دل اللفظ عليه إلى معنى لفظ آخر، ولا يكون للتفسير إلا دلالة واحـدة وهي دلالة اللفظ، ويكون هذا الذي ذكرت سبب فضل المفسر على التفسير من كون الدلالة في المفسر لمعنى معلوم يعرفه السامع وهو غير معنى لفظ التفسير في نفسه وحقيقته»[1].

فللألفاظ دلالات وللمعاني دلالات، ولو المعاني الحاصلة داخل النظم لما استحقت الألفاظ صفة الجودة والحسن، والذي يمكن أن يلاحظه المرء هو احتواء الألفاظ لفكرة من الفكر عندما نتبادل الأفكار، فللألفاظ قيم تعبيرية أو دلالات، ونحن عندما نتبادل الألفاظ على أساس ما تدل عليه من دلالات، فإننا نتبادلها على أساس قيم ورموز، ترمز بها لأفكارنا وعواطفنا، حيث أن الوظيفة الأساسية للكلام هي الإتصال، فاللغة تمد الإنسان بالرموز وتحدد له المعاني. وواقع الأمر أن هناك محاسن تحصل بسبب الألفاظ، ومحاسن أخرى ناتجة من جودة المعاني، ومن محاسن الألفاظ، محاسن تنشأ عن الكتابة تعود إلى الحروف في ذاتها داخل الكلمة وحسن تلاؤمها، ومجاورتها مع غيرها، كما هو الحال عند بديع الزمان الهمذاني في مقاماته، وهي دلالات عائدة إلى نسج الكلام نسجاً علمياً هدفه البراعة والمهارة والقدرة، بحيث يكون أحد الحروف معجمياً ونظيره حرف مهمل يتكرر ذلك داخل المقامة، وهناك محاسن أخرى تنشأ عن اللفظ من حيث هو لفظ، يمكن ارجاعها لدلالة اللفظ الوضعية تتبعها محاسن أخرى تنشأ عن اللفظ

---

(١) دلائل الأعجاز - عبد القاهر - ص ٢٨٩.

من حيث هو لفظ، يمكن ارجاعها لدلالة اللفظ والوضعية تتبعها محاسن أخرى تنشأ عن الدلالة المعنوية الفرعية والتي توحي بمعنى المعنى، لأن الكلام في عرف عبد القاهر على ضربين.

يقول عبد القاهر:

«الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت خرج زيد. وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والإستعارة والتمثيل»[1].

إن اللغة في عرف المفكرين المعاصرين والقدامى، ناتج عن نواتج الفكر الإنساني تمد المرء بالألفاظ المعبرة، وتحدد له المعاني، وتمكنه من تمثيل ذاته. فترتبط الأسماء بالأشياء، وتحدد لها الصفات، وتلبي دائرة الإحساس بالتعبير عن كل ما يخطر على البال، فيتصرف الإنسان بالمعاني وينظمها في ذاته، ثم يخرجها إلى مسرح الحياة، برموز من الألفاظ المنظومة، فلغة دورها الكَبير لتثبيت الأفكار ولتخرجها عند الفرد والمجتمع ولنقلها بين الناس من جيل إلى جيل.

ولكي تكون هذه اللغة معبرة عن المعاني تعبيراً دقيقاً، نفرق بين الوان المعاني المتداخلة والمتقاربة بحيث يزيد الفكر ثروة وبها ينمو ويرقى ويزدهر.

يقول عبد القاهر:

---

(١) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر ـ ص ١٧٣.

«وإذا قد عرفت هذه الجملة فهٰهنا عبارة مختصرة وهي تقول المعنى ومعنى المعنى»[1].

وقد سبق إلى مثل هذه الأفكار وأشار السلف إليها مثل ابن قتيبة بقوله: «إن البلاغة لا تقتصر على اللفظ فهي قد تكون فيه فقط، وقد تكون في المعنى فقط وقد تكون فيهما معاً»[2].

ويقول الدكتور احمد مطلوب:

«وكان عبد القاهر ممن اهتم بالمعنى مع اهتمام بالصياغة، وإن ذهب إلى أن الألفاظ خدم للمعاني، وأوعية لها، وهي تتبعها في حسنها وجمالها وقبيحها ورداءتها»[3].

ومن الطبيعي أن يوصل التفكير المنطقي الإنسان إلى الحقائق عن طريق ضروب اللغة:

«فالقدرة على التفكير المنطقي من ألزم ما يلزم الإنسان المتمدن في حياته الخاصة والعامة، والزم ما يلزم الأمم، إذا أرادت أن ترتفع وترتقي إلى دور الحضارة والتقدم المادي»[4].

يتضح لنا مما سبق أن عبد القاهر، كان يعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي نصل إليه بغير واسطة أو وسيلة، أي ما يصل من المعاني المباشرة إلى الذهن، ثم على السامع أن يعقل من اللفظ معنى معيناً ثم يفضي به ذلك المعنى إلى معنى آخر يعقله السامع من ذلك المعنى على سبيل الإستدلال معنى ثانوياً يتمم الغرض.

---

(١) القزويني وشروح التلخيص ـ ابن قتيبة ـ ٢٥٢.
(٢) القزويني وشروح التلخيص ـ ص ٢٥٣.
(٣) عبد العزيز القوص ـ اللغة والفكر ـ ص ٧١.
(٤) عبد العزيز القوص ـ اللغة والفكر ـ ص ٧١.

وجملة الأمر أن صور المعاني لا تتغير بنقلها من إنسان لآخر، وحتى لا يراد من الألفاظ ظواهر ما وضعت له في اللغة، ويشار بمعانيها إلى معان أخرى، قال عبد القاهر:

«وكذلك إذا جعل المعنى يتصور من أجل اللفظ بصورة ويبدو في هيئة ويتشكل بشكل يرجع في ذلك كله إلى الدلالات المعنوية، ولا يصلح شيء منه حيث الكلام على ظاهره»[1].

كان اهتمام عبد القاهر كبيراً في المعاني الإضافية، وكذلك حال من جاءوا بعده من السلف، أمثال الزمخشري والقزويني، فابرزوا دلالات الألفاظ على حقيقتها بأنها تشير إلى معان يدركها السامع أو القاريء في تعبير معين، وأن هذه المعاني ذاتها توحي بمعان أخرى تدل على ما في الألفاظ من ايحاءات تتعاون جميعها في أداء وظيفتها، كي تبرز وتجعلها جلية بارزة ويكون للتفسيرات دلالة واحدة على المعاني المقصودة، فتحدد مداها، وتبرز صفاتها، وتظهر سمات العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى.

هذا ويعترف حازم القرطاجني بهذه الدلالة التي تكشف عن المعاني الإضافية الموجودة خارج الذهن فيقول:

«وإذا قد عرفت كيفية التصرف في المعاني التي لها وجود خارج الذهن والتي جعلت الغرض بمنزلة ماله وجود خارج الذهن، فيجب الإشارة إلى المعاني التي ليس لها وجود خارج الذهن أصلاً، وإنما هي أمور ذهنية محصولة صورة تقع في الكلام بتنوع طرق التأليف في المعاني والألفاظ الدالة عليها»[2] ويشير عبد القاهر إلى أهمية دلالات الألفاظ ودلالاتها المعنوية بصورة خاصة بقوله:

---

(١) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر ـ ص ١٧٤.

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ـ حازم القرطاجني ـ ص ١٦.

«وجملة الأمر أنه إنما يتصور أن يكون لمعنى أسرع فهماً منه لمعنى آخر إذا كان ذلك مما يدرك بالفكر، وإذا كان مما يتجدد له العلم به عند سمعه للكلام وذلك محال في دلالات الألفاظ اللغوية»(١)

هذه هي البنى السطحية تستوعب المفاهيم على شكل جمل أصولية وكأن هناك نواميس تبين كيفية انعكاس المعنى في المبنى، فإذا كانت الألفاظ قادرة على التعبير، أدركنا لها معان معينة، وعندما نألف استعمال الألفاظ حول معان معينة تصبح المعاني لدينا طبيعية مألوفة وقد غدت جلية. حيث أن الكلام المنظوم والمنثور يتألف من الفاظ منسقة مترابطة، متلاحقة على نحو معين وفقاً لأنظمة كل لغة، وينتظم وفقاً لنحو معين له أصوله وسماته وصنعته وتأنقه وقوالبه، هدفه تأدية الدلالة ووضوحها بطرق متعددة.

يقول عباس محمود العقاد:

«واللغة الدقيقة التي استوفت وجود الدلالة هي اللغة التي تلاحظ مقتضى الحال في كل عبارة، ولا يستخدم كل عبارة لموضعها الذي لا ليس فيه، وهذه هي صفة اللغة العربية في وفائها بالمعاني المقصودة على حسب إرادة المتكلم والسامع أو على حسب ضروب التفاهم بين الإثنين»(٢)

إن المعنى عند عبد القاهر أساس في صياغة العبارة، وليس هو كل شيء بل يجب اعتبار جودةُ العبارة التابعة لجودة الفكر نتيجة حاصلة، ويعني عبد القاهر بالمعنى هو المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة أو سيلة، ثم يفضي به ذلك المفهوم إلى معنى آخر يعقله السامع والقارىء من ذلك المعنى، ألا وهو الغرض.

وواقع الأمور العلمية يثبت أن اخضاع الألفاظ للتعبير عما يجول في

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر ـ ١٧٦.

(٢) اشتات مجتمعات اللغة ـ عباس محمود العقاد ـ ٧٤.

الأذهان قد مرت به مئات الآلاف من القرون، جعلت من الألفاظ شيئاً أرقى وأعظم من رموز نستخدمها للدلالة على أفكارنا ومشاعرنا وحاجياتنا اليومية. وحسن التصرف بالمعاني يساعد الدلالة في كشفها الغرض وتحديده... وتعينه.

يقول عبد القاهر مشيراً إلى أهمية الدلالة ودورها في كشف المعاني الإضافية وتحريرها من الغموض إلى الشفافية.

«وكذلك إذا جعل المعنى يتصور من أجل اللفظ بصورة ويبدو في هيئة ويتشكل بشكل يرجع المعنى في ذلك كله إلى الدلالات المعنوية ولا يصلح شيء من حيث الكلام على ظاهرة وحيث لا يكون كناية وتمثيل به ولا إستعارة ولا استعانة في الجملة بمعنى على معنى، وتكون الدلالة على الغرض مجرد اللفظ»(١).

إن الإرتباط شديد ومتين بين اللفظ والمعنى أثناء التعبير عن الأفكار والأحاسيس، وتلعب الألفاظ دورها العام بكل ما تملكه من طاقة مستمدة من ذات الإنسان وهي ذات مقومات متعددة يشتمل عليها تعبير معين بدلالات ثابتة تؤدي دورها في خدمة المعاني، وإذا أصيب التركيب اللغوي بنوع من أنواع العلل اللغوية، انحرفت الدلالة عن هدفها، وبات المعنى الذي تحمله الألفاظ عليلاً أيضاً، فتظهر المعاني بصورة يختلف فيها اثنان ويكثر التفسير والتأويل. وما يطلبه عبد القاهر من الدلالات اللفظية، هو الوضوح والدقة التامة، وأن تؤدي الألفاظ دورها في نقل الصورة السمعية إلى فكر السامع بقدر ما في نفس المتكلم من معاني مرتبطة في ذاته وكل تشويه في بناء الدلالة يتبعه تشويه في الصورة، لذلك يشير عبد القاهر إلى أهمية هذا الجانب بحذر.

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر ـ ص ١٧٤.

«فإذا ما تغير النظم فلا بد حينئذ من أن يتغير المعنى على ما مضى من البيان من مسائل التقديم والتأخير»[1]

وإذا كان النظم سوياً والتأليف مستقيماً كان وصول المعنى إلى قلب الإنسان بعد وصول الألفاظ إلى سمع المخاطب، وإذا كان الأمر على خلاف ذلك وصل اللفظ إلى السمع وبقي المعنى غامضاً بعيد المنال والدلالة عاجزة عن تأدية دورها. يدرك المرء من هذه النصوص التي استخدمها عبد القاهر لتوضيح أهمية الدلالة وقيمتها العلمية عند اللغوي القديم واللغوي المعاصر، وأن هدف الدلالة هو الوصول بنظم الكلام إلى درجة الرقي والكمال، والتعبير وذلك بأن توضع الألفاظ في مواضيعها، وتمكن في أماكنها، لتأتي المعاني على حقيقتها دون زيادة أو نقصان أو مبالغ فيها.

وتذكرنا هذه الآراء القيمة، بنظرية الترابط اللغوي التي ينادي بها رجال الفكر والفلسفة اليوم، وهي الرمزية الجمالية التي يعالجها أو يعترف بها اللغوي الأوروبي المعاصر، واللغوي العربي في العصر الحديث من أجل هذا كانت نظرية النظم، ومن أجل هذا أولاها الدارسون واللغويون المعاصرون عنايتهم ورعايتهم واهتماماتهم المستمرة لما لها من قيمة علمية في مجال البحث اللغوي المعاصر وتوضيحاً لما تقدم نضيف إلى النصوص السابقة رأياً آخر من آراء عبد القاهر.

«واعلم أن الفائدة تعظم في هذا الضرب من الكلام إذا أحسنت النظر فيما ذكرت لك من أنك تستطيع أن تنقل الكلام في معناه عن صورة إلى صورة من غير أن تغير من لفظه شيئاً، أو تحول كلمة مكانها إلى مكان آخر، وهو الذي وسع مجال التأويل والتفسير، حتى صاروا يتأولون في

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر ـ ١٧٥.

الكلام، الواحد تأويلين أو أكثر»[1].

وعلى هذا تتحقق الفائدة من الكلام إذا أخذنا بآراء عبد القاهر جميعها وأهم هذه الآراء أن نراعي صحة المعاني ودقتها أثناء نقلها، من جيل إلى جيل ومن إنسان لآخر، ولا يكون ذلك إلا بالمحافظة على الفاظها ذاتها التي استعملت لها في المرة الأولى، وبذلك فالتعبير اللغوي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالوعي التام، وبقدر ما يعتني المرء بالأشياء، يستطيع أن يكون قادراً على الإفصاح عنها، وبذلك تحقق الدلالة وظيفتها.

إن الدلالة في هذه الحالة هي إثارة اللفظ للمعنى الذهني أي مدلوله المترابط بين اللفظ والمعنى، وأن هذه للدلالة لا يمكن أن تكون مرادفة للمعاني، لأن اللفظ يثير في ذهن السامع صورة الشيء ومفهومه لا الشيء ذاته، ويكون الإنتقال إلى الأشياء الحسية عن طريق الصور الذهنية أي إلى المفاهيم القائمة في نفوس الناس وأذهانهم، وأن هذه المعاني المتكونة في أذهان الناس هي الجسم الموصل بين عالم الأسماء وعالم الأذهان.

ومن هنا كانت العناية كبيرة بالدلالية عند المفكرين في كل عصر فاعتنوا بالدلالة اللغوية ضمن وسائل الألفاظ ودلالاتها وبحثوا في العام والخاص من أمر اللفظ، وبين الحقيقة والمجاز بحيث لا تخرج الألفاظ عن كونها رموزاً للأفكار وخادمة للمعاني وهي الأفكار التي أكد عليها كثير من اللغويين المعاصرين وبعض النقاد العالميين.

ولدلالة الألفاظ على معانيها عناصر عديدة، كالصورة الصوتية التي يحدثها المتكلم، ثم الصورة الذهنية التي أثارها الكلام في ذهن السامع والتي هي المعنى، والمعنى هذا هو الصورة المتكونة في ذهن السامع نتيجة تجاربه الحسية، وهي إجابة لسؤال مازال قائماً في الأذهان ما هي مشكلة

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر ـ ٢٤٣.

العلاقة القائمة بين المعنى والمبنى والشكل والمضمون والصورة، أي ما بين البنيـة السطحيـة للتغييرات والبنى العميقـة ووظيفة اللغـة، وبهذا تكـون النظريات الحديثة مدينة لآراء عبد القاهر الجرجاني في عمق فكرة ودقة أعماله التي تمتد إلينا لتصل الماضي الثري بالحاضر المتطلع لجهود جديدة تساير كل تقدم. ومجمل لقول، أن المادة الصوتية والدلالة متلازمتان تنعكس الواحدة في الأخرى، وما البنى السطحية إلا نتيجة آلية للمعاني التي كانت في الأعماق دفعتها اللغة إلى السطـح، فالبنى العميقة هي أساس التفكير في فكر عبد القاهر، وهي التي تستوعب المفاهيم، وأن البنى السطحية هي التي تقوم بصوغ المفاهيم فقط على شكل جمل أصولية.

ولهذه الآراء قيمتها عند كل لغوي معاصـر، وبهذا تتيـح لهم اللغة وهيكلتها وبنيتها، التعرف على كيفية عمل الفكر وتحركه وخضوعه لأنظمة معينة، وهو دليل عظيم على صلة اللغة في الفكر فما نواميس انعكاس المعنى في المبنى، مثل الوحدات الصوتية المعبرة وانعكـاسها في مـرآة المعاني، وما لتنظيم عرض الجملة الذي ينقلنا من عقدة إلى أخرى إلا روابط متعددة تربط الفكر باللغة، وتقودنا هذه القيمة العلمية إلى قيمة علمية أخرى لها مكانتها في نظرية النظم، وفي علم اللغـة العام وأثـرها في الماضي والحاضر ألا وهي قيمة الفصاحة في النظم والبلاغة وحسن التناسق بالشكل والمضمون العام.

د ـ القيمة العلمية للفصاحة:

كثير من المفكرين العرب تناولوا صفة الفصاحة باللغة وقد ذكرنا بعضهم ودونا بعض الجهود الخاصة بهم، وفي طليعـة المفكرين الـذين تناولـوا الفصاحة في القرن الخامس الهجري، القاضي عبد الجبار الأسدي وابن سنان الخفاجي، وتأتي جهود عبد القاهر اللغوية شارحة لجهودهم مفصلة

لكل المفاهيم التي تناولوها في أبحاثهم ولأبحاث أخرى تناولها السابقون منذ عهد الجاحظ ونذكر من أقوال القاضي عبد الجبار في الفصاحة قوله:

«واعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم أن يكون لكل كلمة صفة وقد يجوز في هذه الصفة، أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم. وقد تكون بالإعراب الذي هو مدخل فيه، وقد تكون بالمواقع وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع»[1].

وترد الأفكار حول الفصاحة في القرن الخامس الهجري، وكأنها فتح جديد لنظم لغوي ونظرة لغوية متطورة تجد مكانتها في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني.

وتنضم هذه الجهود إلى أفكار ابن سنان الخفاجي صاحب كتاب سر الفصاحة، وهو المعاصر لعبد القاهر، فيعرف الفصاحة ويوضح حدودِها، مؤتنساً بجهود السابقين قائلاً:

«إن الفصاحة على ما قدمنا نعت للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ، وبحسب الموجود منها، تأخذ القسط من الوصف، وبوجود أضداد تستحق الأطراح والذم»[2].

ويضع للفصاحة ثمانية شروط تتعلق بالألفاظ والمعاني، وهي في مجملها لا تتعدى قول عبد الجبار في قوله:

«إنما يكون الكلام فصيحاً لجزالة لفظه، وحسن معناه، ولا بد من

---

(١) المغني ـ القاضي عبد الجبار جـ ١٦ ـ ١٩٧ ـ ١٩٩.
(٢) سر الفصاحة لإبن خفاجة ـ ص ٦٥

اعتبار الأمرين»[1].

ويفند عبد القاهر، أقوال السابقين في الفصاحة والبلاغة والبيان وسائر ما يجري مجراها قائلاً:

«في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة، وكل ما شاكل ذلك مما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا، واخبروا السامعين عن الأغراض، والمقاصد، وراموا الطلب أن يعلموهم ما في نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم. ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات، وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة، وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى غير وصف الكلام بحسن الدلالة، وتمامها فيما له كانت دلالة، ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين، وأنقى وأعجب، وأحق بأن تستولي على هوى النفس وتنال الحظ، لا وفر من ميل القلوب وأولى بأن تطلق لسان الحامد وتطيل رغم الحاسد، ولا جهة لإستعمال هذه الخصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، ويختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه، وأتم له بأنه يكسبه نبلاً، ويظهر فيه مزية، وإذا كان هذا كذلك فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم أخباراً وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظه على لفظه»[2].

وبهذا النص يتضح منهج عبد القاهر اللغوي في قوله الفصاحة، أنها صفة الفصاحة للفظ تدرك بالسمع وهي صفة معقولة تدرك بالذوق أيضاً

(١) المغني ـ القاضي عبد الجبار ـ جـ ١٦ ـ ص ١٩٧.
(٢) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر ـ ص ٣١.

لكنها على العموم صفة مرحلية غير ثابتة، وهي غير مخصوصة بلفظ خاص بها فهي فصيحة في موضع وغير فصيحة في مواضع أخرى وفصاحة اللفظ عائد إلى معناه:

«فأنا نرى اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضع، ونراها بعينها فيما لا يحصى من المواضع، وليس فيها من الفصاحة قليل، ولا كثير، وإنما كان كذلك لأن المزية التي من أجلها نصف اللفظ في شأننا هذا بأنـه فصيح»[1]

إن صفة الفصاحة للفظ ندرك بالسمع، وهي صفة معقولة تدرك بالذوق أيضاً ولكنها على العموم صفة مرحلية غير ثابتة، وهي غير مخصوصة بلفظ خاص دون آخر فهي فصيحة في موضع وغير فصيحة في مواضع كثيرة كما أشرت إليها سابقاً، ويقول عبد القاهر:

«لا تخلو الفصاحة من أن تكون صفة في اللفظ محسوسة تدرك بالسمع وأن تكون صفة معقولة تعرف بالقلب، فمحال أن تكون صفة في اللفظ محسوسة لأنها لو كانت كذلك، لكان ينبغي أن يستوي السامعون للفظ الفصيح في العلم في كونه فصيحاً»[2].

من هنا يتضح للمرء أن فصاحة الكلمة صفة للكلام ككل، وأن الكلام استحق صفة الفصاحة من خصائص معناه، وبالتالي لا يمكن للفصاحة أن تكون خاصة باللفظ ذاته، وهذه قضايا لا تخفى على المتعمق في صياغة العبارة، ودارس الأساليب، أن هذه الفصاحة التي أشار إليها السلف وأكد عليها عبد القاهر تكون في المعنى.

«وأن المزية التي من أجلها استحق اللفظ بأنه فصيح عائد في الحقيقة

---

(١) نفس المرجع: ص ٢٦١ .
(٢) نفس المرجع ص ٢٦٤ .
(٣) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر ص ٢٦١ .

إلى معناه، ولو قيل أنه تكون فيه دون معناه لكان ينبغي إذا قلنا في اللفظة أنها فصيحة، أن تكون تلك الفصاحة صفة لها في كل حال، ومعلوم أن الأمر بخلاف ذلك»[1].

· ثم أن النظم والتأليف والترتيب كما أشرت سابقاً يكون في معـاني الكلام وليس في الألفاظ، ولا يغفل عبد القاهر هذه القيمة، ويشير إلى أن الفصاحة كانت مفهوماً متداولاً بين رجال الفكر، وهو مفهوم وصفت بـه الألفاظ وألفت من أجله الكتب، وأن الكلام عندهم قسمان، قسم تعزى المزية فيه والحسن إلى اللفظ، وقسم آخر تعزى المزية فيه للنظم، وأن مردود الفصاحة في رأيه يجب أن يرد إلى حسن المعاني وجودتها، فالمعاني الحسنة تتصف بفصاحة اللفظ وجزالته، ولا بد من اعتبار الأمرين لعدم امكانية الفصل بين اللغة والفكر. ثم أن فصاحة الألفاظ وبلاغتها لا ترجع إلى الألفاظ بشهادة الصفات التي ذكرها السابقون لعبد القاهر في مجال الفصاحة والبلاغة والبيان، وإنما ترجع إلى صورتها وموضعها الذي يتجلى فيه والتي هي أوضاع اللغة، بينما كانت البلاغة في رأي بعضهم أمثال الرماني والعسكري صفة عائدة للكلام والمعاني معاً.

هذا وقد اهتم المعاصرون اللغويون اليوم بقضية فصاحة اللفظ وجمال التعبير مثلما اهتموا بالمعاني، ودرسوا قضية اللفظ، القوى واللفظ الدقيق والعميق والرمز، واللفظ المؤنس والعذب، وكيف أن الكلمة قادرة على التأثير والإنفعال، وأن اللفظ على جانب كبير من الأهمية ويؤكد هذه النظرة الدكتور أحمد مطلوب بقوله:

«واهتم المعاصرون بالبحث في اللفظ الموحي، واللفظ القوي، واللفظ المؤنس والعذب في تآلفه مع الجملة، وكيف يعبر عن الإنفعال، أو الفكرة

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٢٦٢.

وكيف يحدث صورة، وأن اختيار الكلمة الموحية المؤثرة هي أول خطوة للبناء الفني، وذهب بعض النقاد المحدثين إلى أن اللفظ عنصر على جانب كبير من الأهمية ويؤكد هذه النظرة الدكتور أحمد مطلوب بقوله:

«واهتم المعاصرون بالبحث في اللفظ الموحي، واللفظ القوي، واللفظ المؤنس والعذب في تآلفه مع الجملة، وكيف يعبر عن الإنفعال، أو الفكرة وكيف يحدث صورة، وأن اختيار الكلمة الموحية المؤثرة هي أول خطوة للبناء الفني، وذهب بعض النقاد المحدثين إلى أن اللفظ عنصر على جانب كبير من الأهمية، وقد يقوم به القصيد دون حاجة إلى صورة خيالية، أو موسيقى جياشة، فإن الألفاظ ودلالاتها ووجوهها، وتآلفها، كافية لإبداع القصيد البديع»(١).

لقد شغلت الفصاحة عدداً يسراً من رجال السلف ضمن قضيتي اللفظ والمعنى. وانقسموا إلى قسمين، قسم مؤيداً للفظ وجعله هدفاً يسعى إليه وقسم آخر اهتم بالمعاني وجعلها غاية يسعى إليها في كل تعبير لغوي ويعتبر الجاحظ في طليعة من اهتموا باللفظ، فقد وضع معايير للفظ المفرد من تخيير وسهولة مخرج، وكثرة ماء، ولطافة مأخذ، وصحة طبع وجودة سبك وبعد عن التنافر. وسار على هذا المنوال كثير من المفكرين أمثال الأمدي، وبديع الزمان الهمذاني والخفاجي، وأن أكثر الناس كانوا يميلون إلى اللفظ دون المعنى وذلك ما أشار إليه ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة. إلا أن عبد القاهر الجرجاني قد أنكر تلك المميزات في فصاحة اللفظ المفرد لإيمانه بأن فصاحة اللفظ عائدة للمعنى، وأن هذه الفصاحة لا تظهر إلا بضم الكلام بعضه إلى بعض في جملة من القول أو في نص من النصوص، وأنه لا يمكن أن نقدم اللفظ على المعنى من حيث فصاحة

---

(١) الدكتور احمد مطلوب ـ القزويني وشروح التلخيص ص ٦٧٢.

اللفظ. وذهب عبد القاهر بعيداً إلى أن الألفاظ لا دور لها إلا خدمة المعاني وبأنها أوعية لها، وبالتالي لا تتفاضل من حيث هي الفاظ مفردة مجردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللفظ لمعنى اللفظة التي تليها.

وعبد القاهر فيما سعى إليه في هذا المجال، بعلاجه موضوع الفصاحة يعتبر المعاني هي الأصل في كل تعبير لغوي، وقد تأثر بهذه الآراء جل من جاءوا بعده أمثال القزويني والفخر الرازي والسكاكي.

إن مفهوم كلمة الفصاحة كصفة للفظ أو مفهوم كلمة بلاغة أو بيان، لم تتضح إلا بعد عصر عبد القاهر، ونجد أن عبد القاهر قد ربط مفهوم كلمة فصاحة بالنظم، فإذا هي البلاغة والبيان سواء كان منها مرتبط بالنظم وبمعاني النحو. لتخدم القرآن الكريم، وبهذا القدر من الشرح والتوضيح لإبـراز الجهود اللغوية عند القدامى العرب من المفهوم إلى النظرية، والتي توجت بأبدع ما انتجه عبد القاهر من جهود لغوية تبرز نظرية النظم كنظرية لغوية تضاهي أحدث النظريات اللغوية عند العرب، وسيتضح هذا في الأبواب والفصول القادمة، والتي ستتناول مشكلة اللغة والفكر ثم طبيعة العلاقة بينهما، ثم أبرز القضايا اللغوية المعاصرة التي مازالت تفرض وجودها على علم اللغة المعاصر، وبعدها نتناول أبدع النظريات اللغوية المعاصرة التي خضعت علم المعاني إلى منهج علمي للوصول بالبحث اللغوي إلى مستوى النظرية بعد أن جعلوا علم المعاني ومعاني النحو لباً للدراسات اللغوية المعاصرة عند نوم تشومسكي وبينامين رؤوف، وسيتضح لنا مكانة الفكر اللغوي العربي من علم اللسان المعاصر وأنه على مكانة مرموقة في مجال القيم العلمية وبأن العرب قدموا للحضارة الإنسانية جهوداً فكرية خيرة معتبرة.

البـــاب الثانـــي

الفصـــل الأول:

مشكلة اللغة والفكــر.

آ ــ مشكلة اللغة.

ب ــ مشكلة التفكيــر .

جـ ــ قوة الترابط بين اللغة والفكــر.

د ــ تأثيــر الفكر على اللغة.

الفصـــل الثاني:

غموض العلاقة في فكر المحدثين.

آ ــ الاستجابة الحسيةِ للغة.

ب ــ تفاوت نظرة العلماء حول العلاقة بين الفكر واللغة.

الفصـــل الثالث:

الكشف عن طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة.

آ ــ بنيانية التفكيــر.

ب ــ نظرة المفكرين اللغويين المعاصريـــن.

جـ ــ اهتمام القدامى العرب بالبنى العميقة والبنى السطحية للغة.

الفصـــل الأول

آ ـ مشكلة اللغــة والفكـــر :

إن طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة معظلة كبرى عند الإنسانية جمعاء لأنها لم تزل سراً غامضاً منذ أقدم العصور وحتى يومنا هذا كما أن قضية التفكير هي مشكلة أخرى عند رجال الفلسفة وأهل المنطق، وتتداخل هذه المشاكل مع قضية اللغة ومظاهرها الاجتماعية والفكرية وطبيعتها الإنسانية تداخلاً ملتحماً يصعب الفصل بينهما. إن مثل هذه القضايا الفكرية ما زالت تفرض نفسها على تفكير العلماء في ميدان اللغة والفلسفة والعلوم والمنطق، وتساهم معظم العلوم الإنسانية بجهود رجالها للكشف عن أسرار هذه القضايا المتداخلة بعضها في بعض إلى حد التداخل المعقد، وبالتالي لا يمكن عزلها على معاظل الإنسان الأخرى.

فقد اعتبر علماء الفلسفة من قضية العلاقة بين الفكر واللغـة قلب الفلسفة جميعها واعتبرها علماء الاجتماع مظهراً وسبباً من أسباب النضوج والرقي والحب والكراهية والسعادة والشر أحيانــاً.

هذا ويلاحظ المرء أن اللغة تقدم للفكر تصاريف جاهزة، فتصف له الأشياء بخصائصها وتساعده على تفهم الحقائق المادية والمعنوية، بواسطة تعاريف جاهزة. وأساليب مدروسة معروفة، ثم أن هذه اللغة تربط الفكر

ارتباطاً عضوياً ملتحماً لا ينفصل بواسطة العلاقة القائمة بين الفكر واللغة، فهي علاقة طبيعية مستمدة من طبيعة الإنسانية وهي علاقة وطيدة ممتدة عبر الزمان نطقاً مستمرة داخل التعابير المنطقية، فتشغل حيزاً من المكان وبرهة من الزمان، وهي مولود طبيعي من اللفظ والمعنى.

إن هذه المشكلة بحاجة ماسة إلى الدراسة والبحث كي تكشف عن أسرارها وتتضح معالمها، إن بداية الكلمات قبل انطلاقها من مركز التفكير ومنابع الصوت وعمق التفكير تكون عبارة عن بدايات متحفزة تبدأ من السكون وبمجرد انطلاقها لا تتعدى الأصوات الخفيفة، كالحركات الثلاث من فتح وضم وكسر، فإذا ما سمع لها بالخروج إلى الحياة لتصبح تعبيراً منطقياً نسمعه ونقرأه ونكتبه، فنفهم ونستجيب إليه بحركة أو بفعل أو صوت أو بانفعال.

فالتعبير المنطقي هو الذي يثير فينا الإحساس وينبه فينا مكامن التفكير والشعور، ويبعث فينا الحب والكراهية ويحثنا على القيام بالواجبات والتمسك بالفضيلة ويحرك فينا غرائز شتى، فنستجيب لبعضها أو نتخلى عن بعضها الآخر. يقول العالم اللغوي فاندريس:

«واللغة من ناحية تعد واحدة من أعجب المبتكرات التي أظهرها التطور الإنساني، فيجب الوقوف عندها، وأطالة الوقوف عندها، وما هو التصنيف الذي تقوم به في التطور العقلي، وما هي صلات الفرد في الجماعة فيما يختص بانتاج هذه الإدارة القيمة وأكمالها، ولا بد أن اللغة قبل أن تكون وسيلة للتفكير، كانت في الواقع وسيلة للعقل، وواحدة من أنجح الوسائل التي تمكن الإنسان منها، وما أن استيقظ في ذهن الإنسان شعور بالعلاقة حتى راح يوسع من شأن هذا الاختراع العجيب»[١].

---

(١) اللغة ـ فاندريس ـ ص ٤.

فاللغة بهذا التعريف ظاهرة اجتماعية تتطلب ممارستها الوعي بحدودها وخصائص وظائفها، إذ تقوم بوظائف عديدة، وإنها وسيلة الإنسان في التعبير، أوجدها لينزل المجهول إلى مرتبة المعلوم، وبها ينتصر على أسرار الكون ومشاكل الحياة اليومية.

وباللغة يعبر الإنسان عن التصارع القوي في ذاته، وبها يعبر عن النسيان وعن مضامين الفكر، ويجعل ما وراء الطبيعة موضوعاً متناولاً وفكراً متبادلاً بين الأجيال.

فاللغة برأي المحدثين اللغويين جهاز إعلامي، ومرآة لحياتنا قادرة على تصوير واقعنا، تعبر عما نجده ونحسه وعما نفكر فيه، تعبر عن الحزن والفرح والغضب والألم بدقة وصدق.

يقول محمد المبارك :

«واللغة هي الجسر الموصل بين عالم الحياة وعالم الفكر، وتسبق وجود الأشياء أحياناً وتلحقها أحياناً أخرى، واللغة بلفظها الملفوظ والمكتوب، أداة عجيبة تنتقل بها الأشياء التي تقع عليها حواسنا إلى أذهاننا، ومن العالم العشوائي إلى العالم المنظم. فكل ما تموج بها الأشياء التي تقع عليها حواسنا إلى أذهاننا من مشاهد وصور وفي الطبيعة والمجتمع ينتقل إلينا بصورة عجيبة إلى الذهن بطريقة الكتابة، أو اللفظ، وكذلك هو الحال بالنسبة لما في الذهن من خواطر ومشاعر وأفكار تنتقل إلى الآخرين من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل»[1].

واللغة ظاهرة اجتماعية إنسانية، تقع في مراكز النشاطات الإنسانية والاجتماعية وتتداخل في كل وجود النشاط الإنساني، ومع ذلك فإن الإنسان

---

(١) فقة اللغة وخصائص العربية ـ محمد المبارك ـ ص ١٥.

يميل إلى أن اعتبار اللغة أمراً مسلماً به، فلا يتوقف التفكير بهذه الظاهرة المعقدة، هذا ويشير الدكتور حنفي بن عيسى إلى أهمية اللغة ودورها قائلاً:

«إن اللغة إذن هي أداة لا غنى عنها من وجهتين، أولاً هي وسيلة لابراز الأفكار من حيز الكتمان إلى حيز التصريح، وثانياً فهي عماد التفكير الصائب، والتأمل ولولاها تتعذر على الإنسان أن يسبر عن الحقائق إلى عمق أعماقها حينما يسلط عليها أضواء فكره»[1].

ويشير أحد علماء اللغة إلى مثل هذه الأهمية قائلاً:

«إن لغة أمة من الأمم هي قوتها الطبيعية، وعليها أن تستنفذ كل ما في هذه اللغة من إمكانيات وملكات، وقوة طبيعية للتعبير عن نفسها مع تنسيق للألفاظ واختيار للمعاني، بحيث تصبح كلاً متناسقاً منسجماً ودلالة واضحة تامة»[2]

إن اللغة طاقة ووسيلة فكرية تبعث الجد والنشاط والحس والحركة في بني الإنسان لأنها قوة طبيعية تمثل الوجدان في الإبانة عما في النفس من إحساس وعما في الفكر من مضامين، فهي وعاء الأفكار وصورة الأمة في وجدانها وعاداتها وتقاليدها.

آ ـ مشكلة اللغـــة :

ليست اللغة مجرد ألفاظ تكتب أو تقال لتسمع، ولا هي شريط من الكلام، فاللغة لها دور كبير في حياة الإنسانية جمعاء، ولها علاقة بالتفكير الإنساني، بل هي جوهر التفكير ذاته في نظر علماء النفس.

---

(١) الدكتور حنفي بن عيسى ـ محاضرات في علم النفس اللغوي.

(٢) العالم فخته عن مجلة الأصالة عدد ٦٥ ص ١٦ طبعة ١٩٧٩.

إن دراسة اللغة يجب أن يكون لها علاقة بنمو التفكير المنطقي الواضح وينبغي للغة أن تساعدنا على التفكير والعمل في آن واحد، والتنفيذ والاستمتاع، وينبغي على المفكرين ألا يجعلوا اللغة غاية في ذاتها فالألفاظ تتبع المعاني وهي نعم الخادم لها، فهي وسيلة التعبير عند الإنسان، ومن هنا ينبغي ألا نفصل اللغة عن الحضارة وعن الحياة وعن المدنية، فاللغة لسانها المعبر ومرآتها الصادقة إن سياق الكلام المنطقي والمفيد يجب أن يضم المفردات بعضها إلى بعض ثم الجملة تتلو الجملة التي تليها كي يعبر السياق عن الواقع اليومي وعن مجالات التفكير لكل فرد في المجتمع.

ويؤكد العالم اللغوي سابير:

«إنه يمكن تعلم التفكير المنطقي باكتساب عدد معين من الحيل المنطقية، نتجنب بها المغالطات، بل نحن بحاجة إلى التفكير المنطقي المستمر المثمر الذي يقوم على أساس وعلى أصول الاستقلال والابتكار»[1].

ويعتبر سابير من علماء اللغة الألمان المشهورين:

«يرى أن اللغة وسيلة لتثبيت الأفكار وتخريجها عند الفرد لتنقلها بين أفراد المجتمع، فهي فوق ذلك وسيلة لنمو الحياة الفكرية، ثم أن التكلم ظاهرة لغوية تقابل وضعية خاصة يلازمها الإنسان طيلة حياته، ويعطي سابير قيمة لحالة السكون عند الفرد والذي يسمونه التفكير الصامت. فالسكون له قيمة تعبيرية تماثل القيمة اللغوية الجهورية وهو سلوك تعبيري إذ أن اللغة لا بد لها من قيمة تعبيرية»[2].

وقد عرف العرب هذه الظاهرة في العصر الجاهلي فقد قال عنها أكثم

---

(١) اللغة والفكر ـ عبد العزيز القوصي ص ٦١.
(٢) خطبة أكثم بن صيفي إمام كسرى ـ العقد الفريد ـ جـ٣ ص ٢٦٣.

بن صيفي: «الصمت حكم وقليل فاعله»[1].

فاللغة حكم وتعبير، وعلى الإنسان أن يحسن الصمت ويحسن التعبير فكلاهما لغة وذات فعالية، وفي جميع الأوضاع يمكن أن يدرس التفكير ويلاحظه، لأن التفكير من أي نوع يجب أن يكون تفكيراً منظماً يتجه نحو غرض معين، ويهدف إلى هدف معين، أما لصالح فرد أو لصالح جماعة، فالمعول عليه في اللغات، قدرة اللغات ذاتها ثم قدرة أهـل تلك اللغة وقدرتها على التعبير والتصوير.

جـ ـ مشكلة التفكيـــر :

هذا وتتداخل مشاكل اللغة بكل مقوماتها مع الفكر تداخلاً يصعب على المرء أن يحدد مجال التأثير الواقع من كليهما على الآخر، حيث أن الصلة وثيقة يصعب علينا الفصل بين الفكر واللغة بفاصل، إلا أن الحديث عن كليهما شيء مهم يخص طبيعة العلاقة القائمة بين الصوت والمنطق.

ومثل هذه القضايا ما زالت بحاجة ماســة للتوضيح والتقريب، فاللغة مشكلــة والفكر قضية، والعلاقة بينهما جامعـة لكل من خصـائص اللغة والفكر.

فالدماغ يضمن تلاؤم الفكر مع الظروف في كل لحظة من حياة الإنسان ويضمن اتصال الفكر بالواقع في غير انقطاع بواسطة اللغة وبواسطة الحواس الخمس فيعبر الإنسان عن ذلك باللغة.

يقول الدكتور سامي الدروبي حول هذه القضية:

---

(١) سابير كاتب أمريكي وعالم لغوي شهير. انظر: اضواء على الدراسات اللغوية ص ٢٢١ ـ الدكتور نايف خرمـــا.

«وما الفكر الذي يحدثنا عنه الفلاسفة والمفكرون إلا صورة صناعية للفكر الفوه يضم عدداً من الصور والمعاني، وهيهات أن يؤلف الفكر من صور ومعان، لأن الحركة لا تخلق أوضاعاً فحسب بل تبعث بالحاضر ثم بالتعبير لتقف خلف المعاني فترتد بها، ثم أن المعنى وقفة للفكر ينشأ حين يبدو للفكر أن يتوقف مرة أو يرتد إلى ذاته بدلاً من أن يستمر في طريقه»[1].

فاللغة والفكر مشكلة كما أن طبيعة تداخل الصوت مشكلة أخرى وكل من هذه القضايا بحاجة إلى المزيد من الدراسة والبحث.

فالعلاقة بين الفكر واللغة هي إذن علاقة معقدة ومرهقة، إن الدماغ عضو التفكير والتعبير عن الفكر بإشارات، فعلى الدماغ أن يوفر للفكر حياة منسجمة انسجاماً موضوعياً، بحيث يجلي كثيراً من القضايا الفكرية ويبعد الغموض.

«فالنشاط الدماغي هو النشاط النفسي للحركات وحياة الفكر تصفو على حياة الدماغ لأن حياة الفكر نطقة اتصال الفكر بالمادة. إن حياة الفكر هي التمركز حول الفعل الذي ينبغي تحقيقه، فهي إذن الاتصال بالأشياء عن طريق الدماغ»[2].

إذن قضايا الفكر والتفكير وصلة ذلك باللغة من المشاكل التي ما زالت تفرض نفسها على كل باحث في مجال الفلسفة واللغة والمنطق.

د ـ قوة الترابط بين اللغة والفكر:

إن كلام الإنسان عبارة عن سلاسل كلامية متلاحقة وأشرطة كلامية

---

(١) الدكتور سامي الدروبي ـ عن هنري برجسون ـ الطاقة الروحية ص ٤٤.
(٢) هنري جس بيرسن ص ٥٣ ـ نفس المصدر.

متعاقبة وحركات وتعابير مترابطة كترابط الحلقات وتلاحق الصور المتحركة وفي دراستنا لهذه السلاسل نكشف عن عادات لفظية متأصلة في النفس، وهذه الدراسة تجعلنا نستطيع التنبه على وجه التحديد، افتراض وجود علاقة ترابطية بين اللغة والفكر والألفاظ ذاتها، وبين المعاني مع الألفاظ تارة أخرى، كأن تكون هناك قوة عاقلة منظمة هادفة جاذبة أو نابذة بين الألفاظ، ذلك ما أكدته الدراسات البلاغية عند العرب من أن هناك قوة ترابط بين الكلمات داخل السياق وهي علاقات لا يمكن حصرها على وجه الدقة إنما أشار إليها السلف في بحوثهم المستفيضة.

ويؤيد هذه الفكرة عبد العزيز القوصي في كتابه الفكر واللغة :

«إن الشيء الذي ينبغي ألا ننساه هو أن محاولة حصر العلاقات الرابطة بين المفردات ستظل مجرد محاولة واهتمام، وهي علاقات لا يمكن حصرها على وجه الدقة»[1].

وما من شك أن هناك قوة تجاذب مغناطيسية بين الكلمات أي أن هناك علاقات بين الكلمات، تتفاوت قوة وضعفاً، حسب نوعية السياق ومكانة المعاني في النفس وحسب المقام، وثقافة المتكلم والسامع والمخاطب ومن هنا يتساءل الكثيرون عن القرائن المتوفرة في ذاتية الإنسان ليكشف عن وجود هذه القوة وتلعب العادات اللفظية دورها بل وفعلها في الإدراك في محاولة فهم الكلام المكتوب والمسموع.

يقول عباس محمود العقاد:

«ولا تظهر دقة اللغة في منطقها الخاص من شيء في قواعدها، كما تظهر في السياق في مواضع التسوية بين التذكير والتأنيث مثل: رجل راوية

---

(١) عبد العزيز القوصي ـ الفكر واللغة ـ ص ٢٠٠.

وامرأة راوية، ومن أدق الفوارق العقلية الملحوظة في مسألة الجنس، أن اللغة العربية لا تفرق بين الدلالات الجنسية بتقسيمها إلى مذكر ومؤنث أو نحايد، ولكنها تفرق بينها بتقسيمها إلى ما يدل على العاقل وما يدل على غير العاقل، وهذا التقسيم العقلي المنطقي الصحيح، مستقر في تكوين اللغة، لأنها لغة متطورة بالاستعمال، إلى ما يناسب الكلام والتفكير ومثال ذلك الفرق بين ما ومن في اللغة العربية هو فرق بين عاقل وغير عاقل»[٢].

وقد أشار إلى مثل هذه القضايا كثير من السلف لتصوير اهتمامهم المتزايد لمعرفة قوة الترابط بين التعبير والمنطق، وفي طليعة هؤلاء، قول العتابي:

«الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا تقدمت منها مؤخراً، أو أخرت منها مقدماً أفسدت الصورة وغيرت المعنى كما لو حول رأس إلى موضع يد أو يد إلى موضع رجل، .ولتحولت الخلقة وتغيرت الحلية، وحسن الرصف، أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والحذف والزيادة، إلا حذفاً لا يفسد الكلام، ولا يعمي المعنى، وتضم كل لفظة منها إلى شكلها وتضاف إلى لفظها»[٢].

يظهر للمطلع أن السلف قد أدركوا على نحو جيد، قوة الترابط بين اللفظ والمعنى، وأدركوا قيمة المعنى في التعبير، ومكانة الألفاظ حينما تنضم إلى بعضها، وتنظم في سلك كحبات اللآلىء، فالألفاظ أجساد والمعاني أرواح لها فالمعاني في السياق عبارة عن أرواح داخل النص أو داخل السياق، ولكي تأتي الصورة حسنة يجب أن ينظم الكلام حسب

---

(١) عباس محمود العقاد ـ اشتات مجتمعات اللغة ص ١٠٢.
(٢) كتاب الصناعتين ص ١٠٧.

المعاني التي رصدت من قبل المتكلم أو الكاتب، وعند ذلك كل حذف أو تقديم أو تأخير سيفسد المعنى المقصود، وبالتالي يضطرب النص بمعانيه وألفاظه.

ق ـ تأثيــر الفكــر على اللغــة:

نرى التفكير لا يتفتح إلا بفضل اللغة، ذلك أن اللغة أداة للفكر ووسيلة للتعبير وكل منهما يكمل الآخر، وعلى هذا النحو ينبغي أن تكون جميع العلوم روافد تصب في بحر اللغة، حيث أن حقائق اللغة، ستؤدي إلى الكشف عن كثير من الحقائق الإنسانيــة.

«فالسلوك اللغوي يلقي روافد وموارد عديدة في طريقة قادمة من منطقة الشعور عندما تتفتح أنانية الإنسانية وفعاليته ونشاطه، ثم يلقي إرشـادات وتوجيهات من منطقة الشعور، وهذه اللغة الداخلية في صلة الوصل بين الشعور واللاشعور، وهي الإرادة التي تحمل إلينا إشارات أو توجيهات مما يسميه البعض بالوجدان»[1].

من هنا ندرك الوظيفة الأساسية للكلام، وهي الاتصال، واتصال المتكلم بغيره اتصالاً يتمكن فيه الإنسان الحصول على بعض ما يريد، وطـريق الاتصال بالكلام يتحقق فيه وجود الإنسان، متكلم كان أم مخاطباً، وفي معرض الحديث عن العلاقة القائمة بين التفكير واللغة وتحديد ماهية الكلم واعتباره فعلاً لسانياً يصدر عن مادة قائمة في النفس سواء تشكلت عبارة أو لم تتشكل.

يقول الدكتور إبراهيم السامرائي:

---

(١) الدكتور حنفي بن عيسى ص ٢٨٦ ـ محاضرات في علم النفس اللغوي.

«ومن المعلوم في علم إللغة الحديث أن اللغة والفكر مادة واحدة وليس من سبق لأحدهما على الآخر، وأستطيع أن أخلص إلى أزمتنا العربية الحاضرة هي أزمة حضارية وأن على العرب أن يلحقوا بغيرهم من الأمم المتطورة والمتقدمة في هذا الميدان.

والمسألة إذن أن يفهم العرب أن لغتهم عنوان حضارتهم وأن ليس من وسيلة يتمكن الفكر العلمي بها فيساهم في المسيرة الحضارية المعاصرة، وعلى هذا كانت العناية باللغة انتصاراً للفكر»[1].

ويقف علماء اللغة في العصر الحديث حيارى من أجل معرفة قوة الترابط بين الألفاظ داخل السياق، وما زالوا يتساءلون عن قوة هذا الترابط وضعفه فأشار بعضهم إلى هذه القوة من أنها تعود إلى العادة والاكتساب، وأوعزها آخرون إلى وجود قرائن في الكلام تكشف عن هذه القوة، وقال عنها البعض أنها قوة عاقلة منظمة، فأولى التساؤلات التي تقع في مجال ابراز طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة أو إلى المميز النحوي.

ومن أقوال العالم اللغوي الأمريكي سابير:

«إن النظريات السابقة عن العلاقة بين اللغة والفكر لا تخص الفرد وحده وطريقة تفكيره ونظرته إلى العالم. . . . ولكنها تمتد لتشمل حضارات بأكملها»[2].

فقد حاول كثير من المفكرين أن يربطوا بين طبيعة التركيب الصرفي والنحوي للغة ما وبين طريقة تفكير المجتمع الذي يتكلم اللغة، فربطوا بين ذلك التركيب أو تلك البنية، وبين الفلسفة ومع مظاهر التفكير الأخرى التي

---

(١) اللغة والحضارة ـ الدكتور إبراهيم السامرائي ـ ص ٣٧.

(٢) سابير ـ كتابه اللغة والعالم ص ٢٧٥. OWHRD. SHPIR: Language Worle 1921. —

في كل وعاء منها الأشياء التي من نوع واحد»[1].

أضف إلى ذلك العامل الأساسي في نمو اللغة هو اللذة الصادرة عن التعبير واللذة الصادرة عن النجاح في التعبير وأن تكون اللغة أداة طيعة بإرادة الإنسان وفي شتى الأوضاع والحالات.

ويرى بعض رجال الفكر في عالمنا المعاصر أن مشكلة التفكير يمكن تناولها من زوايا أخرى ويعتبرون النشاط الفكري الحاصل نتيجة تفاعل واستجابات عديدة، يتضح هذا عندما يحل الإنسان مشكلة من المشاكل، لذلك كان في رأيهم أن العمل هو الباعث على التفكير.

فالوعاء اللغوي عند العرب هو ميدان البحث لشتى ميادين الفكر وذلك عندما بلغ العرب شوطاً بعيداً في ميدان الحضارة، اهتموا بالعلاقة التي تربط بين اللفظ والمعنى، فقد اقترنت دراساتهم اللغوية بالأصوات كلغة ومعان وهي قضايا ارتبطت بقضايا الاعجاز، ثم امتدت هذه الدراسة نحو الشعر والنثر. . .

وما زالت الأبحاث مهتمة بالبحث عن ذات العلاقة وعن طبيعتها وهي حجر الزاوية في جميع الدراسات الدلالية حتى يومنا هذا.

يقول العالم اللغوي استيفان أولمان عن قضية العلاقة بين الفكر واللغة:

«إن نواة دراسة علم اللغة هي العلاقة ذات القطبين بين وجهيها المتداخلين»[2].

وهذا يقابل اللفظ ومدلوله عند العرب.

---

(١) اللغة والفكر ـ الدكتور عبد العزيز القوصي ص ٨.
(٢) اللغة بين العقل والمغامرة ـ الدكتور مصطفى مندور ص ٥٥.

ويشير الدكتور سامي الدروبي إلى مثل هذه العلاقة بقوله عن هنري جس برسون:

«إن حصر العلاقات الرابطة بين المفردات هي التي تكون العلاقة بين اللغة والفكر، فهي علاقة ذات قطبين ذات وجهين، وجه خاص بالمعاني ووجه آخر خاص بالمفردات»(١).

أما قضايا اللغة فموضوعها مقصور على ما يدور في الذهن، وعلى هذا فالتعبير اللغوي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالوعي التام، وبالتفكير أيضاً.

ويبلور ابن خلدون هذه القضية بمبدأ اجتماع عنصر الملكة والصناعة في مفهوم اللغة فيتخذ منها محوراً مركزياً ينسب إليه الاستعداد بالملكة والرياضة والصنعة، فيصبح الكلام مهارة مكتسبة بالاستعداد وبالمران في نفس الوقت.

يقول ابن خلدون:

«اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهه بالصناعات، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها، وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التركيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة، للتعبير عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من افادة مقصودة للسامع، وهذا هو معنى البلاغة، والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولاً، وتعود من اللذة صفة، ثم تتكرر فتكون حالاً»(٢).

---

(١) الدكتور سامي الدروبي عن هنري جس بيرسون ص ١٢٧.
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٧١.

ويرى العالم اللغوي فاندريس في كتابه اللغة:

«أنهما الكلام والإشارة مرتبطان ارتباطاً وثيقاً في بادىء الأمر بالفكر ولكن اللغة السمعية تنمو وتتطور بفضل تفوقها من الناحية العلمية وأن تطور اللغة هو انعكاس لتطور المجتمعات»[١].

فالكلام عمليات عقلية متتابعة، وهذه العمليات تستلزم عند أرسطو مبدأ العالمية في المعالجة، وهو ما تستخدم به اللغة أداة للصلاة بين الناس.

ويشير الدكتور محمد غنيمي هلال إلى هذه الآراء:

«وصلة الكلمات اللغوية بالكلام النفسي من حيث هي رموز لغوية كصلة الكلمات المكتوبة بالكلمات المنطوقة رموز لحالات النفس، والكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنطوقة، والكتابة ليست واحدة عند كل الناس، شأنها في ذلك شأن الكلمات المنطوقة، وبذلك كانت اللغة عند أرسطو رمزاً للفكر، فالنطق والفكر عند أرسطو متلازمان»[٢].

إن مشكلة الفكر واللغة كانت وما زالت باعثاً علمياً لعديد من المفكرين نحو البحث والدراسة عن أهداف علمية عديدة أهمها الوصول إلى صحة طبيعة العلاقة القائمة بين الفكر واللغة، ويلي ذلك سعى الكثيرين من المفكرين اللغويين نحو معرفة أسرار تحرك الفكر عندما يمر التفكير من البنية العميقة للغة إلى البنية السطحية للتعبير الكتابي والشهفي والتعبير الصامت.

فالفكر يؤثر في اللغة، واللغة تؤثر فيه وكلاهما يحرك إحداهما الآخر، وخاصة أن المعنى كما ذكرت سابقاً، وقفة للفكر ينشأ حين يبدو للفكر أن

---

(١) فاندريس ـ اللغة ـ ص ٣.
(٢) النقد الأدبي ـ د محمد غنيمي هلال ص ٣٤.

يتوقف فترة أو يرتد إلى ذاته، بتحرك الفكر تنشأ العلاقات المتبادلة بين الفكر واللغة، ليبلور أحدهما الآخر فائدة للفرد والجماعة.

فالفكر واللغة ميدان أبحاث واسع وحقل خصب لميدان الأبحاث اللغوية والفلسفية والاجتماعية والمنطقية، وبحثنا اللغوي هذا جزء من هذا الحقل.

** .. ** .. **

الفصل الثاني

أ ـ غموض العلاقة في فكر المحدثين:

كانت مشكلة اللغة ومشكلة التفكير قائمة عند رجال الفكر المواضي وها هي من جديد تفرض وجودها على رجال الفكر قاطبة، من علماء نفس واجتماع ومنطق ونحو وأدب ولغة، لتمتد إلى ميادين فكرية أخرى فتشمل قضايا هامة مثل صحة طبيعة العلاقة القائمة بين الصوت والمنطق في عرف المحدثين والقدماء على حد سواء.

تساؤلات كثيرة هنا وهناك، داخل أبحاث المفكرين، منها ما يدور حول طبيعة اللغة وطبيعة التفكير، ومنها ما يدور حول ما انطوى عليه الإنسان وستستمر مثل هذه التساؤلات قائمة إلى أن يكشف الباحثون اللغويون عن صحة طبيعة العلاقة الرابطة بين الألفاظ والمعاني أو التعبير والمنطق، وتتقدم تلك التساؤلات ما هي طبيعة اللغة؟ ومن أي شيء تتكون؟ وثم ما هي علاقتها بالفكر؟ وهل يمكن أن يوجد أحدها بدون وجود الآخر؟.

وبعد ما هي علاقة اللغة بالإنسان؟ ومفهوم ما انطوى عليه الإنسان، ثم كيف يجري التفكير الصامت؟.

أضف إلى ذلك الفروق الظاهرية بين اللغات، هل هي فروق أساسية

أم هي فروق نسبية؟.

إن فوائد هذه الدراسات المعاصرة كثيرة ومتعددة، وفوائدها تعادل أهمية اللغة ذاتها، والتي تكون ميدان مادة البحث، وفائدة هذه الدراسات تتجدد بقدر ما تستطيع أن تضيفه إلى الإنسانية من منافع حسب العصور.

هذا ويرى علماء علم اللغة العام: أن تعريف اللغة ذاتها بأنها وسيلة للإتصال بين البشرية جمعاء، هو تعريف غير دقيق إلى حد بعيد، فالوظيفة اللغوية لم تنحصر فقط بالإتصال اللغوي، وأن تعريف اللغة من خلال وظيفة واحدة من وظائف اللغة فهو تعريف غير كاف أيضاً، وعلى هذا الأساس بقي الموضوع فارضاً نفسه على تفكير علماء اللغة وعلى أبحاثهم المتجددة.

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لهذه المشكلة من حيث طبيعة هذه القدرة فما هو الجديد عن طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة التي لم تتضح بعد في التفكير اللغوي الحديث، ولم يتمكنوا بعد من تحديد مقوماتها وعناصرها وزمانها ومكانها، وبالرغم مما انطوت عليه تلك العلاقة من صعوبات، فإن ذلك لن يمنعنا من المضي نحو تلك القضايا الهامة ومن الإستمرار بالبحث مع تجديد للهمم.

هذا ومن طبيعة التجديدات الدراسية المعاصرة، أن علم اللغة اليوم امتد إلى العلوم الأخرى، بل ولم تعد دراسة اللغة محصورة على علم اللغة، بل امتد إلى العلماء الآخرين في مجال الفلسفة والمنطق وإلى العلوم الإنسانية الأخرى والتي تستخدم اللغة في أبحاثها.

يقول الدكتور نايف خرما:

«إن اللغة في ظاهرها أصوات، وهذه الأصوات تعبر عن معان، ويبدو هذا أمر طبيعي يعرفه الجميع، ولكن ما هو بحاجة إلى دراسة وتحليل هو

تلك العلاقة التي تقوم بين هذين العنصرين، لأن جوهر اللغة في الواقع هو هذه العلاقة»[1].

إن هذه القضايا اللغوية الهامة هي الباعث على الدراسات والجد وشحذ الهمم للوصول إلى أسرار اللغة.

يؤكد علماء اللغة عند الغرب من أن اللغة وسيلة للتعبير عن المشاهد والأحاسيس الإنسانية، وهذا يعني افتراضهم وجود تلك المشاعر والأحاسيس أولاً ثم التعبير ثانياً بواسطة اللغة، ومن جراء ذلك تساءلوا عن اسبقية الفكر للغة أو اسبقية اللغة للفكر، أم كلاهما يسير جنباً إلى جنب مع قرينته الأخرى؟ ثم وهل هناك فكر مجرد لا يعتمد على اللغة؟ «أم أن اللغة والفكر شيء واحد، أو أن هي التي تحدد مسار الفكر؟ وترسم له حدود. ولم يجدوا لهذه الأسئلة جواباً قاطعاً حتى يومنا هذا»[2].

وكل ما فعلوه حتى الآن لا يعتبر إلا مظهراً مفيداً للتفكير الجدي وإشارات لإستجابات ملحة، حيث أنهم يتقيدون بمجالات فكرية متعددة، ويعتمدون كل ما هو قديم على أنه صحيح.

يقول الدكتور عبد المعطي محمد:

«إن التصورات والقضايا والإستدلالات تمثل أنواعاً مختلفة من عمل الفكر وللمنطق الصوري أقسام، أحدها إدراك الأشياء المفردة لمعرفة التصورات، ثم إدراك العلاقات الفكرية من تلك الحدود، أو التصورات التي أتت إلى ذهننا.

وتتركب استدلالاتنا من القضايا الفكرية التي توصلنا إليها والتي

---

(١) الدكتور نايف خرما ـ أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ص ٧٧.
(٢) الدكتور نايف خرما ـ أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ص ٢١٦ ـ ٢١٨.

اعتمدت على إدراك الأشياء المفردة لمعرفة التصورات»[1].

لقد اعتبر أصحاب المدرسة السلوكية أمثال جون واتسون التفكير نوعاً من الكلام الداخلي المنطوق على مستوى الحنجرة فقط، كما أن سكينر هو من رواد هذه المدرسة في علم النفس اللغوي، اعتبر التفكير نـوعاً من السلوك البشري، كالسلوك اللغوي تماماً.

ومن الواضح أن هناك فكراً بدون لغة صوتية بدليل توفر الإنتاج الفني من رسم ونحت وتصوير ورقص وموسيقى، دون حاجة إلى اللغة المنطوقـة.

فإن هذه الفنون ناطقة يفهمها الإنسان دون حاجة إلى لغات، لأنها صيغت له، كما أن بعض العلوم العقلية المعاصرة كعلم الرياضيات والمنطق الرمزي تقوم على رموز، لا علاقة لها باللغة التي نستعملها، وحتى لو أردنا الحديث عنها، فحاجتنا إلى لغة شيء ضروري وهام جداً.

يقول الدكتور ابراهيم سلامة:

«إن الفكرة لا تظهر إلا إذا تجسدت في كلمة، وأن الفكرة التامة تجد كلماتها وليست هناك تناقض بين الرأيين، وإنما هناك نوع من التـلازم، فالمعنى يستلزم اللفظ واللفظ الدال على معناه لا يفهم وحده فهماً تجريداً، وإنما يستدعي غيره، وسواء أجلب اللفظ النمعنى أو جلب المعنى اللفظ، فالتلازم مطلب في كل تعبير منطقي»[2].

وسواء سبقت اللغة الفكر أم كان الفكر سابقاً أم العاطفة لكليهما، فإن المهم في الموضوع أن نكشف عن سبب هذا التلازم، وأننا لا يمكن بحال من الأحوال أن نغمض أعيننا عن وجود علاقة طبيعية بينهما، علاقة عضوية

---

(١) المنطق ومناهج البحث ـ د. عبد المعطي ص ١٦٢.
(٢) د. ابراهيم سلامة ـ بلاغة ارسطو ص ٣٨٠.

متفرعة ومغلغلة في ثنايا الحروف والكلمات والجمل، وحتى في السياق وأن قول الدكتور ابراهيم سلامة وغيره من العلماء اللغويين الفرنسيين أمثال آلان وجوبير، آرائه من أن الكلمة ثمرة للفكر، وأن الفكرة الناضجة تصبح بكلماتها، أو تجد كلماتها، أنها ثمرات فكرية هي نتائج جيدة، إنما لم تكشف عن طبيعة تلك العلاقة مكاناً وزماناً، وإتجاهاً أو قوة أو ضعفاً.

ومن الواضح أن اللغة تؤثر على طريقة التفكير وخاصة أن الأغلبية العظمى من البشرية لا تستطيع التفكير بمعنى التأمل، أبعد مما تسمح به قدرتهم اللغوية ويؤيد هذه الفكرة الدكتور نايف خرما بقوله:

«إلا أن العلاقة بينهما ليست واضحة، كأن يتكون الفكر أولاً، ثم تتبعه اللغة المعبرة عنها وبالعكس، ويبدو من الأسلم القول بأن اللغة والفكر يعتمد كل منهما على الآخر إلى حد بعيد أو كبير، فنحن لا نستطيع التفكير أكبر أو أبعد من قدرتنا اللغوية، كما أننا لا نستطيع أن ننطق بما لا نستطيع التفكير فيه»[1].

ويمكن إدراك هذا الجانب، أن الإنسان لا يستطيع أن يفكر تفكيرين في آن واحد وفي حدود الواقع غير ممكن للمرء أن يكتب رسالة ويستمع إلى نشرة اخبارية ويرى التلفزة في آن واحد، ولو لفترة قصيرة، لأن التفكير يكون مجزوءاً والعمل الناتج مجزوء مشوه أيضاً.

إذ أن الصلة بين الفكر واللغة بينهما علاقة عضوية حتمية ملتحمة، وبذلك لا يمكن أن نفكر بدون لغة، لأن العلاقة تكون مجزوءة متقطعة الأوصال.

---

(١) الدكتور نايف خرما ـ أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ص ٢١٨.
(٢) الان وجوبير ونوديته ـ نظرية النظم ـ وليد مراد ـ الدراسات المعمقة ص ١٢٢ ـ ١٣٠.

إن المجتمع الذي لا تتوافر في لغته مصطلحات محدودة خاصة بالعمليات المنطقية، مجتمع لا يستطيع أن يقوم بالتفكير المنطقي، أو يقوى على الإرتقاء إلى التفكير العلمي المعاصر.

وكما هو الحال بالنسبة لعلاقة اللغة بتفكير الفرد والتي قلنا أنها علاقة متبادلة أي أن اللغة والفكر يؤثر كل منهما بالآخر بشكل من الأشكال.

فإني أحس بعلاقة عضوية قوية وحتمية ملتحمة بين الفكر واللغة وهذه الصلة هي العلاقة العضوية الشبيهة بالعواطف الصادقة منها الساخن والجياش والبركاني والبارد والفاتر والهادىء والساكن.

إن اللغة ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار بل هي ذاتها التي تشكل تلك الأفكار، وأن العلاقة بين اللغة والحضارة الإجتماعية لمجتمع من المجتمعات تبدو شبيهة بذلك التمسك والإرتباط المكون لحضارة شعب من شعوب الأرض.

يقول الدكتور محمد غنيمي هلال:

«واللغة والفكر كلاهما مستقل عن حقائق الأشياء، فإذا كانت الكلمة حركة عضوية نرمز إلى شيء حقيقي فالكلام المشتمل في الجمل على الفكَر من ذلك إذ هو عملية عقلية متميزة عن طبيعة الأشياء الحقيقية، فالكلمة ترمز للشيء دون أن نثبت لهُ صفة تنفيها، والجمل وحدها هي التي يمكن أن يوجه إليها التصديق والتكذيب واستقلالها عن حقيقة الأشياء، أو تتمثل في مأساة اللغة»[1].

ونجد صدى لهذه الأفكار عند الأديب الناقد ميخائيل نعيمة:

«وأن الأفكار والعواطف كيانان مستقلان، ليس للغة بينهما دخل، أما

---

(١) الدكتور محمد غنيمي هلال ـ النقد العربي الحديث ص ٣٤.

اللغة مهما اتسع نطاقها وامتد نفوذها فلا تتعدى قسماً صغيراً من البشرية بل ومهما عز مقامها، لا تتجاوز كونها لباساً للفكر، وأكثر ما يرتحي منها أن تكون لباساً جميلاً... وأما الفكر: الفكر كائن قبل اللغة، والعاطفة قبل الفكر، فهما الجوهر وهي القشور... وما تقرؤه بين السطور هو أفصح وأبلغ، وأعمق وأوسع مما تقرؤه في السطور»[1]

يشير ميخائيل نعيمة صراحة في مقاله السابق إلى قصور اللغة من أنه لا يمكن لها أن تساوي الفكر الجليل إذا ضغطت تحط من ذاك الفكر نوعاً ولكنها لا تذهب بقوته، ولا يمكن لها التمكن من عالم الفكر بالمطلق، والعاطفة الحرة.

«ولم تعرف البشرية بعد في كل تاريخها من تيسر له أن يسكب كل فكره أو يجسم كل عاطفته في كلام أو خطوط أو ألوان أو ألحان، لذلك فهي أبداً تقرأ بين السطور، ويستحيل على بشري كائناً من كان شاعراً أم كاتباً أو رساماً أم نحاتاً، مهندساً أم ملحناً، تأدية فكر أو عاطفة بكل ما فيها من تجعد وتلون»[2].

ويلتقي الدكتور نايف خرما مع هذه الأفكار مشيراً إلى أفكار اللغويين المحدثين عند الغربيين أمثال سابير وتلاميذه، أمثال بنيامين لي رووف:

«فقد دلت التجارب والأبحاث التي مازالت تجري على هذه العلاقة بأن اللغة لا تسيطر سيطرة تامة أو كلية على أي مظهر من مظاهر الحضارة»[3].

وقد كان سابير أحد رواد علم اللغة في القرن الحالي من أكبر أنصار هذه النظرة القائلة، بأن اللغة هي التي تجعل مجتمعاً ما يتصرف ويفكر بالطريقة التي يتصرف ويفكر فيها، وأن ذلك المجتمع لا يستطيع رؤية العالم إلا من خلال لغته.

---

(1) ميخائيل نعيمة ـ الغربال ـ ص ٤١٤.
(2) د. نايف خرما ـ أضواء على الدراسات ص ٢٢٠.
(3) ميخائيل نعيمة ـ الغربال ـ ص ٤٤٥.

إن تلك اللغة بمفرداتها وتركيب جملها محدودة بذاتها ومحدودة النظر لنظرة المجتمع الذي يتكلمها.

يقول بنيامين لي رووف الامريكي أحد تلاميذ سابير:

«إن البنية اللغوية أو التركيب اللغوي هو الذي يحدد الفكر ويسيطر عليه سيطرة كاملة، وقد أعطى أمثلة كثيرة عنها، بنية الأفعال بشكل خاص من لغة الهنود الحمر وكذلك بنية الفعل باللغة الإنجليزية، ولعل أوضح مثال أعطاه (رووف) تأييداً لأثر اللغة على الفكر، هو ما أتى به من واقع عمله كمسؤول أثناء بحثه عن أسباب الحرائق.

فقد لاحظ أن العمال كانوا يتعاملون مع براميل النفط الخاوية بدون مبالاة بينما كانوا حريصين في تعاملهم مع البراميل المليئة بالنفط»[1].

كان العمال يتجاهلون الواقع المؤلم، هو أن بعض البراميل كانت مليئة بالغازات الممددة وبالأبخرة الطيارة القابلة للإشتعال.

وفي رأي روورف في هذه الحالة أن المسؤول عن هذه الكارثة وهذه الإنفجارات يقع على كلمة خالية أو خاوية، أي على اللغة، فاللغة هي التي أثرت في تفكير العمال فجعلتهم يتصرفون بالشكل السابق الذي أوقعهم في كارثة، من جراء التسليم بنية الكلمة، هذا وفي مجال الحديث عن العلاقة بين الفكر واللغة عند أهل الفلسفة اللغوية أمثال (فرويد) الذي جعل كلمة نقطة ممتازة للبدء حينما فكر في الدلالات النفسية للإضطرابات في أي وظيفة من الوظائف الهامة عند الإنسان، وأهمها وظيفة اللغة، مع مساهمة التحليل النفسي للإتجاه الفكري المعاصر، والمتمثل في وضع العلاقة بين اللغة والشعور في بؤرة الإنتباه فيقول:

---

(١) سابير عالم لغوي امريكي ص ٢٧٥.

«إن النشاط العقلي يصير نشاطاً عقلياً شعورياً إلى حد أن يظهر في شكل صورة نطقية، ويدلنا على الطريقة التي يحتمل أن العقل الباطني قد أصبح بها عقلاً شعورياً في أثناء التطور الإنساني»[1].

ويذهب واطسون إلى أبعد مما ذهبوا إليه، ويدلي برأيه مع تأكيد أشد، يدفع الكثيرين إلى إعادة التفكير في وظائف اللغة والفكر، بل ويدفع الكثيرين إلى الإعتراف الكامل بأن التفكير نشاط رمزي.

«إن التفكير بالصورة ليس إلا شكلاً غير كامل من أشكال الشعور، وهو كذلك يقرب في بعض الأحيان كثيرا من العمليات اللاشعورية»[2].

ثم أن التفكير بالصور دون شك أقدم من التفكير بالكلمات.

إن وظيفة اللغة في عرفهم هي تمكين الجماعة من جعل الإنتباه أكثر شمولاً من أن يرمز إلى عقلها الجماعي، فتعطيه قوة يصير بها عقلاً جماعياً وهنا تلعب اللغة دوراً هادفاً وهاماً في السلوك الجماعي وظيفتها إدراكية لتقويم السلوك وتنظيمه، ولتؤدي دور التعبير عن الإحساس والرغبة.

ويرى الدكتور محمد غنيمي هلال في قضية مأساة اللغة:

«على أن مأساة اللغة تتجلى كذلك في أن دلالة اللغة على الفكر قد تكون ظاهرية لا حقيقية.

واللغة في كل ميادينها رموز لأفكار، والكلام جسم مادته الكلمات وأجزاؤه تختلف على حسب مادة موضوعة فأجزاء الخطابة غير أجزاء المسرحية وغير المنطق والعلم»[3].

---

(١) أضواء على الدراسات اللغوية ص ٢١٧.
(٢) ترجمة الدكتور تمام حسان ـ اللغة والمجتمع ص ١٢٥.
(٣) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ـ د نايف خرما ص ٢٢١.

ومهما اختلفت طرق التعبير ووسائله في الشعور والخطابة والمنطق من التزام التعبيرات الحقيقية المساوية للمعنى، فإن هناك حاجتين تعدان من فضائل الأسلوب في استعمالات اللغة وهي الوضوح والدقة.

لقد اجريت تجارب ودراسات عديدة في العصر الحديث حول اللغة وأسباب قصورها أو متانتها وقوتها في التعبير عن الحقائق المادية والوجدانية، ومن هذه التجارب ما ينسب إلى اللغة وبعضها ينقص من سيطرة اللغة على الحضارة وعلى طريقة التفكير في المجتمع الواحد وهي دراسات ممتعة حقاً إلا أن مجال البحث لا يسمح بذلك.

والواقع العلمي الثابت في هذا المجال هو أن لغة مجتمع ما في وضعها الحالي تساعد الفرد والمجتمع على التفكير والنظر إلى العالم بطريقة ما ولا تساعد ولكنها لا تمنع من التفكير والتصرف بطريقة أو بأخرى.

والذي أراه في هذه القضية أن القصور في اللغة ينسب إلى ضعف العلاقة القائمة بين الفكر واللغة، ومن هذا القصور ما ينسب إلى السياق، ومنه ما يوعز إلى تقصير الإنسان ذاته، وعجزه عن إخضاع اللغة لتلبي كل طاقاته الفكرية، فاللغة في طاقة الإنسان وسيلة مكتسبة عدتها الألفاظ والثقافة، ورباطها الحكمة والفكر النير ثم أن طبيعة العلاقة القائمة بين الفكر واللغة هي التي تمنح اللغة حياة وطاقة لكي تكون مرآة لحياتنا وفي هذه المجالات تتفاوت اللغات وتتباين الأساليب.

ب ـ الإستجابة الحسية للغة:

إن للغة مكاناً فريداً بين أنواع الإتصال الرمزي، من حيث هي وسيلة للإتصال، والتبليغ يصبح بها العقل الجماعي عقلاً جماعياً شعورياً. وهنا نجد أن العادات اللفظية لها دور كبير في تسهيل عملية التعبير والقراءة

والكتابة، وخاصة إذا كانت اللغة تركيبية كاللغة العربية، حيث يقوم فهم المعنى على أواخر الكلم وعلى حركات الإعراب، فتمر القراءة بمراحل الحروف ثم الكلمات ثم الفهم ثم إدراك العلاقات القائمة بينها، ثم التلفظ بها، ثم فهم المعنى، ثم الإدراك الحسي والتعلم والتذكر والتفكير.

إلا أن الفصاحة نتيجة حاصلة عند بعض الأفراد للمران والتعود اللفظي والحفظ والتمكن في إدراك الحس والتأثير بالآخرين، في مجال فهم الكلام المسموع والمكتوب.

إن الشيء الهام في هذا الجانب هو أن السلوك الآلي في اللغة يكشف إلى حد بعيد دور السلوك النحوي (عادات نحوية ولغوية) تعمل في الخفاء، لكي تجعل سلوكنا اللغوي أقرب إلى الواقع اليومي.

ويعرف ابن جني اللغة في كتابه الخصائص:

«اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[1] وترتبط استجابات الكلام ارتباطاً شريطياً مع الإستجابات الحسية والتي تدعم استجابات الكلام أثناء عملية اللمس، وساعة صدور الإستجابات الحسية بواسطة الشيء نفسه، وبالتالي تتكون علاقة ما بين الإستجابة الحسية التي تنتج بواسطة الشيء وبين استجابات الكلام.

وهكذا فإن معنى اللفظ الذي تكون خلال هذه العملية يؤدي إلى حدوث استجابات معينة لدى الصغير والكبير، وبالتالي يمكن القول أن الإستجابة اللفظية التي تصدر من الطفل مثلاً، ما هي إلا تعبير عن المعنى الذي تكون لديه بالنسبة للفظ ذاته المرتبط بالمعنى.

وعلى هذا الأساس، فإن السلوك الصادر عن الفرد الذي ارتبط بمجتمع

---

(١) ابن جني ـ الخصائص جـ ص ٣١.

لغوي معين ارتباطاً شريطياً مع لفظ ما، يمكن أن يشير إلى الشيء الذي ارتبط به هذا اللفظ وهو سلوك طبيعي.

وأشير هنا إلى أن الفاظ اللغة أربعة أنواع، منها المنطوق والمسموع والمكتوب والمقروء، ويمكن لنا أن نتجاوز هذا التعريف كي نصل إلى لغة الأصم والأبكم والضرير، باعتمادهم حركات ورموز تنوب عن الألفاظ المتعارف عليها كي نعلل لوجود العلاقة بين الفكر واللغة.

يقول الدكتور زكي نجيب محمود:

«إننا لن نتردد في التسليم بالعلاقة القائمة بين الكلمة المنطوقة والكلمة المسموعة، حينما يظن سامع الكلمة المعينة أنه سمع نفس الذي نطق به المتكلم لكنه في ظنه واهم.

لأن الأمر أعقد من ذلك بكثير فهناك عملية طبيعية بحتة هي موجودات الصوت المنبعثة من فم المتكلم منتقلة إلى اذن السامع، ثم هناك عملية فسيولوجية تتم في اذن السامع، وفي أعصابه، ثم هناك حادثتان تحدث في المخ، وهي عملية مختلفة احداها عن الآخر»[1].

لكن الكلام المنطوق والكلام المسموع، قد جعل الناس تعتقد أن الكلام المنطوق هو نفسه الكلام المسموع مع أنهما في الحقيقة قد لا يكونان كذلك مع أنهما حدثان متلازمان بينهما اعتبارات كثيرة، كأن يكون السامع لا يسمع جيداً، أو أنه يأخذ للكلام معنى مخالفاً لما أراده الناطق، وهذا محتمل لوجود اختلاف في المستويات الثقافية مع الفوارق الإجتماعية.

وقد يكون الكلام المنطوق مشوهاً، تنقصه الدقة والوضوح، فتفاوت القيم والمفاهيم ويبقى احتمال واحد، هو أن يكون المتكلم والسامع على

---

(١) الدكتور زكي نجيب محمود ـ الفلسفة بنظرة علمية ص ٣٧.

مستوى واحد من صحة أجهزة النطق والسمع، ثم مع توافق بالمفاهيم والقيم والثقافات عند ذلك يصل الكلام إلى أذن السامع على صورة واحدة وبنفس المرتبة. ويمكن لنا أن نلقي نظرة على هذه القضية، عند أهل المنطق علنا نجد عليلاً آخر يوضح هذه العلاقة بين الفكر واللغة.

نجد الدكتور علي عبد المعطي محمد يدلي برأيه حول قضية طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة وقضية الأسماء والأصوات فيقول:

«وقد أدى تقسيم الأسماء أيضاً إلى كلية وجزئية إلى إيجاد ما تسميه بنسبة الكلي والجزئي، فإذا ما فهمنا الجزئي على أنه وحدة من الوحدات التي تشترك في الإسم الكلي، فإنه ينتج عن هذا أن كلا من الجزئي والكلي نسبيان في الإسم الكلي، فالإنسان جزئي بالنسبة للحيوان، وكلي بالنسبة إلى الأفراد والحيوان جزئي بالنسبة إلى جنس من الأجناس وكلي بالنسبة للحيوانات»[1]

فإذا نظرنا إلى الإسم من ناحية معينة، فإننا نرى الإسم ينقسم من ناحية معناه إلى قسمين، الأول يدل على معنى واحد، والآخر يدل على أكثر من معنى، فالقسم الأول مثلاً يدل على أسماء الأعلام وعواصم البلدان والقسم الآخر هو ما دل على أكثر من معنى ويشترك فيه كثيرون، مثل اسم إنسان.

يقول عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الأعجاز، قولاً يؤيد صحة ما ذهب إليه المحدثون بخصوص معنى المعنى:

«الكلام على ضربين، ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوع اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة

---

(١) المنطق ومناهج البحث ـ د. عبد المعطي محمد ص ٦٦.

ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والإستعارة والتمثيل. وإذا قد عرفت هذه الجملة، فههنا عبارة مختصرة وهي تقول المعنى ومعنى المعنى»[1].

ومهما يكن من أمر الألفاظ وخواصها، فهي لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مفردة، ولا من حيث هي كلمة مفردة. بل تثبت فضيلتها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها مما لا يتعلق بصرح اللفظ.

فمن الكلام ما وضع لأكثر من معنى ومنه ما وضع لمعنى محدد، ومنه ما نقل إلى غيره من المعاني كانتقال الدلالة والمجاز الذي وضع في الأصل للدلالة على ذات الشيء استعمل بطريقة أخرى للدلالة على معنى آخر. . . لذلك وجبت النظرة المتفحصة لطبيعة العلاقة بين الفكر واللغة على اعتبار أن اللغة ظاهرة اجتماعية طبيعية يمكن أن توجه الإنسان للنظرة إلى العالم وللتفكير بطريقة معينة يتشابه فيها اناس آخرون في المجتمع الواحد والذين يتكلمون نفس اللغة، ويلي هذه النظرة، اعتبار طرق تركيب الكلمات والجمل، لأنها تساعد الفرد والمجتمع على التعبير عن الأفكار والأحداث المختلفة من هنا ندرك اهتمام المحدثين بهذه الجوانب، وكيف نالت هذه الدراسات عناية كبيرة. نالت هذه الدراسة عناية الدراسات الفلسفية لصلة اللغة بالعقل والعاطفة فتناولها أصحاب علم النفس اللغوي، لأن هذه الدراسة عنصر من عناصر اللغة، وبقدر هذه الأهمية تناولها اللغوي ورجال الفكر في ميادين متعددة، من بحوث أهل العلم، لتشابك حدودها في بعض النواحي وخاصة أن الألفاظ تتصل إتصالاً وثيقاً بالتفكير.

يقول الدكتور ابراهيم أنيس:

«ومن ثم فإذا كان المعنى هو العلاقة بين المحتوى الفكري واللفظ أو بين اللفظ والمدلول، فالدلالة هي فيما نرى وجهة صرف اللفظ للمعنى

---

(١) عبد القاهر الجرجاني ـ دلائل الأعجاز ـ ص١٦٣.

سواء كان وصفاً محتملاً له. . . . وكذلك كان الأمر في اللغة ادق»[١].

إن قضية الترابط والتلازم في الكلام، لا تكشف عن عادات لفظية فحسب بل كذلك ترشدنا إلى العادات النحوية التي يتقيد بها المتكلم وهي على نفس المستوى عند السامع، فيتضح هذا الجانب أثناء الحديث عن تأثير سياق الجملة وراء الجملة، فإن تغير كلمة بأخرى في جملة من التعبير فإنها تدل المعنى لا محالة، وقد تخل بنظام الجملة وليس في ذلك شك. وبهذا القدر من الشواهد يتضح للمرء وللمطلع أن العلاقة بين الفكر واللغة لم تتضح بعد، ولكل من هؤلاء تصوراته وآراء منهم من اتهم اللغة بالقصور، ومنهم من أوعز هذا النقص إلى الإنسان المعبر بها وآراء أخرى ذهبت بعيداً نحو المزيد من البحث والجهد، كي تكون اللغة ثوباً لغوياً معبراً عن أفكارنا، ومنهم من قسم الألفاظ إلى كلية وجزئية وجعلها وحدات تشترك في صناعة الفكرة.

ثم قسم المعاني إلى أقسام والمعنى الواحد إلى أجزاء فالقسم الأول يدل على معنى والقسم الثاني يدل على أكثر من معنى وكلام وضع لمعنى وكلام وضع لأكثر من معنى، وما هذا التفاوت والتجاوز إلا دليلاً على غموض صحة طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر، ودليل على المزيد من الإهتمام لتجديد البحث العلمي حول دراسات جديدة تلقي بأضوائها حول طبيعة العلاقة بين الألفاظ والمعاني في نص من النصوص.

إن الشيء الهام في هذه الدراسات هو معرفة اتجاهات الأفكار الباحثة عن طبيعة اللغة وسلوك الفكر معاً، ففي تشخيص المفاهيم الفكرية وتوضيح المقاييس العلمية وبلورتها ثم معرفة دور اللغة في إظهار المفاهيم وتصوير الأفكار على حقيقتها، فكل ذلك رجع إلى طبيعة العلاقات القائمة بين المفردات والمعاني وللمستويات اللغوية الصانعة للعبارات اللغوية.

---

(١) الدكتور ابراهيم أنيس ـ دلالة الألفاظ ص ٦.

وتستمر الجهود الفكرية في سعيها لتوضيح طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة، ومن هنا كانت الآراء متفاوتة بالنظرة وبالتقييم وبالقيمة دافعة العمل الفكري نحو بلورة المفاهيم وتجديد المساعي من أجل تحصيل هدف علمي قيم.

جـ ـ تفاوت نظرة العلماء حول طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة:

تفاوتت نظرة العلماء في مجال الفكر اللغوي والفلسفي واختلفت نظراتهم حول طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة، وذلك أثناء بحثهم عن أسرار العلاقة الرابطة بين الصوت والمنطق، أو اللفظ والمعنى، فقد رأى بعضهم بأن العلم بمواقع الألفاظ يكشف عن حقيقة الوجدان، لأن اللفظ يعبر تعبيراً تاماً كاملاً إذا أحسن استعماله ووضع في المواضع التي يجب أن يكون فيها داخل التعبير لتحقيق الدلالة. وبذلك تصبح اللغة في رأيهم واسطة ووسيلة للتعبير والتبليغ، وليست غاية يصار إليهـا.

بينما يرى فريق آخر أن اللغة يجب أن تكون غاية يسعى إليها، ويفهم الدارسون من تلك الأبحاث التي قصدت اللغة كهدف وجعلت من أبحاثها ميداناً فسيحاً لعلم مواقع الألفاظ في التعبير والنص والنفس، يلاحظ أن هذه الأفكار تفيدنا كثيراً في الكشف عن حقيقة الوجدان، لأن اللفظ في رأيهم يعبر عن الوجدان تعبيراً كاملاً، ومن هؤلاء في الغرب العالم اللغوي الفرنسي (دي بونالد)، وفي مثل هذه الأبحاث لا يمكن لنا أن نتجنب أو نتجاوز من وقف موقفاً معتدلاً في التفكير الغربي، وقفوا بين النظرتين السابقتين، ومن العلماء الذين اعتدلوا بين الموقفين، العالم اللغوي جون لوك، وهو من أكابر علماء النفس اللغويين في القرن السابع عشر. فقد لاحظ لوك هذا الحبك المتين بين التعبير والتفكير، ثم اعتبر لوك وجود هذا المتراض من الكلام عائد إلى كون الإنسان يعيش في بيئة اجتماعية معينة

تفرض عليه التخاطب والتفاهم بطريقة معينة وخاصة به وبتلك البيئة وحجة لوك ما يلي:

«إن الكلمة تدل على معنى والمعنى لا يأتي من الشيء المادي فحسب فالحجر لا يعني أكثر من كلمة تدل على الحجر، والتي تعني مفهومها في الفكر»[1].

وهذه الأفكار والمفاهيم أعانت إنسان تلك البيئة على فهم تلك الدلالة فالإنسان عند لوك هو مصدر التفكير فيقول:

«لنقل إذن أن الكلمات رموز لأفكارنا، وإشارات حسية لها، والكلمات لا تعني أشياء بقدر ما تعني أفكار لها»[2].

فالعلاقة ههنا محصورة بين اللغة ومضامين الفكر.

وجدير بنا أن نشير لما جاء به الدكتور ريمون طحان في هذا الخصوص بقوله:

«عالج البعض ماهية اللغة من الناحية الفلسفية وعدم إمكانية التواصل، وكون اللغة بنية فوقية، واهتموا بالعلاقة القائمة بين اللغة والغاية، أو اللغة والفن أو اللغة وما فوق الشعور....

ومزج البعض مباحثه بالمنطق والفلسفة وعلم الكلام»[3].

يشير الدكتور طحان صراحة إلى أصحاب المدرسة التحويلية عندما توصل هؤلاء إلى معرفة أن اللغة تتألف من أصوات تنتظم مجتمعة في وحدات صوتية وفق نسق معين لتصبح كلمات ومن بنى معجمية وصرفية

---

(١) انظر كمال يوسف الحاج ص ٢٤.
(٢) انظر ريمون طحان ـ الألسنية ص : ١٨.
(٣) انظر د ـ ريمون طحان ـ الألسنية ص: ٢٧.

ونحوية وأنظمة جملية، تؤدي المعنى المقصود، ويصبغ كل ذلك الأسلوب بصبغة معينة، وفي دراستنا للشكل الذي تنتظم فيه لغتنا العربية أو بناتها، سوف يظهر لنا الطابع المميز لها والذي يبرز كيانها بين لغات العالم.

أراد ليبتز أحد فلاسفة اللاهوت من أن يجعل اللغة علماً شبيهاً بعلم الفيزياء والكيمياء والرياضيات، وكان همه أن يبتعد عن النظريات العامة ومن أقواله:

«إن اللغات بمثابة كتاب علينا أن نحسن القراءة فيه، ولكي نحسن هذه القراءة ينبغي أن نقرأ أولاً، لنفهم ثانياً»[1].

إن لأهل المنطق اللغوي رأيهم في هذا المجال، أثناء تناولهم أقسام الإدراك للأشياء المفردة، داخل أقسام المنطق الصوري فيقول الدكتور علي عبد المعطي محمد:

«إن أقسام الإدراك للأشياء المفردة هي وسيلتنا لإدراك التصورات وإدراك العلاقات بين كل حدين، بين التصورات التي أتت إلى ذهننا وهي حصول صورة شيء ما في الذهن فقط، فإذا سمعنا اسماً من الأسماء تمثلنا معنى الاسم في الذهن، أما التصديق فهو حكم العقل»[2].

يرى علماء المنطق أن الوحدة اللغوية هي التي تقدم لنا الحكم وتسمى بالقضية، فإن هذه القضية المنطوقة أو المكتوبة تختلف عن الحكم اختلافاً أساسياً، ثم أن التصورات والقضايا والاستعدادات تمثل أنواعاً مختلفة من عمل الفكر.

ومن هنا نلاحظ مدى تفاوت نظرة العلماء والمفكرين في تقديراتهم

---

(١) كمال يوسف الحاج - في فلسفة اللغة - ص ٢٨.

(٢) المنطق اللغوي والبحث العلمي: ص ٥٦ - الدكتور علي عبد المعطي.. محمد.

للقيم العلمية المذكورة، ولكل من هؤلاء تقديراته، فأصحاب الفلسفة لهم تقديراتهم ولأهل المنطق حساباتهم ولرجال اللغة تفحصاتهم وجميع التقديرات تصب في علم اللغة وفي علم اللغة العام.

فقد اقتصر رجال الفلسفة اللغوية في أبحاثهم على قضايا اللفظ، إذ اعتبروا اللفظة الواحدة حقيقة واحدة، وهي بمثابة حدث طبيعي كسائر أحداث الطبيعة، وهذا ما أشار إليه الدكتور تمام حسان في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها.

ورأس رجال الفلسفة اللغوية أنه لا يمكن فهم المعنى إلا إذا نظرنا إلى اللغة على إنها عادات جسدية، نتعلمها كما نتعلم الألعاب الرياضية، وجعلوا من أبحاثهم مجالاً واسعاً للنقاش، فاعتبروا الأفكار تقابلها أشياء تلك التي تعينها الألفاظ، وكونها تعني الأشياء فالجملة تأتي أولاً من حيث التعلم ثم يأتي دور المفردات، ومن هؤلاء ديكارت الذي علل لهذه الأفكار بكلمة أفكر.

يقول الدكتور نجيب محمود:

«فالإدراك والحس وارتباطهما بالشيء، المرئي ارتباطاً قائماً على أساس من القوانين الطبيعية»[1].

فالإدراك الحسي والشيء كلاهما مجموعتان من الحوادث، تحدث في المكان والزمان، ويجب الربط بين ما نراه وبين ما نسمعه ونلمسه.

ومن الأمور الطبيعية في هذه المجالات أن تزداد دقة معاني الألفاظ كلما ازدادت دائرة المعرفة عند الإنسان، وتزداد معها المعاني عمقاً وتعقيداً، لذلك يضطر الكتاب والعقلاء إلى استخدام ألفاظ جديدة، وهذه الألفاظ بذواتها لا تكون كلاماً له معنى إلا إذا انتظمت وفق أنظمة معلومة من النحو

---

(١) الدكتور زكي نجيب محمود: ص ١٢٣. بيتراند راسل ـ الفلسفة بنظرة علمية.

والصرف، تحكم ترتيب الكلمات وتضمن حسن دلالاتها، ثم تربط بين العلاقات بعضها ببعض.

وهذه الأنظمة تقيم الصلة بين اللفظ والمعنى بل هي ركن ثالث من أركان الكلام، يجب أن يتطرق إليه البحث حتى تكتمل الصورة. ويشير إلى أهمية هذه الصلة كثير من اللغويين المحدثين من أنها علاقة قائمة بين التعبير والمنطق ولكنها لم تزل غامضة مبهمة، وفي طليعة من يؤمن بهذه الفكرة الدكتور ريمون طحان في فكرنا اللغوي المعاصر بقوله:

«إن العلاقات القائمة بين التعبير والمنطق غامضة مبهمة»(٢).

---

(٢) الدكتور ريمون طحان ـ الألسنية ـ ص ٤٤.

(٣) انظر اللغة العربية معناها ومبناها ـ الدكتور تمام حسان ص ٣٢.

الفصـــل الثالث

آ ــ الكشف عن طبيعة العلاقة:

يتألف التنظيم اللغوي من عناصر عديدة أو من أجزاء معقدة يقوم كل عنصر منها بوظيفة حيوية تسهم جميعها في بقائه وحفظه واستمرار عمله حياً، ثم تتحد جميعاً في تكوين التصور أو الحكم أو القضية أو المفهوم، تمثل لهذه المفاهيم بتغيير ميلاد العلاقة الطبيعية في صميم تركيب لغوي معين.

ذات معنى ودلالـة تامـة وما يسميـه نقاد العصـر الحديث بـالشكـل والمضمون والصورة ويثير الدكتور ريمون طحان إلى كثير من القضايا والتي تخص طبيعة هذه العلاقة القائمة بين الشكل والمضمون عندما يقول:

«سؤال يدفعنا إلى إثارة مشكلة العلاقة التي تقوم بين المعنى والمبنى أو الشكل والمضمون، أو التعبير والمنطق، بل بين هياكل اللغة مع الذهن هذا «ولم تكن مشكلة النظر في العلاقة القائمة بين الشكل والمضمون أو البنى العميقة للغة، والبنى السطحية من اكتشاف عصرنا الحاضر ولكن علينا أن نؤكد أن عصرنا بالذات هو الذي حاول أن يبين ما يحصل داخل الدماغ،

حين نمر من البنى العميقة إلى البنى السطحية والفكر»[1].

لا شك أن النظر في هذه العلاقة مدين للنظريات التوزيعية الأمريكية ويعود الفضل الأكبر فيها إلى رائد المدرسة التحويلية في أمريكا ألا وهو «نوم تشومسكي» ومساعديه الذين قاموا بتحليل الشكل إلى مؤلفاته المباشرة وإلى اكتشاف البنى العميقة، التي تصلح نقطة انطلاق لدراسة المدلول، وجاءت القوانين التحويلية التعدادية لتشرح تلك العلاقة وتوضحها بين الأصوات والمعاني لأنها علاقة غير مباشرة إلا أنها لم تستطع كشف أسرارها.

«ومهما يكن من أمر علاقة الكلمة من أنها علاقة قوية بالشيء الذي تعنيه فإن غاية الكلمة هي الترويح عن النفس، والتخفيف عن لواعجها، ونقل الأفكار إلى الآخرين في نطاق الحياة الاجتماعية، فإن العلاقة الحاصلة بين الكلمة والفكرة لا بين الكلمة والشيء، لأن الأفكار هي التي تعني الأشياء»[2].

ويفهم من هذا أن الإنسان هو الذي يعطي المعاني للكلمات، فهناك حاجة الإنسان إلى التعبير عن أفكاره للآخرين، وهناك أيضاً عدم ربط ضمني بين الأفكار وجرس الحروف، ويؤيد هذه الفكرة اللغوي السويسري فرديناند دي سوسير:

«إن الرمز اللغوي يجمع بين مفهوم وصورة، وليس بين شيء واسم، وإن مفهوماً معيناً يثير بالذهن الإنساني للصورة التي تلائمه»[3]

---

(١) الدكتور ريمون طحان ـ الألسنية جـ ٢ / ص ١٤٢.
(٢) مجلة المعرفة ـ ترجمة محمود فلاحة ص ٩٣ ـ عن دي سوسير.
(٣) الدكتور ريمون طحان ـ الألسنية ـ ص ١٤٤.

إن التمييز الحاصل بين البنى السطحية والبنى العميقة يثير مجموعة من التساؤلات:

«لماذا تتضمن اللغة بنية سطحية وبنية عميقة تختلفان في طبيعتها ولماذا لغة معينة؟

فاللغة العربية مثلاً تختلف عن غيرها من اللغات من حيث النظم، فتختار طريقة خاصة للتعبير دون غيرها.

ولماذا تنتظم هذه اللغة أو تلك على هذا النمط أو أن تفترق عن سواها؟»[٣].

وللإجابة عن هذه التساؤلات نجد أن قوة خفية تربط بين اللفظ والمعنى وترتبط أيضاً بالصورة التي يثيرها اللفظ وهو مستقل عن معناه الحقيقي، فإن اللغة التي لا تفي شيئاً فهي ليست لغة.

إن اختلاف المبنى والمعنى هو اختلاف نوع ودرجة، وليس هو اختلاف طبيعة وإن اختلاف زمن هذا يأتي قبل أو بعد ذلك، إن ذلك قلما يهمني وهو عندي قليل الأهمية لأن الفكر يجب أن ينزع نحو لغة، والفكر الذي لا ينزع إلى لغة فهو ليس بفكر.

إذن لا يوجد حد فاصل بينهما، فكلاهما واسطة وكلاهما غاية ومن خلالهما تتحقق العلاقة الطبيعية بين اللغة والفكر، فالعلاقة بينهما علاقة عضوية متشعبة، لذلك اعتبرت المادتين الصوتية والدلالية متلازمتين لتعكس الواحدة وجودها في الأخرى، فتولد العلاقة إذ أن لا صميم للوجدان بدون لغة، ويعتبر ريمون طحان البنية اللغوية السطحية نتيجة آلية ومكانية لبنى كانت في الأعماق بقوله:

«إن البنى السطحية نتيجة آلية وميكانيكية لبنى كانت في الأعماق أو

دفعتها اللغة إلى السطح، ويبدو أن البنية العميقة هي أساس التفكير وهي التي تستوعب المفاهيم، وإن البنى السطحية تقوم فقط بصوغ المفاهيم على شكل جملة أصوليـة»[1].

إلا أننا نتلمس من زاوية أخرى تلك الدقة الفائقة التي يتلمسها المناطقة أثناء دراستهم لطبيعة العلاقة بين الفكر واللغـة، فهم لا يطلبـون الدقـة والوضوح في التفكير فحسب، بل يطلبونه الدقـة المتناهيـة في استعمال الألفاظ في مواضعها لتشكل التركيب اللغوي، والتركيب اللغوي في عرفهم هو أداة التفكير المطلوب، فيقول الدكتور عبد المعطي محمد:

«فقـد أدركوا منـذ القديم شـدة الاتصال بين الفكـر واللغة، أو بين المباحث اللغوية والمباحث المنطقية، واللفظ والمعنى هو ذلك اللفظ الذي يدل على معنى ولا يدل بجزء منه على جزء من ذلك المعنى، كلفظ إنسان مثلاً. اللفظ المفرد هو ما لم يقصد بجزء من الدلالة على جزء معناه»[2].

ومن هذه النظرة ندرك أن البنى السطحية كانت نتيجة آلية لبنى كانت في الأعماق، وإن البنى العميقة هي أساس التفكير، وهي التي تستوعب المفاهيم الآن هذه النتائج تثير قضايا كثيرة عند أهل الفلسفة اللغوية.

ويدلي أصحاب الفلسفة بآرائهم أمثال ليبتز على لسان كمال يـوسف الحاج في كتابه في الفلسفة اللغوية بقوله:

«نحن لسنا أمام فكرة ولفظ بل نحن أمام حركة واحدة تبتدىء في الباطن فكرة وتنتهي في الخارج لفظ، نحن أمام حاجة في الإنسان إلى أن يلفظ الإنسان أفكاره، ويفكر في ألفاظه تلك الحاجة هي ميل الإنسان

---

(١) الدكتور ريمون طحان ـ الألسنية ـ ص ١٤٤.

(٢) الدكتور علي عبد المعطي محمد ـ المنطق ومناهج البحث ص ٦٤

بوجدانه النفسي إلى أن يصير اثنين إلى أن يتجزأ لتكتمل وجدانيته، وعلى الفكرة أن تنقسم ألفاظاً وجملاً لتسير نحو كمالها، مثلما تنبثق الأبوة تنبثق الكلمة من الفكرة»[1].

فلولا الكلمة ما تحققت الفكرة، والفكرة الناضجة تصبح بكلماتها فتعبر عن ذاتها، والواقع أن المعنى هو الذي يفكر فيه الأديب فتتبع الألفاظ المعاني لذلك يقول أحد الأدباء الفرنسيين (نودبيه) الكلمة ثمرة الفكرة ويقول عبد القاهر الجرجاني:

«ما في اللفظ لولا المعنى، وهل الكلام إلا بمعناه»[2].

وأقول : عندما تتوفر اللغة الكفوء والمعبر الكفوء لمعان جيدة، وأفكار قيمة فإن اللغة ستكون معبرة عن جدية الموقف بدقة فائقة، لأعظم الأفكار وعن أصدق المشاعر ونبل المقاصد، ذلك ما أشار إليه ميخائيل نعيمة في كتابه الغربال: «أجل إن الإنسان بحاجة إلى أن يلفظ ذاته ويكتب نفسه ويسمع نفسه ويقرأ نفسه، ومن الخطأ أن نفصل الوجدان عن اللغة».

لذلك أقول: إن المبنى اللغوي الواضح، وليد معنى واضح، وإن المعنى الغامض يولد مبنى لغوياً معقداً وغامضاً، وفي هذا المجال تظهر أهمية العلاقة بين الفكر واللغة، وتبدي لنا شيئاً من مظهرها الغامض إلا أن هذه الأقوال غير كافية لابراز ما يجري بين البنية اللغوية العميقة والبنية اللغوية السطحية، وتبقى الأسئلة السابقة تفرض ذاتها على البحث.

يشير الدكتور ريمون طحان بخصوص طبيعة هذه العلاقة وإلى سرها الغير واضح والتي قال عنها لغويوا الغرب في الدراسات المعاصرة إنها حلقة

---

(١) كمال يوسف الحاج ـ في الفلسفة اللغوية.
(٢) عبد القاهر الجرجاني ـ دلائل الإعجاز.
(٢) الغربال ـ مخائيل نعيمة ـ ص ٤١٤ .

مفقودة في أسرار الفكر اللغوي، بل وفي علم اللغة العام.

«وقد تتشابك هذه الدراسات التي عزلناها لأسباب منهجية عن بعضها البعض، وقد يتقاطع مستواها الوصفي مع مستواها الوظيفي، فهناك علاقة وثيقة، ووحدة حال تربط الدراسات المعجمية بالدراسات الصوتية، وقد تقوم المميزات الصرفية والنحوية بدور ثنائي، وقد يصعب تحديد ما يعود فيها إلى الصرف، وما يعود إلى النحو، وقد يقوم المميز الصرفي والنحوي بدور ثالث، وهو جمع شامل أجزاء الجملة والتحامها وتماسكها. الخ»[1].

إن اللغة ظاهرة من ظواهر الحياة والحضارة في كل زمان ومكان، وإن محاولة الكشف عن ظاهرة واحدة من تلك الظواهر يحتاج إلى آراء ونظريات حديثة توضح الصعب وتزيل الغموض وترفع الإبهام.

ومما هو جدير بالملاحظة، الإشارة إلى التعبيــر اللغوي على إنه رمز للحياة الاجتماعية والمشتركة وضرب من ضروب النشاط الإنساني تستعين به الجماعة لترتب مفهومها للعالم وللكون أيضاً.

فالتعبير اللغوي يأتي بعد إدراك، ويشير إلى حالة إدراكية مضت والأمر مرهون بذاكرة لا تخدع، ويحتاج إلى فكر ناضج قادر على الإدراك والإبداع كي يكون قادراً على جعل اللغة رمزاً حقيقياً للحياة الاجتماعية المشتركة.

يؤكد الدكتور تمام حسان ما ذهبت إليه من أن اللغة قوة وطاقة.

يقول الدكتور تمام حسان قولاً حول مفهوم اللغة كقوة وطاقة:

«الكلام عمل، واللغة حدود هذا العمل، والكلام سلوك، واللغة معايير هذا السلوك، والكلام نشاط، واللغة قواعد هذا النشاط، والكلام حركة

---

(١) الدكتور ريمون طحان ـ الألسنية جـ ٢ ص ٢٦.

واللغة نظام هذه الحركة، والكلام يحس بالسمع نطقاً وبالبصر كتابة، واللغة تفهم بالتأمل في الكلام، فالذي نقوله أو نكتبه كلام والذي نحس به هو اللغة، فالكلام هو المنطوق، وهو المكتوب واللغة هي الموصوفة في كتب القواعد وفقه اللغة، والمعجم ونحوها، والكلام قد يحدث أن يكون عملاً فردياً ولكن اللغة لا تكون إلا اجتماعية»[1].

والواقع العلمي يقبل بأن يكون التفكير عملاً واللغة حدود وجزء من هذا العمل، حيث أن التفكير لا يمكن أن تحيطه اللغة فحسب ذلك إن حدود اللغة ثابت بوظائفها العامة.

ونجد مثل هذا الغموض عند بتراند راسل على لسان الدكتور نجيب محفوظ:

ويذكر العالم اللغوي (بيتراند راسل) قولاً في هذا الخصوص على أن ديكارت:

«كان على يقين من أن فكرة ما كانت في نفسه هو كل فكرة، لكل فكرة أخرى من سلسلة الأفكار، وإذا كانت الأفكار المتتابعة مفردات لكل منها خصائصها المميزة، فهل تكفينا كلمة أفكر لتعلم طابع الفكرة أن كلمة أفكر كلمة كلية، وكل ما تعرف هو أن الإحساس والشيء كليهما مجموعتان من الحوادث، تحدث في الزمان والمكان، وفي فهمنا للرابطة التي تصل موجات الضوء بالإحساسات البصرية تستطيع أن تبدأ بالشيء المدرك أو بالإحساس، وستجد أن النتيجة واحدة في كلتا الحالتين للربط بين ما تراه وما تلمحه من شيء معين، إذا ما استجبنا لذلك عبرنا عنه»[2].

---

(١) اللغة العربية مبناها ومعناها ـ الهيئة العامة المصرية ١٩٧٣ ص ٣٢.
الدكتور تمام حسان.
(٢) الفلسفة بنظرة علمية ـ دكتور نجيب محفوظ ص ١٤٦ ـ ١٢٥.

يجد الباحث في آراء البعض من الباحثين الذين تناولوا ماهية اللغة من الناحية الفلسفية، وكون اللغة بنية فوقيــة.

يجدهم قد اهتموا بالعلاقة القائمة بين اللغة والغاية، أو اللغة والفن أو اللغة وما فوق الشعور، ومزج البعض الآخر من هؤلاء الباحثين مباحثه اللغوية بالمنطق والفلسفة، فتشابكت هذه الدراسات في مستويات متعددة كالمستوى الوصفي، والمستوى الـوظيفي مع شيء من العمق الفلسفي، فربطت العلاقة اللغوية بين الأصـوات والمعاني، وبـذلك يـظهر الشكـل التعبيري أو الأسلوب بروح الأثر الأدنى، ويحدد العقلية التي انتجته أولاً يجوز بحال الحكم على الأثر الأدنى دون العودة إلى الأداة المادية وهي اللغة التي أخرجته إلى حيز الوجود.

«إننا نعد الجملة صحيحة إذا وجدناها مطابقة لتذكر نتذكرة عن الوقائع الماضية والمطابقة لما تدركه الآن إدراكاً حسياً.

وتتبع لنا هيكلية اللغة أو بنيتها التعرف على كيفية عمل الفكر وتحركه وخضوعه أثناء صياغته للغة حول الفكر»[1].

فاللغة العربية كبقية اللغات الحية تقوم على قواعد ثابتة ونظام دقيق من نحو وصرف ولفظ ومبنى، فكل ما يطرأ عليها من تغيرات وتبدلات نكشفه بمراقبتنا لهيكلية اللغة،» وخاصة أن لغتنا شكلاً ومضموناً ما هي إلا صورة للتفكير العربي.

«إن دراسة اللغة العربية هي خير سبيل لمعرفة الشخصية العربية في خطوطها وملامحها وسماتها خلال العصور»[2].

---

(١) الفلسفة بنظرة علمية ـ د. نجيب محفوظ ص ٢٢٣ عن بيتراند راسل.
(٢) الدكتور ريمون طحان. . .
(٣) محمد المبارك ص ٤٢ ـ فقه اللغة وخصائص اللغة.

لذلك كانت دراسة طريقة اللغة العربية في تراكيب الكلام ونظمه وربط أجزائه مجال اهتمام لعدد كبير من الدارسين والباحثين، ومن هنا رأيت الوقوف ملياً عند أحدث الدراسات التي تناولت الدراسات اللغوية من قريب أو بعيد.

يقول الدكتور ريمون طحان:

«حاولت الدراسات والأبحاث العلمية الحديثة الكشف عن صلة اللغة وعلاقتها بالتفكير، وتوصلت إلى أن اللغة أساس لمختلف النشاطات الثقافية، وخير دليل يهتدي به الباحث إلى ثوابت الفكر والتفكير، ولذا حاولنا ربط ثوابت اللغة العربية بصميم الفكر العربي، وبينا من أن التعرف على البنى اللغوية يؤدي حتماً إلى التعرف على بنى الفكر والتفكير، إذ يحدث تطابق وتماثل بين هياكل اللغة، وهياكل الذهن، وتصبح البنى الفكرية الخفية قوالب لغوية بارزة، واللسان مرآة صادقة تعكس صورة التفكير»[1].

ولتوضيح قضية التماثل هذه بين هياكل اللغة وهياكل الذهن، ولكي تصبح البنى الفكرية الخفية قوالب لغوية بارزة، تعكس صورة الفكر، أشير إلى رأى أملي به الدكتور علي عبد المعطي محمد:

«يذهب بعض المناطقة إلى أن كل الأسماء متضايقة ذلك لأنهم رأوا جميع المعاني لا توجد منعزلة في الذهن الواحد، عن الأخرى، بل لا بد من إدراكها من ارتباط كل معنى منها بمعنى أو معاني أخرى»[2].

وبدون اللفظ لا يمكن لنا أن نفهم المعاني إلى أخرى بإضافتها إلى بعضها بعضاً.

---

(١) الدكتور ريمون طحان ـ ص ١٤٦.

(٢) الدكتور علي عبد المعطي محمد ـ المنطق ومناهج البحث ص ٨٠.

«ويرى أحد علماء المنطق برتداند راسل: أن من المفروض في كل كلمة أن تسمى شيئاً من الأشياء في العالم، وهي تؤدي هذه المهمة، وفي اللغة المنطقية المثلى تتنوع الألفاظ أنواعاً مختلفة باختلاف مهماتها التي تؤديها وكلما ازددنا علماً بالمسمى، ازدادت الكلمة دقة في استخدامها»(١).

ب ـ العلاقــة بين الفكـر واللغة علاقة صميمــة:

من خلال معرفتنا لعدد كبير من مقومات الجملة الشكلية، والتي أشرت إليها سابقاً سيسهل علينا متابعة ذلك في وصف بنية الجملة الظاهـرية والعميقة كي نفهم قضية ارتباط المعنى بالتعبير، أو المدلول بمجموعة من الإرشادات الحسية الصوتية والكتابية، ولن يكون ذلك إلا بالإطلاع على رأي علماء اللغة والمنطق والفلسفة اللغوية وغيرهـــم.

يرى العالم اللغوي والفيلسوف: دي بونالد في نظريته اللغويـة، أن العلاقة التي تربط اللغة بالفكر أو الفكر بالكلمة هي علاقة صميمة فيقول:

«فالفكر والكلمة جسم واحد، لا يحصل فكر بدون أن تحدث لغة، ولا تحدث لغة لا تكون ذاتها فكر»(٢).

وكلما عكفنا على دراسة بنية الجملة تيسر لنا دلائل تسلطها بأضوائها حول طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر، وحول طبيعة العلاقات القائمة بين الشكل والمضمون أو المبنى والمعنى.

ويرى الدكتور زكي نجيب محفوظ بقلم بيتراند راسل:

«إننا نعد الجملة صحيحة إذا وجدناها مطابقة لتذكر تتذكره عن الوقائع

---

(١) الفلسفة بنظرة علمية ـ د. زكي نجيب محفوظ ـ ص ٢٢٢ (بيتراند راسل).
(٢) في الفلسفة اللغوية ـ كمال يوسف الحاج ص ١٠٩.

الماضية، والمطابقة لما ندركه الآن إدراكاً حسياً»[1].

وبهـذه الآراء نلتقي بآراء أهـل المنطق، الذين يمثلهم هنري جس بيرسون في كتابه الطاقة الروحية.

«وما إيقاع الفكر إلا إيقاع ناتج عن تحرك المعنى داخل اللفظ»[2].

وقد سبق العرب القدامى إلى مثل هذه الآراء، في تراثنا الخالد يقول أبو حيان التوحيدي:

«لو بلغت اللغة كمال حدها المنطقي، لجاء المفردات المختلفة مقابلة تمام المقابلة لما في الطبيعة من أشياء، وبما فيها من صفات وما فيها من علاقات، ولدل كل لفظ بعينه على شيء بعينه لا يتعداه إلى غيره»[3].

وهو تأييد لرأي المناطقة في القرن السابع عشر، وتأييد لرجال الفلسفة في العصر الحديث أمثال بيتراند راسل: ويقول وهنري جس بيرسون :

«إنما التواقع الذي ينشده الكاتب هو نوع من التقابل بين ذبذبات فكرة سابقة، وذبذبات حديثة، وهو تقابل يبلغ من الكمال حداً متناهياً أو دون ذلك، إن تموجات فكره انتقلت إلى فكرنا نحن»[4].

في هذه الحالة لن يكون للفظ أي شأن في التعبير، ولن يكون له أي قيمة في الدماغ، بل القيمة تعظم من حركة المعاني النافذة في الكلمات ويكون هناك فكران ينبضان معاً على إيقاع واحد لتنظيم التعبير فلا فائدة ترجى من وقع الكلام إن لم يمثل إيقاع الفكر، وما إيقاع الفكر إلا إيقاع

(١) الفلسفة بنظرة علمية ـ الدكتور نجيب محفوظ ص ٢٢٣.

(٢) الطاقة الروحية ـ هنري جس بيرسون ص ٤٣.

(٣) أبو حيان التوحيدي ـ عن الاقناع والمؤانسة: نظرية النظم ص١٢٠. وقيمتها العلمية ص ١٢٠.

(٤) هنري جس بيرسون ـ عن الدكتور سامي الدروبي : الطاقة الروحية: ص ١٧٢.

الحركات الناشئة من وقع المعاني داخل التفكير، وترافق هذه الحركة تحولات سارية من معنى إلى معنى ومن فكرة إلى أخرى. يخضع الكلام لتنظيمات معينة، منها تنظيمة الفوتولوجي الذي يوازي الأصوات بشكل لا يتعارض فيه صوت مع صوت، وله تنظيمه المعجمي الذي يولد المفردات بموجب قواعد معينة، وله تنظيماته الصرفية التي تميز الصيغة بموجب قواعد معينة، وله تنظيمة النحوي الذي يدخل الاسم خاصة في باب من أبواب النحو مع الوظائف اللغوية الأخرى، ثم تنظيمه الجملي الذي يجعل من المفردات سياقاً مترابطاً وتركيباً متماسكاً، في فقرة من فقرات النص.

يشير الدكتور نايف خرما إلى اهتمامات أنصار المدرسة التحويلية التي قادها العالم اللغوي تشومسكي:

«إن موقع النحو من اللغة هو بمثابة القلب من جسم الإنسان، أما كلمة قواعد عنده فتشمل النحو بالإضافة إلى الصرف، كما تشمل النظام الصوتي ونظام المعاني أيضاً، فهي بهذا اصطلاح شامل جداً لجميع القواعد التي لها علاقة بجميع وجوه اللغة المختلفة»[١].

فقد عرف تشومسكي اللغة بأنها جهاز أو وسيلة لتوليد جميع الجمل الصحيحة في لغة معينة أولاً جمل غير تلك الجمل الصحيحة المتمشية مع القواعد. والجملة عنده أنها الوحدة الأساسية في التعبير الصوتي والكتابي، ويمكن لنا أن نصغي إلى صدى عميق لهذه الأفكار في التراث اللغوي العربي في القرن الخامس الهجري بقوله:

«أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها ببعض، ويشتد ارتباط ثاني منها بأول وأن نضعهابالنفس وضعاً واحداً، وأن يكون حالك فيها، حال الثاني من

---

(١) الدكتور نايف خرما ـ أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ص ٣٠١.

يضع في يساره هناك وحال من يضع في يمينه هناك»[1].

نلمس من هذا الكلام دقة التعبير والوضوح التام للمعاني، وأن هناك قوة خفية عاملة قادرة على نظم الكلام، وفقاً للمعاني المرتبة في النفس، وهذه القوة هي العلاقة المنظمة ما بين الفكر واللغة.

«ولا يكون الضم فيها ضماً، ولا الموقع موقعاً، حتى يكون قد توخى فيها معاني النحو»[2].

يهتم النحو الحديث بالكلمات التي تدخل في التركيب أو الجملة، فيتفحص علماء النحو وظائف المفردات وفق حركات أو آخر الكلمات، ويتفحصون وظائفها وفق حركات أواخرها، وحسب موقعها في الجملة أو في التركيب فتبرز وظائف المفردات بوسيلتين إحداها الموقعية ثم الحركة، ذلك ما وجدناه يفي تراثنا اللغوي أمثال العسكري والقاضي عبد الجبار، إلا أن المحدثين لهم وجهة نظر أخرى، يقول الدكتور ريمون طحان:

«لعبت الوظيفة التعبيرية لنظم العبارة دورها العام في البنيانية اللغوية وأخذ عدد كبير من مدارسها يقرن المميز بعمله الوظيفي، ولا وظيفة دون وجود هيكل، ويتألف من جملة عناصر مسؤولة عن تأمين العمل وفق اختصاصها»[3].

إن اللغة تستوعب الفكر وتتحكم فيه وتؤثر فيه ويؤثر فيها إلا أن ظاهرة اللغة يمكن أن تكون خداعاً إذا نظرنا إلى المعنى الذي تؤديه. وخاصة عندما تتشابه جملتان من حيث المظهر أو التركيب الخارجي، بينما تختلفان جذرياً في المعنى، مثل

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٢٦٤.
(٢) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص:٢٦٤
(٣) الدكتور ريمون طحان ـ الألسنية ـ ص ١٤.

صراخ المجرم لم يؤثر في الناس.
عقاب المجرم لم يؤثر في الناس.

فالجملتان تعربان بنفس الطريقة التي تعرب بهما كل جملة.

«أما الذي ينظم العلاقة بين المبنى العميق والمبنى الخارجي الظاهر فهي تلك القواعد التي تطبق على الأول لتحولها إلى الثانية، وقد أطلق على هذه القواعد التي تطبق على الأولى فتحولها إلى الثانية، القواعد التحويلية، وأصبحت مجموعة القواعد الصرفية والنّحوية الصوتية المعنوية التي طلع بها تشومسكي تسمى بالقواعد التحويلية»(١).

اللغة تنظيم وظيفي يتألف من مجموعة وسائل هي التعبير الصوتي والكتابي التي تنسجم مع الغايات المعينة، وهي الفهم والإفهام.

ويتألف التنظيم اللغوي التعبيري من أجزاء يقوم كل منها بوظيفة حيوية تسهم في بقائه وحفظه واستمرار عمله وتكون أعضاؤه عنصراً نافعاً تقوم بوظيفة حقيقية ولا وجود لقوة عاقلة منظمة إلا بوجود وظيفة تعبيرية. ولا وظيفة دون وجود هيكل، ويتألف من جملة عناصر مسؤولة عن تأمين العمل، وهنا أشير إلى أهمية للمعاني أثناء تحليلنا لبعض الجمل. ويتساءل أصحاب الفلسفة اللغوية عن جوانب الموضوع ذاته. وخاصة أن اللغة أداة صالحة عند الفلاسفة المحدثين لوصف العالم الطبيعي لأنها طبيعية مثله، واللغة من خصائص الإنسان ذاته، والجملة صيغة لفظية منطوقة، أو مكتوبة، وهي صياغة لفظية، ثم أن التحديد الذي تتركه اللغة كثيراً ما يؤدي إلى الخطأ في فهم طبيعة اللغة وفهم الحقيقة.

يقول الدكتور برتداند راسل على لسان الدكتور زكي نجيب محمود:

---

(١) أضواء على الدراسات المعاصرة ـ الدكتور نايف خرما ـ ص ١١٧.

«متسائلا: ١ ــ ما هي الألفاظ من حيث هي أحداث جسدية؟.

٢ ــ ما هي الظروف التي تؤدي بنا إلى استعمال لفظة معينة دون غيرها في مجال معين؟.

٣ ــ ما هي الآثار الناتجة أو التي تترتب على سماعنا لكلمة منطوقة؟

٤ ــ ما هي العلاقة بين الكلمة المنطوقة والكلمة المسموعة؟»[١].

يبدو للمطلع على هذه الأفكار أنه لا خلاف على وظائف اللغة ولا على ما تؤديه من وظائف مادية أو معنوية في شتى مجالات الحياة، ولكن الخلاف قائم حول طبيعة العلاقة القائمة بين اللغة والفكر، وهي العلاقة التي تستحق منا العناية والمران من الدرس والبحث، وهي الجديرة باهتمام الباحثين المعاصرين.

يرى علماء النفس اللغوي (السلوكيون) من أن الجملة تأتي أولاً من حيث التعلم، ثم يأتي دور المفردات، وفي رأيهم أن:

«أن (آ) سبباً في أحداث (جـ) حسب قانون الأفعال المنعكسة أو حسب قانون السببية فإن (آ) سترتبط بـ (جـ) ارتباط علة، فقد يصبح لمعنى كلمة (آ) هي جـ ما دامت النتائج المرتبطة بـ (آ)، وعندما ننطق كلمة (آ) ستحدث لا محالة معنى (جـ)»[٢].

إن صفة الفصاحة للفظ تدرك بالسمع وهي صفة معقولة تدرك بالذوق أيضاً لكنها على العموم صفة مرحلية، وهي غير مخصوصة بلفظ دون آخر، فهي فصيحة في موضع وغير فصيحة في مواضع أخرى، إنما هي صفة مكتسبة من المعاني.

«إن الفصاحة تكون في المعنى، إن المزية التي من أجلها استحق

---

(١) الفلسفة بنظرة علمية ـ بيتراند راسل ـ د. زكي نجيب محمود ص ٣٥ ـ ٤٥.
(٢) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ ص ٢٦٠.

اللفظ الوصف بأنه فصيح عائد في الحقيقة إلى معناه... فإنا نرى اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضع ونراها بعينها فيما لا يحصى من المواضع، وليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير»[1].

إن فصاحة اللفظ بالنظم آتية من حسن المعاني، ولا يعقل أن تكون هناك معاني حسنة والفاظ غير فصيحة، ذلك من ارتباط الفكر باللغة ولأن الكلمة ثمرة الفكرة.

بنيانية التفكير:

إننا نحاول عن طريق الوظيفة اللغوية السيطرة على محيطنا بشكل دائم ومنظم، وهي إصدار الأوامر والتحكم في تصرفات الآخرين والسيطرة على أشياء أخرى في البيئة المحيطة.

لقد أكد سوسير أن أفضل منهج لدراسة اللغة هو أن نحاول وصفها كما هي في فترة زمنية معينة محدودة، لكي تصل من هذا الوصف إلى القواعد أو القوانين العامة التي تحكم اللغة بل لنتوصل على الأقل إلى معرفة البنية التركيبية:

«وبذلك تكون أفكار دي سوسير بداية ثورة حقيقة على المفاهيم اللغوية القديمة السائدة حتى عصره في أوربا وامريكا، أيام سابير وأيام بلومفليد الذين اتخذوا المنهج الوصفي في دراستهم»[2].

وتظهر هنا من خلال الدراسة اللغوية بنيانية الفكر، والتي تفيدنا كثيراً في معرفة كيفية تحرك الفكر وعمله الذهني والمنطقي، ثم وكيف تتم تحولات هذه العمليات المعقدة الخفية بواسطة اللغة والتي هي قوالب شكلية للفكر، ويذكر الدكتور ريمون طحان في الألسنية أن:

---

(١) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٢٦٠.

(٢) مجلة المعرفة بقلم نجيب غزاوي ـ عدد ٢٠٢ ص ١٦٦ عام ١٩٧٤.

«النتيجة اللغوية من ثوابت الفكر، فتستقر اللغة في ذهن المتفع بها وعلى وجه يجعلها ملكية أو شبه الملكية وترسخ بنائها وهياكلها في ذهنه، وكأنها أحد السجايا الفطرية، ويجري فكرة على سننها الثابتة وأسسها العامة وقواها الكلية»[1].

لقد اهتمت الدراسات اللغوية في العصر الحديث بالأحداث اللغوية المعاصرة، والتي أطلق عليها اللسانيات أو الألسنية، فقد أصبحت مرآة صادقة تنعكس فيها جواهر اللغة وكلها وطبيعتها، ومن اكتشافاتها الهامة أن اللسان يؤلف جملة وتنظيماً يخضع للنظام البنيوي. إن من أهم الدوافع للعمل اللغوي هو بحثهم عن العلاقة القائمة بين التعبير والمنطق. وخاصة أن اللغة تلازمنا منذ ولادتنا طيلة الحياة فتستخدم اللغة في جميع أوجه حياتنا، نستخدمها للتعبير عن المشاعر والأحاسيس، نستخدمها للنهي والزجر والأمر والطلب وفي المراسيم والشعائر، ونستخدمها لتقوم مقام الحدث أو الفعل وتتحدد بنيانية التفكير بين هذه الأغراض اللغوية جميعها من طلب ونهي وزجر وفي المراسيم وفي التعبير عن الفكر والإحساس والمشاعر الخ.

د ـ نظرة المفكرين اللغويين المعاصرين:

أدرك المحدثون في الفكر اللغوي المعاصر نصيباً من طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة من شيء من مظاهرها، ولكنهم وقفوا دون الغاية فقالوا أنها علاقة مبهمة، بَل ليست واضحة، ولكنها ليست في إتجاه واحد ومن هؤلاء في فكرنا المعاصر الدكتور كمال يوسف الحاج والدكتور ريمون طحان والدكتور نايف خرما، إذ يقول الدكتور نايف خرما:

«إن العلاقة بين اللغة والفكر ليست واضحة تماماً ولكنها على كل حال ليست في إتجاه واحد»[2].

(١) الدكتور ريمون طحان ـ الألسنية ص ١٩.

(٢) الدكتور نايف خرما ـ أضواء على الدراسات اللغوية ص ٢٠٨.

ومثل هذه الآراء في علم اللغة المعاصر نجدها في فكر الدكتور ريمون طحان فيرى أن هذه العلاقة سر غامض:

«إن العلاقة القائمة بين التعبير والمنطق غامضة مبهمة، وكلما عكفنا على دراسة بنية الجملة تيسر لنا تسليط بعض الأضواء الكاشفة على العلاقات الحقيقة القائمة بين الشكل والمضمون أو المبنى والمعنى»[1] ومما هو جدير بالذكر أن مثل هذه الأفكار مصدرها الفكر اللغوي الغربي أمثال (أدوارد هول) في كتابه (لغة بغير كلام) والذي قسم فيه مظاهر الحياة إلى عشرة ظواهر يتفاعل كل مظهر منها مع بقية المظاهر الأخرى لتكون معاً الشبكة المتداخلة من العلاقات الإنسانية.

ومثل هذه الأفكار وسابقتها نجدها في تفكير العالم اللغوي الامريكي ألا وهو (نوم تشومسكي) صاحب كتاب القواعد التحويلية بقوله: *

«إن العلاقات بين المفردات علاقات أفقية أي أن هناك طبقة واحدة من الكلام يمكن تحليل الجمل وفهمها وتركيبها على أساسه»[2].

إن معظم الأبحاث التي وقفت عندها وقفة تأمل وتعمق كانت ممتزجة بالمباحث الفلسفية والعلاقات المنطقية، ولهذه الأبحاث فضل في دفع عجلة علم اللغة والعام نحو دراسة الكلام، على أنه أصوات، بواسطته نستطيع أن ننظم علاقاتنا.

إن لهذه الأفكار مكانتها في ميدان علم اللغة المعاصر وهي التي أدت بالباحثين إلى السعي وراء صحة وجود العلاقة بين الفكر واللغة مع البحث عن طبيعتها وسر غموضها، ومن الأهمية بمكان كي أكون أكثر دقة في بحثي

---

(١) الدكتور ريمون طحان ـ الألسنيات ص ٤٤.
(٢) الدكتور نايف خرما ـ مجلة المعرفة ص ٦٧.

أستطيع تحديد التداخل الحاصل بين الشكل والمضمون والصورة الدلالية الناتجة، علينا أن ننظر ما قدمه اللغويون المعاصرون.

لقد اعتبر اللغويون المعاصرون في الغرب النظام النحوي هو لب الدراسات اللغوية في هذا القرن وذلك لأهميته، وهذا ما وجدناه في فكرنا العربي القديم والحديث، عندما تناول المفكرون القدامى دراسة التعبير القرآني ووصلوا بأبحاثهم إلى مستوى النظرية، فقد توصلوا إلى أن المفردات تتآلف في نظام من الترابط بواسطة علاقات صوتية ومعجمية وصرفية ونحوية في جمل مفيدة يجتمع هذا في كلام مفيد ذلك ما أشرت إليه سابقاً، من أن المعاني هي الأصل في كل تعبير لغوي.

والذي يهمنا في هذا المجال، النظر في الشكل والمضمون والصورة التي يحققها صانع الكلام وواصف الجمال، والمعبر عن الإحساس ثم المفاهيم التي تثيرها بنظم لغوي متنوع ومختلف حسب تنوع المفاهيم والأشياء في هذا الوجود. فالشكل موضوع هام في الدراسة البنيوية الحديثة، حيث أن الأساليب التعبيرية مجموعات من الإمكانيات والمهارات تحققها اللغة كي تؤدي المعاني بأسهل السبل التعبيرية وبأدق الألفاظ مع وضوح ودقة متناهية. والواقع العلمي يحتم على اللغة والفكر أن يكونا كتلتين ملتحمتين كالتحام المراكز العصبية في الدماغ وهو التحام أبدي.

ثم أن الفكر أساس في كل عملية عقلية فكرية ولا يعقل أن يتكلم الإنسان العاقل المدرك كلاماً غير مفيد، فاللغة هنا تنبيه الفكر وتعبر عنه، والعقل هو المسيطر على ضبط ما بين الفكر واللغة من علاقات، وما هذه المجالات إلا جانباً هاماً من الدراسات اللغوية المعاصرة عند الغربيين، فقد تناولوا البنية السطحية، والبنية العميقة في دراساتهم من أجل الوصول بأبحاثهم إلى قواعد وأنظمة ثم نظرية لغوية قادرة على انتاج وابتداع، مالا يحصى من الجمل ونظرية قادرة على التحليل والتركيب.

إن هذه الدراسات ساعدتهم إلى حد بعيد على الإعتراف بوجود علاقات طبيعية بين الألفاظ والمعاني، والإعتراف بأن هناك مستويات من العلاقات قادرة على صنع الدلالة وقادرة على الجمع بين الفكر واللغة. ولا يفوتنا في هذا المجال الإشارة إلى جهود سلفنا الصالح وما تناولوه من أبحاث لغوية وبلاغية ونحوية وهي على قدر كبير من الأهمية إذا ما قورنت بجهود اللغويين الأوربين المعاصرين اليوم.

وهي جهود مستمرة اعتباراً من جهود ابن المقفع ومدرسته، والجاحظ ومدرسته، وابن قتيبة، وقدامة ونظريته، والأمدي والقاضي الجرجاني والرماني والخطابي والباقلاني والقاضي عبد الجبار، لتقف بعد ذلك عند قمة الفكر اللغوي أيام عصره الذهبي، أيلم ابن رشيق وابن خفاجة، وعبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية النظم.

ومن واقعنا اللغوي على صعيد جهود السلف تلك الجهود التي أضافت إلى التراث نصيباً لغوياً هاماً وجهداً فكرياً قيماً تناولت جهودهم البنية الفوقية للغة والبنية العميقة كأساس لكل تعبير لغوي، ولم يفصلوا بين الفكر واللغة بفاصل. كانت جهودهم الفكرية منصبة على اللفظ والمعنى بطريقة جامعة لا تفصل بينهما بفاصل، فكلما تناولوا اللفظ أكدوا على تناول المعنى، وكلما اهتموا بالمعنى أشاروا إلى اللفظ المناسب.

ق ـ اهتمام القدامى العرب بالبنى العميقة والبنى السطحية:

إن الإهتمام باللفظ والمعنى قديم عند العرب، لأنهما قطبا الحقيقة الفكرية، فقد أحس بهذه الحقيقة الفصحاء والبلغاء والنقاد واللغويون والنحاة في فكرنا اللغوي، إلا أن السلف لم يشيروا إلى تلك الحقيقة القائمة بين الأصوات والمنطق، ولم يوضحوا ظروفها، بل ولم تكشف جهودهم الستار عن تلك العلاقة. كانت دراساتهم موجهة للربط بين الألفاظ والمعاني، وهو

دليل قاطع على تقريرهم الربط بين الأفكار واللغة، ويطالعنا الجاحظ بآرائه القيمة بقوله:

«ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينهما وبين أقدار المستمعين فيجعل لكل طبقة على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»[١].

يدرك المرء من هذا القول، تقدير الجاحظ مكانة المعاني من تفكيرنا اللغوي ثم يدرك مكانة اللغة في عقول الناطقين بها وكيف ربط الجاحظ بين الفكر واللغة برباط، لقد أحس به ولم يعلل له ولم يوضح ظروف تلك الروابط.

ومن أقواله في هذا المجال:

«لا يكون الكلام يستحق البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه فلا يكون لفظه اسبق من معناه إلى قلبك»[٢].

يتضح لنا من هذه النصوص وسواها إلى إحساس الجاحظ كان بديلاً عن دليل حتمي لإرتباط اللفظ بالمعنى وذلك عن طريق الحس والفكر، إلا أن هذا الإحساس، لم يكشف عن نظام ارتباط الألفاظ بعضها ببعض ولا حتى عن نظام ارتباط المعاني بالألفاظ، فبقيت ظروف الإلتحام والإرتباط مجهول.

ويلي الجاحظ في هذا الميدان قدامة بن جعفر، في ربطه اللفظ والمعنى وعلاقة ذلك بالفكر، وذلك أثناء ائتلاف الألفاظ مع المعاني.

يرى قدامة بن جعفر:

---

(١) البيان والتبين ـ للجاحظ جـ ١ ص ٩٢ ـ ١٢٩.
(٢) نقد الشعر ـ للجاحظ جـ ١ ص ٢٤.

«فصار من أقسام الإئتلاف بعض هذه الأسباب أربعة، وهي ائتلاف اللفظ مع المعنى، وائتلاف اللفظ مع الوزن، وائتلاف المعنى مع القافية فصارت اجناس النظم ثمانية، ولما كان لكل واحد من هذه الثمانية صفات يمدح لها وأحوال يعاب من أجلها، لذلك وجب أن يكون جيد ذلك ورديئه لاحقين للشعر، وهذه الشروط دليل على الجودة والرداءة، والحياة والموت بين جميع أوضاع التعبير وحدود العلاقة الرابطة»[1]

أثارت قضية الإعـراب حسس النحاة واللغـويين على مدى العصـور فجعلوها من العلوم الجليلة التي خصت بها اللغة العربية، فالإعراب أو المميز النحوي في العبارات داخل نص، هو بمثابة الفارق بين المعاني المتكافئة، داخل اللفظ، وبه يميز المرء بين المسند والمسند إليه ثم أن أصل الكلام تمييز الفاعل من المفعول، وبعـد ذلك يمكن الأخـذ بدور المضمون اللغوي والإتجاه الدلالي.

فيقول صاحب الإيضاح:

«إن الأسماء لما كانت تعوزها المعاني، فتكون فاعلة ومفعولة، ومضافاً أو مضافاً اليها، ولم تكن في صورها وابنيتها أدلة عن هذه المعاني»[2]

وعلينا الا نسرف في طلب النحو لأن ذلك آخذ بالشكل وخضوعـه لمقومات عديدة تتقيد بها اللغة، بل علينا أن نأخذ باللغة وشمولتها مع دقة استعمال الألفاظ في مواضعها، فالكلفة في الغوص وراء المعاني النحوية يجعله غاية يبعدنا عن النظام الصوتي، بل يفسد من طبيعة النظم اللغوي المنشود في البنى السطحية للعبارة.

ونصغي للسيوطي عندما ينتصر لأصحاب المعاني بقوله:

---

(١) قدامة بن جعفر - نقد الشعر ص ٢٤.
(٢) الإيضاح للزجاج ص ٦٩.

«قد يتجاذب المعنى والإعراب الشيء الواحد، بأن يوجد في الكلام، أن المعنى يدعو إلى أمر، والإعراب يمتنع منه، والتمسك به صحة المعنى، ويؤول لصحة المعنى الإعراب»[1].

فالمعنى هنا أصل فإن حاد الفرع عن مجاراته يمكن التضحية به، بل ومن الأفضل في هذا المقام -حسب أوضاع اللغة، التمسك بالأصل والجوهر.

فقد أشار أبو سعيد السيرافي صاحب نحو البصرة إلى معاني النحو بقوله:

« «إن معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير مع توخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك، وان زاغ شيء عن هذا النعت فإنه لا يخلو من أن يكون سائغاً بالإستعمال النادر، والتأويل البعيد أو مردوداً لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم»[2]

حصر السيرفي معاني النمو بين حركات اللفظ وسكناته المقتضية لها، وفي التقديم والتأخير وفقاً لترتيب المعاني في النفس، أضف إلى ذلك تجنب الخطأ وتوخي الصواب والدقة والوضوح، وإن خرج صاحب النص عن هذه المعايير فقد كلف نفسه فوق طاقتها، ومثل هذا الإستعمال نادر وله تأويلات عديدة.

هذا وصحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف وبالإعراب المعروف ثم ما كان فيه فاسد المعنى فإنه يعرف بالمنطق، وبالمنطق يعرف صحيح الكلام من سقيمه، وفاسد المعنى من صالحه.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ ١ ص ٣١١.

من هنا ندرك تقدير قدامة لأنواع النظم الشعري، وقضية التعبير عن المعاني، ثم إحساسه وتقديره لحالات الإئتلاف بين اللفظ والمعنى ثم قضايا الجودة والرداءة والموت والحياة في نظم شعري معني. وأن هناك علاقات رابطة في كل تعبير وتقديره هنا له حدوده من حيث القوة والضعف والجودة والرداءة.

ومن حالات الإئتلاف المدركة المساواة بين اللفظ والمعنى، حتى لا يزيد عنه ولا ينقص عليه وهذه هي الفصاحة والبلاغة التي وصف بها الكتاب والخطباء والشعراء.

ويهتم الأمدي كناقد بارع من نقاد القرن الرابع الهجري بقضايا اللفظ والمعنى ويربطهما بالفكر، وأن بينهما علاقة جامعة تمنحهما الجودة أو الضعف فيقول:

«ألا ترى البلغاء والفصحاء، لما وصفوا ما يستجاد ويستحب من النثر والنظم قالوا: هذا كلام يدل بعضه على بعض، وآخذ بعضه برقاب بعض قيل: هذا صحيح من قولهم.

ولم يزيدوا هذا الجنس من النثر والنظم، ولا قصدوا هذا النوع من التأليف وإنما أرادوا المعاني، وإذا وقعت ألفاظها في مواقعها، وجاءت الكلمة مع اختها المشاكلة التي تقتضي، أن تجاورها لمعناها، أما على الإتفاق أو التصاد، حسبما توحيه قسمة الكلام، وأكثر الشعر الجيد هذا سبيله»[1].

يعتبر الأمدي من النقاد الذين يقدسون الفكر في تقديرهم حسن الصياغة في التعبير ويعير اهتماماً بالمعنى ويقيمون الكلام في أحاسيسهم ويلمسون أدق الأصوات في تعابير الشعراء والكتاب.

---

(١) الأحدي ـ كتاب الموازنة ص ٢٣٩.

ويقيمون المعاني بمعايير جديرة بالإهتمام، تضع اللفظ في مكانه والمعاني الجيدة في مراتبها، لأنه يربط بين الفكر واللغة أو الشكل والمضمون.

من هذا النص ندرك تقديره لمواقع الألفاظ وصلة بعضها ببعض، وأن ذلك راجع لجودة المعاني، فهذا هو الكلام الذي يدل بعضه على بعض، ويأخذ بعضه برقاب بعض وتجيء الكلمة مع أختها المشاكلة لها في الحسن والقدرة على التعبير في مواقع تقتضي تجاورها لمعانيها حسبما تقتضيه المعاني، فالمعاني هي الأصل في التعبير.

قال أبو هلال العسكري:

«إن الكلام الفاظ تشتمل على معاني تدل عليها ويعبر عنها، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى، كحاجته إلى تحسين اللفظ، لأن المدار بعد ذلك على إصابة المعنى، لأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة، ومرتبة إحداهما على الأخرى مصروفة، ومن عرف ترتيب المعاني واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات، ثم انتقل إلى لغة أخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثلما تهيء له في الأولى، ولا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى، وتصحيح اللفظ، والمعرفة بوجوه الإستعمال»[(١)]

يتضح من هذه الآراء القيمة أن أبا هلال العسكري أدرك على نحو جيد صلة اللفظ بالمعنى، وعلاقتهما بالفكر، إلا أنه لم يهتم بالعلاقة الجامعة بينهما شكلاً ومفهوماً، بل اكتفى بتناول التعبير ككل، وأن قطبيهما هما اللفظ والمعنى، لذلك لا يمكن أن ننكر إحساسه بهذه الرابطة عند تقديره

---

(١) أبو هلال العسكري ـ صاحب كتاب الصناعتين ص ٢٥.

المعاني من أنها أساس في كل تعبيـر، وعلى الإنسان أن يعـرف أقدار المعاني من أنها على اقدار المقامات، وأقدار المستمعين، وهي فكرة سبق الجاحظ إليها، وأن حسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً واشراقاً، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف التعمية، فالتركيب شعبة من النص، وهذا دليل على الإضطراب الفكري الذي يتبعه اضطراب لغوي ويقول أيضاً:

«ولا خير في المعاني إذا استكرهت قهراً، والألفاظ إذا اجبرت قسراً ولا خير فيما أجيد لفظه، إذا سخف معناه، ولا غرابة إلا إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى وظهور المقصد»[1].

إن حاجة الإنسان ماسة إلى إصابة المعاني وإيضاحها، كحاجته إلى اللفظ المعبر، فالمعاني تحل من الكلام مكان الروح في الجسد، وعلى المرء أن يحسن ترتيب المعاني، وأن يجيد استعمال الألفاظ في مواضعها من الجملة والنص، ولا يمكن للمرء أن يحسن إجادة التعبير إلا إذا أحسن ترتيب المعاني ثم أن حسن التأليف يزيد المعنى إشراقاً ووضوحاً، ودقة التأليف في نظم العبارة يؤدي بالمعاني إلى التعمية أو الغموض، ثم الضياع أحياناً، ويتلمس أحمد بن حميد الخطابي المتوفي سنـة ٣٨٨ م أطراف العلاقة الجامعة بين اللفظ والمعنى بقوله:

«فأما المعاني التي تحملها الألفاظ، فالأمر في معاناتها أشد لأنها نتائج العقول وولائد الإفهام وبنات الأفكار، وأما رسوم النظم، فـالحاجـة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر، لأنها لحام الألفاظ، وزمام المعاني وبنية تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل فيها البيان»[2].

(١) نفس المصدر ص ١٦٧.

(٢) أحمد بن حميد الخطابي ـ اعجاز القرآن ـ ص ٣٦ ـ ١٨٩.

يشير الخطابي في هذا النص صراحة إلى البنية العميقة للجملة ثم إلى البنية السطحية ومن أن هناك علاقة جامعة بينهما، فالنتيجة اللغوية من ثوابت الفكر، فهي تنظيم شكلي، يتألف من أجزاء يقوم كل منها بوظيفة حيوية تسهم في بقائه وحفظه، وأن العلاقة التي تربط اللغة بالفكر علاقة صميمة، فالفكر والكلمة جسم واحد، وأن البنى السطحية كانت نتيجة طبيعية لبنى كانت في الأعماق، ودفعتها اللغة إلى السطح، ذلك ما أشار إليه اللغويون المعاصرون من أن البنية العميقة هي أساس الفكر، وهي التي تستوعب المفاهيم. إلا أن الخطابي قد أرجع أسباب الربط بين الألفاظ ووضعها في مواضعها إلى الثقافة والحكمة، وهي أسباب مباشرة في تمكين العلاقة بين الفكر واللغة لأنها زمام الألفاظ ورباط المعاني، فتجعل للتعبير صورة في النفس، ومن أقواله في هذا الميدان:

«وإذا تأملت القرآن، وجدت هذه الأمور فيه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه»(١).

إن الألفاظ التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن ينضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها من فوائد.

فالمعاني عند الخطابي هي إنتاج العقول وثمراتها تحملها الألفاظ كي تحقق الفهم والإفهام، وأما نظم العبارة فالحاجة ماسة إلى الثقافة والمهارة في وضع الألفاظ في مواضعها كي تأتي المعاني جلية واضحة وبالألفاظ تنتظم أجزاء الكلام، ويقدم الخطابي شاهداً لهذه الآراء مستشهداً بالقرآن الكريم، فألفاظ القرآن دقيقة في تعبيرها ومتلائمة في نظمها ومتآلفة مع جاراتها، لتحقق إبراز المعاني القدسية التي حملتها ومن هنا نلاحظ حرص

---

(١) أحمد بن حميد الخطابي ـ إعجاز القرآن ص ١٨٩.

الخطابي على إبراز المعاني في أوضح صورة وفي أدق تعبير، فهو اهتمام واضح بالبنية العميقة للتركيب، واهتمام عظيم بالبنية السطحية التي تحمل نتـائج العقـول وبنات الأفكـار وولائد الإفهـام بين الفرد والفـرد، والفرد والجماعة، والجماعة والفرد في مجتمع لغوي معين فلن يجد المرء ألفاظاً أكثر وضوحاً وعذوبة وجزالة وفصاحة من ألفاظ القرآن الكريم، ولا نظماً أشد تلاؤماً من نظمه ولا معان أكثر إشراقاً وقدسية من معاني القرآن. ثم أن نظرة الخطابي الثاقبة في تقديره لنظم الكلام ومعاني النحو خاصة لها مكانتها العلمية القيمة في بحثنا هذا. . . . إن نظم الكلام يكون بضم الكلم وفق نظام معين وفقاً لأبواب النحو المختلفة، وأن يكون لكل كلمة داخل التعبير صفة تقتضي أن تكون هناك بحيث تؤدي وظيفتها من موضعها لا تتعداه إلى غيره، وهذا الموضع يمكن الكلمة من أداء دلالتها المعجميـة والنحويـة والصرفيــة.

يبدو أن اهتمام العرب بمعاني النحو قد أخذ طوراً جديداً في نظم العبارة عندما اهتم اللغويون والباحثون بدراسة الإعجاز القرآني في تراثنا الفكري الخالد، وذلك منذ أيام المرزباني، وابن قتيبة، والخطابي ويظهر هذا الاهتمام جلياً عند القاضي عبد الجبار الأسدي في كتابه المغني، وعند عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز.

فقد اعتبروا معأني النحو المدار الأول الذي يقوم عليه النظم، وهي جوهر الدراسات اللغوية عندهم، فيقول عبد الجبار:

«أعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه

الأقسام الثلاثة رابع، لأنه إما أن تعتبر فيه هذه الكلمة، أو حركاتها، أو مواقعها، وإذا انضم بعضها إلى بعض، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها وعلى هذا الوجه الذي ذكرناه، إنما مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها»[1].

يلاحظ المرء بعد قراءة هذا النص واستيعابه له أن القاضي عبد الجبار قد حلل البنية السطحية للعبارة، وأدرك على نحو معقول أسباب شدة التحام الألفاظ بعضها ببعض، وضم بعضها في السياق في نظام دقيق بأن يكون لكل كلمة في السياق صفة أكتسبتها من خلال موقعها ودورها وإعرابها أي المسند والمسند إليه، أو من خلال موقعها في السياق، ولا يمكن أن يكون لها هذه المميزات وهي منفصلة عن العبارة أو النظم، فإعراب الكلمة وحركتها وموقعها في الجملة تمنحها الصفة التي ستمر فيها، ومنها نرى الكلمة فصيحة في موضع وغير فصيحة في مواضع أخرى، وأضيف إلى رأيه السابق مما يوضح موقفه من بنية الجملة العميقة والظاهرة.

إن معرفة علم نظم الكلام ضروري كمعرفة العلوم الأخرى، مثل علم الحساب في الجمع والضرب والتقسيم، وكذلك علم نظم الكلام.

«أعلم أن هذه العلوم تجري مجرى العلم بالصناعات، فإذا كان ذلك لا يكون إلا ضرورياً، فذلك القول في هذه العلوم، وقد علمنا من حالها أنها جارية مجرى العلم بالمدركات وكيفياتها»[2].

انصب اهتمام عبد الجبار على البنية السطحية لاعتقاده أنها الأهم، فهي الإناء وهي الثوب، وهي المحرك للمعاني والمنبه للدلالة.

---

(١) المغني ـ القاضي عبد الجبار ص ١٩٩.
(٢) المغني ـ القاضي عبد الجبار ص ٢١٠.

ابن رشيق القيرواني :

ابن رشيق القيرواني المتوفي سنة ٤٦٦هـ والمعاصر لعبد القاهر، ولابن سنان الخفاجي، آراء جد متقدمة على غيرها، يلمس المرء منها صدق إدراكه وحسه لروح العلاقة بين اللفظ والمعنى بقوله:

«اللفظ جسم روحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشكل والعور وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح. وكذلك أن ضعف المعنى، واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظاً، كالذي يعرض للأجسام من المرض، يمرض الأرواح، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ، وجريه فيه على غيره الواجب قياسه على ما قدمت من أدواء الجسم والأرواح، فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيه»[1].

رأى ابن رشيق أن بعض المفكرين السابقين له قد فرقوا بين اللفظ والمعنى منهم من يؤثر اللفظ على المعنى وبجعله غايته، ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته، وإن أكثر الناس في عصره كانوا يفضلون اللفظ على المعنى.

إلا أن ابن رشيق في رأيه هذا قد أدرك على نحو جيد أهمية المعاني وشدة ارتباطها بالألفاظ كارتباط الروح بالجسد، وهي رابطة تشير إلى طبيعة العلاقة الجامعة وهي المميز اللغوي بين الشكل والمضمون.

ابن خفاجة:

ويطل علينا ابن سنان الخفاجي المتوفي سنة ٤٦٦ هـ بآرائه في معرفة

---

(١) العمدة ـ لابن رشيق القيرواني ـ باب اللفظ والمعنى جـ ١ ص ٧٥.

نظم الكلام وبيان خصائصه الجيدة، أو قصور اللفظ أو جودته. خص الخفاجي الفصاحة بالألفاظ وجعل البلاغة عامة في الألفاظ والمعاني:

«إن الفصاحة على ما قدمنا نعت للألفاظ، إذا وجدت على شروط عدة ومتى تكاملت الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ، وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف، وبوجود أضدادها تستحق الاطراح والذم»[1].

فهو يدرك على نحو جيد مكانة اللفظ ومكانة المعاني في النظم، وجعل بينهما علاقة متطورة للتمييز بين الفصاحة والبلاغة.

تأخذ هذه الأفكار طابعاً جديداً آخر أكثر نضجاً وأعظم سعة وأوسع ساحة عند عبد القاهر الجرجاني بقوله:

«هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملة، وكل ما به يكون النظم دفعة وينظر منه في مرآة تريه الأشياء المتباعدة والأمكنة قد التقت له، حتى رآها في مكان واحد.

وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنه يقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذا نظم يتضح فيه حال المنظوم بعضه من بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كما جاء واتفق»[2].

إن نظم العبارة يعود إلى قوة فكرية عاقلة قادرة على ضم الألفاظ بعضها إلى بعض حسب وقوع المعاني في النفس، فالمعاني هي الأصل في كل تعبير لغوي ويعلل لأفكاره السابقة بتوضيح أكثر دقة وأوسع شمولاً.

---

(١) ابن سنان الخفاجي ـ سر الفصاحة ـ ص ١٣٧.
(٢) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٣٥ ـ ٥٥ ـ ٤٢.

«إن ليس الغرض بنظم الكلم إن توالت ألفاظها في النطق، بل إن تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل، وكيف يتصور أن يقصد به إلى توالي الألفاظ في النطق بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض»[١].

إن اهتمام عبد القاهر بالبنية العميقة كان أكثر وضوحاً من اهتمامه بالبنية السطحية ألا وهي اللغة، وأن هذا الاهتمام مصدره إدراك العلاقة بين الفكر واللغة إدراكاً متطوراً، وأن البنية السطحية نتيجة آلية للمعاني المرتبة في النفس، وأن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو والعمل. وفق قوانينه وأصوله:

«واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو والعمل على أصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تزيغ عنها ولا تخل بشيء منها وأنت إن أردت الحق لا تطلب اللفظ بحال، وإنما تطلب المعنى، وإذا ظفرت بالمعنى فاللفظ معك وإزاء ناظرك»[٢].

يوضح عبد القاهر طرق نظم الكلام، وكيفية صياغة العبارة لأجود المعاني يقول الدكتور مصطفى مندور:

«اللغة بين العقل والمغامرة، أن القضية وعلاقاتها، كانت تحت مجهر قدمائنا منذ أكثر من عشرة قرون وقالوا عنها الكلام الطيب، فنضج اللغة مكنهم من الكثير، والارتباط الوثيق الذي ربط أنماط الحياة بالنص الديني الكريم فرض عليهم رعاية خاصة لها»[٣].

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٤٢.
(٢) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٥٥.
(٣) مصطفى مندور ـ اللغة بين العقل والمغامرة ـ ص ٥٦.

أدرك عبد القاهر العلاقة بين اللغة والفكر من أنهما كتلة واحدة وكلاهما جسم يذوب في بعضه الآخر، بينهما علاقة جامعة شبيهة بترابط فلذات الحديد المغناطيسية كل ذرة من ذلك الجسم يساوي نفس البنية من الترابط والتماسك لها نفس المقومات والصفات الفيزيائية والكيمائية فيقول عبد القاهر:

«واعلم أن مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب والفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة..

إن النظم يكون في معاني الكلم دون ألفاظها، وأن نظمها هو توخي معاني النحو فيها هذا وأمر النظم في أنه ليس شيئاً غير توخي معاني النحو فيما بين الكلمات وانك ترتب المعاني أولاً في نفسك، ثم تحذوا على ترتيبها الألفاظ في نطقك وأنا لو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعاني، لم يتصور أن يجب فيها نظم ولا ترتيب...... وليت شعري، وهل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني؟

وما هي الأخدم لها ومصرفة على حكمها، أو ليست هي سمات لها، وأوضاعها قد وضعت لتدل عليها.... فكيف يتصور أن تسبق المعاني وأن تتقدمها في تصور النفس»[1].

إن معاني النحو برأي عبد القاهر الجرجاني أساسية في نظم الكلم وتشمل علم النحو بالإضافة إلى علم الصرف، كما تشمل النظام الصوتي ونظام المعاني عامة وبهذا الاصطلاح لمعاني النحو، يكون شاملاً لجميع القواعد التي لها علاقة بجميع وجوه اللغة المختلفة وطرق نظم الكلام.

وجدير بالذكر أن اهتمام اللغويين العرب بالمعاني قديم ويتقدم على

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ ص ٢٦٨ ـ ٢٩٥ ـ ٢٧٩.

أحدث الجهود اللغوية في العصر الحديث، ومن هنا ندرك سبب اهتمام علماء الغرب بعلم المعاني، وعلى أنه الأساس في توليد الجمل فربطوا الفكر واللغة.

فقد اهتم النحاة في العصر الحديث بعلم معاني النحو للوصول إلى نظرية لغوية حديثة، لقد بدأت الجهود ضئيلة، ثم تطورت ثم كانت إضافات الأجيال جيلاً بعد جيل. وكل ما توصل إليه الغربيون اليوم هو اعتمادهم معاني النحو في أي دراسة لغوية ومثل هذه الجهود قد سبق إليها المفكرون اللغويون العرب، فبلغت الذروة في القرن الخامس الهجري.

البـــاب الثالث

الفصـــل الأول:

الفصـــل الثانـــي

الفصـــل الثالث:

*** *** ***

** ***

***

الفصل الأول

آ ـ انكشاف طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة:

بدأت الثورة اللغوية عند العرب حين أشرق النور القرآني على العرب في شبه جزيرتهم العربية، وأخذ رجال الفكر الديني عند العرب يتدارسون القرآن وأسلوبه المعجز، ثم بدأت النظرة العلمية تتجه نحو نظم القرآن لربط الفكر بلغة القرآن.

بينما نرى بداية الثورة اللغوية عند الغربيين قد انطلقت أيام دي سوسير رائد المدرسة اللغوية الوصفية التشكيلية والتي أخذ عليها استبعاد المعاني من التحليل اللغوي، ثم تطورت الجهود اللغوية بعده إلى أن وصلت على يدي العالم اللغوي الأمريكي المستوى اللائق بها وذلك عندما أضاف ذلك للدراسات اللغوية السابقة عنصر المعاني، فأصبح المعنى جزءاً رئيساً من نظريته التعدادية التحويلية، والتي اعتبرت النظام النحوي لب الدراسات اللغوية في هذا القرن.

اعتبر توم تشومسكي موقع النحو في التركيب أو النظم من اللغة بمثابة القلب من جسم الإنسان وأطلق عليها كلمة (SYNITAX) أما كلمة قواعد

((GRAMMER) فهي عنده تشمل النحو بالإضافة إلى الصرف، كما تشمل النظام الصوتي ونظام المعاني أيضاً، فهي بداية اصطلاح شامل لجميع القواعد التي لها علاقة بجميع وجوه اللغة»[1].

ولهذه الأفكار اعتباراتها في العصر الحديث، بل لها آثارها على أفكار اللغويين المعاصرين الغربيين مع العرب، لكن لو رجعنا إلى تراثنا الفكري باحثين عن أصالة هذه القيم، لوجدنا بعض الأفكار اللغوية متقدمة على سواها في العصر الحديث وخاصة في تناولهم معاني النحو في دراساتهم اللغوية، وأثناء بحثهم عن نظم القرآن وإعجازه.

هذا وقد عرضت صفحات سابقة تناولت فيها جهود القدامى في اعتمادهم عنصر المعنى وأهميته في اعتمادهم معاني النحو، وتوضيحاً لما سبق أورد بعض آراء متنوعة من الجهود الحديثة المعاصرة، وأخرى من جهود القدامى من باب المقارنة كي ننطلق بعدها نحو المطلوب في بحثنا.

اهتمام اللغويين الغربيين بمعاني النحو:

إيجازاً لما سبق من جهود ونظرات حول القواعد التحويلية نورد فيما يلي شكلاً يبين المنهج اللغوي والمجاميع الثلاثية لأهم القواعد التي تناولت تفسير ظواهر اللغة عند الباحثين اللغويين المعاصرين، فقد جعلوا البنية الجملية الخارجية قواعد هي على التوالي:

١ ــ القواعد النحوية الأولية.

٢ ــ القواعد التحويلية التامة.

٣ ــ القواعد الصرفية المرحلية.

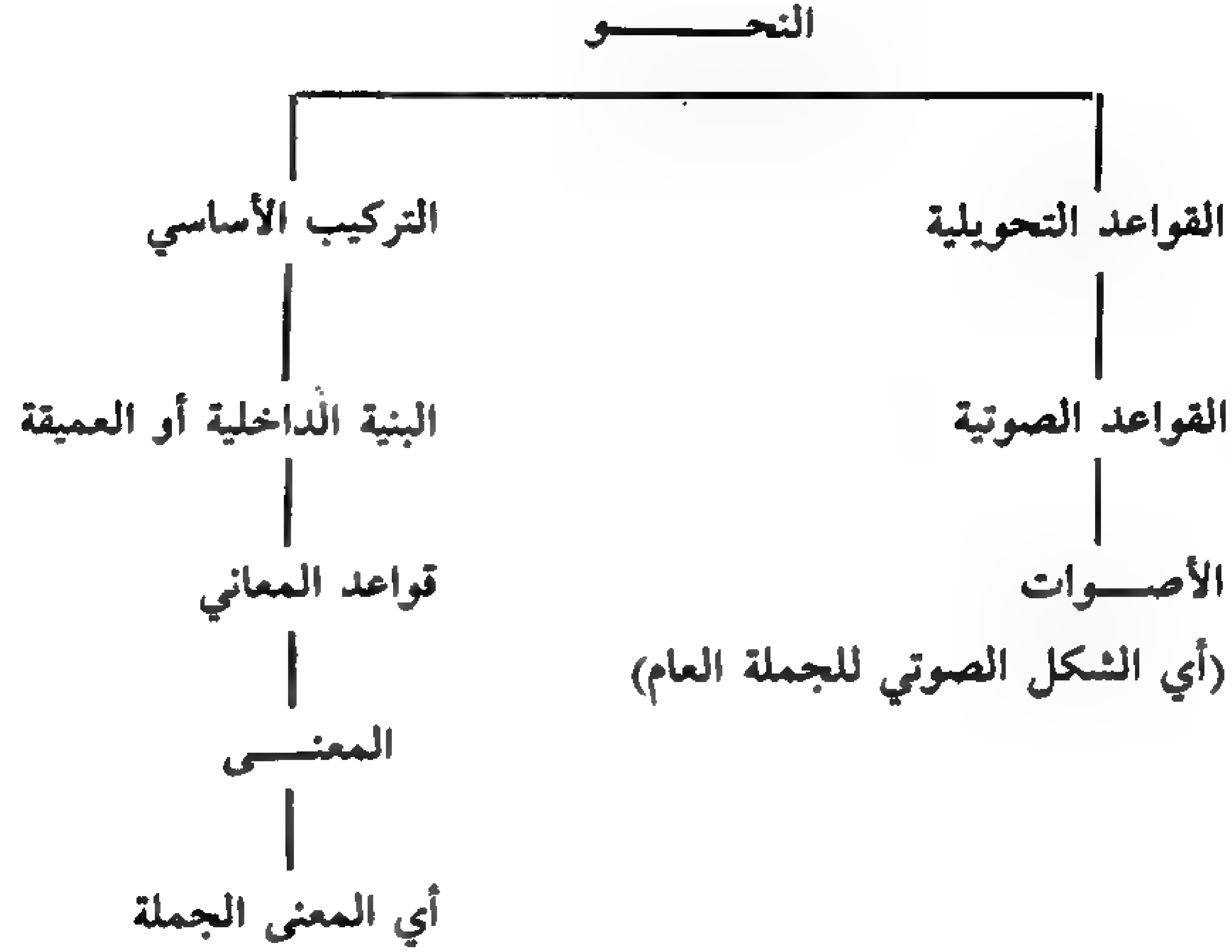
---

(١) الدكتور نايف خرما ـ أضواء على الدراسات اللغوية ص ٢٩٤.
LYONS CHOMSKY P. 4 , 43,44.

٤ ـ الشكل الصوتي النهائي للجملـة.

وسرعان ما أدخلوا عنصر المعنى بشكل أعمق في قواعد اللغة فأصبحت طريقة التحليل حسبما هو مبين في الشكل.

العلاقة بين البنية الداخلية للجملة والمعنى



فقد زود النظام النحوي الباحثين المعاصرين بالمعلومات عن تركيب الجملة الأساسية والبنية العميقة، ثم زودتهم القواعد التحويلية بمعلومات عن البنية الخارجية للجملة وأرشدتهم الأنظمة اللغوية إلى الطرق التي تنطق بها الجملة.

---

(١) أضواء على الدراسات اللغوية ـ نايف خرما ـ ص ٣٠٦.

بينما هداهم نظام المعاني إلى معنى الجملة، فقواعد اللغة تعني عندهم العلاقة بين الأصوات والمعاني فهو منهج علمي أشبه ما يكون بعلم الرياضيات والفيزيـــاء.

لكن هذه الجهود لم تكن مقنعة لعدد كبير من اللغويين المعاصرين ولنا أيضاً لأنها لم تأت بجديد.

لذلك جرت محاولات أخرى عملت على ربط المعنى المباشر بالبنية النحوية الأساسية للجملة دون حاجة إلى افتراض البنية الداخلية أو العميقة التي جعلها نوم تشومسكي وتلاميذه خطوة متوسطة بين التركيب والمعنى، ذلك ما أشار إليه أحد أنصار المدرسة التحويلية أمثال (مكولي) (MILOULI) في كتابه القواعد التحويلية، وقالوا بإمكانية بحث المشاكل المتعلقة بالمعنى كغموض بعض الجمل والمعاني المختلفة لجملتين تركيبهما الخارجي واحد. . . أدى ذلك إلى افتراض وجود بنية عميقة يجب تفسيرها.

يقول الدكتور ريمون طحان حول أهمية المعاني عند المحدثين الغربيين:

«أن كلمة المعاني الكلية لا يحكمها النظام النحوي وحده في الكلام، أو ما يسموى بالقول: SYNITAX الذي يشمل جميع أجزاء الجملة أو عدة جمل»(1).

«وجدنا في الجملة حتى الآن عدة مستويات صوتية أخرى معجمية وثالثة صرفية ورابعة نحوية، ولاحظنا أن هذه المستويات تتداخل مع بعضها لتؤدي المعنى المقصود، وأن قواعد معينة وأصولية، تقوم بربط كل المستويات المعينة بالمستوى الذي يليه أو الذي يسبقه»(2).

---

(1) الدكتور ريمون طحان ـ الألسنية $\frac{3}{2}$ ص ٩٦.

(2) الدكتور نايف خرما ـ أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ص ٢٨٥.

إن الجملة من حيث الدلالة هي أقل كمية من الكلام، وهي من ناحية البنية تركيب يتألف من عدة عناصر مثل المسند والمسند إليه والإسناد، وقد تضاف إليها عناصر أخرى.

ويقول الدكتور نايف خرما:

«ولقد كان النظام النحوي لب الدراسات اللغوية في هذا القرن..

على اعتباره أنه قلب الدراسات اللغوية جميعها أو واسطة العقد بينهما فهو الذي يصل بين الأصوات والمعاني، وما النظام الصرفي الذي يبحث من أمور أخرى. وكيفية تنظيم الأصوات المفردة للتعبير عن المعاني المفردة إلا إحدى الوسائل التي يستعملها النظام النحوي للتعبير عن المعاني الكلية»[1].

لا شك أن اللغة تولد عدداً غير متناه من الجمل، ولكنها لا تزال بالرغم من كثرة إعداد جملها أداة مغلقة لا تصاغ فيها الجمل الأصولية إلا بموجب نماذج قانونية تخضع للوصف، ومن المعلوم أن العلاقة القائمة بين الأصوات والمعاني، لم تستطع توضيحها القواعد التحويلية، وكل ما فعلوه هو شرح وإشارات لحالات معينة، وفشلوا في إبرازها رغم تناولهم قضايا بنيوية، وإن أبحاثهم بمجملها لم تغن عن الحاجة ولم تف بالغرض المطلوب.

وبهذا نكون قد اطلعنا على أفضل الجهود اللغوية وأشهرها عند الغربيين وعند اللغويين المعاصرين العرب بشكل أفضل، وكل ما يمكن أن يقال عن هذه الدراسات أنها وسعت مجال التفكير اللغوي.

وبقيت أسرار العلاقة بين الفكر واللغة مجهولة وغير واضحة، ومن هنا وجب على الدارسين اللغويين توضيح ما يحصل بين البنية العميقة والبنية السطحية للغة أو بالعكس.

---

(١) الدكتور نايف خرما ـ أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ص ٢٨٥.

أرى أن للكشف عن وجود صحة طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة ضرورة ملحة وهي هدفنا في هذا البحث، للكشف عنها بين الكلمة والكلمة، والجملة والجملة، والجملة في النص، لأن الجملة جزء من وحدة عضوية في فقرة من فقرات النص، فالكلمة داخل نص لغوي جزء من وحدة عضوية متكاملة.

ويمكن تفسير ما يجري في الخفاء على الشكل الآتي، هو أن نتصور لهذه العلاقة قوة ذات طبيعة متفرعة، وذات مكان وزمان، تتراوح بين القوة والضعف، والنمو والاكتمال، ويمكن تمثيل هذه القوة وتصويرها بتصورات علمية قياسية أشبه ما تكون بالقوة الكهراطيسية المتفاوتة والمتناوبة لأنها قوة ذات طبيعة معنوية غير محسوسة، نرى آثارها ولا نراها، لها أثرها المغناطيسي، وأثرها الحراري وآخر كيمائي، وفيزيائي وضوء ونجيز لأنفسنا هذا التشبيه في هذا المجال، طالما شبه رجال الفكر الحرية في عصر النهضة (الحرية) بحقيقة الكهرباء، وبأنها الروح السارية في عالم الأحياء.

ويعرف ابن باريس الحرية قائلاً:

«أين أنت أيتها الحرية المحبوبة من هذا الورى؟

أنت الحقيقة الخفية خفاء حقيقة الكهرباء، أنت الروح السارية في عالم الأحياء..»[1].

فالحرية شيء معنوي ذات طبيعة إنسانية، ندركها من مظاهرها، ولكن لا نراها تحتفل بها الأمم وتقيم لها التماثيل والأعياد، ويتهالك من أجلها الأبطال وترفع لها الأعلام، فهي قوة محركة مهيجة للشعوب مع حركة لكل ما في الإنسانية من مقومات.

---

(١) المختار في الأدب والنصوص ـ عبد الحميد بن باديس ص ٢٤١.

ويرى عبد الرحمن الكواكبي صاحب كتاب طبائع الاستبداد، أن العلم قوة خلاقة ذات آثار عظيمة في الإنسانية جمعـاء.

«العلم قبسة من نور الله، وقد خلق الله النور كشافاً مبصراً، ولاداً للحرارة والقوة، وجعل العلم مثله وضاحاً للخير فضاحاً للشر، يولد في النفوس حرارة، وفي الرؤوس شهامة»(١).

رأى الكواكبي أن للعلم قوة ضوئية وأثراً حرارياً، فضاحاً للشر كشافاً للخير، وكلها تشبيهات مجازية معنوية، وبذلك يحق لنا أن نشبه قوة العلاقة بين الفكر واللغة، بالقوة الكهراطيسية الجامعة الجـاذبة لبـرادة الحديـد، والمحركة والمضيئة والدافعة داخل المصانع والآلات.

فالعلاقة الطبيعية بين المفردات أو بين الفكر واللغة أشبه ما تكون بتلك الحقائق وكلما كانت هذه العلاقة قوية كانت أقدر على حبك الكلام ونظمه، وكانت ساحتها الجاذبة أكبر وأقوى على الضم، ضم الكلام بعضه إلى بعض وتلك القوة عبر عنها الأجداد في تراثنا الفكري بالفصاحة وتارة بالبلاغة أو بالبيان ثم بالنظم وعللوا لها بقيم فكرية متنوعة، وهي تعليلات أشبه ما تكون بالوصف البعيد عن حقيقتها وموضوع ظروفها، إلا أن تلك الملاحظات لم تكن تقوى لتحقق منهجاً علمياً، ويظهر أثر هذه العلاقة بين الفكر واللغة قوياً في أساليب الشعراء والكتّاب الفطاحل وأقوى ما تكون داخـل نظم القرآن الكريم، وهي في أعلى رتبة فقال القدامى العرب عنها أنها في أعلى رتبة من طبقات البلاغة أو في أعلى طبقات الكلام، وهذا ما نـادى به الرماني والباقلاني وأبو هلال العسكري والقاضي عبد الجبار، وعبد القاهر الجرجاني. وتستمد هذه العلاقة قوتها من دقة استعمال الألفاظ في مواضعها ومن جودة المعاني التي وجدت من أجلها، ومن صدق العاطفـة وصحة

---

(١) طبائع الاستبداد ـ عبد الرحمن الكواكبي ص ١٢٣.

الموقف العلمي والعمق الفكري، ويمكن أن يتبع ذلك عـوامل منشـطة مساعدة لهذه العلاقة، مثل شفافية الروح ورقة الإحساس وحسن الدلالة مع انتظام للأصوات وفقاً لما يرتضيه العقل والذوق الراقي، من موسيقى لفظية وصور حسية وألوان زاهية وأخيلة، أضف إلى ذلك المعنى الكلي للكلام الذي لا يحكمه النظام النحوي وحده، بل هناك عوامل أخرى مثل العامل الصرفي فله علاقة بوظائف اللغة المتعددة.

كما أن له علاقة بالمقام فوجب علينا أن ننوع طبيعة البحث، بحيث يشمل نواحي اجتماعية ونفسية وحسية كثيرة.

طبيعـــة هذه القـــــوة:

تستمد هذه القوة طبيعتها من طبيعة اللغة الإنسانية، فهي ذات طبيعة رمزية وطبيعة اجتماعية عضوية، ذلك أن الإنسان يتعامل وحده مع اللغة، ومن أن اللغة تقوم على عـدد محدود من الـرموز، ولكنهـا ذات طبيعة اجتماعية تخضع جميع أفراد المجتمع لها.

يقول ميخائيل نعيمة موضحاً طبيعة هذه القوة:

«أن اللغة في أدق تعابيرها ليست سوى مستودع من الرموز، نرمز بها إلى أفكارنا وعواطفنـــا»[1].

ويقول الرافعي:

«أما اللغة، فهي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها، حقائق نفوسها وجوداً متميزاً قائماً بخصائصه، فهي قومية الفكر، تتحد بها الأمة في صور التفكير وأساليب أخذ المعنى من المادة، والدقة في تركيب اللغة دليل على

---

(١) الغربال : ميخائيل نعيمة ٤٤٢.

(٢) الرافعي ـ اللغة والأمـة ـ كتاب وحي العلم ص ١٥٦.

دقة الملكات في أهلها وعمقها هو عمق الروح ودليل الحس على ميل الأمة إلى التفكير والبحث في الأسباب والعلل»[1].

إن اللغة رمز وجود الأمة، وبقدر أصالة اللغة، والمحافظة على اللغة الأصلية أو فقدانها، تكون المجموعة البشرية أمة وشعباً أصيلاً أو مجرد شتات.

فاللغة كما ذكرت سابقاً ذات طابع اجتماعي تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات والكائنات الأخرى، أتاحت له أن يقيم الحضارة، لذلك تداخلت اللغة مع الحضارة بل ومع المجتمع، إذن فهي ظواهر متداخلة ومدينة للظاهرة اللغوية وقوة طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة، ولهذه الروح العلمية أصالتها في تراثنا اللغوي.

يقول عبد القاهـــر:

«واعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه والحسن كالأجزاء من الصبغ تتلاحق وينضم بعضها إلى بعض، حتى تكثر في العين، ومنه ما أنت ترى الحسن يهجم عليك دفعة واحدة، ويأتيك ما يملأ العين غرابة، حتى تعرف في البيت الواحد»[2].

ومن خلال هذه النصوص تتجسد لنا قوة العلاقة القادرة على ضم أجزاء الكلام ضماً متلاحقاً بحيث تصور معانيها بجلاء شكلاً ومضموناً.

«وأن مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب والفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة، ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة»[3].

---

(١) (٢) دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني. ص ٢٦٨.

(٣) محاضرات في علم النفس اللغوي: الدكتور صيفي بن عيسى.

مكان مولد العلاقـة:

تولد العـلاقة لحـظة التقاء وتـلاحم الألفاظ بـالمعاني داخـل ساحـة الإحساس الخاصة بالمعاني، فهي علاقة ذات طبيعة إنسانية كما أشرت إليها سابقاً، وذات مكان وزمان واتجاه.

يقول الدكتور حنفـي بن عيسـى:

«إن العلاقة اللغوية ممتدة في الزمان نطقاً، وفي المكان كتابة تشغل حيزاً من المكان، وبرهة من الزمان، وذلك أن عناصر الكلمـة التي تتركب منها تتجيس واحدة بعد أخرى على شكل سلسلة زمنية أو خط موصول بعضه ببعض».

إن بداية الكلمات قبل انطلاقها تبدأ من السكون إلى أصوات حقيقة لا تتعدى الحركات الثلاث من السكون إلى الكسر والضم والفتح، ولربما سأل سائل عن مكان الألفاظ قبل انطلاقها، لقلنا إنها مخزونة في مراكز الارتسام في قشرة الدماغ على شكل مجاميع مترابطة، فقد حددت مناطق للكلامات المسموعة وأخرى للكلمات المقروءة، وثالثة للكلمات المكتوبة، أي أن لكل إنسان حصيلة وحفيظة لفظية مثلما يكون له حفيظة أخرى للمعاني المتنوعة وفقاً لتنوع تجارب الإنسان، يجمعها الإنسان في ذاكرته خـلال مراحل حياته.

أما قضية سياق الكلام، فإن المفردات لا تأتي مجزأة بل متلاحقة كما أشار إليها عبد القاهر الجرجاني في نصنا السابق.

إذن مولد العلاقة محدود بمولد العبارة ومع مولد الغاية في النفس، داخل النفس الإنسانية وقبل انطلاقها إلى عالم الأصوات أو عالم الكتابة

داخل نص من النصوص أو داخل مقالة أو خطبة أو قصيدة أو رسالة الخ.

والذي يبرز هذه العلاقة إلى حيز الوجود، هو دقة استعمال اللفظ واخضاعها للمعاني المخزونة في الفكر، فالعلاقة هي التي تجعل العبارة ناطقة مصورة، ملونة، باسمة، باكية، ملزمة، هو ارتسام الخلجات في الأصوات الكلامية أو الحروف الكتابية.

يشير عبد القاهر إلى ما ذهبت إليه:

«إنك ترتب المعاني أولاً في نفسك ثم تحذوا على ترتيبها الألفاظ في نطقك أثناء اتحاد أجزاء الكلام داخل تعبيري لغوي».

وسبيل المعاني كسبيل الأصباغ التي تعمل منها الصورة والنقش والنحت ولا معنىً للنقش والتصوير والنحت والتلوين بدون ايحاءات..»[1].

جـ ـ الظروف التي تحيط بطبيعة العلاقة:

يشير عبد القاهر الجرجاني إلى مكان وزمان مولد هذه العلاقة داخل النفس الإنسانية حيث يصرفها الفكر برفق وبدقة وحكمة وتقدير وفقاً لإحساس وتقدير المنشيء بها.

بقوله: «وإذ قد ثبت الخبر وسائر معاني الكلام، معان ينشئها الإنسان في نفسه ويصرفها في عقله، ويناجي بها قلبه، ويرجع فيها إليه فاعلم أن الفائدة في العلم بها واقعة من المنشيء صادرة عن القاصد إليها»[2].

ويلاحظ المرء أن منشأ المعاني نابعة من النفس الإنسانية، يصرفها الفكر برفق، ودقة وحكمة، فيحسها قلب الإنسان بعاطفته، ثم تكسوها

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ ص ٣٦٤.
(٢) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٣٤٥.

الألفاظ نطقاً وكتابة أو انغاماً أو تصويراً وألواناً، وعند تآلف المعاني وتفاعلها مع الألفاظ تولد لحظة تلك الفترة العلاقة الطبيعية بين الفكر واللغة أو بين الشكل والمضمون، فتحرك هذه العلاقة المعاني في طابعها الرمزي اللغوي لتسير بها نحو مجرى الحياة، من التفكير الصامت إلى عالم الأصوات والوجود الفعلي، لذلك قال أبو هلال العسكري:

«ينبغي أن تعرف أقدار المعاني، فتوازن بينها وبين مقامات المستمعين، وبين أقدار الحالات، فتجعل لكل طبقة كلاماً، ولكل حال مقاماً، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار الحالات»[١].

فإذا كان موضوع الكلام هادفاً إلى الإفهام، كان من الواجب أن نقسم الكلام حسب طبقات الناس، وتبعاً للمستوى الفكري، وحسب الاعمار والجنس والخلق والصنعة، فتخاطب كل واحد حسب إدراكه، ثم أن حسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وإشراقاً، وفي مثل هذه الأوضاع لا بد من أن يكون من اللفظ والمعنى وحدة عضوية متكاملة، كتكامل الكائنات الحية في وحدة جنسها.

ويؤيد ما ذهبت إليه قول ابن رشيق القيرواني:

«اللفظ جسم روحه المعنى، وارتباطه كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته»[٢].

فاللفظ والمعنى متلازمان كتلازم الأرواح في الأجسام الحية، وروح العبارة مع موعد مولدها مرهون ومتعلق بلحظة تفاعل اللفظ والمعنى، وأن زمانها دائم واتجاهها واضح من المنشيء إلى القارىء والسامع.

---

(١) الصناعتان ـ أبو هلال العسكري : ص ١٤١.
(٢) العمدة ـ ابن رشيق القيرواني : ص ١٣١.

وتوضيحاً لما سبق، يمكن أن نعتبر حالات التعبير حالة شعورية إدراكية ناتجة عن رغبة وعن منبهات وحوافز أو أن تكون استجابات لتحديات وبذلك يمكن لنا أن نعتبر حالة التعبير في بداية النطق، تبدأ من مخزون أو حفيظة المعاني المتكونة من تجارب الإنسان فمنها العميق ومنها الخفيف ومنها السخيف، وهذا ما أشار إليه الجاحظ، ويقابل ذلك مخزون حفيظة الألفاظ وهي حصيلة تجارب أيضاً تكسب حسب مراحل حياة الإنسان.

لذلك يقول الدكتور نايـف خرمـا:

«وقد دلت التجارب أن الإنسان يختزن الألفاظ مثلما يختزن المعاني في آن واحد، أما من حيث المعنى فمن الواضح أن الإنسان يختزن المفردات في مجاميع مترابطة من حيث معناها»[1].

من أجل ذلك قلت أن الفكر هو الذي يلقي بالمعاني المطلوبة والمرغوب فيها إلى ساحة الإحساس بالمعنى، فتلحقها الألفاظ متلاحقة، فمنها ما يكون مناسباً، ومنها ما هو غير مناسب أو غير صالح، فيعيدها الفكر من دائر الإحساس لاستبدالها بألفاظ أكثر ملائمة من حفيظة الألفاظ، وفي دائرة ساحة الإحساس تلتحم المعاني مع المفردات لتولد العبارة بمولد العلاقة بين الفكـر واللغة، ثم تخرج إلى الحيــاة. عبارات أو تعبيراً عن غرض.

إن الالتحام معناه لحظ مولد العبارة داخل التفكير الصامت، وهـو مـا يعلل لـه عنـد علمـاء النفس اللغـوي بـدايـة الكـلام الصامت، ويقول اللغويون المعاصرون أننا صغاراً وكباراً نفكر باللغة، لكن المعاني هي الأصل في كل تعبير نافع مفيد..

«وأنت إذا أردت الحق فلا تطلب اللفظ بحال، فإذا ظفرت بالمعنى

---

(١) أضواء على الدراسات اللغوية ـ نايف خرما : ص ١٩٨.

فاللفظ أمامك وإزاء ناظرك»[1].

وتختلف المعاني من حيث القيمة ومن حيث العمق، ومن شخص لآخر ومن موضوع لآخر، ومن هنا كان اختلاف تفاوت دائرة الإحساس بين شخص وآخر، وبين فكر ومفكر وشاعر وشاعر وخطيب وخطيب.....

لو سأل سائل وما هو القول بالنسبة لدائرة الإحساس بالمعاني القرآنية؟

لكان الجواب سهلاً، أن قدرة الإنسان نسبية بالنسبة لقدرة الله عز وجل وأن روح العبارة هي جزء من روح صاحبها، وروح الإنسان من روح الله هي شيء نسبي أيضاً، وبالتالي تكون دائرة الإحساس بالمعاني عند الإنسان شيئاً نسبياً بالنسبة لدائرة الإحساس الخاصة بالمعاني القرآنية.

لذلك كانت معاني القرآن قدسية، وأسلوب القرآن معجز للإنس والجن على مر العصور، وبذلك تظهر الثغرات في أساليب فطاحل الكتّاب والشعراء والخطباء أمام أسلوب القرآن ومعانيه القدسية.

«﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله لو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾[2].

طبيعة روح العلاقــة:

عندما تولد هذه العلاقة بين الفكر واللغة فلا تموت، وإذا ولدت فهي ذات طبيعة إنسانية، روحها جزء من روح الإنسان، من هنا ندرك شخصية فطاحل الخطباء والشعراء والكتّاب، فشخصية زهير في حكمة عائشة أبد الدهــر.

وشخصية أكثم بن صيفي والرسول والحجاج ماثلة لكل مطلع....

(١) عبد القاهر الجرجاني ـ دلائل الإعجاز ـ ص ٤١.
(٢) القرآن الكريم ـ سورة الإســراء رقم ٨٧.

وكتابة الجاحظ المتمثلة بروحه المرحة وعقله النير ثابتة أبد الدهر فمن خلال النصوص الأدبية والفكرية، نرى شخصية صاحبها تقف وراء كل فكرة ومع كل كلمة، تشخص نصيباً من حياته وشيئاً من عصره ذلك أن روح العبارة جزء من روح صاحبها.

قال الله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[1].

ومن أبرز مميزات روح العلاقة بين الفكر واللغة، أنها ذات روح إنسانية عاقلة مبصرة متغلغلة في ثنايا الأحياء، مثلما هي متغلغلة داخل الجملة والنص.

ويشير ميخائيل نعيمة إلى هذه الروح بقوله:

«لم لا تكون هذه الطاقة العاقلة المبصرة، القاصدة مظهراً، ولم لا تكون هذه الطاقة مظهراً من مظاهر ذلك الروح الأزلي الأبدي القابض على كل شيء الكائن في كل شيء، لم لا تكون هذه الطاقة المتغلغلة في الكلمات في كل ما في الكون والمنظمة، لكل ما في الكون المحركة لكل ما في الكون، كيف نبصر فعلها ولا نبصرها»[2].

إن تساؤل ميخائيل نعيمة عن طبيعة هذه الطاقة وعن مظهر هذه الروح كان تساؤلاً في مكانه، فإن مثل هذه المظاهر هي مظاهر روح لأنها حياة وطاقة نرى فعلها ولا نبصرها.

إذن طبيعة هذه الروح وطاقتها ذات روح متغلغلة في الكلمات والجمل ناظمة لها وفق روح عاقلة تشعر وتحس وتتذوق، ترتبط بتفكير الإنسان

---

(١) قرآن كريم.

(٢) ميخائيل نعيمة ـ الغربال ص ٤١٤.

«صاحب التعبير الجميل قريب من الله»، (أو صاحب الكلمة الجميلة قريب من الله)[1].

ق ـ العلاقة حدث لغوي:

ذكرت سابقاً من أن روح العبارة جزء من روح صاحبها، نطقاً كانت أم كتابة أو عزفاً، لأن روح الإنسان من عند الله، كما أن روح المسيح جزء من روح الله، ذلك لأن طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر علاقة روحانية إنسانية إجتماعية هادفة.

قال الله تعالى: ﴿ومثل كلمة طيبة كمثل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾[2].

وبهذا يصدق تقديرنا لروح هذه العلاقة، من أنها علاقة هادفة تولد فلا تموت تبقى تنبض بالحس والحركة وبالحيوية داخل العبارة وداخل النص واقصى ما تكون فيه من قوة وحيوية وقدرة على الدلالة، نجدها في أساليب القرآن الكريم، فهي علاقة مبصرة عاقلة قاصدة هادفة، وهي مظهر من مظاهر الروح الأزلية القابضة على كل شيء المتغلغلة في الكلمات داخل النص، وينتج عن وجودها صحة الفهم والإدراك والتصوير، فإنها سر جمال الحياة التعبيرية، وسر سعادة الإنسان وسر شقائه فهي صانعة الدلالة. يقول

---

(١) سورة الإسراء ـ آيات قرآنية. رقم ٧٨.

(٢) أحمد أميـن ـ النقد الأدبي ـ ص ٣٨٠.

بيتراندراسل:

«إنني أزعم أن كل حادثة تشغل حيزاً مكانياً وزمانياً، يمكن انقسامها إلى عدد معلوم من الأحداث الصغرى، والحادثة الواحـدة من الأحداث الصغرى تشغل بدورها حيزاً من المكان الزماني، حتى يصل بك التحليل إلى النقطة التي هي الحد الأدنى من المكان وإلى اللحظة التي هي الحد الأدنى من الزمن تجدها حركية من حوادث لغوية، ولا فرق بين قطعة المادة وبين الجزء المكاني والزماني إلا في أن قطعة المادة مركبة من حوادث أشد تركيباً وتعقيداً من الحوادث التي تتألف منها النقطة اللحظية، أي الجزء الذي هو نقطة في المكان ولحظة في زمان معين»[1]

ينطبق هذا التعليل على الحادثة اللغوية عند مولد العبارة في التعبير أو الجملة، فهي حدث معنوي ومادي في آن واحد، مادي كصوت، ومعنوي حدث جامع للفظ والمعنى في عبارة من القول ونص من النصوص المكتوبة أو موضوع من المواضيع المختلفة في موازين الفكر.

ويؤكد أبو حيان التوحيدي على شدة ارتباط الألفاظ بالمعاني، من أن بينها علاقة طبيعية تجعل الفكر يحوم بالألفاظ حول المعاني، فيولد الفهم الدقيق بقوله:

«إن المعاني تكون موجودة في النفس فيحوم عليها الفكر بالذهن الوثيق والفهم الدقيق ويلقبها للعبارة»[2].

فمولد العلاقة بين الفكر واللغة، حدث لغوي له مكان وزمان وأهمية منسجمة بطبيعة تلك العلاقة المولودة بين الفكر واللغة.

---

(١) في الفلسفة اللغوية بنظرة علمية بيتراند راسل ص ٢٤٠.
(٢) عبد القاهر الجرجاني ـ دلائل الأعجاز ـ ٣٥٥.

وثم أن لهذه العلاقة أقسام وأجزاء أصغر فأصغر إلى أن تصل إلى النقطة اللحظية داخل ساحة الإحساس، لحظة تفاعل الألفاظ مع المعاني، وداخل النقطة المكانية الزمانية في بنية الكلمة والجملة فهي علاقة متغلغلة ناظمة مبصرة نرى فعلها ولا نبصرها فإن هذه العلاقة حدث لغوي مولود من حدث أكبرهما اللفظ والمعنى وذات مكان وزمان.

يرى علماء النفس اللغوي: أن الأصوات اللغوية، مادة ترجع إلى مجموعات من أحداث تحدث، وقطعة المادة في رأي علماء الرياضيات في نهاية الأمر رياضية تصل أحداثاً بعضها ببعض على نحو تجعل المادة مع بعضها تكون وحدة عضوية واحدة، فالمادة مكونة من ذرات وكهارب موجهة وأخرى سالبة، والكترونات وبيروتونات، فتجتمع الإلكترونات والبروتونات في جسم واحد فتذوف واحدة في الأخرى فيفني أحدهما الآخر، وكذلك هي اللغة وتلك هي حقيقة طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة. أضيف لهذه الأفكار مجسماً لغوياً مفسراً وموضحاً لكل ما ذهبت إليه من بيانات توضح عملية نشوء الكلام وطبيعة ما يجري داخل ساحة الإحساس بالمعاني بل وموضحاً دور الفكر، وميلاد المعاني ثم تفاعل الألفاظ معها مع ميلاد العبارة داخل التفكير الصامت.

يقول الجاحظ : لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظة، ولفظه معنا. ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك يدخلان في الأذن بلا إذن».

انظــــر:

(١) عن دلائل الإعجاز : ص ١٧٦.

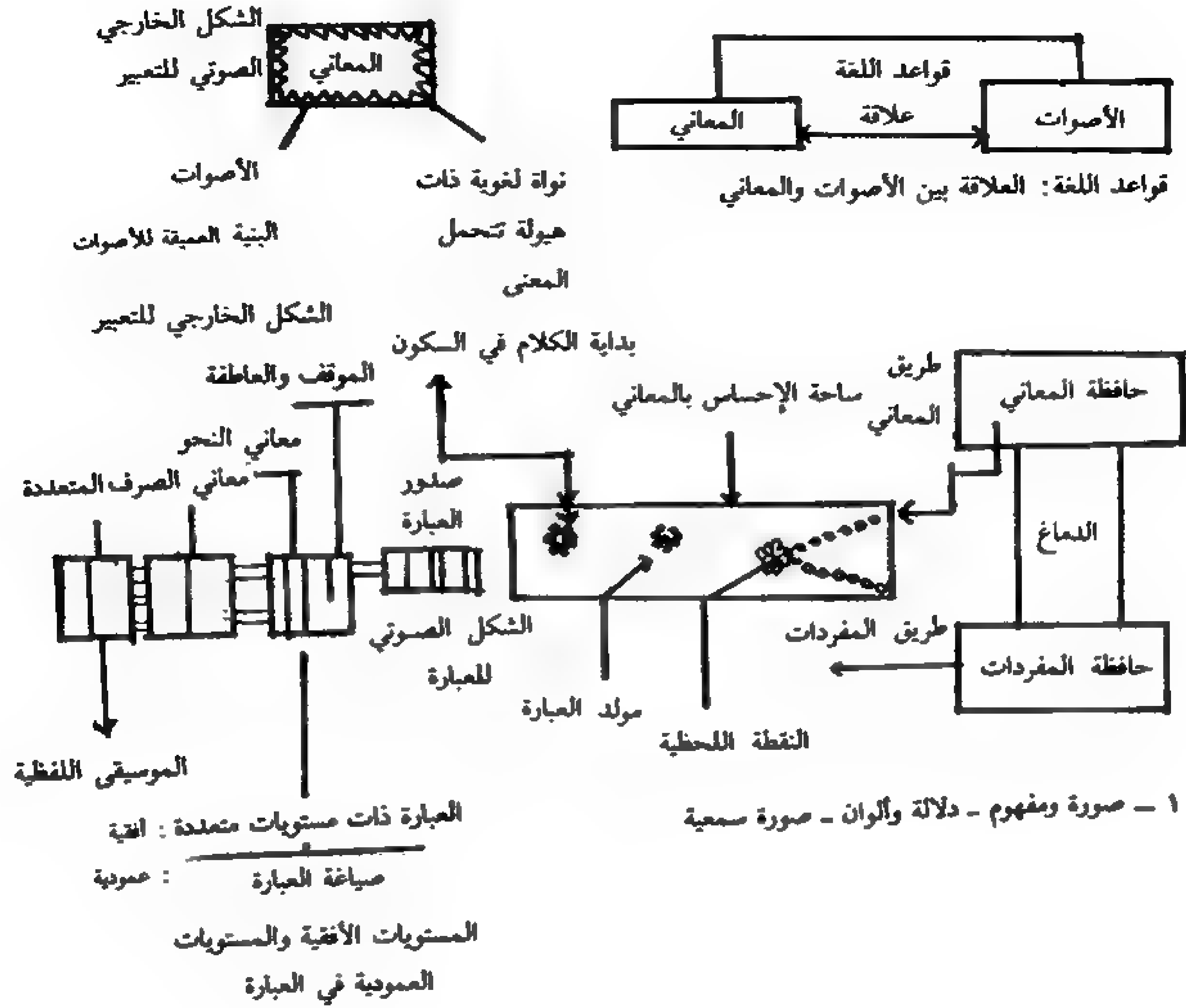
(٢) البيان والتبيين : ص ١٩٢ ، جـ ٧٦.

(٣) عن كتاب المختار للنصوص : ص ١٤٠.

(٤) انظر دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني ص ٢٤٠.

مجسم لغوي مسطح يوضح طرق تحويل الصوت إلى معنى:

١ ــ المظهران الأساسيان للكلام ـ الأصوات ـ المعاني ـ بينهما علاقة



قال عبد القاهر الجرجاني:

«وسائر معاني الكلام، معان ينشئها الإنسان في نفسه، ويصرفها فكره ويناجي بها قلبه ويرجع فيها إليه، فاعلم أن الفائدة في العلم بها واقعة من المنشيء لها، وأنت إذا أردت الحق، لا تطلب اللفظ بحال من الأحوال، فالمعاني هي الأصل، والألفاظ تبع لها»[1]

ويلتقي عبد القاهر مع أبي حيان عند نقطة واحدة وهي المعاني بقوله:

«إن المعاني تكون موجودة في النفس فيحوم عليها الفكر بالذهن الوثيق والفهم الدقيق ويلقيها للعبارة»[1].

وللمفكرين اللغويين المحدثين رأيهم في هذه القضية، ويمثل هذه القمة الدكتور نايف خرما بقوله:

«وقد دلت التجارب أن الإنسان يختزن الألفاظ مثلما يختزن المعاني في آن واحد، أما من حيث المعنى فمن الواضح أن الإنسان يختزن المفردات في مجاميع مترابطة من حيث معانيها»[2].

يجد المرء في فكر القدماء اللغويين سعة أفق ودقة تعبير عن المضامين السابقة يقول عبد القاهر الجرجاني:

«أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا تتوخى في الألفاظ من حيث هي الفاظ ترتيباً ونظماً، وإنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك فإذا تم لك ذلك اتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها، وإنك إذا فرغت من عملية ترتيب المعاني في نفسك لم تحتجِ إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها، ولاحقة بها والعلم بموقع المعاني في النص علم بموقع الألفاظ الدالة عليها بالنطق»[3].

ويرى حازم القرطاجني:

«إن المعاني هي الصورة الحاصلة بالأذهان، باعتبارها عن الأشياء

---

(١) أبو حيان التوحيدي ـ عن الإمتناع والمؤانسة ـ جـ ١ .ص ١٣٤.
(٢) الدكتور نايف خرما ـ أضواء على الدراسات اللغوية ص ١٩٨.
(٣) عبد القاهر الجرجاني ـ دلائل الأعجاز ـ ١٩٥.

الموجودة في الأعيان فكل شيء خارج الذهن، فإنه إذاً أدرك جعلت له صورة في الذهن تطابق كل ما أدركه من صور»[1].

من هذه النصوص جميعها نتوصل إلى قانـون داخلي تركيبي للبنيـة الخارجية بحيث تعتبر ذلك نتيجة حاصلة للبنى كانت في الأعماق، وهي أن المعاني هي الأصل في التعبير، وتتجسم مجموعة هذه الآراء في المجسم اللغوي المسطح الذي وضع في الصفحة السابقة.

يقول الدكتور نايف خرما:

«إن جواهر اللغة في الواقع هو هذه العلاقة، فإذا استطعنا أن نفهم كيفية تكون التراكيب اللغوية عند الإنسان، والتي يدفعها للآخرين كتابة أو أصواتاً داخل رسالة أو عن طريق الهواء، حتى تصل إلى ذهن السامع أو القارىء، ثم كيف يتم تحليلها إلى رموز تفهم معانيها»[2].

فإذا استطعنا ذلك نكون قد القينا الضوء على عملية التكلم أو على ما يسمى بالحدث اللغوي وشرحنا ظروفه. والذي يدركه المرء أن اللغة لا تستعمل في فراغ، بل هناك أمران يحكمان اللغة أو الإستعمال اللغوي، وهما السياق اللغوي، ثم المفردات بأخذها مواقعها حسب ترتيب معانيها في النفس، داخل التركيب. ونجد لهذه الأفكار صداها عند علماء المنطق وأهل رجال الفلسفة وعلماء اللغة يقول الدكتور عبد المعطي محمد:

«وتقسيم الكلام أو الألفاظ إلى مفردات مركبة، يشير إلى أن المناطقة قد أدركوا منذ القدم شدة الإتصال بين الفكر واللغة، أو بين المبـاحث اللغوية والمباحث المنطقية»[3].

---

(١) حازم القرطاجني ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ١٨.
(٢) أضواء على الدراسات اللغوية ـ الدكتور نايف خرما ـ ص ٧٧.
(٣) المنطق ومناهج البحث اللغوي ـ الدكتور علي عبد المعطي محمد ص ٦٥.

فاللفظ المركب يدل على معنى وله أجزاء مرتبطة بهذا اللفظ المركب، أو بمعنى آخر للفظ المركب، هو اللفظ الذي يقصد بجزء من الدلالة على جزء من معناه.

وفي وجهة نظر رجال الفكر اللغوي أن اللفظ المركب ينقسم إلى قسمين تام ذات فائدة يتم بها الكلام ويحسن السكوت عنده، ثم يقسم الكلام التام بدوره إلى مركب خبري يحتمل الصدق وخبري يحتمل الكذب. يطلب المناطقة الدقة والوضوح التام المتناهيين أثناء استعمالهم الألفاظ ويرون أن التراكيب اللغوية أداة هذا التفكير.

وهكذا تكون العملية اللغوية عملية إدراكية وهي عملية عقلية تشتمل في ذاتها على علاقة بين اللفظ والمدرك والصورة التي أوحت بها تلك العملية اللغوية.

وقد وصفت العبارة اللغوية بلسان أهل الفلسفة(والمعرفة) يقول بيتراند راسل:

«معناها إثبات صيغة لفظية صادقة، وعلى ذلك نستطيع تعريف الصيغة اللفظية الصادقة، هي صيغة ينطق بها الإنسان نتيجة لمنبه دون أن يتوسط في الأمر أي استجابة مكتوبة غير ما يقتضيه الموقف من علم بطريقة الكلام»[١].

ويؤيد هذا الرأي الدكتور مصطفى مندور بقوله:

«إن الأصل في القواعد اللغوية وأصول التراكيب هو صياغة الفكر الذي تحمله العبارات، وكذلك أن ترد كل المكونات اللغوية إلى مكنوناتها العقلية»[٢].

---

(١) بيتراند راسل ص ٢٣٣.
(٢) الدكتور مصطفى مندور ـ اللغة والحضارة ص ٨.

ولعل هذه الدراسة من أكثر الدراسات الإنسانية امتاعا وأكثرها عمقاً لما فيها من إثارة للتفكير، وبعثاً للتأمل في طبيعة هذا السر العظيم الذي خص الله به الإنسان بين سائر المخلوقات الأخرى. فقد تزايد عدد الأدلة التي تشير إلى أن للسلوك اللغوي علاقات عديدة بالخصائص المزفولوجية (أي التشكيلية) والوظيفة الجسيمة لجسم الإنسان منها العلاقة بين اللغة وتركيب جهاز السمع والنطق ومنها العلاقة بينها وبين الدماغ، والتخصصات التي اكتشفت في أجزائه المختلفة، ثم بينها وبين بعض مراكز التنسيق بين الحركات العضلية الخاصة بالمنطق، وخاصة السيطرة على التنفس ليتمكن الإنسان من مواصلة الكلام فترة طويلة، وخصائص أخرى تتعلق بالحس والإدراك اللازمتين للإدراك اللغوي.

الفصل الثاني

آ ـ قانون البنية السَطحية للغة عند العرب:

يتضح للمرء من الدراسات السابقة أنه ممكن وضع قانوناً وقاعدة للبنية السطحية للجملة، انطلاقاً من جهود السلف، ومروراً بالدراسات اللغوية المعاصرة ثم الرجوع إلى ما توصلنا إليه من نتائج نستطيع قبول ما نذهب إليه من أن ترتيب الألفاظ نتيجة حتمية لترتيب المعاني في النفس.

إنه لا يتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، وأنه لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضه في بعض، وبني بعضه بسبب من بعض وتجعل هذا بسبب من تلك.

يقول عبد القاهـــر:

«ذاك لأنه إذا كان، لا يكون النظم شيئاً غير توخي معاني النحـو واحكامه فيما بين الكلم، كان من أعجب العجب أن يزعم زاعم أنه يطلب المزية في النظم، ثم لا يطلبها في معاني النحو وأحكامه، التي النظم عبارة عن توخيها فيما بين الكلم».

فلا نظم ولا تأليف حتى يتوخى الناظم للشعر والنثر معاني النحو.

وفقاً لأبواب النحو المختلفة، ومن المعلوم لـدى طلاب العلم، أن الكلام ثلاثة أنواع، اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة.

آ ـ أن تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرفاً بهما.

فالإسم يتعلق بالإسم على أنه خبر عنه، أو حالاً أو صفة، أو توكيداً، أو نعتاً وأما تعليق اسم بفعل، بأن يكون فاعلاً له أو مفعولاً، أو مصدراً منصوباً، وأما تعليق حرف بهما فهو على ثلاثة أضرب، كأن يتوسط بين الفعل والإسم مثل حروف الجر، أو حرف النفي، الخ، إن هذه هي الوجوه التي يتم تعليق الكلم بعضها مع بعض، والكلام لا يكون من جزء واحد، ولا بد من مسند ومسند إليه وهما ركنان للجملة، ولهذه الجمل أشكال وأحوال متعددة، وخواص وفقاً لقواعد نظرية النظم، مثل التقديم والتأخير، والتعـريف والتنكير وبين الشـرط والجزاء، والنفي والإثبـات، ثم الفصل والوصل والقصر والإختصاص والعرض والطلب وما هذه القواعد التي أشرت إليها إلا نتيجة طبيعية لقوانين علم المعاني.

يقول عبد القاهر:

«فالعلم بمواقع المعاني في النفس، علم بموقع الألفاظ الدالة عليها في النطق»[٢] ومن هنا ندرك أهمية علم المعاني للوصول إلى أنظمة تكوين الجملة، ونظم تشكيلها، وبإيجاز: أرى أن قانون البنية الداخلية للجملة باعث بقانون البنية السطحية للجملة.

إن كان رجال المنطق قد قسموا المفردات إلى تقسيمات عديدة وتوصلوا إلى أن اللغة هي أداة الفكر، من حيث الوظيفة، فما هو رأي علماء الفلسفة

---

(١) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز : ص ٢٥٥.

(٢) الدكتور زكي نجيب محفوظ ـ الفلسفة بنظرة علمية ص ١٥٧.

في هذا الجانب، يرى الدكتور زكي نجيب محمود، أن العادات والخبرات مرتبطة بالفكر ارتباطاً مباشراً بقوله:

«والذي يحدث عن اكتساب الإنسان لخبراته المرئية المسموعة والمكتوبة والملموسة، هو آن تلك الخبرات ترتبط بالكلمات ارتباطاً حتمياً بالفكر»[1].

والذي يحدث عندما يكون المؤثر الخارجي قائماً، ترتسم الصورة في الذهن، كما لو كان المؤثر الخارجي موجوداً باستمرار، يرسل الصوت أو الضوء إلى الحواس، وبهذه الصورة توضح العملية العضوية لصورة واحدة في حالة الحس العقلي، بل وأثناء التصور، وتكون هذه العملية من جراء وجود صورة لفظية ومعنى وهما المظهران الأساسيان للغة.

«ذلك أن الألفاظ تتمثل في حركات بدنية حقيقية، ولكنها خفية ولو ضخمت تلك الحركات، وطال أمرها لأدت نطقاً صحيحاً ومسموعاً لتلك الألفاظ»[2].

وهناك تأثيرات متفاوتة للإتجاهات اللغوية مثل الإتجاه السيكولوجي والإتجاه الميتافيزيقي والإتجاه الإجتماعي، فتقسيم المفردات عند أهل المنطق إلى مفردة ومركبة، ولم يكن عبثاً بل كان ناتجاً عن تجارب علمية، فقد قسموا المفردات إلى مفردة مركبة وحدود، وكلية وجزئية، وجعلوا للألفاظ مفاهيم تقابلها.

ويقسم اللغويون الكلام إلى تقسيم آخر ومن جهة نظر أخرى من أن الكلام على ضربين، وهو تقسيم بعيد عن التقسيم المفرد.

فالكلام عند عبد القاهر الجرجاني على ضربين:

---

(١) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني:

(١) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ١٧٣.

«ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وضرب آخر ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوع اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض»[١].

يقول الدكتور مصطفى مندور:

«علاقات الفكر اللغوي تنشط اذن حول محورين واضحين: أولهما تلك الجهود التي فتت الوحدات إلى أقسام ووضعوا لها علامات، ثم باتت العلاقات غير كافية لإستيعاب كل الخصائص التي يمنحها المتحدثون للوحدات والثاني يختص بالتعابير والتراكيب، وعندها أيضاً لا تبدو الرموز الصوتية كافية لتحمل الإنفعالات التي يود الفعل أن ينفثها مع الألفاظ»[٢]

ليست العلامات اللغوية وحدها هي الطريق إلى اقتناص المعنى مثل: يشكر الأستاذ التلميذ، ويشكر التلميذ الأستاذ. حيث أن معاني النحو هي التي تحدد الفاعلية أو المفعولية أو غيرها من علاقات. ولكن الذي يجب أن يكون حاضراً عند كل فهم هو الإدراك العقلي أو دور الإرادة المفتشة عما وراء الصيغ، وهكذا تجتمع جهود المفكرين قديمها وحديثها لتدفع بخواص لغوية جديدة توضح المستويات المتداخلة وتبين الطرق العلمية الصانعة للبنية العميقة ثم البنى السطحية للجملة أولاً ثم النص كوحدة عضوية واحدة.

فالجملة في عرف أهل المنطق الرياضي هي مجموعة من الكلمات المعروفة فهي مجموعة معرفة، ثم أن الجمل في النص تشكل مجموعة كبيرة معرفة، وهذه المجموعات الصغيرة تشكل النص، ثم أن هذه المجموعات الصغيرة التي تكون النص، لم تكن عملاً عشوائياً بل كانت

---

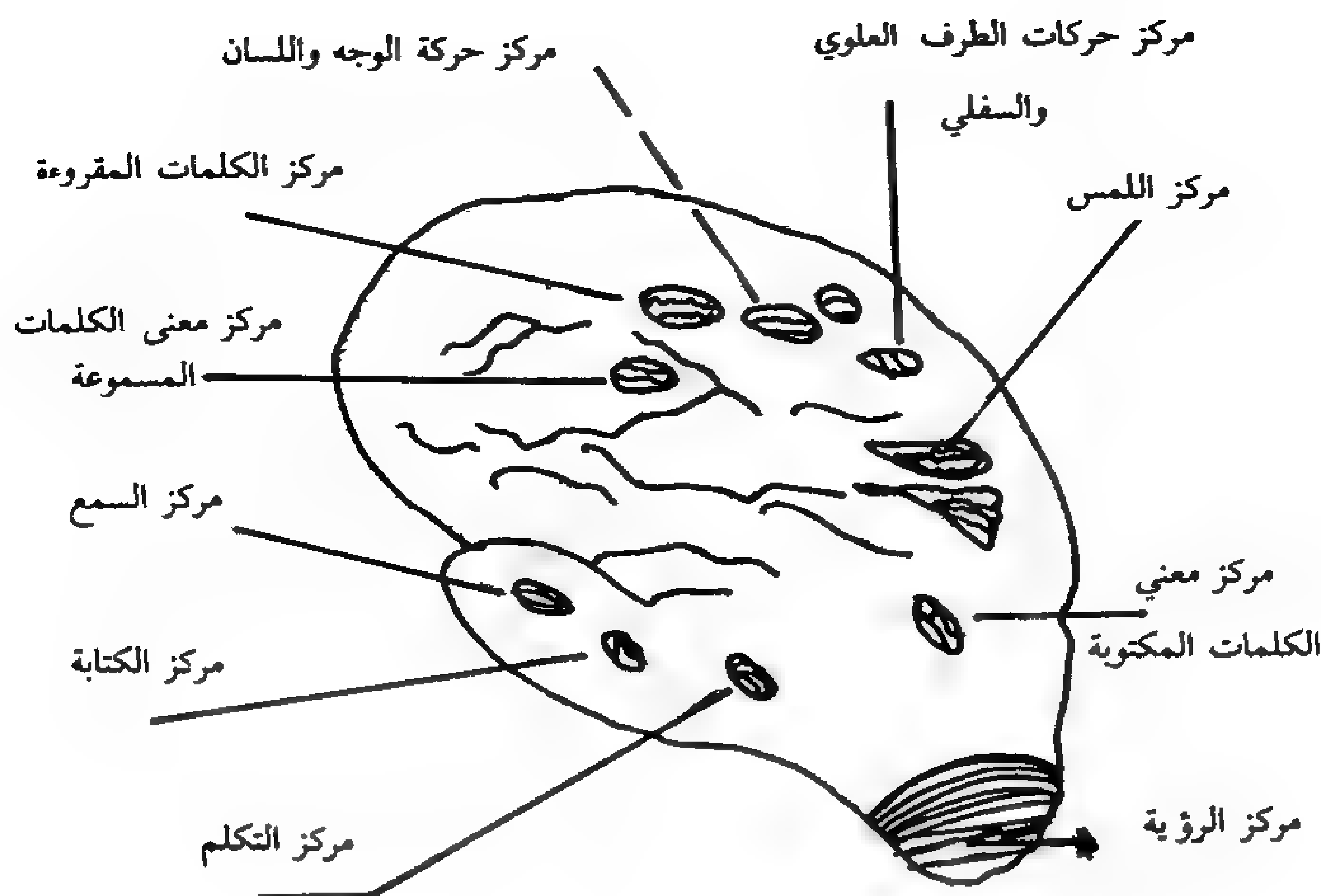
(٢) الدكتور مصطفى مندور ـ اللغة بين العقل والفكر ـ ص ١٤.

نتيجة طبيعية لبنى عميقة داخل النص هي المعاني... فالمعاني هي التي دفعتها إلى السطح، ومن ثم كانت الأشكال والرسوم السطحية التي تصل إلى الخواص المطلوبة في البنى العميقة، حيث أن العلم بمواقع المعاني في النفس، هو علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق.

ومما هو جدير بالذكر أن البنى العميقة تخضع لقانون رياضي خاص بالمجموعات المعرفة، هو قانون التركيب الداخلي بخواصه، وبعد البحث والتجريب والمقارنة والمقابلة، وجدت أن المعاني تخضع لمنهج رياضي كوحدات وزمر ومجموعات معرفة، فهي تقبل الخاصة التجميعية فتبعث هذه الخاصة بقدرتها لتدفع بالكلام إلى السطح بخاصة تجميعية للجملة ثم للفقرة، ثم للنص، وسيتضح هذا العمل عند الحديث عن البنى التركيبية العميقة، وأشرت إليه في هذا المقام للصلة الوثيقة بين البنى العميقة والبنى السطحية للجملة والنص وعدم إمكانية الفصل لمتانة العلاقة الطبيعية الجامعة بين المستويات وبين البنى السطحية والبني العميقة.

رأي العلم بالعلاقة:

ويتضح لنا من المجالات الفكرية السابقة المنطقية والفلسفية واللغوية، تزايد عدد الأدلة التي تشير إلى أن للسلوك اللغوي علاقات عديدة، لها صلة مباشرة بالوظيفة الجسيمة لأعضاء الصوت عند الإنسان، منها العلاقة بين اللغة وتراكيب كجهاز السمع والنطق، ومنها العلاقة بينها وبين الدماغ حيث مراكز الإرتسام والتخصصات التي اكتشفت في أجزائه المختلفة ثم صلة تلك المراكز العصبية مع بعض مراكز التنسيق المشرفة على تحريك العضلات المسؤولة عن النطق اعتباراً من الحبال الصوتية واللسان والشفتين والخيشوم إلى أن نصل إلى كمية الهواء المحصورة في الرئتين، وإليك مجسماً لمراكز الإرتسام



مراكز الإرتسام في الدماغ:

المخ مركز الفكر والإرادة، والذكاء، والإنتباه، والذاكرة، والشعور والحس والتكلم والحركة، وقد أثبت التجارب التشريحية أن في القشرة السنجابية للمخ مراكز خاصة، لكل وظيفة حسية أو حركية أو فكرية تدعى بالمراكز الإرتسامية. ويشغل الفص الصدغي مركز السمع وبقربه مراكز الشم والذوق. وأي آفة تصيب هذه المراكز تعطلها، وكذلك الأمر بالنسبة لبقية مراكز الإرتسام، مثل مركز معنى الكلمات المكتوبة والمسموعة، ومركز التكلم، فهي متوزعة وفقاً لما يشير إليه المجسم الرسمي.

---

(١) مراكز الإرتسام في القشرة السنجابية في دماغ الإنسان ص ١٠٩ ـ العلوم الطبيعية سنة ١٩٥٩ ـ المطبعة الجديدة ـ دمشق.

وأذكر ثانية بقول هنرى جس بيرجسون:

«فالعلاقة بين الفكر والدماغ هي اذن علاقة معقدة مرهفة، وأن الدماغ هو عضو التعبير عن الفكر بإشارات، فوظيفته هي أن يومىء إلى حياة الفكر بإشارات... فالنشاط الدماغي هدفه النشاط النفسي للحركات وحياة الفكر تطغو على حياة الدماغ، لأن حياة الفكر نقطة إتصال الفكر بالمادة، وما الدماغ في الواقع إلا مجموعة الأدوات التي تتيح للفكر أن يستجيب لتأثير الأشياء استجابات حركية، فتضمن إذا كانت صحيحة، كما أن الإتصال كما إتصال الفكر بالواقع وتلك هي علاقة الروح بالجسد»[1]

يقول الدكتور نايف خرما:

«فقد دلت التجارب والأبحاث العديدة، وأهمها تلك التجربة التي قام بها الأستاذ روجر بيروتسون من جامعة هارفارد، بأن الكلمات تختزن بطريقتين في آن واحد، فالإنسان يختزن المعنى كما يختزن اللفظ (الشكل الصوتي) أما من حيث المعنى، فمن الواضح أن الإنسان يختزن المفردات في مجاميع مترابطة من حيث معانيها، وأوضح مثال على ذلك تلك المفردات التي تدل على صلة القرابة كالأب والأم والأخت والعم والخال، وكذلك مثل مفردات الصوم والزكاة والصلاة والحلال والحرام»[2].

إن هذه النتائج بالغة الأهمية لأنها ترينا المنهج العلمي المتبع في الوصول إلى حقائق لغوية جديدة، إن معظم العلماء المعاصرين في مجال الفكر اللغوي يعتقدون اعتقاداً شديداً بعد التجارب والأبحاث المتواصلة التي اجريت في الكشف عن مراكز الإرتسام، إن هذه المراكز الإرتسامية مسؤولة عن الكلام والكتابة والسمع والفهم والتصور، وهي موجودة في

---

(١) هنري برجسون ـ الطاقة الروحية ـ ص ٤٤.

(٢) أضواء على الدراسات اللغوية ـ الدكتور نايف خرما ص ١٩٨.

الجهة اليسرى من المخ، وهي المسؤولة عن اللغة، منها للكلام وأخرى للكتابة، وثالثة للكلمات المسموعة، وقد توصلوا إلى معرفة "أن هناك علاقة بين القدرة اللغوية وبين المراكز المتمركزة في المنطقة اليسرى من المخ.

ومازالت الأبحاث جارية لمعرفة كيفية تخزين الألفاظ ولمعرفة كيفية تخزين المعاني.

والذي يهمنا من هذه الإهتمامات، هو النظر في الشكل الذي يحققه صانع الكلام وواصف الجمال، فالشكل موضوع هام في الدراسات البنيوية الحديثة، وخاصة أن الأسلوب ينبع من ذات الأديب والخطيب والمتكلم فاللغة لا تفرض على الإنسان من الخارج، بل هي استجابة ملحة لمعاني الكاتب والشاعر والخطيب والمفكر والمتعلم والجاهل، وهي معاني كما أشرت مرتبة في النفس، فيلقي بها الفكر إلى دائرة الإحساس فتتبعها الألفاظ متلاحقة تبعاً لمستويات صرفية ونحوية ونفسية ومادية ومعنوية فتتولد العلاقة لحظة انضمام اللفظ بعضه إلى بعض فتجمعه سيالة نفسية شبيهة بالسيالة العصبية في جسم الإنسان.

قال عبد القاهر الجرجاني في دلائل الأعجاز:

«بأن ذلك أن الأمر على ما قلناه، من أن اللفظ تبع للمعنى في النظم وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتيب معانيها في النفس»[١].

ويقول هنري برجسون:

«فتترتب الألفاظ في الحافظة الفكرية على الشكل الآتي:

أسماء الأعلام ثم تليها أسماء النكرات والنعوت، فالأعلام، وهي طبقات بعضها فوق بعض وقد تصاب هذه الألفاظ بالأعياء والمرض»[٢].

---

(١) دلائل الأعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٣٩.
(٢) هنري برجسون ـ ص ٤٦.

إن الوظيفة الرئيسية التي استطاعوا تحديدها في الدماغ هي الذاكرة، وذاكرة الألفاظ على وجه الدقة عندما درسوا أمراض اللغة، فقد أدت بالباحثين إلى تحديد بعض التلافيف المعينة في قشرة الدماغ لبعض الأشكال المعينة من الذاكرة الكلامية.

ب ـ نظم العبارة :

يظن البعض أن الألفاظ في نظمها وترتيبها في أعلى مستوى الفصاحة لها طرق معروفة، وقد يكون الأمر كذلك، إلا أن الواقع العلمي يتطلب تتبع ترتيب المعاني في النفس وكيفية انتظامها، ثم الظروف التي تحيط بها لنعلم منها شكليات السبل التي تعطينا أعلى أنواع الفصاحة والبلاغة، لأنه لا بد للفصاحةً من دافع يبعثها، ولا بد للألفاظ من ناظم ينظمها، فهناك أسباب وهناك محرضات تبعثها وتجبرها ثم حوافز تجر الألفاظ على اختبار مواقعها في الجمل، تتخذها لتعبر عن معانيها المرتبة في النفس فهناك علم لواقع المعاني في النفس مثلما هناك علم بمواقع الألفاظ في التعبير الدال على نفس المعاني.

ولتوضيح ذلك لنأتي بخطبة قصيرة من خطب الجاهلية الفصحاء ونتتبع ترتيب المعاني في النفس وفي نفس صاحب الخطبة، وندرس الظروف التي وردت فيها مع العوامل النفسية والاجتماعية والسياسية، ثم نتناول مفردات الخطبة حسب المعاني، فندرس ترتيبها في التعبير داخل النص جملة جملة، سنجد بعد ذلك أن الألفاظ كانت خدماً للمعاني دالة عليها في النطق.

وبعد طرحنا للمثل التطبيقي لخطبة بن هانيء الشيباني، نجد أن ترتيب المعاني في النفس كانت هي الباعث والمولد لأجود الأساليب الخطابية، ويمكن تطبيق هذه الطريقة على كل النصوص.

والباب الرابع من هذا البحث سيكون عملاً تطبيقياً لهذا المنهج.

إذا علم طريق نظم المعاني وترتيبها في النفس، نتوصل منها لمعرفة كيفية نظم العبارات حسب نظمها في التفكير، وفقاً لقانون داخلي تجميعي يدفع بالبنية الظاهرية للكلام إلى السطح.

جـ ـ القانون الداخلي للبنى الداخلية:

تعريـــف:

إن الجملة من خاصية الدلالة والفهم هي أقل كمية من الكلام، ثم هي من حيث البنية تتركب من ثلاثة عناصر أساسية، هي المسند والمسند إليه والإسناد وقد تضاف إليها عناصر أخرى، ويشير عبد القاهر الجرجاني إلى أهمية مواقع الألفاظ في سياق الكلام قائلاً:

«إن تعرف للفظ موضعاً، من غير أن تعرف معناه، ولا تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وإنك تتوخى الترتيب في المعاني، وتعمل الفكر هناك فإذا تم لك ذلك اتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها.

وإنك إذا فرغت من عملية ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها، خدم للمعاني وتابعة لها، ولاحقة بها، والعلم بموقع المعاني في النفس علم بموقع الألفاظ الدالة عليها بالنطق»[1].

يعد عبد القاهر الجرجاني بفكره هذا، رائد فكر وزعيم لغة، وهو من أنصار الصلة والالتحام بين اللفظ والمعنى، وعدم إمكانية الفصل بينهما، لعدم توفر لغة بدون فكر أو وجود فكر بدون لغة، والصلة بين الفكر واللغة

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٤٢.

وثيقة وقوية، وإن عملية التفكير اللغوي تتم في آن واحد.

فالكاتب حينما يكتب رسالة أو رواية، والشاعر حينما ينظم قصيدة لا يفكر في الألفاظ ولا يطلبها بأي حال من الأحوال، بل يطلب المعنى فتجيء ألفاظه حسب ما طلب من معان.

ويستخدم اللغة الناظم والناثر، وكلاهما يستخدم المادة اللغوية لمعانيه وسيلة، إلا أن هذه صنعة يجب تجويدها، وهي صنعة وتأنق عند البعض، وفي التعرف على البنى اللغوية العميقة يفيدنا حتماً بالتعرف على بنى التفكير والبنى السطحية.

يقول ريمون طحان:

«إن التعرف على البنى اللغوية يؤدي حتماً إلى التعرف على بنى الفكر والتفكير إذ يحدث تطابق بين هيكل اللغة وهياكل الذهن، واللسان مرآة صادقة تعكس صورة الفكر»[1].

لم أجد أحداً من المفكرين اللغويين القدامى العرب من أشار صراحة إلى حقيقة وجود علاقة طبيعية بين الفكر واللغة، بل وجدت منهم من أحس بحقيقة هذه العلاقة وعبر عن إحساسه بها فأشار إلى ائتلاف اللفظ مع المعان، أو إلى موقع الكلمة.

وموقع الكلمة في السياق وأهمية معاني النحو في الفصاحة والنظم وهي إحساسات متطورة حسب تطور الرقي اللغوي عبر العصور، وواقع الأمر لم أجد فكراً أسمى ولا أرقى من فكر عبد القاهر الجرجاني.

ومن أقواله الهامة في هذا المجال:

---

(١) الألسنية ٣/٢ الدكتور ريمون طحان ص ١٤٥.

«واعلم أن ما نرى إنه لا بد منه في ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص ليس هو الذي طلبته بالفكر ولكنه شيء يقع بسبب الأول ضرورة من حيث أن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعانية، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها وأعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض، ونجعل هذه بسبب من تلك، هذا مما لا يجهله عاقل»(١).

وقد مر معنا، أن واضع الكلام مثله في ذلك مثل من يأخذ قطعاً من الذهب والفضة فيذيبها حتى تصير قطعة واحدة، وجملة الأمر إنه لا يكون هناك ترتيب في شيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة.

وهذا أمر النظم إنه ليس شيئاً غير توخي معاني النحو بين الكلم وإنك ترتيب المعاني في نفسك ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك.

وأنا لو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعاني لم يتصور أن يجب فيها نظم وترتيب:

«وليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه، وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها»(٢).

ويقصد عبد القاهر من هذه الأراء المعاني الإضافية التي يصورها علم النحو والصرف دون الهدف إلى موضوعية الفاعل والمفعول، لأن مزية النظم متكاملة ويهتم حازم القرطاجني بالمعاني باعتبارها جواهر اللغة قائلاً:

«وإن المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فكل شيء خارج الذهن فإنه إذا أدرك جعلت له صورة في الذهن

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٣٨ ـ ١١٦.
(٢) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ١١٦.

تطابق كما أدركها»[1].

من هنا ندرك أهمية المعاني في فكر اللغويين القدامى عند العرب فهي أصل في كل تعبير لغوي.

وبهذه الآراء نصل إلى الأسرار التي تساءل عنها المفكرون المحدثون واعتبروها غامضة في العصر الحديث، وهي كيفية تكون التراكيب اللغوية عند الإنسان وطرق صنع الملايين من الجمل، وهي في مجملها عمليات عقلية تتداخل فيها علوم شتى لتوضيحها.

وكان من الطبيعي أن يقف الباحثون أمام طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر ويحاولوا إدراك سر ذلك الارتباط بين الدلالة التي تنتشر في نفس الإنسان وبين الصياغة التي تحمل له الدلالة، وكانت طبيعة ذلك الارتباط أن تثير في عقول الفلاسفة اللغويين والأدباء الاهتمامات البالغة.

وفي معرفتنا لأسرار طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة ندرك ظروف نظرية النظم التي انتجها عبد القاهر الجرجاني ومدى قيمها العلمية، مثل القيمة العلمية لمعاني النحو، والقيمة العلمية لحسن الدلالة والقيمة العلمية لحسن صياغة العبارة.

والقيمة العلمية للفصاحة والقيمة العلمية للمعاني من أنها أصل في كل تعبير لغوي، وإنها الأساس في صنع الملايين من الجمل التي لم يقلها أحد من قبل أو لم يسمع بها أحد من البشر.

يتضح من هذه النصوص وسواها، أن اللغويين القدامى العرب قد اعتبروا معاني النحو أساساً للدراسات اللغوية وجعلوها نظرية لغوية، وإنها أفكار متقدمة على سواها في العصر الحديث. وهو ما قصد إليه أصحاب

---

(١) حازم القرطاجني ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ١٨.

النظرية التحويلية عند اللغويين الأوربيين، هذا وأن إمكانية اخضاع المعاني لمنهج رياضي أصبح في العصر الحديث ممكناً على ضوء الجهود المتطورة عبر العصور على اعتبار أن مجموعة المعاني داخل موضوع معين وفي نص معين تخضع لقانون المجموعات، وأن مجموعة معان ما في موضوع معين تشكل مجموعة معاني معرفة تخضع لقانون التركيب الداخلي وهي البنى العميقة وستتضح هذه الخطى وتبرز منافعها أثناء عملية التطبيق والتحليل في الباب الرابع من هذا البحث، لذلك اكتفي بالإشارة إلى مثل هذا المنهج الرياضي وخصائصه التجميعية والتبديلية والنظيرية وخاصة العنصر الحيادي، وإليك الجوانب الهامة من هذا القانون القادر على بعث عناصر كانت في الأعماق إلى السطح وهي البنى السطحية وهي الشكل الحامل للمضامين الكليـــة.

* .... * ... * ... *

الفصل الثالث

آ ـ قانون التركيب الداخلي للبنى العميقة:

أخضعت الدراسات اللغوية المعاصرة، علم المعاني لمنهج علمي، على اعتبار أن معاني النحو أساس للدراسات اللغوية المعاصرة، وكان ذلك محاولة من رائد الدراسات الغربية نوم تشومسكي، للوصول بالبحث اللغوي إلى مستوى النظرية المنتجة لعدد كبير من الجمل.

ومن باب الاستفادة والانتفاع بتلك الجهود الشابة، وبمقارنتها بجهود السلف الناضجة كانت محاولتي لتخضيع المعاني للمنهج الرياضي.

وهو قانون داخلي خاص بالمجموعات المعرفة، والمتضمن لخواص عديدة منها الخاصة التجميعية، وعنصر النظير، والخاصة التبديلية وخاصية العنصر الحيادي.

وهذه الخواص تشمل علم المعاني وتخضعه لخواص رياضية، على اعتبار أن المعاني داخل جملة أو داخل فقرة، أو داخل نص تشكل مجموعة معرفة تشترك مع غيرها فتشكل في مجموعها مجموعة معان معرفة تجمعها وحدة عضوية داخل مجموعة كبرى، ومن هذه المعاني ما يكون ذات طبيعة

جوهرية، ومنها هذه المعاني ذات طبيعة ثانوية وايحائية تدور حول بعضها بعض في فلك واحد، وقد يتشكل معنى جملة معنى جوهرياً أو نـــواة لمعنى كبيـــر تدور حوله معان أخرى وكأنها كهارب تدور حول نواة ذرة، هي معاني ثانوية وايحاءات وكان ذلك هو شأن المعاني في فقرة، قد تشكل زمرة من المعاني داخل النص مكونة من عدة معان متتابعة.

ومن باب الفرضية يمكن القول أن إحدى هذه المجموعات صغيـرة وأخرى كبيرة مكونة من مجموعة معاني داخل مجموعة معرفة كبرى هي الحرف هـ ، أو س أو ع.

فإن المجموعة هـ من المعاني = [آ× ب × جـ = [آ × ب] جـ = آ + [ب × ج].

كأن نقول: أن معنى قريب من معنيين مضافاً إليها ثلاثة معان قريبة من تلك المعاني.

فإن هذه المعاني تكون في النهاية ستة معاني:

[١ × ٢] + ٣ = ١ + [٢ × ٣] = فالنتيجة هي ٦ ستة معاني.

فالنتيجة إن مجموعة معاني في جملة، أو في فقرة أو في نص= تشكل مجموعة تجميعية واحدة قادرة على بعث مجموعات متعددة من اللفظ إلى السطح، فهي مجموعة معرفة.

فالخاصة التجميعية في البنى الداخلية، قادرة على إنتاج عدد كبير من الجمل تصل في عددها إلى البنية السطحية للنص بأجمعه، فالمعاني هي الباعثة للشكل، والمعنى هو الأصل في إنتاج جمل عديدة.

ويمكن أن يقال إن مجموعة معان معرفة ومرتبة داخل النفس الإنسانية،

هي ذاتها التي يتضمنها النص، وسواء أكان تعدادها عشوائياً أم مرتباً من اليمين أو الشمال أو من النهاية حتى البداية، فإن هذه المعاني تشكل مجموعة معان معرفة تخضع لخاصية رياضية هي خاصية الجانب التجميعي، وإن هذه المجموعة تمتلك خواص أخرى هي الخاصة التبديلية.

كأن يقول المرء، إذا توفر في مجموعة معان معرفة خاصية تبديلية، فإن هذه المعاني تشكل مجموعة جمل ذات خاصية تبديلية.

وعلى وجه التقريب: فإن معاني الصلاة والزكاة والصوم والحج، تشكل مجموعات صغيرة، وتكون مجموعة معرفة من المعاني ومن الكلام، فإذا أضفنا إلى هذه المجموعة مجموعة صغيرة من المعاني المتقاربة كالصدقة، أو الوفاء، والإخاء فإن هذه المجموعة الصغيرة تشكل خاصة تبديلية يمكن اشتراكها بمجموعة أخرى من المعاني التي تتمم مجموعة من الفضائل الدينية أو الفضيلة الاجتماعية، وأن مثل هذه المعاني تشكل زمرة من المعاني داخل المعاني الكلية أو داخل النص المتضمن للمعاني الكلية.

وإذا امتازت مجموعة من المعاني داخل جملة أو داخل فقرة أو داخل نص بهذه الخاصة التبديلية نقول أن هذه الزمرة من المعاني المعرفة ذات خاصة تبديلية نستطيع تبديلها داخل مجموعة أخرى قريبة مثل هذه المعاني لإنتاج جملة أخرى أو فقرة أكبر أو نص مخالف للنص السابق.

وضمن هذه المفاهيم الرياضية يمكن للمرء أن يدرك، هذه الخاصية أثناء الكلام المنقول بين المتكلم والسامع، فقد يواصل المتكلم عرض معان مقاربة وقد يقدم منها ما حقه التأخير على سبيل أن هذه المعاني تشكل مجموعة معرفة، وهذه الطرق المتنوعة في التعبير، كانت حسب استعداد المتكلم لعرض معان مع إنسان يصغي إليه، وستتضح هذه الخواص في

الباب الرابع عند إجراء التطبيقات على بعض النصوص وعلى مجموعة معان معرفـــة.

وبذلك يصدق تقديرنا: أن البنى السطحية ما هي إلا نتيجة لبنى كانت في الأعماق، وأن المعاني هي التي دفعت بالكلام إلى السطح.

والمعاني هي الدافع للشكل الخارجي وهي مجموعة معان معرفة مثلها في ذلك مثل أي مجموعة حسابية أو هندسية، تخضع للقانون الرياضي الخاص بالمجموعات.

ومثل هذه المجموعات تتضمن خاصية أخرى، كأن يكون أحد هذه المعاني يسمى بالعنصر الاحادي. والعنصر الاحادي في مجموعة معاني أو داخل زمرة من المعاني المرتبة في النفس بحيث تكون ضمن المجموعة المعرفة الأولى، فإذا دخل العنصر الاحادي في عملية التركيب مع أي عنصر من عناصر المجموعة المعينة سواء من اليمين أم من اليسار أو من البداية أم من النهاية أو من الأسفل أو من الأعلى فالنتيجة أن العنصر الاحادي قادر على الالتحام مع المعاني المعرفة داخل المجموعة، والعنصر الحيادي يمثل جملة أو فقرة أضيفت أو يمكن إضافتها داخل المجمـوعة الأولى، وهي الطريقة التي تساعدنا على إنتاج عدد ما لا يحصى من الجمــــل.

ومن باب الفرضية إذا كان العدد اثنان داخل مجموعة معرفة من المعاني فإن العدد واحد هو عنصر احادي، سواء كان من اليمين أم من اليسار ١ × ٢ =٢ × ١ النتيجة واحدة هي العدد اثنان، وإليك مثل آخر يمثل الزمرة أو النص، كأن يكون لدينا مجمـوعة معـان تحكي قضية هجـرة العمال الجزائريين إلى فرنسا، ونضيف إلى هذه المعاني عنصراً احادياً، فإن المعنى العام سيبقى هو المضمون العام خاصاً بهجرة العمال الجزائريين إلى فرنسا،

إذا أضفنا إلى تلك الزمرة من المعاني عنصراً احادياً فإن المعنى الكلي لن يتبدل.

س . ج = ج ، س - فإن الحرف س سيبقى عنصراً حيادياً.

فالعنصر الحيادي من المعاني داخل زمرة، لا يمكن أن يكون إلا عنصراً ثانوياً وحيادياً أيضاً، لأنه مضاف إلى معاني جوهرية.

ولقانون البنية الداخلية خاصية أخرى هي خاصية عنصر النظير خاصية عنصر النظير هذه خاصية داخل مجموعة معرفة من المعاني أن أي عنصر من عناصر المعاني المضافة، يمكن رفعه من مجموعة من المعاني إلى مجموعة أخرى متقاربة للمعاني الأولى، ويتركب معها مع عناصر من المعاني في المجموعة الثانية، وتكون المعاني الكلية واحدة، فإذا كان المعنى المضاف أو المرفوع من مجموعة سابقة إلى مجموعة من المعاني اللاحقة فإن مجموعة المعاني لن تتبدل.

ولتقريب هذه المفاهيم إلى الذهن بصورة أوضح، نفترض أننا أضفنا معنى الصدقة إلى معاني الصوم والزكاة والحج والشهادة، فإننا بنفس الصورة يمكن ضم معنى الصدقة إلى مجموعة من المعاني التي تتضمن الحديث عن الكرم والشجاعة والوفاء والإخاء، وسواء كانت الصدقة في المجموعة الأولى من المعاني الكلية أو نقلت إلى مجموعة من المعنى التي تتضمن الحديث عن الفضيلة من كرم وشجاعة ووفاء، فإن المعنى الكلي لا يتغير، وإننا نسمي معنى الصدقة عنصر نظيرياً بين المجموعتين المتقاربتين.

هذا ولا يجوز أن يكون لمجموعة معرفة أكثر من عنصر نظير واحد، كأن تكون مجموعة معان تتضمن عنصراً نظيرياً واحداً هو ١/٤ والعدد ٤ هو المعنى الجوهري في مجموعة معرفة، فإن العدد ٣ ١/٤ يكون عنصراً نظيرياً

في نفس المجموعة كأن نقول ٤ × $\frac{1}{4}$ = $\frac{4}{4}$ = ١

فالنتيجة واحدة، فالعدد $\frac{1}{4}$ هو عنصـــر نظيـر للعدد ٤ .

كأن تكن س مجموعة معاني معرفة في جملة أو في فقرة أو في نص وتكن $\frac{1}{س}$ هو عنصر نظير في نفس المجموعة، فإن النتيجة واحدة لا تتغير س × $\frac{1}{س}$ = $\frac{س}{س}$ = (١).

فإذا توفرت هذه الخواص في مجموعة من المعاني داخل جملة أو فقرة أو داخل نص، فإن هذه المجموعة تخضع للقانون الداخلي للبنى العميقة وأن هذه الخواص قادرة على تخضيع مجموعة من الكلمات أو الجمل أو الفقرات منتظمة تنتظم مع بعضها بعضاً، وأن هذا الضم خاضع لخواص رياضية محسوبة بعيدة عن العشوائية، وسنعرض لهذه الخواص في الباب الرابع.

ب ـ قـوة العلاقة بين الفكر واللغـة:

والحقيقة التي لم يتوصل إليها اللغويون القدامى العرب هي الكشف عن ظروف طبيعة العلاقة شكلاً ومضموناً، وطاقة وروحاً، واتجاهاً ومكاناً وزماناً، أي لم يستـطيعوا الكشف عن أسـرار هذه العـلاقة الكـائنة بين الأصوات والمنطق، أو بين التعبير والمعنى أو بين اللغة والفكر، فاكتفوا بحسن الجوار بين اللفظ واللفظ، وقال الجاحظ:

«أحسن الكلام ما كان يغنيك قليله عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه

---

(١) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص ١٩٢ ـ جـ ١.
(٢) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ ص ١٦٩ ـ ٤١.

وقالوا عن الصلة الروحية بين الألفاظ والمعاني أمثال العتابي وابن رشيق القيرواني عندما قال: «اللفظ جسم روحه المعنى».

ثم أشاروا لما يصيب الألفاظ من أمراض وعلل، ولما يصيب الروح من أعياء، وقال أصحاب الفصاحة فصاحة اللفظ، من أن اللفظة تكون فصيحة في موضع وغير فصيحة في مواضع عديدة، وأشاروا إلى المعاني وأهميتها بالنسبة للفصاحة والنظم، والمعاني عندهم شاملة للمعاني الأصلية وللمعاني الإضافية واعتبروا معاني النحو شاملة لعلم الصرف ولعلم النحو، ولمواقع الكلام من السياق.

وقد سخروا جهودهم اللغوية لخدمة القرآن الكريم وأسلوبه المعجز...

وكانت دراساتهم اللغوية جزءاً من الدراسات القرآنية، ثم أن تلك الدراسات لم تصل إلى المستوى اللائق إلا في القرن الخامس الهجري.

إن التعليل الدقيق لما أحسوا به جميعاً وفي شتى عصورهم، هو أن الفكر يرمي بالمعاني التي تحسها النفس الإنسانية، ويلقى بها إلى ساحة الإحساس بالمعاني، فتحذو حذوها الألفاظ ثم تقفوا خلفها وتتبعها، وما هي إلا خدم للمعاني كما أشار إلى ذلك أنصار المعاني وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني.

«ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير، والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منها خاتم أو سوار»[١].

ثم أن المعاني أنواع فمنها المعنى العميق، ومنها المعنى الخفيف ثم

---

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ ص ١٦٩ ـ ٤١.

القريب والبعيد، ومنها المعنى السخيف فتحتضن ساحة الإحساس من هذه المعاني كل وحسب قيمته، فتتبعها الألفاظ إلى ساحة الإحساس مجذوبة متلاحقة كانتظام براد الحديد حول قطبي مغناطيس.

يقـــول الجاحظ:

«لكل ضرب من الحديث نوع من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسمـاء فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجـزل للجزل، والإفصاح موضع الإفصاح»[1]

ويقـــول هنـــري برجسون:

«فالدماغ يضمن تلاؤم الفكر في كل لحظة، ويصون اتصـال الفكر بالواقع بدون انقطاع، وما إيقاع الفكر إلا إيقاع ناتج عن تحركات المعنى داخل اللفظ، وعندئذ فلا يكون للفظ على حدة أي شأن، ولا يكون ثمة إلا المعنى المتحرك النافذ في الكلمات، ولا يكون ثمة إلا فكران ينبضان معاً على إيقاع واحد. فالدماغ عضو التعبير عن الفكر بإشارات وظيفته، وحياة الفكر نقطة اتصال الفكر بالمادة»[2].

ويقـــول أيضـــاً:

«وما المعاني التي تقابلها الألفاظ إلا تصورات تبزغ في الذهن في كل لحظة من حركات الفكر، ثم أن المعنى وقفة للفكر كما قلت سابقاً، ينشأ حين يبدو للفكر أن يتوقف للفترة ويرتد إلى ذاته»[3].

ويقول الدكتور سامي الدروبي:

---

(١) البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ ص ١٩٢ جـ ١.
(٢) هنري برجسون ـ الطاقة الروحية ص ٤٦.
(٣) هنري برجسون ـ الطاقة الروحية ص ٤٣.

«وإننا حينما نفكر يندر إلا أن نتحدث عن أنفسنا فنخطط حركات الألفاظ المعبرة عن الفكر، وأن الفكر متصرف إلى عمل».

ويقـــول:

«تترتب الألفاظ في الحافظة الفكريـة على الشكل الآتي:

أسماء الأعلام أولاً ثم تتبعها أسماء النكرات والنعوت فالأفعال طبقات بعضها فوق بعض، وقد تصاب بالأعياء أو المرض»(١).

وبعد تفاعل المعاني مع الألفاظ داخل ساحة الإحساس بالمعاني فتولد العلاقة الطبيعية داخل التعبير، قبل خروجه إلى عالم الواقع كما تولد الروح في الجنين داخل الأرحـــام.

وكلما وصلت معان إلى دائرة الإحساس لحقتها الألفاظ المناسبة لها وقوفاً وكأنها شريط من الكلام ذات مستويات متعددة.

يقول الدكتور ريمـــون طحان:

«في طبيعة نظام الجملة الخطية فهي تنتظم، وتتألف من عناصر تنتظم في عـدة مستويـات، مستوى الصـوت والمعجم والصـرف والنحـو والتركيب»(٢).

وكل ما في هذه المستويات يسعى في حبك عناصر الجملة، فتتداخلت كل هذه المستويات بواسطة عناصر صوتية وشكلية، تخضع لقواعد معينة، داخلية وأخرى خارجية، يشملها القانون التجميعي للبنية الداخلية والخارجية.

---

(١) الدكتور سامي الدرويي - ص ٤٢.
(٢) د . ريمون طحان - الألسنية - ص ١٥.

إن اللغة تنظيم أو بالأحرى تنظيم وظيفي يتألف من مجموعة وسائل التعبير الصوتية أو الكتابية التي تنسجم مع غايات معينة هي الفهم والإفهام والتواصل يتضح من هذه الآراء مجتمعة أن الجملة تتألف من عناصر أو مستويات فيرتبط بعضها ببعض وتأتي كل واحدة أثر الأخرى، تتعاون جميعها على تصوير المعنى، لتوضح طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة، ولتوضح أيضاً أسباب هذا النظام الذي يجعل الألفاظ تتلاحق وتنظم في تعبير معين داخل جملة أو فقرة أو نص. إن الجهود اللغوية التي بذلها اللغويون المحدثون العرب جهود تقليدية اتباعية فقد انساقوا وراء أحدث النظريات اللغوية عند الغربيين أمثال تشومسكي وأنصاره، فوصلوا معهم إلى طرق مغلقة أثناء بحثهم عن طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة أو بين اللغة والمنطق، فقالوا عنها سر غامض، وأدعى بعضهم أنها لم تتضح بعد، وقالوا عنها إنها خليقة أو حلقة مفقودة في أسرار الفكر، يجب دراستها مع بقية معاظل الإنسان الأخرى وكيانه البشري، وكل ما كان ينقصهم هو الإطلاع الوافي على الجهود الفكرية عند اللغويين القدامى العرب، وفي طليعة هؤلاء المفكرين اللغويين المحدثين الدكتور ريمون طحان في الألسنية والدكتور نايف خرما في كتابه أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، والدكتور كمال يوسف الحاج في كتابه في الفلسفة اللغوية، والدكتور حنفي بن عيسى في كتابه محاضرات في علم النفس اللغوي، وجلهم تبني أفكاراً غربية دون عودة إلى التراث فقد وقفوا جميعاً دون الغاية.

تلعب العلاقة اللغوية دورها في حبك عناصر الجملة فتتداخل المستويات المعجمية مع الصرفية والنحوية مع المعاني الأصلية في شكل

---

(٢) د نايف خرما ـ أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة.

معين،وكان على المحدثين في فكرنا اللغوي المعاصر ممن انساقوا وراء الدراسات الغربية أن ينتبهوا إلى هذه المستويات وكيف تنتظم ثم كيف تتحرك لتنظم لغة أو تعبير، ولو كلفوا أنفسهم جهداً لإحياء التراث أو الانتفاع منه، ثم الاستفادة من الجهود الغربية لجاءت دراساتهم أقدر وأفضل مما وصل إليه اللغويون اليوم في الدراسات الغربيـــة.

إن سبب انتظام هذه المستويات وتداخلها هو ترتيب المعاني في النفس ثم وصولها إلى دائرة ساحة الإحساس بالمعاني، فتنجذب إليها الألفاظ وقوفاً متلاحقة، فتولد روح العلاقة الجامعة بين الألفاظ والمعاني معاً، ثم يكتمل خلق العلاقة الطبيعية، فترسل بالعبارات خارج الساحة إلى مجالات الحياة عن طريق الفهم وبواسطة اللسان.

وتتفاوت دائرة الإحساس بالمعاني من شخص لآخر، وبين كاتب وشاعر حسب المواهب والثقافة والجنس والعمر والموقف، إلى أن تصل مراتب الإبداع أو التخلف.

إذن القوة التي تحدثوا عنها لم تعد سراً غامضاً ولا حلقة خفية، بل هي خليقة حقيقية واقعة بين الفكر واللغة، وهي علامة جامعة ذات قطبين فهي علاقة مبصرة، عاقلة، منظمة، لأنها جزء من روح الإنسان، وحقيقتها من حقيقة روح صاحبها ماضياً وحاضراً، فهي الروح السارية المتغلغلة في بنية العبارات وفي الأجساد الإنسانيــة.

هي الروح المنظمة للألفاظ التي هي أجساد أرواحها المعاني المتجسمة في الإدراك، وهي الروح السارية في عالم الأحياء وفي عالم الوجود.

ومع مزيد من التضليل وفقدان الفكرة. قال الدكتور ريمون طحان:

«العلاقة غامضة بين الصوت والمعنى وتحويل الصوت المسموع إلى

تصور فكري يجري في سر كبير يشبه إلى حد ما اتحاد المادة بالروح»[١].

وما الغاية من هذا الكلام إلا تصوير لمختلف المراحل التي بواسطتها يتمكن الفكر من بيان عمليات التحويل داخل مختلف مستويات التركيب من نحو وصرف ومعجم وصوت.

كان إحساس الدكتور طحان في مجال العلاقة إحساساً صادقاً واعترافاً كبيراً بضياع الفكرة، وكان صدقة محصوراً بروح العلاقة الشبيه بروح اتحاد المادة بالروح، وهو ما عبرت عنه بميلاد العلاقة داخل دائرة الإحساس بالمعاني والشبيهة بميلاد الروح بالأرحام.

وتوضيحاً لما تقدم وتأكيداً لما ذهبت إليه أقدم نصاً لحمد بن حميد الخطابي من رواد الفكر اللغوي في القرن الرابع الهجري المتوفي سنة ٣٨٨ هـ قال:

«إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة، لفظ حامل، ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور فيه في غاية من الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد بها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى التفرق في أنواع الكلام»[٢].

فالقرآن صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ، وفي أحسن نظوم التأليف متضمناً أصح المعاني من توحيد الله عز وجل، وتنزيه له ودعاء إلى طاعته،

---

(١) الدكتور ريمون طحان ـ الألسنية ص ٥١ $\frac{٣}{٢}$.

(٢) بيان إعجاز القرآن لأبي سلمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي ص ٢٧.
ثلاثة رسائل حققها محمد خلف الله ـ د محمد زغلول سنة ١٩٦٨ م .

وبيان لمنهاج عبـادته، من تحليـل وتحريم، وحـظر وإباحـة ووعظ وأمر بمعروف ونهي عن المنكر.

من هنا كانت دائرة الإحساس بالمعاني عند الإنسان دائرة محدودة نسبية إذا ما قيست بدائرة الإحساس للمعاني القرآنية، وتبين لنا أسبـاب عجز العرب عن معارضة القرآن وأسلوبه ولو بسورة أو آية من مثله.

جـ ـ مفهـــوم معاني النحـــو:

وكلما كنـا دقيقين في الوصف، حددنا بالضبط التداخل الحاصل بين الشكل الصوتي أو التعبير الكتابي مع الصورة الدلالية أو المعنويـــة.

إن اتحاد أجزاء الكلام، وادخال بعضه ببعض، أن يشتد ارتباط ثان منه بأول وأن نضعه وضعاً واحداً في النفس، وكي يكون حالنا فيه، حال من يضع في يمينه ههنا ما يضعه في يساره هناك، هو النظم المطلوب في التعبير عن الحس والفكـر.

«ولا يكون الضم فيها ضماً، ولا الموقع موقعاً، حتى يكون قد توخى فيها معاني النحو، وإنك وإن عمدت إلى ألفاظ، فجعلت تتبع بعضها بعضاً من غير أن تتوخى فيها معاني النحـو، لم تكن صنعت شيئاً تـدعي به مؤلفاً»[1].

إن من خصائص توخي معاني النحو وقيمتها العلمية في مجال الفكر اللغوي العربي أن تتحد أجزاء الكـلام في بناء محكم لا اعـوجاج فيـه متماسك الأحكام بجميع صنوفه وأحكـامه وأركـانه، بحيث تكـون النظرة للتراكيب اللغوية متكاملة، فالمميز النحوي في النحو العربي، رمز في غاية الأهمية وهو رابط مادي قابل للتبدل وللتغير وهو الذي يحول دون اختلاط المعاني، ويمنع الالتباس، ويصنف المفردة المضبوطة بالحركة في باب من

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ص ٢٤٠.

أبواب النحو، ذلك أن اللغة العربية احتفظت بظاهرة المميز النحوي منذ مولدها، أي بتحريك أواخر الكلمات وفقاً للوظيفة النحوية التي يؤديها. . ومن أجل ذلك كـان النظام النحوي الشامل هو لب الدراسات اللغويـة المعاصرة، بل هو قلب الدراسات اللغوية جميعها، كما ذكرت هذا في أكثر من موضع، يقول الدكتور ريمون طحان حول دور معاني النحو في نظم اللغة في العصر الحديث:

«وجدنا في الجملة حتى الآن عدة مستويات، صوتية معجمية وصرفية ونحوية، ولاحظنا أن هذه المستويات تتداخل لتؤدي المعنى المقصود وأن قواعد معينة وأصولية، تقوم بربط كل من المستويات المعينة بالمستوى الذي يليه أو الذي يسبقه»(١).

يقول الدكتور مصطفى مندور في كتابه اللغة بين العقل والمغامرة:

«وركز عبد القاهر آراء فريق من سلفه وأظهر الأساس في النظم هو مراعاة معاني النحو، ويؤكد فريق من المناطقة المحدثين أن النحو هو الجزء الأول من معاني النحو، لأنه بدء تحديد عمليـة التفكير ومبـادىء النحو وقواعده هي الوسائل التي تصبح فيه صور اللغة مماثلة تصور الفكر الكلية العامة (٢).

ولا بد للمطلع على هذا العلم أن يميز بين الشكل العظمي الذي أراده عبد القاهر الجرجاني للجملة من ناحية، وبين شكلها المنطقي من جهة أخرى لأن الحالة الأولى لا تتأخر، ولا تماثل الحالة الثانية، وواقع الاسم في لغتنا العربية وظيفية محصورة في قبولة المميز النحوي من كسر وضم

---

(١) الدكتور ريمون طحان : الألسنيات ص ٧٣، ٢/٣.
(٢) الدكتور مصطفى مندور : اللغة بين العقل والمغامرة ص : ٩
(٣) انظر : الدكتور نايف خرما ، مجلة المعرفة ، ص ٢٠٨.

وفتح بل إن الاسم يأتي لتأكيد حقيقة من الشيء أو جانب من جوانبه وهذا القصر أو التحديد لوظيفة الاسم تعتمد على قيمة الاسم والمسمى، ذلك جانب بالغ الأهمية في النشاط اللغوي الذي تتعهد الأسماء من وظيفة لغوية وبنفس المنهج يتحدد دور وظيفة العقل في اللغة العربية في تأدية الدلالة.

والفرق كبير في طرق نظم الكلام بين عبد القاهر وبين زعيم المدرسة التحويلية، فإن رأى عبد القاهر الجرجاني صريح من أن لا نظم ولا تأليف في الكلام حتى يتوخى فيها معاني النحو، وهو القدر المشترط بينهما، إلا أن عبد القاهر قد رأى أن النظم والتأليف في الكلم عمل يعمله مؤلف الكلام في المعاني في معاني الكلم وليس بألفاظها، وهو بما يصنع سبيل من يأخذ الاصباغ المختلفة فيتوخى فيها ترتيباً يحدث عنه ضروباً من النقش والوشي، وهذا هو مفهوم العرب جميعاً لنظم الكلم، الذي رآه أنصار المدرسة التحويلية أنه عمل يتم بصف الكلم وضم بعضها إلى بعض، فالمعنى أصل في كل تعبير لغوي، إلا أن تشومسكي وأنصاره في المدرسة التحويلية التعدادية، كانت جهودهم تفتقر لما عند العرب من جهود وبذلك ظهرت الثغرات في نظريته، وفشل أنصار هذا الاتجاه عن تحقيق تقدم جديد، وإليك نصيباً من جهود أصحاب المدرسة التحويلية اليوم:

يرى عبد القاهر أن دور معاني النحو في التعبير كدور الملح في الطعام وعلى هذه الطريقة جرى تمثيلهم النحوي بالملح في قوله:

«النحو في الكلام، كالملح في الطعام، إذا المعنى أن الكلام لا يستقيم ولا تحصل منافعه التي هي الدلالات على المقاصد، إلا بمراعاة أحكام النحو فيه من الإعراب والترتيب الخاص كما لا يجدي الطعام، ولا تحصل المنفعة المطلوبة منه، وهي التغذية، ما لم يصلح بالملح»[1].

(١) أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني : ص (١٦١، ١٦٢).

ومن المحاولات الجادة للمفكرين اللغويين الغربيين في الكشف عن المستويات المتداخلة، التي تخلق التركيب اللغوي، والذي انساق وراءه الكثيرون في عالمنا المعاصر، من عرب وغير عرب، مما جاء في كتب البعض منهم نقلاً عن طلاب تشومسكي... أن الدكتور ريمون طحان مخطط الخانات.

مجموعة من الأصوات تدل على معنى كامل

كتب يكتب	علم معلم	نشيط نشيط	قال مقالة
كتب	المعلم + ون	النشيط ون	مقالد ن
يكتب ١	المعلم + ون	النشيط + ون	مقالتن
يكتب	المعلمون	النشيطون	مقالة

هذا مخطط تقليدي، حاولت الدراسات المعاصرة إدخال بعض التحسينات عليه: تصوروا مثلاً في جملة: «يكتب المعلمون النشيطون مقالة». تحويل الصوت إلى معنى، هناك عنصران في الجملة، هي مجموعة من الأصوات والمعنى وإذا حللنا هذين العنصرين بالنسبة للسامع، فلاحظ أن الصوت يطرق الأذن ويصل إلى الدماغ الذي يحوله إلى معنى.

حبذا لو سأل صاحب هذا التحليل نفسه، عن الفائد التي يمكن أن

نجنيها من هذا التحليل أو بل التهجي، ثم هـل استطاع هـذا التحليل وأصحابه ومؤيدوه ورافعو رايته في علم الدراسات اللغوية المعاصرة، هل استطاعوا الكشف عن الحلقة المفقودة في علم اللغة العام ألا وهي طبيعة العلاقة الغامضة بين الصوت والمعنى، وكيف يتم تحويل الصوت المسموع إلى تصور فكـري؟

كان عليهم أن يسألوا أنفسهم أسئلة عديدة عن دور هذه الجهود وما أضافته إلى التراث الإنساني في علم اللغة العـام.

وقد وردت أول إشارة إلى حتمية استعمال المعاني في التحليل اللغوي في أول مجموعة من القواعد التي اقترحتها النظرية التحويلية والتي قد سميت بقواعد التحليل النحوي.

فالقواعد التقليدية عند الغربيين كانت معياريـة بمعنى أنها تفـرض الصواب والخطأ بالنسبة للكلام الفعلي الذي يستعمله الناس، ولكن قواعد النظرية الجديدة لا هي بالمعيارية ولا هي وصفاً للكلام الفعلي، بل هي قواعد للجملة على أساس أنها تشكل تجريدي، نظري فـلا علاقـة لها بالصواب والخطأ للاستعمال الفعلي للغة.

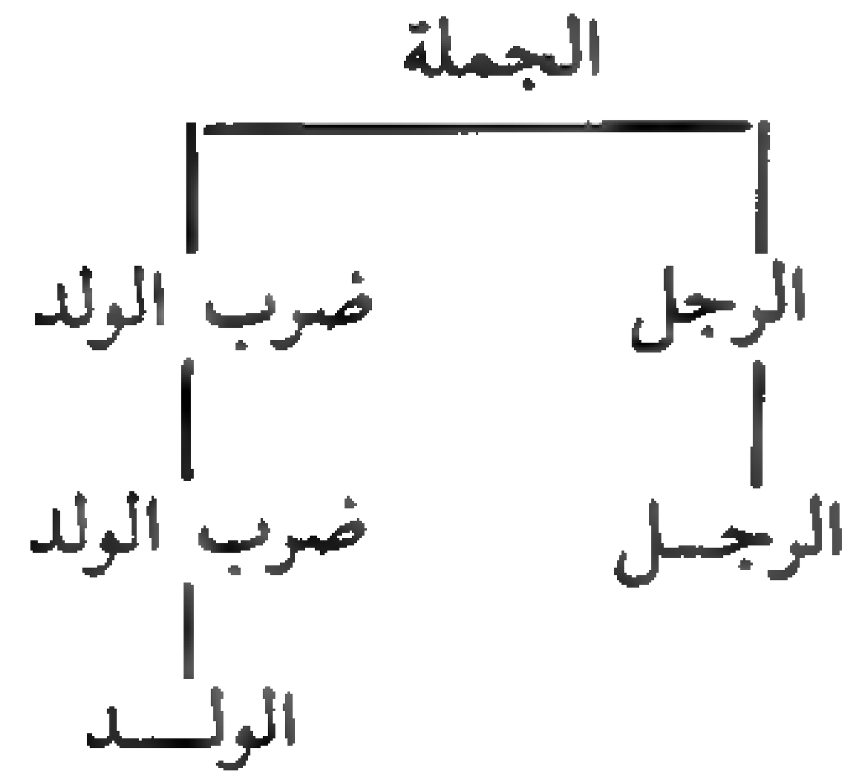
وأولى هذه الخطوات أو التطبيقات للقواعد التحويلية للغة تظهر لنا من الشكل الآتـي:

الرجـل ضرب الولد

وتنظم القواعد الجديدة

المعاصرة نفس هذا التركيب التعبيري

على الشكل الآتي:



(١) أسرار البلاغة ـ عبد القاهر الجرجاني ص ١٦٢.
(٢) الدكتور ريمون طحان ـ الألسنية ص ٥١ ٢/٣.

القاعدة الأولى : الجملة ـ مبتدأ وخبــــر.

القاعدة الثانية : المبتدأ ـ الـ + اسم

القاعدة الثالثة : الخبـر فعل + اسم.

القاعدة الرابعة : رقم ٤ الـ الـ التعريف.

الاسـم رجل ، ولـد الفعل : ضرب.

تعطينا هذه الطريقة صورة واضحة عن التركيب الهرمي، وبهذه الطريقة يمكن تركيب أكثر من جملة: الولد ضرب الرجل ـ الرجل ضَرب الولد .

وهي طريقة تشير إلى القواعد اللغوية القادرة على الخلق والتوليد.

فإذا أضفنا فعلاً آخر أو فعلين واسماً آخر أو اسمين تضاعف عدد الجمل التي يمكن تركيبها إلى أن تبلغ الملايين من الجمـل:

كما أننا عن طريق هذه القاعدة فتوصل إلى البنية الداخلية أو العميقة للجملة التي تتألف من العناصر الآتيــة:

الـ + اسم + فعل + الـ + اسم.... بأن يكون لدينا مسند ومسند إليه باستمرار.

وأكرر مذكراً لابرز الجهود اللغوية التي حققها قدامة بن جعفـر في صياغة ملايين من الجمل، ونذكر الجهود التي بذلها تشومسكي في نظريته اللغوية التحويلية بجهود لغوي وناقد من نقاد القرن الرابع الهجري.

ألا وهو قدامة بن جعفر في فكرنا الغربي القديـــم.

عندما حاول صناعة الشعر، وعنـدما جعـل المعاني كقصـاصات في

---

(١) الدكتور نايف خرما ـ الدراسات اللغوية المعاصرة ص ٣٠٤.

حافظة والألفاظ في حافظة منها الأسماء ومنها الأفعال، واختار لكل معنى جيد لفظاً جيداً.

وبعد أن يحدد الغرض من مدح أو وصف أو فخر أو حكم الخ.

يأتي بالمعاني، ويكتسيها ألفاظاً قدراً بقدر، ثم يحدو القافية التي يراها مناسبة حسب طبيعة البحر المناسب لذلك الغرض كأن يكون البحر الوافر في الرثـاء مثلاً.

لقد نجح قدامة بجهوده اللغوية ونجح في حكم ناصية الشعر إلا أنه نسي شيئاً هاماً ألا وهو أن الشعر مادة وجدانية لا يمكن أن تكون بهذه البساطة والسهولة، كأنْ نجعل الألفاظ قصاصات والمعاني قصاصات أو أشكال كصناعة الخشب والأعمال اليدوية. ومن أقواله:

«فأما علم جيد الشعر من رديئه، فإن الناس يخبطون في ذلك منذ أن تفقهوا في العلم، فقليلاً ما يصيبون.

إن أول ما يحتاج إليه في العبارة عن هذا الفن: معرفة حد الشعر الحائز له عما ليس بشعر وليس يوجد في العبارة عن ذلك أبلغ ولا أوجز مع تمام الدلالة، من أن يقال فيه أنه قول موزون مقفى، يدل على معنى، ولما كانت للشعر صناعة وكان الغرض في كل صناعة اجراء ما يصنع ويعمل بها على غاية التجويد والكمال، إذا كان جميع ما يؤلف ويصنع على سبيل الصناعات والمهن له طرفان: احدهما غاية الجودة والآخر غاية الرداءة وحدود بينهما تسمى الوسائط»[1].

ومما يجب تقدمته وتوطيده أن المعاني كلها معرضة للشاعر، وله أن يتكلم منها فيما أحب وآثر من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه. إذ

---

(١) قدامة بن جعفـر ـ نقد الشعر ص ١٥.

كانت المعاني للشعــر بمنزلة المادة الموضوعـة والشعر فيها كالصورة، كما يوجد في كل صناعة من أن لا بد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير المصور فيها، مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والضعة والرفث والنزاهـة والبذخ والقنـاعة والمـدح والفضيلة وغير ذلك من المعاني الحميدة والذميمة أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى النهاية المطلوبة.

فالقضية عند قدامة هي المقدرة على صناعة الشعر، في أي غرض كان وهي صنعة لغوية، لأن القضية في نظره صنعة كصناعة النجارة أو الفضة والذهب، وللاطلاع على نظرية قدامة بن جعفر يرجع إلى كتابه نقد الشعر.

هذا وما محاولة نوم تشومسكي في نظريته التحويلية الإبداعية في خلق عدد كبير من الجمل إلا محاولة شبيهة إلى حد بعيد بجهود قدامة بن جعفر في صناعة الشعر، وإن كانت طريقة قدامة الإبداعية أنضج وأفضل إلى حد بعيد من طريقة نوم تشومسكي في صنع العبارة الإبداعية أو الملايين من العبارات.

بإضافة فعل أو اسم أو ظرف أو جار ومجرور ثم فعل ثم اسم الخ.

ثم أن طريقة قدامة قادرة على صناعة ما لا يحصى من الجمل، بل ما لا يحصى من الأبيات الشعرية، غير أن طريقة نوم تشومسكي قادرة على صياغة عبارات وجمل دون الشعر مثلاً.

كان على اللغويين المعاصرين في عالمنا العربـي أن يسألوا أنفسهم أسئلة عديدة عما هو جديد في نظرية نوم تشومسكي ويتساءلوا أيضاً عن قيمة النظيرية اللغوية عند العـــــرب.

---

(١) قدامة بن جعفر - نقد الشعر - ص ١٤ - ١٧ - ١٨.

ومن هذه الأسئلة الواجبة:

١ ــ ما هي هذه القوة الناظمة لطبيعة الأصوات البشرية في لغة معينة؟ وما هي هذه القوة المنظمة لاجزاء الكلام كي يتحد الكلام ويدخل بعضه في بعض؟

٢ ــ متى تولد هذه القوة الناظمة المدركة والمتغلغلة في ثنايا الكلمة والجملة والسياق، ثم لماذا تبقى حية بعد ميلادها، وما هي العوامل المساعدة لبقائها حية نشيطة؟ وهل هناك نظام يجمعها؟

٣ ــ وما نوع هذه القوة، أهي قوة قياسية، كالقوى المادية في المحركات وسقوط الأجسام، أم هي من نوع آخر، أو معنوي خاص شبيهه بالسيالة العصبية، أم هي أشبه ما تكون بقوة العلم والنور في محو الجهل والظلام، أم هي قوة مغناطيسية كهراطيسية.

٤ ــ وهل يحق لنا تشبيهاً بالقوة الكهراطيسية أو كحقيقة الكهرباء ثم إذا كانت كذلك من هذه الصفات، لماذا لا نراها، بل نبصر فعلها، حينما تنتظم المفردات كعقد من اللاليء، أو فصوص من الجواهر في نص من النصوص، وفي موضوع من المواضيع بل وفي آية من الآيات.

٥ ــ ثم أين تولد، وهل لها مكان وزمان، وعيش حسن وعيش سيء كبقية الأحياء، وإذا كانت كذلك، فلم لا تموت؟

٦ ــ ومتى تكون هذه العلاقة بأبهى حلة وأقوى قوة، وأوضح صورة؟ ثم وما طبيعة مكانها الباعث، والحاضن لها؟ بل ما هي الظروف التي تعيشها؟

٧ ــ ومن ثم أين يكون الكلام قبل تفاعله مع المعاني، ومن أين يأتي وكيف يولد ومتى يكون استجابة للمعاني ومتى لا يكون؟ ومتى يصبح تعبيراً وفكرة.

سنصل من الإجابة الشافية على هذه الأسئلة إلى حقائق علمية نضيفها للجهود المبذولـة في هذا الميـدان، وذاك ما أكـون قد فعلتـه في هذا الفصـــل.

وإذا تخلفنا، فللاجيال الأخرى نصيبها من جوهر هذه الحقيقة العلمية لصنع علم لغة خاص في تراثنا اللغوي.

بقي أن نشير إلى نواميــس يتم عن طـريقهـا انعكاس المعنى في المبنى اللغوي، فتنعكس المعاني في البنية وعن طريقها إلى حياة الوجود فهناك نواميس الوحدات الصوتية والمعبـرة، وهي التي تكون الجملة ثم الرسالة، فالموضوع بأكمله، فتنعكس في مرآة المعاني، ثم يليها أهمية طريقة انتظام الجمل وانعكاسها في مرآة المعنى. ويلي ذلك دور المنظم الرابط الجامع للمفردات، يضبطها في سلسلة كلامية تعبيرية أو كتـابية، وبالتالي يصبح لدينا منطق وأصول نصل بهما من مستوى إلى آخر تتعرف على هيئة تركيب النص بأركانه، ومقوماته الصغيرة والكبيرة، فنتعرف على العلاقات المعنوية مثل العلاقات المنطقية كالفاعل والمفعول، والباعث على العمل والإدارة والإسناد، ثم ننطلق نحو المقام والسياق الكلامي وعناصره المختلفة الشخصية والزمانية والمكانيـــة.

ومن أمثلة العوامل المؤثـرة التي لها عـلاقة بـالعواطف، والمـواقف الإنسانية مدى التأكيد والاحتمال، والإمكانية، والشـك، والنفي والاثبات والميل والقصد، والتفكير في عمل آني أو مستقبلي، وبعضها لغوي صرفي، ومنها النواحي الاجتماعية والنفسية والحسية وهي كثيـــرة.

يقول الدكتور ريمـــون طحان:

«يقوم المميز أولاً بوظيفة كشف هوية الكلمة، لأن المفردات صيغة صوتية تؤلف وحدة من وحدات المعجمة وتصلح للدخول في التراكيب،

ويقوم المميز ثانياً بربط أجزاء الجملة بضمها في نسق متساوي، فيؤلف المميز اللحمة البنيائية أو الرابط الذي يؤمن من متانة التركيب ويبعده عن كل لبس»[1].

إن هدف المميز الرئيسي الترابط المتين للسياق، فالسجع، والمزاوجة إلا وسيلة حسنة تنبه بوضوح إلى تماسك أعضاء الجملة وأجزائها مع ترتيب للفكر، وتكون العلاقة بارزة بين الشكل والمضمون، على شكل رموز توزع الكلمات وتعيدها إلى أصحابها الذين يشتركون في التنظيم الجملي، كما أن تكرار العلاقة النحوية تجمع شمل المفردات في الجملة والسياق، وفي تكرار هذه العلاقة أو المميز يساعد على كشف هوية الكلمة والجملة ثم النص.

أود أن أشير هنا إلى أهمية معرفة المنهج العلمي الذي يتبعه الباحثون في دراساتهم، وتجاربهم بحيث يمكن اثبات النتائج بالبرهنة على حقيقتها.

لأن التأمل الفعلي لم يكن كافياً إلى حل لغز الكلام والفهم، واظهار أسرار الظواهر اللغوية، وخاصة أن طبيعة اللغة، قد اكتسبت دفعاً جديداً، بجهود الباحثين المعاصرين، لأنهم تبنوا المنهج العلمي بأبحاثهم اللغوية.

وتعتبر النظرية اللغوية المعاصرة التي أتى بها العالم اللغوي رتشارلس فلمور كتعديل جذري لنظرية تشومسكي التي تستحق أكثر من إشارة لما لها من تأثير على الاتجاهات اللغوية المعاصرة.

لقد دعا فلمور نظريته: قواعد الحالة الإعرابية، ويعني بالحالة الإعرابية وهو المفهوم القديم للتعبير، الذي يشير إلى ما يطرأ على الاسم من

---

(١) الدكتور ريمون طحان ص ٤٢.

(١) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرية ص ٣٠٨.

المتغيرات الصرفية والنحوية، ويقصد بذلك مجموعة المفاهيم التي يمكن للإنسان أن يصدر بعض الأحكام عليها. كمعرفة من يقوم بعمل ما ومن يقع عليه من حدث.... باعتبار الزمان والمكان، ويقدم لذلك أمثلة متشابهة في المعنى بالرغم من اختلاف شكلها الخارجي.

والذي أقوله في هذا المجال، أن آراء تشارلس فلمور في نظريته وعودته إلى معاني النحو، لم يأت بجديد، ولم يأت بأفضل مما وصل إليه العرب في القرن الخامس الهجري عندما أعاد عبد القاهر الجرجاني علم المعاني إلى نظرية لغوية تضاهي كل ما وصل إليه تشومسكي، وسكينر وتشارلس فلمور، وهنا أشير إلى أهمية نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني وقيمتها اللغوية وأثرها على الدراسات اللغوية المعاصرة وقيمتها العلمية، وعلى الباحثين المعاصرين ألا يستهينوا بالتراث الفكري مع البعد عن التقديس والتمجيد، بل نجعل الحقيقة العلمية هي الهدف الناطق الذي نسعى إليه وبه ترقى أبحاثنا، فالقيمة العلمية هي المعيار لكل دراسة جـــادة.

فنظرة فلمور اهتمت بعلم المعاني واهتمت بالتحليل اللغوي بواسطة قواعد نحوية وصرفية وصوتية وتحول كل ذلك إلى الشكل الخارجي إلا أنه لم يأت بجديد وكلي اعتقاد حازم أن لو كان للغربيين أن يطلعوا على فكرنا اللغوي، لما كان تشومسكي أو تشارلس فلمور، قد تأخرت جهودهما اللغوية إلى هذا الحد، ومن الأعماق نداء للمخلصين أن يترجموا الجهـــود اللغوية في تراثنـــا اللغوي إلى اللغات الأجنبيـــة وفي الختام أضيف لدراستي هذه دراسات لغوية تطبيقية تحليلية تعدادية انطلاقاً من أن المعنى هو أصل في كل نظم لغـــــوي.

***** ..... ***** ..... *****

***** ..... *****

*****

البـــــاب الرابـع

الفصل الأول : اخضاع علم المعاني لمنهاج رياضي.

الفصل الثاني : العلاقة بين اللغة والفكر داخل مفهوم رياضي.

الفصل الثالث : تطبيقات ودراسة تحليلية لغوية.

الفصل الأول

إخضاع علم المعاني لمنهاج رياضي:

عندما كان مجال البحث يخضع لمبدأ الإستقراء بحيث يصبح البحث مع ظواهره العامة ومقوماته يقبل القياس الكمي، ويقبل الطريق الإحصائي كوسيلة أو بديل للقياس الكمي، فمعنى ذلك يمكن اخضاع ذلك البحث لمنهج رياضي حديث.

هذا ويتماشى أي المنهج الإحصائي مع المنهج الوصفي، إلى جانب الإستقراء والمقارنة والتقييم، لمعرفة السبل التي يمكن بواسطتها اخضاع علم من العلوم الإنسانية لمنهج رياضي.

ومن خلال هذه المناهج والسبل في البحث عن المعرفة الإنسانية، يمكن عند ذلك من اخضاع اللغة كظاهرة اجتماعية للمنهج الرياضي، كأن نتناول النص اللغوي، أو اللغة داخل نص من النصوص الأدبية أو النقدية أو خطبة أو رسالة، أو مثال علمي، وتمر هذه الدراسة في معاني الجملة كوحدة أو كمجموعة معرفة، وكتلة متميزة عن الجملة التي تليها من حيث المعنى والشكل، ثم ننتقل بعد ذلك للجمل التي تحتويها الفقرة ثم النص،

كوحدة موضوعية تجري عليها العمليات الإحصائية إحصاء للكلمات ثم تصنيفها، من حيث هي أفعال وأسماء وظروف وحروف ثم تحصى المعاني داخل كل جملة، ونعدها ثم نبحث عن النسبة بين الشكل والمضمون من حيث العدد، وبعد ذلك نبحث عن العلاقات الكائنة بين المعاني والمعاني التي تجاورها أو تليها، ثم نبحث عن الظاهرة أو القانون الرياضي المعاصر والمتماشى مع مجموعة المعاني، فسنجد أن قانون التركيب الداخلي بخواصه التجميعية والنظرية والتبديلية والعنصر الحيادي، سيخدم الظاهرة اللغوية كمجموعات معرفة.

فالعلاقات الكائنة بين الفكر واللغة متنوعة تنوع الأساليب والمواقف فقد تكون علاقة انتماء أو إحتواء، وقد تكون ارتباطية، توافقية أو علاقة متعدية تتضمن بعض خصائص سلبية لعلاقة معاكسة وبذلك تخضع البنى العميقة للقياس والإستقراء والإحصاء، وأن هذه الظاهرة التي نستخدمها وسيلة للتوصيل والتعبير عن الإحساس والمشاهد والقيم والفضيلة والرذيلة، هي ظاهرة تنتظم وفق أنظمة علمية دقيقة، تدعمها الآراء القديمة والحديثة. هذا وتنتقل المعاني بين شخص وآخر، وقوم وقوم، وأمة وأخرى على شكل مفاهيم وأحكام، بل على شكل زمر ووحدات وروافد، وكتل، وبذلك تصبح هذه المعاني قدراً مشتركاً بين الإنسانية جمعاء.

هذا وفي مجال اخضاع علم المعاني لعلم الرياضيات، ولبعض قوانينها العصرية أو الحديثة، يمكن الإشارة بالقانون الداخلي التركيبي لمجموعة معرفة.

قانون التركيب الداخلي:

«إن تعريف القانون التركيب الداخلي، أو العملية على المجموعة المعرفة (ف) هو تثبيت قاعدة تسمح بأن نلحق بعنصرين ما من المجموعة

(ف) متمايزين أو منطبقين ومأخوذين ضمن ترتيب معين، عنصراً ثالثاً من المجموعة المعرفة ف يدعى مركباً من العنصرين الأولين بواسطة هذا القانون»[1] يمكن اعتبار المجموعة المعرفة في قانون التركيب الداخلي، هي مجموعة من المعاني المعرفة بالحرف (ف) وقد تكون هذه المجموعة المعرفة عدة عناصر مرتبة ترتيباً معيناً حسب ترتيب المعاني في النفس أو حسب مقال علمي أو خطبة أو قصيدة الخ.

وهذا الترتيب خاضع لنظام معين، عند ذلك يمكن الحاق المجموعة المعرفة بعنصر آخر يتركب مع العناصر السابقة المكونة للمجموعة المعرفة ف كأن تكون هذه المجموعة المعرفة مجموعة من الفضائل؛ أو عناصر معدنية في سبيكة أو مجموعة سوائل في أوان على طاولة الخ، وبذلك يمكن إضافة عنصر آخر أو فضيلة معرفة إلى الفضائل السابقة، أو عنصر معدني إلى السبيكة الجامعة لمعادن عديدة أو سائل إلى سوائل معروفة فإن هذه المجموعة تخضع لقواعد رياضية داخلية.

ولقد عرفت ذلك بأن قانون داخلي، لأنه مهما تكن العناصر المجموعة داخل وحدة معرفة من المعاني، فإننا قادرون على حسابها، كأن تكون T، ع، أو س ع عناصر في مجموعة (ف) فإنه من الممكن حساب العنصر الباقي وهو (ص ة) من باب المثال.

وهذه المجموعة المعرفة من المعاني داخل جملة من القول أو فقرة، أو داخل نص يمكن اعتبارها مجموعة معرفة أو عدة عناصر في مجموعة معرفة، أو أن تعتبر كل فقرة مجموعة وكل جملة مجموعة، والكلمات بمعانيها عناصر مكونة لها، على شكل زمر حسابية جامعة، وتجتمع هذه

---

(١) كتاب الرياضيات (السنة الأولى) ص ٩٦.

العناصر وفق نظام رياضي معين ليس له إشارة، بل له خصائص تجميعية تجمع المعاني، وخصائص تبديلية ذات عنصر حيادي وذات خصائص متناظرة.

مفهوم البنية الداخلية في القانون الداخلي من خلال التعريف الرياضي «لقد عرفنا آنفاً بالنسبة لقانون داخلي معرف في مجموعة معرفة مفروضة لها بعض الخواص الشهيرة، التجميعية والتبديلية من جهة، ومن جهة أخرى بعض عناصر أو بعض أزواج من عناصر هذه المجموعة يمكن أن تكون شهيرة بالنسبة لهذا القانون، وهي عنصر حيادي، وأزواج من عناصر متناظرة»[1].

يكون للمجموعة التي لها قانون داخلي تركيب داخلي بنية وزمرة عندما يكون القانون الداخلي ذات طابع تجميعي X وللمجموعة المعرفة عنصر حيادي من أجل هذا القانون، ثم لكل عنصر من هذه المجموعة له نظير من أجل هذا القانون.

إن تعريف الجملة عند اللغويين المعاصرين هي:

«هي شكل لغوي مستقل، أو أنها تتألف من مسند ومسند إليه، وهو المفهوم العام للجملة كأساس للدراسة»[2]

من أن الجملة الواحدة، في لغة ما تتألف من كلمتين أو أكثر، ولا بد من مسند ومسند إليه، وقد تطول وتقصر، فتتألف من مجموعة من الكلمات وكل كلمة تتألف من مجموعة من الحروف، وكل مجموعة جمل في فقرة قد تشكل زمرة من المعاني التي تعنيها كلماتها.

---

(١) كتاب الرياضيات السنة الأولى ص ١٠٣.

(٢) الدكتور عبد السلام المسدي ـ مجلة آفاق لغوية ص ٧٤ العدد ١ سنة ١٩٧٧.

يقول الدكتور عبد السلام المسدى:

«فالكلام في حد ذاته يتحد بداهة، بأنه حروف منظومة وأصوات متقطعة، ومردود ذلك أن مادة الكلمة هي الحروف روحها المعنى، وإن الحروف أصوات متقطعة على وجه الخصوص وهذا ما يقود إلى التحديد والإستقراء المتصاعد من الجزء إلى الكل من أن الألفاظ إذا ضمنت المعاني صارت إسماً والأسماء إذا رتبت صارت كلاماً، والكلام إذا الصق صار أقاويل، فتكامل على هذا النمط لهجة الخطاب»[1].

وقد خص الفارابي في تصنيفه العلوم هذا الإستقراء الفيزيائي للمظهر الصوتي في الكلام بنوع من المعرفة المستقلة، سماها (علم قوانين الألفاظ المنفردة) وبنية الزمرة داخل القانون الداخلي في مجموعة معرفة مثل (ف) فإن عناصر هذه المجموعة تكون نفس المجموعة بخاصة تجميعية كأن تكون T عنصر من المجموعة ف وكذلك العنصر ب فإن T X س = ب ع × T = ب. فالمسألتان متطابقتان بكل عنصرهما كلاهما يقبل حلاً واحداً.

«إذا كان القانون المشار إليه بالرمز × قانوناً لزمرة في مجموعة (ف) فكل من هاتين المعادلتين T × س = ب. ع× T = ب يقبل حلاً واحداً مهما يكن T ب بن المجموعة (ف)»[2].

يقول الدكتور ابراهيم أنيس حول مفهوم نظام الكلام في لغتنا العربية:

«فإذا نظمت العبارة ورتبت ذلك الترتيب المعين، سرت فيها الحياة وعبرت عن مكنون الفكر، وما يدور في الأذهان، وليست اللغة في حقيقة أمرها إلا نظاماً من الكلمات التي ارتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً تحتمه قوانين معينة لكل لغة»[3].

---

(١) الفارابي ـ إحصاء العلوم ط ٢ ١٩٤٩ ص ٨٧.
(٢) كتاب الرياضيات ـ ص ١٠٥.
(٣) الدكتور ابراهيم أنيس ـ من أسرار اللغة ص ٢٦٩.

درس الدكتور ابراهيم أنيس بنية تركيب الجملة العربية دراسة وصفية من حيث أجزاء الكلام تناول الإسم والحرف، ثم الفعل، ثم المعنى والصيغة ووظيفة الكلمة في التعبير، وجد الدكتور أنيس أن النظام الذي تسير وفقه لغتنا العربية، هو نظام دقيق يجمع الألفاظ بعضها إلى بعض لتعبر عن مضامين الفكر وعن الأحاسيس، فإذا ما أنضمت الألفاظ إلى بعضها سرت فيها روح الحياة، وما هذه الروح التي لم يوضح نوعها إلا العلاقة الوليدة بين الألفاظ والمعاني، والقوة المجمعة بين الفكر واللغة.

ويتناول سيبويه تأليف العبارة وتركيب الكلمات وما فيها من صحة وحسن وما يطرأ عليها من فساد وقبح، وكل ما يتصل بالنظم أو توخي معاني النحو «فإذا الجملة تتألف من المسند والمسند إليه، فإذا هي فعلية واسمية تكلم عن الفعل المحذوف والفعل المذكور والمتعلقات... ثم صار إلى الجملة الإسمية فتكلم عن الإبتداء ونواسخه»(٣).

وكانت لعبد القاهر جهوده وآراءه في نظم الكلام كما أشرت إليه سابقاً من أن اللفظة عند عبد القاهر لا أهمية لها في ذاتها.... إلا إذا انضمت إلى جاراتها وفق نظام معين حسب ترتيب المعاني في النفس. ومجمل القول أنه لا يكون الكلام من جزء واحد، وأنه لا بد من مسند ومسند إليه، فهذه هي الطرق والوجوه المعروفة تعلق الكلم بعضها ببعض.

هذا وفي صدد الحديث عن خضوع المعاني داخل جملة من القول أو داخل فقرة أو نص فإنني أشير إلى انطباق ظواهر القوانين الرياضية وأهميتها في موضوعنا التطبيقي، وأن جملة المعاني مجموعات معرفة تخضع لتلك الظواهر الرياضية وخصائصها ومقوماتها.

---

(٣) أثر النحاة في البحث البلاغي ص ١١٤ ـ الدكتور عبد القادر حسن.

(٤) سيبويه أمام النحاة ـ ١٧٨ ـ ١٨٠ عن الدلائل ص ٢٣.

إن خاصية المعاني في مجموعة معرفة بتعدادها الحسابي تخضع للخاصة التبديلية كأن يقال أن للقانون الرياضي في التركيب الداخلي خاصة تبديلية وذات صفات تجميعية من أن بعض عناصر في المجموعة ف ذات خاصة تبديلية كأن تكون آ× ب = آ×آ وأن هذه العناصر في نفس المجموعة المعرفة ذات خاصة تجميعية، ومهما تكن العناصر آ، ب، جـ، في المجموعة (ف)، فإن هذه العناصر ذات خاصة تجميعية. (آ× ب) × جـ، آ× (ب × جـ = ب وأن هذه العناصر من المجموعة المعرفة ف.

إن المجموعة ف يمكن اعتبارها مجموعة معاني في نص، وأن أحد هذه المعاني من هذا النص ذات خاصة تجميعية، وخاصة تبديلية، وأوردت مثالاً سابقاً من أن معاني ـ الصلاة ـ والزكاة والحج والصوم، هي الفاظ ومعان ذات خاصة تجميعية تبقى متجاورة ذات خاصة تجميعية يمكن أن نضيف إلى هذه المجموعة معنى الصدقة وهو ذات خاصة تبديلية جامعة ينضم إلى المجموعة ف والتي يمكن أن تنضم إلى مجموعة من الفضائل الوجدانية من الكرم والصدق والوفاء والمحبة.

وينطبق هذا الكلام على مجموعة معاني في تجربة علمية تتحدث عن الفعل المنعكس الشرطي المحدود بخلية عصبية وبجذر أمامي حسي وجذر خلفي حركي. وأجهزة لاقطة، فإن المعاني التي ترسم التجربة أو الكلمات التي تصور الأحداث هي ذات خاصة تجميعية يتضمن أحدها خاصة تبديلية، كأن ننتقل بالحدث إلى الجملة الدماغية ويصبح النخاع الشوكي عنصراً تبديلياً مشتركاً في الحدث الكلي والجزئي.

ومنذ ذلك يمكن اعتبار التجربة الفيزيائية لطلاب المدارس عن الجرس الكهربائي، بأنه يتألف من منبع كهربائي ودارة تحتوي على وشيعة وصفيحة

حديدية لينة ونابضين، وقفلة أو قاطعة، فإن هذه الأجزاء تخضع للخاصة التجميعية. خاصة تجميعيـة .

ويمكن أن يكون أحد هذه الأجزاء ذات عنصر تبديلي، كان يصبح الحديث عن معنى الجرس جزءاً من الدارة الكهربائية الكلية داخل المنزل، وهو ذات خاصة تبديلية.

ومثل هذا الحـديث يطبق على الحديث الخـاص بتصويـر العلوم الأخرى من أن تجميعها لتصوير حقيقة من الحقائق خاصة لخواص رياضية منظمة، تتضمن خصائص تبديلية وتجميعية في آن واحد، وكذلك هو الشأن في النصـوص التي تتحدث أو تتضمن معـان معنويـة، تصور المشـاعـر والأحاسيس والعواطف والوجدان بشكل عام، تخضع إلى نفس الخواص التبديلية، ويمكن أن يكون فيها عناصر متناظرة، وعنصر حيادي واحـد، وستتضح للقاريء هذه الأمور بشكل جلي عندما نتناول النصوص بالدرس، والبحث والمقارنة بتخضيعها إلى المنهج الرياضي.

ويقال أن في القانون الداخلي خاصية العنصر الحيادي في المجموعة ف المعرفة.

(يدعى العنصر هـ من المجموعة المعرفة ف من أجل القانون الداخلي المعرف في ف، ومهما يكن العنصر آ من المجموعة (ف) كان

آ × هـ = هـ × آ = آ   آ / هـ = هـ / ب

ويقال أيضاً أن للقانون الداخلي خاصة تناظرية عندما يكون القانون الداخلي معرفاً في المجموعة ف التي لها عنصر حيادي هـ فإنه يقال عنه عنصرين آ، آ من المجموعة ف أنهما متناظران

آ × آ = آ × آ = هـ النتيجة واحدة.

ويرمز لعنصر النظير بالرمز آ أو ب أو ف (ح)

وتوضيحاً لما تقدم أشير أن المجموعات تكون مجموعة من الطلاب أو مجموعة من المآكل الموحدة النوع من حلويات أو بقول أو فواكه، أو خضار، أو مجموعات من الأفكار داخل مقال فلسفي أو علمي أو نقدي بحيث تجمعها الوحدة الموضوعية كان يكون لدينا مجموعة من طلاب قسم السنة الأولى والذين سجلوا في دفاتر مواليد سنة ١٩٦٣ ومن أهل مدينة واحدة، ولتكن عاصمة بلد من البلدان من هؤلاء الطلاب يشكلون مجموعة واحدة معرفة.

وهكذا يمكن الحديث عن مجموعة معينة إذا عرفنا كل مكنوناتها، أمكن معرفة إن كان شيء ما ينتمي إليها، أو هو عنصر حيادي فيها، أو هو عنصر غريب عنها يجب لفظه، فإن أي عنصر غريب عن مجموعة معرفة يفسدها كلياً، أو يجب نبذه كلياً، كإضافة جسم غريب إلى جسم الإنسان أو إضافة الملح إلى السكر أو إضافة فكرة غريبة داخل نص علمي، وأدبي، أو إضافة بيت من الشعر داخل قصيدة من البحر الطويل، وكان البيت من بحر الرجز أو الوافر فالجسم الغريب داخل مجموعة معرفة يبقى غريباً وخارجاً عن المجموعة. وإذا أعطينا مجموعة ف تعريفاً بقائمة مكوناتها آ، ب، حـ، د، ق، فإننا نكتب ع = آ، ب، جـ، د، بغض النظر عن الإشارة التي تجمع هذه المجموعة أو تلك فهي إشارة بعيدة عن الإشارة الحسابية فهي إشارة × تجميعية في الرياضيات الحديثة، وهي إشارة دالة، أو علاقة في بحثنا اللغوي، فإذا كان لدينا عنصر س ينتمي إلى المجموعة السابقة فإننا نقول أن العنصر س ينتمي إلى المجموعة ع فنكتب س ∋ ع فالرمز ∋ يدل على الإنتماء.

وإذا كانت إحدى العناصر لا تنتمي إلى المجموعة ع، فإننا نقول أن ط

لا تنتمي إلى المجموعة عين فتكتب أن ط عنصر ع لا ينتمي، ويمكن كتابة ذلك المفهوم الرياضي ∌ .

وهناك مجموعة قد تكون متكافئة أو متساوية، أو مجموعة جزئية أو مجموعة مكملة.

فالمعاني أنواع، وهي مجاميع وزمر، وكتل، ووحدات وروافد. ومثل هذا الحديث يصح أن يقال عن مجموعة معان في نص أو فقرة أو جملة بل ينطبق عليها تمام الإنطباق.

وقد تكون مجموعة من المعاني في نص علمي أو أدبي أو علمي أو حتى في قصيدة تشكل مجموعات صغيرة متساوية من حيث المفهوم إذا استعملت على نفس العناصر الصانعة لها، كأن تكون مجموعة ع والمجموعة ع مجموعتان متساويتان في الدلالة إذا اشتملت على نفس العناصر، أي كل عنصر من الأولى ينتمي إلى المجموعة الثانية، وكل عنصر من الثانية ينتمي إلى الأول ونكتب أن المجموعة ع= ع كأن تكون المعاني في الآية الكرية الكريمة ﴿فالله يحكم بينهم﴾ تتساوى في دلالتها مع مجموعة المعاني في الآية الكريمة ﴿والله خير الحاكمين﴾ وكذلك هو الشأن بالنسبة لمجموعة المعاني، في الأيات، فهي معاني متكافئة.

والله يهدي من يشاء	وكفى بربك هادياً ونصيرا
قل الله ينجيكم منها	إنا منجوك وأهلك

وقد يكون لدينا مجموعة من المعاني الخاوية، إننا نشير لها بإشارة

---

(١) أنظر من أسرار اللغة ـ الدكتور ابراهيم أنيس ص ٢٨٩.
(٢) أعجاز القرآن ـ للباقلاني ص ١٥٧.

(∅) كأن يقول استاذ مادة الإنشاء والتعبير لأحد طلابه أن في موضوعك فقرة لا ضرورة لها فهي خالية من المعاني أو أنها خاوية، وأشار له بإشارة (∅) ومثل هذا الكلام ينطبق على المعاني التي أتى بها مسليمة الكذاب مقلداً القرآن الكريم بقوله ﴿ضفدع بنت ضفدعين ـ نقي ما تنقين، نصفك في الماء، ونصفك في الطين لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين لنا نصف ولقريش نصف وان قريش لقوم ظالمون﴾[1].

إن هذه المجموعة من المعاني هي مجموعة خالية نشير إليها بإشارة (∅) ومفهوم المجموعة الخاوية بالمفهوم الرياضي:

«المجموعة الخاوية هي التي تشتمل على أي عنصر أو على عناصر لا تلاقي بينها وكل المجموعات الخالية أو الخاوية متساوية، ومن ثم لا يوجد سوى مجموعة خالية واحدة يرمز إليها بالرمز (∅).

ويقال أن مجموعة من المعاني داخل فقرة هي مجموعة جزئية من المعاني الكلية داخل نص إذا كانت هذه المجموعة الجزئية تنتمي إلى المجموعة الكلية إنتماءاً فكرياً متمماً أو مكملاً.

وفي المفهوم الرياضي: يقال أن المجموعة الجزئية.

«يقال أن ع مجموعة جزئية، من المجموعة جـ أو أنها جزء من المجموعة جـ أو أن ع محتواه في جـ إذا كان كل عنصر من عناصر ع ينتمي إلى جـ وتكتب هذه العلاقة على صورة ع [جـ».

إن الإشارة ⊂ تشير إلى قضية الإحتواء. ⊂ واشارة ⊄ لا تحتوي.

كأن نقول أن سلة يحملها رب منزل تحتوي مجموعات متنوعة من الحاجيات، فإن هذه السلة تحتوي عدة مجموعات، وكل مجموعة جزء من

---

(١) أنظر كتاب الرياضيات ـ ص ٢١، ٢٢. أعجاز القرآن للباقلاني: ص ١٥٧.

الجملة أو المجموعة التي احتوتها سلة رب المنزل.

أو أن نقول أن مجموعة من الطلاب تحتوي على نخبة من الطلاب المجدين في العلم، ومجموعة أخرى من المهرة في لعبة الكرة، ومجموعة أخرى من الطلاب مهملة في كل الميادين، ولكن جميع هذه المجموعات تنتمي إلى مجموعة واحدة هي مجموعة طلاب مدرسة واحدة، أو مجموعة قسم واحد داخل مدرسة واحدة.

وفي هذا الميدان أشير إلى أننا في ميدان اللغة لا نخلط الا بين المجموعات من المعاني من حيث الإنتماء، وإقامة العلاقات، فعلاقات الإنتماء غير علاقات الإحتواء، وكل مجموعة من العلاقات لها مميزاتها ومقوماتها وعددها وزمانها ومكانها وإتجاهها.

وعلم الرياضيات أشار إلى ذلك بقوله:

«لا يجب الخلط بين علاقة الإحتواء التي تربط بين مجموعتين، وعلاقة الإنتماء التي تربط بين شيء ومجموعة».

كأن يكون احدى المنظمات الفدائية تنتمي إلى الثورة الفلسطينية فعلاقاتها هي علاقة التحام في مصير واحد، وكأن تكون مجموعة أخرى من الفدائيين تحتويها إحدى الدول العربية، فإن هذه العلاقات القائمة هي علاقة احتواء مقيدة بعيدة عن الإنتماء، وانتماؤها شكلي أكثر منه التحام، فهي علاقات مرتبطة بالإحتواء بشكلها الواسع، من حيث التصرف والنمو والتدريب.

هناك مجموعات تسمى مجموعات مكملة، وكأن تكون إحدى المجموعات داخل نص من النصوص، هي مجموعة مكملة تجمعها وحدة

---

(١) كتاب الرياضيات ص ٢٢.

موضوعية، إذا أهملت أو نقصت ظهر النقص واضحاً، كأن تنقص من نص من النصوص الأدبية جانباً هاماً، فإن هذا الجانب يعتبر مكملاً لمجموعة معرفـة في النص المعين ومفهوم المجموعة المكملة في المفهوم الرياضي:

«إذا كان لدينا مجموعة ع، وكانت المجموعة ي مجموعة جزئية من المجموعة ع فإن المجموعة ي المكونة من جميع عناصر ع التي لا تنتمي إلى ي وتسمى ي [ت ع ي» ∌ اشارة لا تنتمـي.

من الواضح أيضاً أن ي هي المجموعة المكملة للمجموعـة ي داخل ع. كأن تكون الزاوية ٣٠ درجة مكملة للزاوية ٦٠ درجة أو أن يكون المبلغ الألف دينار هو مكمل للمبلغ الذي يحتاجه أخي لشراء سيارة ثمنها أربعين ألف دينار.

وإذا كانت هذه المجموعة المكملة في مجموعة معرفة داخل النص، فإن هذه المجموعة التي تنتمي إلى مجموعة كبرى من المعاني، فإنها قادرة على الإتحاد والإلتحام داخل مجموعات النص، ونشير إلى علامة الإتحاد إلى إشارة فإشارة الإتحاد تحتاجها للإشارة إلى قوة الدالة التي تشير إلى إتحاد المادة الصوتية بالمنطق، أو العلاقة التحام الفكر باللغة، فإذا كان لدينا مجموعتان من المعاني داخل مجموعة من المعاني الكبرى ضمن فكرة أو داخل نص تخضع لظاهرة الإنتماء والإحتواء والإتحاد فإن هاتين المجموعتين تجمعهما علاقة التحام

الفصل الثاني من الباب الرابع

العلاقة بين الفكر واللغة داخل مفهوم رياضي:

أشرت في الباب الثالث إلى أن طبيعة العلاقة القائمة بين الفكر واللغة، أو الصوت والمنطق من أن تلك العلاقة هي ذات طبيعة انسانية وأنها حدث لغوي ومولود طبيعي، وهي ذات زمان ومكان، وقوة وضعف، وأقوى ما تكون في أسلوب القرآن الكريم، وقدمت لذلك الشواهد والبراهين على أنها حدث طبيعي، وأن روح هذه العلاقة جزء من روح صاحبها، وجزء من حياة النص.

ويبقى أن مثل هذا التوضيح بحاجة إلى منهاج علمي أكثر دقة يساعدها على الوضوح والإنكشاف كالمحسوسات:

لقد تناول الباحث اللغوي عبد السلام المسدي قضية الحدث اللغوي موضحاً مكونات الكلمة والجملة، من أن اندراج ظاهرة الكلام مع الزمن يشتمل خصائص صوتية ملازمة لميلاد الحدث اللغوي مع المعنى.

يقول الدكتور عبد السلام:

«إن الزمن وبعد المكان، هو البعد الثاني الذي يحدد الظواهر وجودها

الحدثي، فتندرج به تمام الإندراج في سياق المادة المقيدة، والكلام أو وجوده الأنطلوجي والموضوعي يرتهن بقيد الزمن انطلاقاً من تحديد إنجازه في تحقيقه الفعلي، ولقد كان الزمن في يد منظري الفكر اللغوي على مسار التراث العربي بمثابة المجهر الكاشف الذي مكنهم كلياً من خلال حدود الزمن، وأول ما يصادفه الناظر اللساني حينما يمحص هذا المخذوف الفطري من زوايا استكشاف التراث في ضوء مقولة الحداثة جملة من المبادىء العامة التي حاول المفكرون في ضوئها محاصرة الحدث اللغوي، والتي تستمد منطلقاتها من المعادلة المفقودة بين الظاهرة اللغوية والبعد الزمني المحيط بها فيزيائياً»[1].

في هذا المقام تأتي أشكال الإرتباط بين صورة الكلمة وفكرة الصوت مع الدلالة المتولدة في ذهن السامع، ويوضح هذه الظاهرة العلامة ابن رشد إذ يبين أن الصوت عنصر يتجاوز صورة الحرف.

«غير أن ربط فكرة الزمن بإجراء الحدث اللغوي، قد اقتصر جلاء الفاروق النوعي بين مجرد عملية التصويت البلاغي، وفي هذا المقام تنزلت مكاشفة الصغر المحدد ولتمييز الحدث اللساني عن الفعل الصوتي والمطلق»[2].

وأول هذه الدرجات من حيث الإنطباق على نقطة الزمن المحرك للحدث اللغوي أي من حيث قصر المدى الزمني فيزيائياً فاصطلح عليه النحاة بالحروف الشديدة، ويؤكد الدكتور عبد السلام على ظاهرة الحدث اللغوي وأهميتها في الدراسات اللغوية المعاصرة.

---

(١) الدكتور عبد السلام المسدي ـ مجلة آفاق عربية ـ العدد ١ ص ٧٤ ـ شهر أيلول عام ١٩٧٥ م.
(٢) نفس المرجع.

إن رجال الفكر اللغوي قد اهتموا بهذا الجانب أمثال ابن جني وابن رشد وسيبويه والفارابي.

«وقد خص الفارابي في تصنيفه العلوم هذه الإستقراء الفيزيائي للمظهر الصوتي في الكلام بنوع من المعرفة المستقلة سماها (علم قوانين الألفاظ المفردة)».

يعتبر علم اللغة العام من العلوم الحديثة بل المعاصرة، وقد خطت هذه العلوم وهذه المباحث اللغوية خطوات كبيرة، بفعل ما أتيح للباحثين من وسائل كانت مفقودة أو قليلة في العصور السابقة، فقد خدم أعلام الفكر الإسلامي علم اللغة العام خدمات جليلة أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي، وأحمد ابن فارس والجاحظ، وابن جني، أو عبد القاهر الجرجاني وغيرهم كثيرون. وتمتد جهود هؤلاء لتصل جواهر البحث اللغوي في عصرنا هذا، ويخدم هذا العلم في أيامنا المعاصرة علوم متعددة كعلم الفلسفة والإجتماع والمنطق والنقد والبلاغة والعلوم والرياضيات أيضاً، فهي مجموعة مباحث ذات صلة قوية باللغة التي تخدمنا جميعاً.

لذلك اتجهت بالبحث اللغوي نحو منهج رياضي قائم على الفرضية والتجربة والبرهان.

وجدت أول الأوليات، التمهيد لهذا العمل، يتوضح بفكرة المجموعات وأنواعها، ثم القانون الداخلي الذي يجمعها، وهو في عرفي يمثل البنية العميقة للمعاني في الجملة والفكرة والنص، ثم انتقلت من هذه القيم والقواعد الرياضية المعاصرة إلى خصائص القانون الداخلي، ثم أنواع

---

(١) الدكتور عبد السلام - مجلة آفاق عربية عدد ١ ص ٩ / ٧٥ عن الفارابي.
(٢) الفارابي إحصاء العلوم ط ٢ - ١٩٤٩ ص ٨٧.

العلاقات القائمة بين عناصر مجموعة واحدة ثم العلاقات القائمة بين مجموعتين.

ومن الضرورة بمكان أن أذهب إلى تعريف مفهوم علاقة رياضية بين عناصر مجموعتين، معرفتين:

«بأن يمثل عناصر المجموعة س، وعناصر المجموعة ص مجموعتان معلومتان يمكن أن تكونا متمايزتين أو متساويتين، ونرمز لعناصرهما بالرمزين س. ص».

كأن تكون س مجموعة من المعاني، وأن تكون ص مجموعة من الألفاظ بينهما علاقة جامعة، وقد تكون هاتان المجموعتان مختلفتين أو متايزتين أو متساويتين، وهذه العلاقة القائمة بين هاتين المجموعتين تكون عبارة عن مجموعة وزمر من الحيوط المتينة التي تجمع بين عناصر المجموعتين وسنمثل لذلك بأشكال في حينه.

وتقريباً لهذه المفاهيم من الإدراك، أقدم شاهداً رياضياً لتلك المجموعة س تمثل مجموعة معرفة من الأطفال.

س = جميلة وليلى وعائشة ومحمد، وأحمد، وعلي، عمر، حسن، زينب. والمجموعة ص: هي مجموعة الشهور التي زادوا فيها ولتكن ستة أشهر الشهور الأولى من السنة: هي: كانون الثاني ـ وشباط ـ وآذار ـ ونيسان ـ وأيار وحزيران أي «جانفي ـ فيفري ـ مارس ـ ابريل ـ ماي ـ جوان» فإن بين هاتين المجموعتين علاقات إزدواجية مشتركة تمثلها العلاقات القائمة بين المجموعتين، وتوجد أزواج معينة (س، ص) بحيث يمكن أن نقول أن س١، ولدت في فترة زمنية ونقاط مشتركة من المجموعة ص في س١، وكذلك بقية الأسماء س٢ ـ س٣ ـ س٤ ـ س٥ ـ س٦ ولد كل واحد منهم في فترة زمنية من الأشهر ص٢ ـ ص٣ ـ ص٤ ـ ص٥ ويمكن أن

نضع نقطة مولد كل من تلك الأسماء في نقطة ع بحيث نفرض أن ع جميلة بنقطة ع من شهر ماي.

بنقطة ع من شهر ماي.

ليلى ولدت بنقطة ع من شهر جانفي.

محمد ولد بنقطة ع من شهر أفريل.

وزينب ولدت بنقطة ع من شهر فيفري.

واحمد ولد بنقطة ع من شهر فيفري.

فإن النقطة ع تشرح علاقة الإزدواج القائمة بين المجموعة س والمجموعة ص من أن هناك خاصة مشتركة بين المجموعتين تشرحها العبارة ع، على اعتبار ع العلاقة الجامعة.

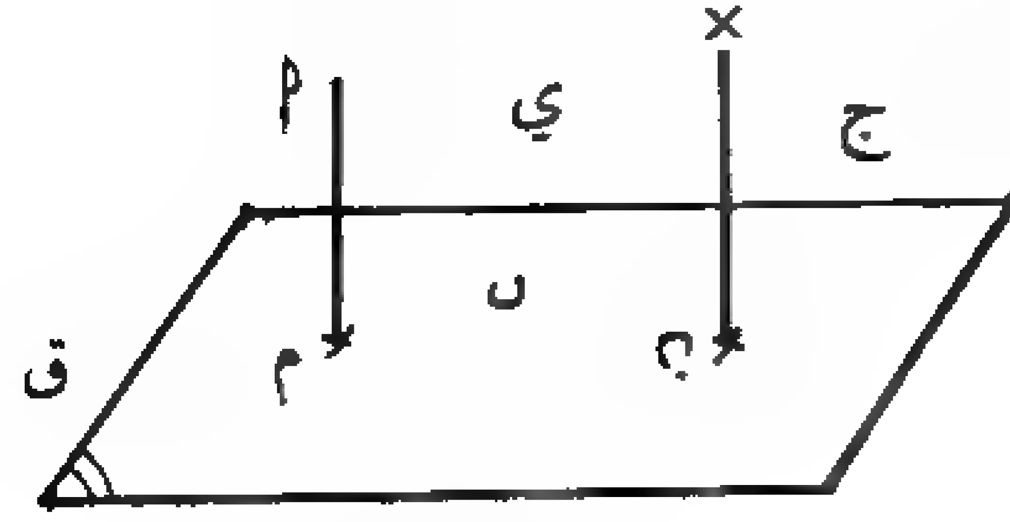
فإذا قلنا أن أحد الأولاد قد ولد في شهر جـ معناه في تعريفنا لعلاقة ما من عناصر المجموعة ص، أو مجموعة البدء، وبين عناصر المجموعة ص أو مجموعة الوصول. وجميع الأزواج (س، ص التي لها الخاصة ح أي التي تربط معاً بالعلاقة ع التي تشكل مجموعة جزئية.

نلاحظ في مثالنا السابق أن بعض عناصر المجوعة ص، مثل علي وعمر مثلاً ليست هناك علاقة بينها وبين عنصر من المجموعة ص، وأن بعض عناصر المجموعة س مثل أحمد وزينب لهما علاقة بنفس العنصر ص١ أو ص٢ ص٣ وهو شهر فيفري، أي شهر شباط وأن أي عنصر من شهر س١ ليست له علاقة بأكثر من عنصر واحد من المجموعة ص١.

وإليك المثال الرياضي:

كأن يكون لدينا المستوى ف، وس هي المجموعة المعرفة ي الدالة على نقط في الفراغ، وص هي المجموعة الواقعة على ف الدالة على نقط

مستوى ما فإننا نلاحظ أزواجاً معينة من النقط س، ص نقول عليها أن النقطة ن هي مرتسم تساقط نقاط المجموعة من المستقيم على المجموعة ق من المستوى وأن النقطة م، نقطة ارتسام للمجموعة المعرفة.



لنقاط المستقيم آ م على المستوى ف.

أن النقطتين ب، م تمثلان نقاط البدايات.

والنقطة ن، م تمثلان نقاط الوصول.

س (مسقطها العمودي على المستوى وهو) ص.

شكل ٣٣

ولنذكر أن هذه العبارة معناها أن نقطة ص هي موقع[1] العمود الساقط من س على المستوى ق.

والعبارة الواردة بين علامتي التضمين تجدد علاقة معينة بين عناصر البدء ي وعناصر مجموعة الوصول ف، والشكل يوضح أزواجاً معينة من النقط ترتبط بالعلاقة القائمة بين المجموعتين.

نلاحظ أن كل نقطة من عناصر ي ترتبط بتنقطة واحدة وواحدة فقط من عناصر المستوى النقطي ق، وأن جميع عناصر المستقيم العمودي على ق ترتبط بنفس النقطة من ق وأنه العكس، كل نقطة من نقطة ق ترتبط بجميع نقط العمود المقام على ق والذي يشتمل على تلك النقطة.

وبوجه عام فإن تعريف العلاقة بين عناصر مجموعة مثل س وعناصر مجموعة مثل ص يؤول في النهاية إلى تعريف مجموعة جزئية من حاصل الضرب الديكار في س × ص وإذا كانت المجموعة ص مساوية للمجموعة س فإن كل مجموعة جزئية من المربع الديكار في س٢، تعرف علاقة (في

(١) كتاب الرياضيات ص ٧٤.

داخل) المجموعة س، أن لهذه العلاقة القائمة بين عناصر مجموعتين معرفتين متمايزين أنواع وإتجاهات.

فهناك علاقات متناظرة، وهناك علاقات انعكاسية، وعلاقات متعدية يمكن أن تكون هذه العلاقات بين مجموعتين، وبين عناصر مجموعة واحدة، وبين مجموعات متعددة.

إن المفهوم الرياضي لهذه العلاقات بأنواعها هو:

«إن العلاقة ع بين عناصر المجموعة س وعناصر المجموعة ص تسمى دالة مجموعة جديدة ∅ بدؤها س، ومجموعة وصولها هي ص، إذا كنا عندما نختار أي عنصر من مثل س، نجد أن هناك عنصراً واحداً على الأكثر من المجموعة ص بحيث (س. ع. ص)[1].

كأن تكون العلاقة القائمة بين الفاظ عذبة ومعاني معرفة فيها مثل قول الله تعالى ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾ فإن هناك علاقة بين هذه الألفاظ والمعاني التي تصورها في ذهن القارئ والسامع والحافظ لها والمذكر بها، تمثل بها لهذه العلاقة بالحرف ع، وهذه العلاقة لها دالة قوية، توصل المعنى إلى ذهن القارئ والسامع، بحيث لا يختلف في المفهوم العام إثنان، فكل عنصر من عناصر هذه الدالة يقابله عنصر آخر في المجموعة الأخرى ولهذه العلاقة بداية ولها نقاط نهاية، وقد تكون على شكل مستويات وقد تكون على شكل حزم وزمر من الدالة الصوتية والمعجمية والنحوية والمعنوية.

وأشير أيضاً إلى أنواع العلاقات القائمة بين الصوت والمنطق، أن هناك علاقات عكسية، وقد يكون لهذه العلاقات طبيعة انتماء أو علاقة توافق أو

---

(١) كتاب الرياضيات ص ٧٥ ـ ٧٧.

علاقة احتواء، فمجال الحديث عن طبيعة هذه العلاقات بين الكلمات نفسها وتعلقها بالمعاني علاقات أخرى.

كأن تكون هناك علاقة عكسية بين مجموعتين معرفتين مثل مجموعة س من المعاني ومجموعة ص من الألفاظ، وبينهما علاقة عكسية نرمز لها بالحرف ع، بحيث تكون هناك علاقات طبيعية وعلاقات سلبية. فتخلق الإلتباس والغموض في المعاني، فنسميها ع١.

هي علاقة عكسية للعلاقة ع... وغالباً ما نجد هذا في المباحث العلمية والفيزيائية عند البحث عن القدرة الضائعة بوجود المقاومة العكسية أو بالقدرات المفقودة، كأن يكون للمعلم طاقات علمية يريد إيصالها إلى قسم من الأقسام، فإن هناك طاقات مفقودة ومعينة من مثل طلاب القسم في عدم قدرة الإستيعاب، أو في قلة الإنتباه... فيضطر الأستاذ إلى الإنقاص من المادة، أو إضاعة نصيب من الوقت لإفهام البعض المتخلف عن المجموعة، أو لإيقاظ الغافلين من المجموعة المعوقة بذلك نقول أن هناك قدرات ضائعة لوجود نوع من العلاقات العكسية «العلاقة التي من نوع الدالة والمعرفة بين مجموعتين معرفتين من الأعداد تسمى دالة عددية».

والعلاقة التي من نوع الدالة والمعرفة بين مجموعتين من النقط تسمى تحويل نقطي.

وهناك علاقة أحادية وأخرى مزدوجة وثالثة بشكل زمرة، ومجموعة تكون العلاقة أحادية بين لفظ ومعنى أو بين جملة ومعنى من الجهتين، إذا كان كل عنصر من عناصر المجموعة الأولى س يقابله على الأكثر عنصر واحد من المجموعة ص، بحيث تكون العلاقة ع علاقة أحادية بين المجموعتين

---

(١) كتاب الرياضيات: ص ٧٩.

س، ص نكتبها س ع ص.

ويمكن مضاعفة تلك العلاقة أو تقسيمها حسب قوة العلاقة القائمة بين الألفاظ والمعاني، وحسب الجودة والرداءة، والقوة والضعف، بحيث يكون تقسيم المجموعة س إلى مجموعتين متكاملتين س١، س٢، ونقسم المجموعة الثانية من الألفاظ إلى المجموعة ص إلى مجموعتين ص١، ص٢ بطريقة تجعل العلاقة القائمة بين الألفاظ والمعاني، بين معنى وكلمة، وبين جملة ومعنى وفقرة ومعاني، تصبح تطبيقاً متقابلاً بين عناصر س١، وعناصر ص١، وبحيث تصبح عناصر س٢ لا علاقة لها بأي عنصر من عناصر س٣، وتصبح س٢ غير مرتبطة عن طريق العلاقة العكسية بأي عنصر من عناصر س٣.

وإليك جدولاً وأشكالاً توضح المفاهيم المتقدمة.

تمثيل العلاقة:

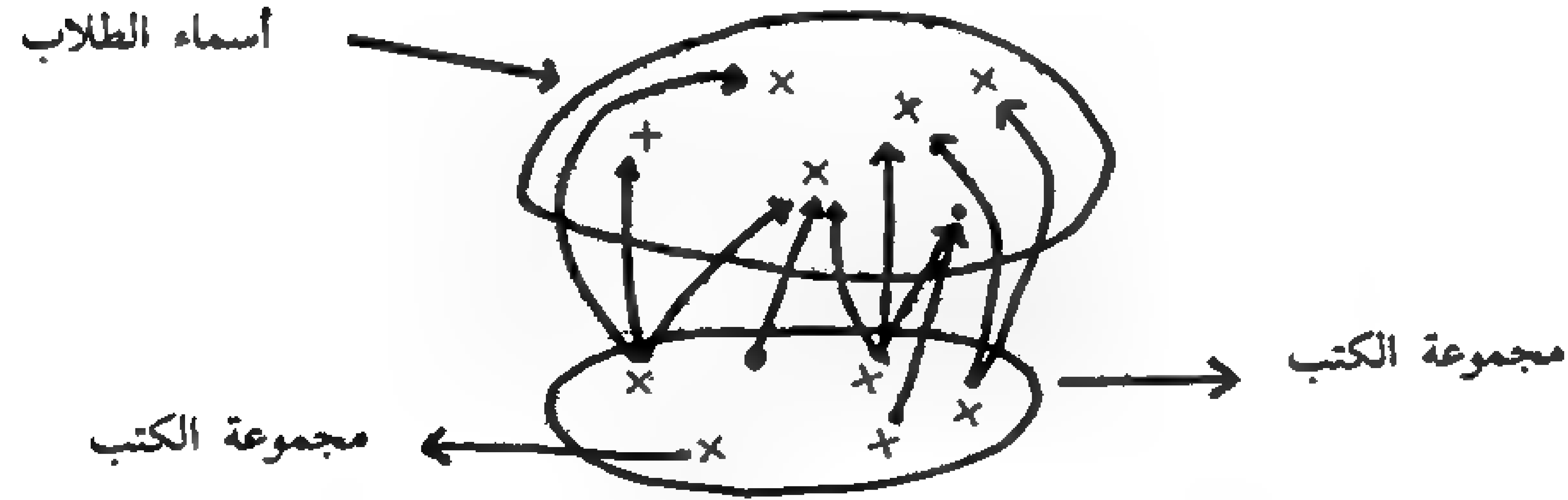
يمكننا أن نستخدم عدة طرق مختلفة لتعريف العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى أو بين مجموعتين متمايزتين، بطريقة تخطيطية.

١ ـ إن المجموعة س تدل على مجموعة معرفة من الأسماء، والمجموعة ص هي كمجموعة معرفة من الكتب المشهورة.

وفي الجدول التالي، توجد مربعات، تضمنت إشارة ×، تدل على عناصر المجموعة س وهي مجموعة من الطلاب، في صف دراسي معين، فمن قرأوا أحد المؤلفات من المجموعة ص.

ص / س	علي	حسن	نور الدين	احمد	محمد	عمر	أبو بكر
الأيام	×				×	×	
ديوان شوقي	×		×	×			
النظرات					×		
ابن باديس		×	×	×			
تاريخ المغرب العربي	×	×	×	×	×	×	×

ويمكن تصوير هذه العلاقات بين المجموعتين بشكل آخر.



(١) كتاب الرياضيات ـ السنة الأولى ثانوي جـ ٢ ص ٨١.

تمثل عناصر المجموعتين س، والمجموعة ص بواسطة نقط، والعناصر س، ص التي تربطها العلاقة س ع ص، توصل معاً بأسهم، وقد تكون هذه الأسهم منحنية. وقد تكون مستقيمة حسب نوع العلاقة وقيمة العلاقة المنعكسة ع١ وحسب إتجاه تلك العلاقة الرمزية، وقد يكون إتجاهاً مستقيماً أو منحنياً. وتقودنا هذه الأبحاث إلى البحث عن إتجاه العلاقة ونوعها بين مجموعة عناصر داخل مجموعة واحدة، كأن تشكل فقرة نص مجموعة من المعاني أو مجموعة من اللفظ، فإن بين عناصر هذه المجموعة زمر من العلاقات أو مجموعات من العلاقات ومن هذه العلاقات:

١ ـ العلاقة الإنعكاسية:

كأن تكون العلاقة إنعكاسية بين مجموعة من المعاني أو بين مجموعة من الألفاظ.

«لكون العلاقة إنعكاسية إذا كان في إمكاننا مهما كان العنصر س١ من المجموعة الكبرى س٢ أن تكتب س١ ع ص ويمكننا أن نقول أن كل عنصر له علاقة مع نفسه»(١).

ويمكن أن تقول أيضاً أن في مجموعة معرفة من المعاني داخل فقرة ما تتضمن علاقة انعكاسية بين جميع عناصرها المكونة لها، ويمكن أن نقول أن المجموعة المعبرة من الألفاظ لفقرة ما تكون بينها علاقات انعكاسية حسب نوع التعبير ومكانته.

كما أن هناك علاقات في مجموعة معينة من التعبير أو مجموعة معرفة من المعاني تسمى علاقات تناظرية.

---

(١) كتاب الرياضيات ـ ص ٨٥ ـ ٨٨.

العلاقات التناظرية، تكون العلاقة ع علاقة تناظرية إذا كان في امكاننا مهما كان الزوج من المرتب (س١، ص١) من عناصر المجموعة الكبرى س التي تحقق العلاقة س ع ع بحيث أن نؤكد أن ص ع س علاقة تناظرية في إتجاهين، وأوضح ما تكون في المعاني المنقولة بين القارىء والسامع، فيتساويان، وهناك علاقة أخرى تسمى علاقة التكافؤ. كأن تكون هناك علاقة بين مجموعتين متجانستين أحدهما س والأخرى ع... قد تكون العلاقة بين عناصر المجموعة الأولى، والمجموعة الثانية علاقة تكافؤ به.

«تسمى العلاقة علاقة تكافؤ، إذا كانت انعكاسية أو تناظرية ومتعدية في وقت واحد... وأي عنصر بين مجموعتين يرتبطان معاً بعلاقة تكافؤ يقال أنهما متكافئان بالنسبة للعلاقة ع، ويمكننا أيضاً أن نقول أنهما متكافئان حسب العلاقة ع = س يمكننا أن ندرك.

يمكننا أن ندرك على الفور أن العلاقات التالية علاقات تكافؤية.

١ ـ س مجموعة معرفة من الطلاب في قسم واحد.

ع = علاقة تدل على أن جميع هذه المجموعة قد ولدت في شهر واحد فالعلاقة بين عناصر المجموعتين علاقة تكافؤ.

وهناك علاقة الترتيب، وهناك تسمى العلاقة علاقة ترتيبية، إذا كانت انعكاسية وضد التناظرية ومتعددة في نفس الوقت.

فالعلاقات أنواع وأشكال ولها قوة ولها زمن ولها مكان، وهناك علاقات التوافق، وعلاقات الترابط، فهي أنواع وأشكال عديد تتراوح بين الضعف والقوة.

وكل ما يمكن أن نقوله في ميدان البحث العلمي، أنه بحث يعتمد على

---

(١) كتاب الرياضيات: السنة أولى ثانوي ص ٨٩.

الحواس ويسلم بقدرة العقل البشرى عن طريق البراهين المحسوسة مع الشواهد لإدراك الواقع، وفي استعمالنا لبعض المفاهيم الحديثة، للتعبير عن المفاهيم الخاصة ببحثنا اللغوي والتي أقام عليها اللغويون، أفكار أبحاثهم. وما الأحكام التي اعتمدنا عليها إلا علاقات قائمة بين الأصوات والمنطق كمجاميع متمايزة.

ومما هو معلوم عند طلاب الفلسفة، الذين يحتكمون إلى المفاهيم، والأحكام في أبحاثهم الإنسانية، يؤمنون بأن الإستقراء طريق البحث، وأن المفاهيم إذا بلغت درجة الكمال، يستخدمون علم الرياضيات والتي هي في نظرهم أكمل العلوم.

«فالعلم يستخدم المفهوم أولاً، وعندما يبلغ أعلى درجات الكمال يستخدم الرياضيات، ولهذا كان أكمل العلوم هي الرياضيات، تليها الفيزياء والرياضية، ومن ثم بقية العلوم، وفي ذلك أن العلم يوضح العلائق الثابتة بين الموجودات، فإذا ما درس العواطف يحولها إلى مفاهيم مجردة، وربما إلى معادلات رياضية»[1]

وبهذا يمكن أن أقول أنني استعنت بالإحصاء داخل العلوم الإجتماعية لقياس ظاهرة اجتماعية من الواقع الإجتماعي، مثل اللغة، ثم اعتمدت على بعض القوانين الرياضية الحديثة والمساعدة للكشف عن البنى العميقة في الجملة ثم الفقرة والنص، ثم الكشف عن مدى تشابك العلاقات القائمة بين الفكر واللغة أو تشابهها نوعاً وشكلاً وإتجاهاً بين البدايات الصوتية إلى النهايات الفكرية أو النهاية.

---

(١) مبادىء الفلسفة ـ وزارة التربية السورية ص ٧١ هام ١٩٧٥.
(٢) مبادىء الفلسفة ـ انطوان مقدسي ـ الجمهورية العربية السورية ـ وزارة التربية ـ السنة الثالثة أدبي ص ٧٨.

قد تكون هي البداية، والبداية قد تكون هي نهايات فكرية أو لغوية حيث لا فصل بين الفكر واللغة، وللرياضيات فضل في تجسيم العلاقات القائمة بين الفكر واللغة، وجعلها واضحة ملموسة غير خافية على الباحثين عنها، هذا وتنتقل المعاني بين الناس على شكل مفاهيم، وقيم، وكتل، وزمر ووحدات وعلى شكل روافد.

الفصل الثالث من الباب الرابع

تطبيق ودراسة تحليلية لغوية

إذا أردنا تطبيق دراسة تحليلية لغوية على نص من النصوص، يجب أن تمر هذه الدراسة بين البنى السطحية والبنى العميقة، والعكس صحيح، فالعلم بمعاني البنى العميقة هو علم بمعانى البنى السطحية. وبداية التفكير تأتي بعد قراءة جيدة للنص، وأن تتكرر هذه القراءة مرات كلما احتيج للفهم والإدراك المفيد.

تلي هذه المرحلة، معرفة المناسبة التي قيل فيها النص، والمقام الذي تبوأه صاحب النص مع إجراء استفسارات حول العصر الذي عاشه صاحب النص وأثر ذلك على النص وما يجب أن يتقيد به من أساليب ومميزات تتماشى مع الأساليب التعبيرية المعروفة عند طبقة من الأدباء والمفكرين وهو معيار الجودة.

ومما يجدر ذكره أن نعود إلى قراءة النص ما أمكن، وكلما دعت الضرورة لإستنباط القواعد ولإجراء التحليل لمعرفة العلاقات القائمة بين البنى الجزئية والبنى الكلية وهي من الخطى الهامة في هذه الدراسة.

أ ـ أن نقوم بعملية احصائية، نعد فيها الجمل التي حواها النص ثم نعد الأفعال والأسماء والحروف، ونقوم بعملية إحصائية، وتكرر هذه العملية على نصوص متعددة ومتنوعة لإدراك الإختلاف بين الأساليب أو لإدراك دور الأفعال في الدلالة.

ب ـ نعود إلى هذه الجملة ونحللها إلى مستوياتها الصرفية من حيث الزمان والمكان والظروف وأنواعها بين الجمع والأفراد والتثنية وبين المذكر والمؤنث وهي عمليات خاصة بالبنى السطحية.

٢ ـ أما ما يخص الدراسة التحليلية للمعاني، وهي الأكثر أهمية من الدراسة للبنى السطحية، لأن البنى السطحية نتيجة طبيعية لبنى كانت في الأعماق، وتبدأ هذه العملية.

آ ـ تعداد المعاني في النص مروراً بالجملة، ثم في الفقرة، ثم يتبعه النص.

ب ـ الرجوع إلى تحليل المعاني في كل جملة لمعرفة تركيبها الجملي، ثم معرفة المستويات التي بنيت عليها، فمنها البناء الأفقي أو التنازلي أو البناء التصاعدي وفق استخدام الأحداث داخل النص.

جـ ـ معرفة المعاني الكلية بطريقة الجمع والتعداد الحسابي.

د ـ يجب إحصاء المعاني الثانوية التي تثيرها المعاني الجزئية وصلتها بالمعاني الكلية.

٣ ـ معرفة المستويات المتداخلة لربطها بالمعاني الجزئية والكلية وكيف أن المعاني الكلية شاملة لمعاني النحو والصرف والموقف، وأن الدلالة ناتجة عن التحام هذه العلاقة الكلية لميلاد نص.

٤ ـ توضيح أنواع العلاقات بين معنى وآخر، في جملة أو في فقرة

داخل نص، وهل العلاقات التي كانت في النص، كانت علاقات توافقية أو علاقات ارتباطية، أو علاقات تناظرية، وهل تلك العلاقات تتضمن علاقات تناظرية أو متعاكسة أو تكافؤية، وهل تتضمن تلك المعاني خصائص تجميعية وتبديلية وعنصر حيادي، أم تحتوي على مجموعة معان خاوية، وهل هناك علاقة انتماء أو إحتواء، أم عدم انتماء.

٥ ــ يجب معرفة النص ودرجة خضوعه لقانون التركيب الداخلي ومدى قربه من الكمال ومدى انطباق خصائص التركيب الداخلي على معانيه وفي هذا الصدد سأجعل من خطبة بن هانيء الشيباني ميدانا فسيحاً للبحث والتحليل والتطبيق، بإخضاع المعاني لقانون التركيب الداخلي بخواصه التجميعية، وهي خطبة قيلت في العصر الجاهلي «هالك معذور، خير من ناج فرور، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من سند باره، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد».

سيصبح معلوم لدينا عدد معاني النص السابق من أنها تسع صور وأنها تشكل مجموعة معرفة خاضعة لخواص القانون التركيب الداخلي.

إن هذه المجموعة ذات خواص تجميعية، بحيث ترتبط المعاني مع بعضها ارتباطاً عضوياً بعلاقات ترابطية توافقية صورة بعد صورة، وأنها معان مرتبة حسب ترتيبها في نفس صاحبها، فكان بينها وبين الشكل الخارجي توافقاً موضوعياً، فكانت عدد الجمل تسع جمل مرتبة حسب ترتيب المعاني، فالعلاقة بين البنى العميقة والبنى السطحية علاقات توافقية، كانت كل جملة تقابل معنى من المعاني، فالبنى العميقة في هذه المواضيع كانت أساساً للبنى السطحية دفعتها من الأعماق إلى السطح.

فالمناسبة هي الحرب بين الفرس والعرب في الجاهلية دفاعاً عن النفس

فالمعنى العام قاصد العيش الشريف والموت دفاعاً عن الوجود ورفض الذل والشجاعة وأن الموت في هذا المقام رخيص لا قيمة له، وقد عبر الخطيب عن معانيه بجمل قصيرة طابعها الإيجاز كانت على قدر المعاني وغلب على الجمل طابع الجمل الأسمية، وندر وجود الجمل الفعلية والتي ناب عنها وجود أسماء الفاعل وأسماء المفعول، فاكتفى صاحب النص بفعل واحد فقد ليجعله حدثاً هاماً، وهو إشارة انطلاق نحو القتال ليكون الحدث ذات زمان ومكان، حمله شحنة عاطفية هياجة تمثل دور المواقف في النص، في شحنة الغضب والإندفاع نحو القتال. ولما كان النص التطبيقي في خطب العصر الجاهلي، وجبت الإشارة إلى المميزات العامة التي انصبغت فيه المعاني والألفاظ والأخيلة والأسلوب والتقاليد والمثل.

ذكرت كتب تاريخ الأدب مميزات لمعاني العرب في الجاهلية منها معاني اللغة في الجاهلية: أغراض اللغة في الجاهلية.

١ ــ كانت اللغة تستعمل في أغراض المعيشة البدوية، ووصف مرافقها من حل وترحال وانتاج كلاء واستدرار غيث، ونتج حيوان.

٢ ــ وفي إثارة المنازعات والمشاحنات، وما يتبعها من الحض على إدراك الثأر والمفاخرة بالإنتصارات، والتباهي بالكرم والأصل والسخاء.

٣ ــ شرح حال المشاهدات والكيفيات والإخبار عن الوقائع والقصص وغير ذلك

ب ــ معاني اللغة في الجاهلية: تحمل المعاني اللغة فيما يأتي:

١ ــ من قصر معاني المفردات على ما تقتضيه البداوة والفطرة الغضة الخالية من تكلف أهل الحضر وتأنقهم.

٢ ــ وفي انحصار أحكامهم في الخبر) ومطالبهم في الإنشاء، أما في التعقل المستنبط من الحس والمشاهد أو الطبيعة أو التجربة، الوجدان من غير

مبالغة، ولا إغراء وأما في التخيل المنتزعة صورة من المحسوسات بحيث لا تخرج عن الإمكان الفعلي والعادي.

٣ ـ عبارة اللغة في الجاهلية.

نلخص أحوال العبارة في الجاهلية فيما يأتي:

١ ـ استعمال الألفاظ في معانيها الوضعية، أو معان مناسبة للمعنى الأصلي بطريق المجاز الذي يصبح بعد قليل وضعاً جديداً.

٢ ـ كثرة استعمال المترادفات، وقلة الأعجمي المعبر عنه بالمعرب، وخلو الكلام العربي من اللحن، وغلبة الإيجاز عليه، كما تراه واضحاً في شعرهم ونثرهم.

٣ ـ إرسال الأساليب الكلامية على حسب ماتقتضيه البلاغة بدون تكلف من فواصل، وسجع وإيجاز ومجاز، وموسيقى لفظية.

مثـــال تطبيقـــي:

قال: ابن هانيء الشيباني، خطبة في قومه يوم ذي قارة محرضاً الناس على القتال، كي لا يقعوا فريسة في قبضة الفرس، قبيل معركة حصلت في وادي الجماجم، بين الفرس والعرب، حثهم فيها على الإقدام واستقبال الموت بشرف، دفاعاً عن القبيلة وتثبيتاً للوجود وقد تجمعت القبائل حول زعيم بني بكر، وخاضوا معركة شريفة انتصر فيها العرب على الفرس قبيل الإسلام. قال:

هالك معذور خير من ناج فرور، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من اسند باره، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر اقاتلوا فما للمنايا من بد.

---

(١) انظر: جواهر الأدب وكتاب الوسيط ـ للمرحوم أحمد الهاشمي ـ الجزء الثاني ص ١٦ جـ٢ ص ١.

المناسبة: الحرب التي وقعت بين الفرس والعرب عند وادي الجماجم دفاعاً عن الوجود.

المقام: مسؤولية زعيم القبيلة في اللحظات الحاسمة في حياة القوم عندما يتعرضون للأخطار الداهمة؛ والتي ستجتث أصلهم، وهذا الخطر قادم من ملك الفرس كسرى بما جمع من جيش وعتاد. اعتمد ابن هانيء أسلوب الحكمة والحجة للإقناع كي يبعد التردد من النفوس.

الفكرة العامة: الموت الشريف خير من العيش الذليل.

تضمن النصر عدة جمل قدرها تسع جمل، انصبغت بالطابع الخبري وانطبعت بطابع الحكمة، وقل فيها استعمال الأفعال.

تضمن النص فعلاً واحداً وعشرين كلمة مع تسعة حروف، أربعة حروف منها هي حروف جر، وحرف نداء واحد مع حرفي عطف، وحرف نفي ــ عدد الجملة تسع جمل، وتسعة حروف.

وفي النص تسعة عشر اسماً، وتضمن النص فعلاً واحداً فقط.

شمل النص اثنين وثلاثين كلمة بين فعل وحرف واسم، تكون البنية السطحية للنص فإن العلاقات* الكائنة بين توالي المعاني في النص هي علاقات توافقية وارتباط بين مجموعات المعاني المعرفة ثم بين مجموعات الجمل ذات البنية السطحية هي مجموعات الفاظ معرفة.

تعداد المعاني في النص:

تضمن النص صوراً عديدة فهي على التوالي:

١ ــ صورة لها لك معذور: أي بطل مات دفاعاً عن الشرف وفداءاً لقومه.

٢ ــ صورة لناج فرور: تمثل صورة لإنسان فار من الحرب بعد معركة

وتمثل عيشه الذليل بين قومه، بانتزاع صفة الرجولة.

٣ ــ صورة: الموت الشريف: الإقبال على الموت من أجل الإنتصار والتسابق نحو البطولة.

٤ ــ صورة لإستقبال الموت: صفة المقاتلين في ساحات القتال منهم الشجاع ومنهم الجبان ومنهم بين بين.

٥ ــ صورة لمن طعن من الخلف: في الأعجاز والظهور.

٦ ــ صورة لمن يطعن ويطعن في الثغور.

٧ ــ صورة الناس مقبلين: صورة الجيش وهو مقبل على الأعداد.

٨ ــ الموت لا مفر منه: يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة.

٩ ــ تقرير زعيم القوم على القتال بكل عزيمة.

يلاحظ المرء أن عدد صور المعاني تتناسب مع عدد جمل النص والعلاقة بين البنى العميقة التي هي المعاني الكلية مع عدد الجمل والتي هي الشكل تتناسب مع المضمون في علاقة توافقية ترابطية.

فإذا رجعنا إلى ترتيب المعاني هذه وجدناها مرتبة واحدة بعد أخرى بخاصة تجميعية لتصور مشاهد إستعداد القوم للقتال قبيل الإلتحام وبعده وهي خاصة رياضية ذات تركيب داخلي لمجموعة معان معرفة، وهو نوع من التصوير والنصر تصور رئيس القبيلة للمعارك ونتائجها، وتصوير حي بالحركة والألوان وللأبطال وللقتال العنيف مع إقبال القوم يتقدمهم زعيمهم.

فإذا جمعنا هذه الصور داخل لوحة كبرى واحدة بعد أخرى فإنها تصور لنا كل المعاني التي كانت مرتبة في نفس صاحبها، ابن هانيء الشيباني قبيل انطلاق القتال.

فدور الأسماء في هذه الخطبة، دور كاشف للمعاني بشكل جلي واضح لا غموض فيه، فهي مجموعة معاني، لا خواء في هذه المجموعات الصغرى فهي أسماء منادية على أخبارها، وفي هذه المجموعة من صور المعاني مجموعة ذات طبيعة تناظرية، فصورة إنسان هالك،تناظرها صورة إنسان ناج من الحرب إلا أنه هارب، فالعلاقة بين معنى ومعنى كانت علاقة تناظرية. تبادلية.

إن مجموعة المعاني المتوفرة في النص ذات خواص أخرى مثل الخاصة التبديلية ذلك أن بعض هذه المعاني يمكن تسبيق إحداها على أخرى لو أراد صاحبها تسبيق معنى على آخر وخاصة المعاني المتجاورة كأن يقول:

استقبال الموت خير من استدباره ، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الإعجاز والظهور، المنية ولا الدنية، إن هذا المعنى بل صورة المنية ولا الدنية، ذات خاصة تبديلية في النص، وهي في ذاتها تمثل عنصر حيادي بين الجمل المتجاورة، وبين صور المعاني التي شملها النص.

إن هذا المعنى دخل مع المعاني الأخرى في عملية تركيبية ذات خواص تجميعية مع عناصر مجموعة المعاني التي تضمنها النص، حيث كان بالإمكان تحريكه من مكانه كتأخيره أو تقديمه، ولا مانع من أن تجعل في بداية الكلام أو بعد موضعها فإنه عنصر حيادي.

وفي المفهوم الرياضي:

سواء دخل العنصر الحيادي من اليمين أم من اليسار مع عناصر المجموعة المعرفة فالنتيجة هي ذاتها، وفق القانون الرياضي، فالواحد يمثل عنصراً احادياً في عمليات الضرب:

الديكارتي ١ × ٢ = ٢ × ١ = ٢ النتيجة واحدة.

ولما كانت مجموعة صور المعاني التي شملتها الخطبة خضعت لخواص قانون التركيب الداخلي، وكخاصة تجمعية، ونظيرية وتبديلية تتضمن عنصر النظير أمكن تخضيعها للمنهاج الرياضي، ثم أن هذه المجموعة من المعاني تشكل زمرة تبديلية، يمكن استبدالها بمجموعة معان مشابهة أو مساوية، نقل هذه الزمرة المعرفة، وهذه الخاصة تتضح بين سامع ومتكلم عندما تنتقل المعاني من إنسان إلى آخر بأسلوب تعبيري مشابه.

هذا وفي صدد الكشف عن المستويات المتداخلة لصنع الدالة وإيضاح العلاقات المتشكلة بين الجمل، أو بين المعاني التي تضمنتها الجمل.

أقول أن المستويات النحوية وحدها لا تكفي للكشف عن أسرار طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة، ولا بد من مستويات أخرى وعوامل مساعدة داخل نص في النص السابق مستويات نحوية وأخرى صرفية وجميعها تتعلق بالزمان والمكان بإشارات، فأول ما يلاحظه القارىء هو تجاور المعاني بحيث تشكل أزواجاً مترادفة تكمل بعضها بعضاً، وفق علاقات توافقية ازدواجية وارتباطية سأشير إليها أثناء عرض الأمثلة.

هالك معذور، وناج فرور، والمنية ولا الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره، هي علاقة تجميعية ازدواجية، استطاعت أن تبعث إلى السطح أشكالاً من الكلام ذات خصائص تجميعية بعلاقات متممة لبعضها البعض ومترابطة مع بعضها بعضاً ارتباطاً ازدواجياً استطاعت أن تكون دلالة موحدة بعد كل عبارتين، وهذه الدالة تشير إلى شكل العلاقة، إن كانت العلاقة بين كل معنيين علاقة انتماء أم علاقة احتواء، والتي رمزنا لها:

[[ ] علاقة احتواء]

المستوى النحوي: أن معظم الجمل كانت تعبر عن مبتدأ ثم عن خبر واحدة بعد أخرى مع وجود المميز النحوي.

ولقد أشارت هذه الجملة أنها مرتبطة بوحدة الزمان، لكنها تشير إلى زمان ماضي ومستقبلي في آن، وحتى لو كانت الكلمات تدل على مصادر والمصادر غير مقيدة بزمان أو مكان، فكلمة هالك اسم فاعل، ومعذور اسم مفعول، تداخلت المستويات النحوية مع المستويات الصرفية لصنع الدلالة وبعث الصورة متفاعلة مع الزمن الطويل بين الماضي والمستقبل البعيد، لتكون قاعدة وحكمة على مر الأجيال، وعندما تكاملت عناصر الجملة مع مكوناتها مع انتماء أجزائها إلى أنواع معينة من أقسام الكلام المرتبط بصنع صورة من التعبير كانت جملة هالك معذور، وجمل ناج فرور مصورة كاشفة لمعان جوهرية وأخرى ثانويـة.

فالمعنى الجوهري هي صورة إنسان هالك وصورة ناج فرور، وأمـا المعاني الثانوية التي أشارتها الدلالة، هي صورة المثل العليا للتضحية، والذل والعار لمن يهرب من أرض المعركة، وبذلك كان في المقارنة بين الصورتين قاعدة وحكمة ومثل صنعته التجارب ومواقف الرجال ألفه العرب وتفانوا من أجله.

إذن كانت الإشارة إلى الزمن المتداخل بين المستوى النحوي والصرفي لتركيب الكلام ضرورية، بل كانت صانعة للصورة وللدلالة، وترتبط هذه النتائج بما يثيره التعبير من ذكريات مرتبطة بما ألفه الناس وسمعوا به. حيث أن الكلمة في بنية لغوية معينة تمثل أفكاراً وتجارب ألفها المجتمع وتعارف عليها الناس، وقد حرص القدماء في دراساتهم على تجاوز وصف اللغة من حيث هي أصوات وألفاظ وتراكيب، فالتفتوا إلى دراسة طرق التعبير، ومثل هذه الدراسة تمد الباحثين بمنهج علمي لتحليل تلك الجهود، ومن هنا ارتأيت تخضيع جانب هام من علوم الرياضيات ليخدم البحث الإنساني، على اعتبار أن علم الرياضيات اكمل العلوم :

«فالعلم يستخدم المفهوم أولاً، وعندمـا يبلغ أعلى درجات الكمـال

يستخدم الرياضيات، ولهذا كان أجمل العلوم هي الرياضيات، تليها الفيزياء الرياضية ومن ثم بقية العلوم، وفي ذلك أن العلم يوضح العلائق الثابتة بين الموجودات، فإذا ما درس العواطف يحولها إلى مفاهيم مجردة وربما إلى معادلات رياضية»[1].

لذلك ارتأيت توضيح العلائق الثابتة بين الموجودات كمعان أو صور لمعاني إذا جمعت إلى جانب بعضها كونت لوحة التضحية والشرف.

وللبحث بين هذه الموجودات عن علائق ثابتة هي طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة، كان لا بد من استخدام أكمل العلوم وهي الرياضيات.

يرى المرء بين هذه الصور علاقات متنوعة، كأن يجد المرء بين المجموعات علاقات منظمة والتي يمكن أن نسميها دلالات، بين مجموعة واحدة من المعاني أو بين مجموعتين، فالعلاقات متنوعة ومتعددة، فإن علاقة التكافؤ بين المعاني لا تتساوى مع العلاقة الانعكاسية أو مع العلاقة التناظرية، بل ولا تتساوى مع العلاقة المتعدية أو التناظرية أو علاقة الترتيب أو الارتباط أو التوافق.

فتعريف العلاقة في المفهوم الرياضي هو: بين عناصر مجموعتين، هو تعريف بين عناصر مجموعتين معرفتين من المعاني، داخل جملة أو داخل فقرة، مثل س عناصر مجموعة معرفة، مع المجموعة ص، يؤل في النهاية إلى تعريف مجموعة جزئية شبيهه بحاصل الضرب الديكارفي:

كأن نقول أن العلاقة القائمة بين هالك معذور، خير من ناج فرور علاقة توافقية وارتباط، إن العلاقة بين المجموعة رقم واحد، وهي هالك، وبين المجموعة اثنان وهي معذور وهي علاقة توافق وعلاقة ارتباط، فالناس

---

(١) مبادىء الفلسفة جـ مشكلة المعرفة ـ د. انطون مقدسي ص ٧٨.

يسامحون من مات شجاعاً حتى لو غلب في معركة من المعارك، ويمكن أن نقول أن هذه العلاقــة ذات اتجاهات متعددة هذا إذا مثلناها بخطوط أو بخيوط، وهي مجموعة معان جزئية من المعـاني الكلية، وذات طبيعـة تجميعية أساساً، وأن لهذه العلاقات الجزئية عناصر وأجزاء متلاحمة مترابطة بين الأصوات الضائعة مع المنطق الصوري المجسم لصورة هالك معذور، ومثل ذلك يمكن أن يقال على طبيعة العلاقة القائمة بين خير من ناج فرور، بين المجموعتين علاقات ترابطية وتوافق والتحام.

هذا ويمكن اعتبار صورة هالك معذور مجموعة واحدة، وخير من ناج فرور هي مجموعة رقم اثنان، بينهما علاقة أكثر وعلاقة التحام نسميها علاقة ترتيب لأنها داخل مجموعة كبرى معرفة، وعلاقة الترتيب هذه بين عناصر مجموعتين هي علاقة تناظرية، لأنها ترتسم داخل ازدواج من الصور المرتبة من س ١ ص أو ١ ، ٢، وهي علاقة متعدية إلى غيرها من العلاقات قادرة على الالتحام مع ما يليها من المعاني.

كأن تكون العلاقة المتعدية بين مجموعتين أو أكثر، وكان في الإمكان ترتيب جمل أخرى من المعاني ذات طبيعة تجميعية وذات صبغة ازدواجية فتحقق بذلك العلاقة المتعدية، وبذلك نربط جملة بأخرى، وننفذ بدلالتها إلى عناصر مجموعة من المعاني تليها مباشرة معان الجملة معاني أخرى كما هو الحال بالعلاقة القائمة بين والمعاني المتلاحقة في النص السابق فإن العلاقة التوافقية المتعدية ذات صفة ارتباطية مستمرة داخل النص من جملة إلى أخرى.

ومثل هذا الكلام يذكر عن طبيعة العلاقة القائمة بين كل مجموعة معاني مـــع المعاني المجاورة لها. فعل.

المنية ولا الدنية، فكل كلمة ترسم معنى وهما صوتان من المعاني بل

جملتان ترتبطان مع بعضهما ارتباط الالتحام، وبينهما علاقة ترتيب كأن نسبق الموت على الذل، وتسبيق استقبال الموت خير من الاستدبار والطعن في ثغر النحور أكرم منه في الإعجاز والظهور.

فعلاقة الترتيب واضحة من بداية النص حتى آخره، بين كل جملة من المعاني مع التي تليها.... وبين الجمل عـلاقات متكـافئة من المتـانة والارتباط، وهذه الأنواع الممتزجة من العلاقات تحبك المستويات المتعددة لصنع الدلالـــة.

ويمكن للمرء أن يلاحظ أيضاً بين كل صورتين علاقة تناظرية بين كل زوج من الصور هالك معذور وناج فرور، الطعن في الإعجاز والـظهور يناظرها صور وعلاقات في الطعن الثغر والنحور.

وتجتمع هذه المعاني داخل المعنى الكلي للنص، بعلاقات وخصائص تجميعية، فتصنف هذه المعاني مرتبة في نفس صاحبهـا لتصنع الـدلالة الكلية، فالمعاني هي الأصل في التعبير، المتقيد بعلاقات تكافؤية بين الجمل والكلمات، وعلاقات ترتيب، والتحام، وتوافق، وتناظر يمكن يكون فيها عنصر نظير ينضم إلى مجموعتين من العناصر المرتبة، وهي ذات طبيعة تبديلية بعيدة عن المجموعات الخاوية والتي أشرت إليها بإشارة ∅.

فقضية تقابل المعاني وترتيبها وترابطها، وحسن عرضها بثوب لغوي متوافق بعلاقات توافقية وتكافؤية، هو تكامل بين الشكل والمضمون والتحام في مجموعة عضوية موحدة ذات دلالات قوية.

وبذلك تخضع هذه المجمـوعات المعـرفة داخـل النص إلى قانـون التركيب الداخلي للكشف عن البنى العميقة والتي هي سبب في ميلاد البنى السطحية من الكلام.

يلاحظ المرء في الخطبة الخاصة بابن هانيء الشيباني. أن الخطيب لم

يستعمل صيغة الجمع إلا في تسعة مواضع، هي الطعن والضرب والظهور والإعجاز، والنحور، والمنايا، والثغر، وآل بكر وداخل فعل قاتلوا، وهذه القسمة تتوافق مع عدد المعاني التي تضمنها النص ومناسبته مع عدد الجمل التي عبرت عن المعاني.

ويلاحظ المرء مـن هذه العملية الاحصائية لعـدد المعاني، وعـدد الجمل وعدد الحروف، ولعدد صيغ الجمع، أن مثل هذه النصوص تخضع لقانون رياضي خاص بالتركيب الداخلي بخصائصه المعروفة، وأن هذا القانون يرتبط إلى حد بعيد بالبنية السطحية المكونة للنص، وأن التعبيرات الإنسانيــة تسير وفق أنظمة أشبه ما تكون بنظم العلوم الرياضية.

بل تزيد عنها بالظاهرة الإنسانية من وحدة عضوية، وعواطف إنسانية تتراوح بين الصدق والفتور حسب المواقف المقيدة بها.

إن حالة تحول الصوت إلى معنى لم يكن عبثاً بصورة عشوائية بل حولته مستويات متداخلة، وأنظمة وعناصر مكونة، تشارك فيها علوم النحو والصرف والاجتماع والمنطق والرياضيات.

إن الخطيب لم يكن بحاجة إلى إحداث وأفعال لكن الخطيب كان قاصداً إلى صنع المثل وصنع الحكمة، فلم يقيدها بقيود الزمان والمكان، بل اكتفى في النص إلى استعمال فعل واحد فقط، ليصنع حدث القتال ومباشرة الثبات والتضحية وفقاً للحكم التي ساقها على مسامع القوم.

ولم يستعمل أكثر من فعل لأن القتال لم يكن قد بد فيه، وبعد ذلك يمكن سياق أفعال أخرى إذا أريد أن يزيد الإنسان تعبيرات أخرى تصور تطور الأمور ومجرى الأحداث، وبذلك يمكن أن نضيف إلى النص جملاً لم يقلها أحد من قبل ولا سمع بها أحد لأن مثل تلك المعاني طبيعية فيها اتساع تمكن المرء من أن يضيف إليها إذا شاء صوراً مفسرة وجملاً معبرة.

كأن نتخيل ما جرى في ساحات القتال، من قتال وصراعات بين الموت والحياة وبين الثبات أو الفرار، فالأحداث كثيرة والخطب جلل.

وبذلك نصيغ جملاً لم يقلها أحد من قبل، وهي طريقة تعبيرية أساسها المعاني والتحليل اللغوي.

إن طريقة التحليل والتركيب التي انتهجها الغربيون بزعامة نوم تشومسكي نهجت طريقة التحليل والتركيب الجملي، لمعرفة المستويات المتداخلة، ومنها لمعرفة ما يمكن تركيبه بعد تحليله للوصول إلى طرق تعبيرية يصاغ فيها الكلام وفق منهج علمي، وفي هذا المجال أقول أن مثل هذه الطرق في التحليل تحليل الجمل إلى بنيتها الصوتية ومعانيها الجزئية، ثم الرجوع إلى تركيبها من جديد، هي طريقة شبيهة بالتهجي، لا تفيد كثيراً في صنع الجمل إلا أنها ضرورية لمعرفة المستويات المتداخلة.

وخير طريقة لمعرفة التحليل والتركيب هي جعل النص مجموعة معاني معرفة لأنها هي الأصل في إنتاج الشكل اللغوي، حيث أن النص يشكل وحدة عضوية متكاملة، وكل جملة تشتمل على مجموعة جزئية من المعاني الكلية.

وبعد تحليل النص إلى معانيه المكونة تجري عمليات إحصائية للمعاني ثم للجمل ثم للجملة الواحدة، وبعد ذلك تخضع مجموعة المعاني إلى خصائص قوانين التركيب الداخلي. إن ترتيب المعاني في النفس شيء هام يرتبط بالمنطق يلاحظه المرء في المقالات العلمية القائمة على التجربة والملاحظة والقوانين والنتائج، وفي محاولة تجريها في تبديل مواقع المعاني إلى مواضع أخرى، فإننا نحصل على نفس المعاني إلا أنها أقل دلالة في مجال المواقف المطلوبة كأن نقول.

يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا بد، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في

الإعجاز والظهور، واستقبال الموت خير من استدباره، هالك معذور خير من ناج فرور المنية ولا الدنية.

ويمكن أن يقال في هذا المجال أن عرض المعاني بهذا الشكل هو أقل دلالة من المعاني السابقة، وبذلك تكون قد بدأنا بالنتائج بدلاً منه البدايات.

ويتضح للمرء هذا الاضطراب، فيما لو رقمنا هذه المعاني، وجعلناها صوراً كاركتورية، وجمعناها في لوحة شبه خريطة، لنجعلها لعباً للأطفال، وجعلنا مجموعة من اللوحات في أيدي مجموعة من الطلاب وطلبنا منهم تركيبها حسب ترتيب معانيها في النفس، فكل منا يلاحظ الاضطراب عندما تقارن بين هذه الأشكال، وبين لوحة أخرى مرقمة ترقيماً اعتياطياً فيتضح الاضطراب لتنظيم المعاني.

إن هذه المعاني كانت مرتبة في النفس، مرتبة ترتيباً رياضياً حسب أرقام، ومجموعات معرفة، بخصائص صانعة للدلالة تجمعها علاقات متنوعة بين مجموعتين داخل مجموعات.

إن هذه الطريقة تمكننا من تحويل النصوص إلى صور يقرأها الأمي والأخرس وحتى الأعمى عن طريق اللمس...

وفي حالة إضافة بعض العناصر إلى النص، من معان ثانوية مرتبطة مع بقية عناصر المجموعة الكبرى، يجب أن يبقى الموضوع خاضعاً لقانون رياضي عام بخواصه التبديلية والتجميعية.

إن هذه المعاني تبقى تتدافع إلى أن تأخذ وضعها الأصلي، حسبما كانت مرتبة في نفس صاحبها.

ويمكن إجراء هذه العملية أمام الطلاب في كتابه الجمل على قصاصات من الورق المقوى، النص على السبورة، بشكل عشوائي، ونطلب

من الطلاب البحث عن عرض أفضل، ونبدل في مواضيعها ما شئنا إلى أن يهتدي الطلاب إلى مواضعها الصحيحة.

وفي تبديل مواضع المعاني من مواضعها ونقلها إلى مواضع أخرى، فإننا نسبب بالقضاء أو بإضعاف العلاقات القائمة بين الشكل والمضمون وتنشأ العلاقة المنعكسة التي نرمز لها بالمفهوم الرياضي ع ـ ١ وهذه الطريقة التعليمية في نظم المعاني وترتيبها حسب ترتيبها في النص، فإذا ما نظمت كونت نصاً كاملاً وهي طريق مختصرة يقرأها الصغير والكبير والأمي والجاهل والمتعلم.

وبالتالي تصبح مهمة المعلم سهلة في تعلم طلابه الصغار والكبار يقول الدكتور نايف خرما عن تشومسكي:

«إن الكلام عن التحليل اللغوي من غير إشارة إلى المعنى هو كمن يصف طريقة صنع السفن من غير إشارة إلى البحر»[1].

هذا ويمكن تطبيق نفس المنهج على نصوص مشابهة أمثال، خطبة لقس ابن ساعدة الأيادي، وخطبة أخرى لأكثم بن صيفي، يبدو أن هذا الأسلوب بقي سائداً حتى في خطب الخلفاء والأمراء وفي رسائلهم الدينية والسياسيــة.

يقول قس بن ساعدة: أيها الناس: اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج ونجوم تزخر، وجبال مورساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض تعسرا، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، ارضوا فأقاموا، أم تركوا فتامو.

١ ـ **طريقة العمل:** قس بن ساعدة خطيب العرب في عكاظ وهو

صاحب القول المشهور البنية على من أدعى واليمين على من أنكر، وكان رسول الله يعجب بكلامه قبل الرسالة.

٢ ـ **العصر الجاهلي**: والمكان سوق عكاظ ـ الغرض هو توجيه الناس نحو ديانة أرقى من عبادة الأوثان، فكان ماهراً في ضرب الأمثال.

٣ ـ **عدد الجمل** ـ الأسمية أثنى عشر جملة، وعدد جمل النص الفعلية تقريباً اثنى عشر جملة، فالعملية التوافقية موجودة، إن عدد المعاني موافق لعدد الجمل المصورة.

٤ ـ **العلاقات القائمة** بين **المعاني**: آ ـ إن هذه المعاني خاضعة لقانون التركيب الداخلي وخاصة التجميعية، من أن عدد المعاني يساوي خمسة عشرة من معنى، وتمتلك خصائص تبديلية، وعنصراً حيادياً، كأن يمكن تبديل جملة مكان أخرى من مجموعة من المعاني، مثل جملة من عاش مات، أو أن تسبق جملة المعاني من مات فات لجملة من عاش مات.

٥ ـ **وأن بين الجمل علاقات**: احتواء من أن كل كلمة تحتوي معنى وبين كل مجموعتين مزدوجتين علاقة انتماء، وتترابط [ـــ كأن نقول أن المعاني في المجموعة ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون هي معاني تنتمي لمجموعة المعاني في النص بعلاقة انتماء، والمعاني الجزئية تنتمي إلى بعضها بعلاقة احتواء ـــ ، ثم تترابط الجمل من المجموعات الصغيرة مع بعضها بعلاقات ترابطية متعدية لتصل المعاني مع بعضها بعضاً.

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام، أن هناك مسافات بين هذه المعاني بين مجموعة صغيرة وأخرى، كأن نضيف إلى النص معان توافقية ضمن علاقة الاحتواء، وبذلك يمكن توسيع النص بإضافة معان متصاحبة

---

(١) انظر : جواهر الأدب ـ المرحوم أحمد الهاشمي جـ ١ ص ٢٠.

متجاورة تزيد في شرح أحوال المعاني، وهي طريقة لإنتاج عدد من المعاني والجمل التي لم يقلها أحد من قبل.

ومثل هذه الحالة في أضاف معاني إلى معان مجاورة كي تصاحبها، هي طريقة تصح في التعبيرات النثرية مثلما تصح في التعبيرات الشعرية، كأن يضاف إلى القصيدة العمودية بيتاً من الشعر أو آخر، أو أن نؤخر بيتاً عن آخر أو أن نضيف بين كل بيتين بيتاً من الشعر، بعلاقات توافقية ترابطية على اعتبار أن المعاني هي الأصل في كل تعبير وفي كل الظروف وشتى الأحوال، هذا ويمكن الإشارة إلى المستويات النحوية والصرفية في كل جملة لتوضيح المستويات المتداخلة في كل عملية صنع عبارة من العبارات، أو حالة من الحالات التعبيرية: وفي هذا المقام توضح أشكال الارتباط مقومات الصورة بين الكلمة والفكرة والصوت مع الدلالة المتولدة في الذهن.

وظيفة: أبحث في خطبة أكثم بن صيفي عن العلاقات الترابطية، ثم التوافقية، ثم علاقة الانتماء، وعلاقة الاحتواء، وهل هناك علاقات انعكاسية تمتع بعض المعاني من الظهور، وأين تكمن العلاقات المتعدية.

قال أكثم بن صيفي:

إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكهم، وأفضل الملوك أعمها نفعاً وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاجه، والحزم مركب صعب والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر، حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي. من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء، وشر البلاد بلاد لا أمير بها.

١ ــ لماذا استعمل الخطيب الجمل الإسمية، وتحاشى استعمال الجمل الفعلية وما هي الفائدة من ذلك.

٢ ــ عدد المعاني المتوفرة في النص.

٣ ــ عدد الجمل الموفورة في النص.

٤ ــ ما نوع العلاقات المتوفرة بين الجمل.

٥ ــ وضح المستوى النحوي والصرفي بين جملتين على الأقل.

٦ ــ هل يوجد عنصر حيادي في النص؟

نماذج تطبيقيــة

قال أبو بكر الصديق: يوم سقيفة، بعد أن حمد الله وأثنى عليه.

أيها الناس، إني وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني وإن رأيتموني على باطل فقوموني: أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له وأضعفكم عندي القوي حتى أخذ الحق منه، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

١ ــ **المناسبــة** : مبايعة المسلمين لأبي بكر خليفة المسلمين.

٢ ــ **المقــام**: ديني سياسي، ومسؤولية أمام الله وأمام المجتمع.

٣ ــ **عدد الكلمات في النص**: أربعة وثلاثون كلمة ـ عدد الحروف عشرون حرفاً منها عشرة حروف عطف، خمسة حروف ناصبة، أربعة حروف جر.

وحرفي نفي، وأداة استفهام واحدة.

٤ ــ **عدد الأسماء**: ثلاثة عشر اسماً.

٥ ــ **عدد الأفعال**: ثلاثة عشر فعلاً تاماً.

وفعل ماض ناقص، فقط، وظرف ملكية واحدة فقط تكرر مرتين.

٦ ــ **الأزمنة المستعملة**: ستة أفعال استخدمت الزمن الماضي، وثلاثة أفعال في زمن الأمر، وأربعة أفعال في الزمن الحاضر.

عدد المعاني في النص: آ ــ الناس ب ــ الولاية ـ الخبر ـ الحق ـ الاعانة .

الباطل : المقاومة ـ الطاعة ـ العصيان ـ القوة ـ الضعف ـ الحق ـ الضعف ـ الحق ـ الاستغفار.

عدد المعاني : خمسة عشر معنى، منها معنيان مكرران ـ الضعف والحق.

فيصبح عدد المعاني ثلاثة عشر معنى أو صورة ـ تشكل مجموعة معرفة متناسبة مع عدد الأسماء الواردة في النص، فالنسبة بين البنى العميقة والبنى السطحية متوافقة، منها علاقات ارتباط، وتوافق، وهذه المعاني متناسبة مع عدد الأفعال التامة، وهي التي جعلت المعاني تتحرك وفق نظام متكامل، وهذه المعاني تساوي عدد الأفعال الأمر والماضية والناقصة مجتمعة.

وهكذا تتفاعل المعاني مع الأحداث المتعاقبة بين الماضي والأمر والحاضر لتشابك هذه المعاني مع الأحداث، ومع المستويات الصرفية لتحقيق الدلالة الكليــة.

المستويــات الصرفيــة:

أشرت إلى الأزمنة، فهي موزعة بين الماضي والأمر والحاضر، ويخاطب أبو بكر المسلمين كافة بصيغة الفرد، وللمسلمين بصيغة الجمع وهذا يتناسب مع المقام الديني والسياسي.

أنواع العلاقـات القائمـة:

من طبيعة الأمور المسلم بها في المجال الرياضي الديكارفي وخاصة في الرياضيات العصرية أن مجموعة هذه المعاني تجمعها صفة تجميعية ترمز لها بالرمز ×، تضم المعاني بعضها إلى بعض، وأن هذه المجموعة الكبيرة كنص مكونة من مجموعات أصغر هي الجمل، وكل جملة تكون مجموعة أصغـر منها، والمجموعة الصغرى تكون ذات خاصة تبديليـة، يمكن ضمها إلى مجموعة مجاورة متميزة عنها أو مساوية لها، وهذه المعاني يمكن تقسيمها إلى رمز مثل مجموعة المعاني المعرفة، الناس والولاية، والخير والحق والاعانة، مجموعتان من الزمر، الناس والولاية، زمرة، والخير والحق والاعانة زمرة إلا أن صورة الاعانة تكون عنصراً احادياً قادراً على أن يكون في مجموعتين مثل الناس والولاية والاعانة، وكذلك الخير والحق والاعانة معاني متجاورة كل مجموعتين تكونان زمرة، والخير والحق زمرة أخرى، كانت الاعانة تشكل عنصراً احادياً، وهذه المجموعـات تخضع لقانون التركيب الداخلي هذا وفي صدر الحديث عن البنى العميقة في جملة من المعاني أو في جملتين، نلاحظ أن بين كل مجموعتين علاقات متنوعة مثل أيها الناس، إني وليت عليكم، فكل جملة من المعاني تكون وحدة معرفة بينهما علاقات متنوعة، علاقة ارتباط الولاية على الناس، فهي علاقة احتواء نرمز لها بالرمز ـــــ أو بين الناس وبين الوالي علاقة ارتباط وبين الناس علاقات التزام، وعلاقات توافقية لوجود الالتزام الديني ونلاحظ أيضاً علاقة ارتباط وتلاحم بين مجموعة الناس، مجموعة الولايـة عليها، لأن الخليفة يتمتع بالسلطة* الدينية مع احتكام إلى القرآن وجملة لست بخيركم جملة خاوية يمكن ابقاؤها أو حذفها لأنها جملة اعتراضية، وبنفس الطريقة من التفكير والعمل فتناول الجمل الأخرى، ومن المهم البحث عن العلاقات بين البنى العميقة والسطحية، وأنواع تلك العلاقات وأشكالها، لتـوضيح

العلاقة بين الفكر واللغـــة.

هذا ونجد في هذا النص أن هذه المعاني متقاربة متصلة بينها ألفة وحسن جوار مرتبة حسب ترتيبها في نفس أبي بكر.

*** ـــ *** ـــ *** ـــ ***

الخاتمـــة

تضمنت أطروحة الرسالة، أربعة أبواب متتالية حسب التطور الفكري عبر الزمن اعتباراً من أيام نشأة الحضارة الإسلامية وإلى يومنا هذا، مروراً بالدراسات اللغوية القديمة والمعاصرة عربية وغربية، لندرك مكانة هذا العلم الحديث عند أمتنا العربية.

شمل الباب الأول جهود السلف خلال أربعة قرون متواصلة من القرن الثاني الهجري إلى أن نصل إلى جهود عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري، والتي توجت الجهود اللغوية المتواصلة بنظرية لغوية فذة، لها قيمتها العلمية المعتبرة في الدراسات اللغوية المعاصرة فإذا بمفهوم فكرة النظم تكبر وتتطور عبر العصور لتصل إلى مستوى النظرية..... ضمنها كتابه دلائل الإعجاز.

وبذلك تكون هذه الجهود قاعدة علمية عريقة، جهود علمية رائدة جعلت الطريق أمامي واسعاً، للجري وراء جهود الدراسات اللغوية المعاصرة عند العرب ثم عند الغرب، باحثاً عن القدر المشترك بين القديم والجديد، وصولاً لطبيعة العلاقة بين الفكر واللغة، فأصبح من السهولة بمكان الانتقال إلى الباب الثاني.

تضمن الباب الثاني : مشكلة اللغة ثم مشكلة الفكر وطبيعة العلاقة بينهما ثم تفاوت رأي رجال الفكر في هذه المشاكل.

وتضمن الباب الثالث: مكانة العلاقة بين الفكر واللغة، من حيث

الغموض والانكشاف ثم قضية معاني النحو من أنها أساس للدراسات اللغوية القديمة والمعاصرة وأن هناك علاقة ذات دالة في مجاميع معرفة بين الألفاظ والمعاني.

كان من الضروري أن يكون لهذه الدراسة طريقاً للتطبيق العلمي، وذلك بتخضيع النص للدراسة اللغوية العلمية، وذلك بتخضيع علم المعاني لمنهاج رياضي وبنظرة علمية جديدة، وبذلك تأخذ الجهود اللغوية طابعاً جديداً واتجاهاً جديداً بعيداً عن الاتجاهات الغربية.

الباب الأول:

دور النشأة:

تمثلت مرحلة النشأة والفتوة بجهود الشعراء وخطب الفصحاء والخلفاء والأمراء مدة طويلة اعتباراً من العصر الجاهلي ومروراً بعهد الخلفاء ثم العصر الأموي، فما من مثقف إلا ويدرك مرتبة أمرىء القيس وزهير وعنترة واكثم بن صيفي، وقس بن ساعدة، وذي الأصبع العدواني، وكيف أن أسلوب القرآن الكريم سما عن تلك الأساليب، فكان معجزاً للإنس والجن فأصبحت الظاهرة البلاغية في القرآن شغل الباحثين والمفكرين اللغويين والدينيين على مختلف العصور والأيام، اعانتهم تلك الدراسة على فهم القرآن وإدراك أسلوبه المعجز، وبعد ذلك اتجهت أنظار المسلمين إلى العناية بأسلوب القرآن وتفسير آياته، وشرح ألفاظه والكشف عن معانيه السامية، والتعرف على دقة نظمه وحسن الصياغة فيه.

فأصبح القرآن محور تفكيرهم، ثم بات للمسلمين أعلامهم رجال دين ولغة ونحو وبلاغة ونقد ومنطق وفلك وحساب وجغرافيا وأدب، وكتاب ومؤرخين فهذا ابن المقفع صاحب مدرسة كتابية في الأسلوب العربي وهو صاحب عبد الحميد الكاتب، فكان علماً على طريق طويل ابتدأ بدور النشأة المتطورة، فقد امتاز أسلوبه بالدقة والصناعة العلمية في اختيار الألفاظ، ووضعها في مواضعها اللائقة بها أثناء صياغة العبارة الرصينة كي تؤدي المعنى المنشود، وعلى يديه ولد مفهوم النظم، وهو أول إشارة لمفهوم فكرة النظم عند العرب، نجدها في مقالة ابن المقفع في كتابه الأدب الصغير

والكبير في مقالة بعنوان الأدب ينمي العقول.. . فأذا النظم عنده بمثابة صياغة الذهب والفضة ونظمه شبيه بنظم حبات الجواهر واللالىء داخل عقدة.

هذا واستمر الكتّاب بعد ابن المقفع يعنون بترقية أساليبهم وتجديد معانيهم وفقاً لرقي الحياة الفكرية وتطور الذوق مع تجدد الحياة العامة بكل مظاهرها ومقوماتها، كان ذلك بعد أن انفتح العرب على غيرهم من الأمم التي دخلت في حوزة الإسلام.

تهيئت الظروف والأسباب بعد أن قطع المسلمون أشواطاً بعيدة في الرقي الحضاري لميلاد مدرسة فكرية وتعبيرية جديدة، هي مدرسة الجاحظ، جاءت جهود الجاحظ لتثبيت أركان صياغة العبارة الرتيبة عند العرب، فأعطت صورة واضحة لعصرها بأسلوب جذاب ولغة مرنة رشيقة طيعة، ولم يكتف الجاحظ كسابقة بنقل علوم الأوائل، بل كان مبدعاً مجدداً في مجالات عديدة في جميع اتجاهات الفكر العربي، فامتاز أسلوبه التعبيري بدقة العبارة وجلاء الفكرة، مع الوضوح والحلاوة والرشاقة، واجادة التصوير بروح متميزة، جعل العبارة خادمة للمعنى بلطف مدخل ودقة وصف وحسن أداء وجودة دلالة مع الغاية بإيضاح الفكرة واستقصاء لجزئياتها فانطبع أسلوبه بغزارة الألفاظ، وانتقاء المعاني الملائمة لها مع حسن الدلالة وبذلك يكون الجاحظ أعظم كاتب عرفته العربية، وإنه رأس المدرسة الجاحظية واستمرت مدرسته تؤدي دورها حتى منتصف القرن الثالث الهجري، إلى أن كان مولد مدرسة ابن العميد وبديع الزمان الهمذاني، وأميز ما يميز كتابة الجاحظ روحه المرحة وسعة الأفق، والواقعية والدقة والوضوح ثم التلوين الموسيقي وغزارة الألفاظ وجودة المعاني والمرونة والايجاز، وأحسن الكلام عند الجاحظ، كان يغنيك قليله عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه.

هذا وقد وجدنا اللغويين والمفكرين من المعتزلة قد أقاموا مناهج علمية

لهم بزعامة الجاحظ وواصل بن عطاء، ووجهوا دراساتهم لبيان الأسلوب، وأسلوب القرآن خاصة، فكانوا أقدر من غيرهم في تفهم دقائق النظم، فقد حاولوا الكشف عن معاني الأساليب المختلفة، ليصلوا منها إلى أسلوب القرآن المعجز وإلى الوجه الذي يرضي ذوقهم، فالمعاني مراتب والألفاظ مراتب، فجودة المعاني تتطلب جودة التعبير وحسن النظم وجودة اللفظ وصحته، فالكلام عندهم لا يستحق البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، ولا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك.

أدرك الجاحظ ومن تبعه شدة التحام الألفاظ بالمعاني، ويؤلف الجاحظ كتابه البيان والتبيين، وكتابه نظم القرآن، استجابة ملحة في ذاته لقضايا عديدة شغلت فكره منها لغوية وبلاغية وأخرى نقدية ودينية وفكرية عامة، قضايا كانت تفرض نفسها على كل مفكر في عصره، وتتضح معرفة الجاحظ لدقائق نظم الكلم مع اضطلاعه على ضروب القول عند العرب، مع استيعاب الدقيق لبيان القرآن ومرامي تعبيره، وأن نظم القرآن أعلى الأساليب التعبيرية لا يدر على مثله العباد، وعلى المرء أن يدرك أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حال من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات.

ويساهم ابن قتيبة بجهوده اللغوية خلال القرن الثالث عشر من خلال أعماله النقدية في كتابه (الشعر والشعراء) وكتابه (مشكل القرآن) فكانت ثقافته الممتزجة تقوم على القرآن والحديث واللغة والنحو والأدب والنقد وتخرج بذلك على علماء زمانه، وفي عصره شاعت المناظرة بين المعتزلة وأصحاب الحديث والسنّة واللغويين، وكان الجدل حول القرآن وأسلوبه ميداناً فسيحاً طيلة القرن الثاني والثالث الهجري.

تناول ابن قتيبة القرآن وأسلوبه وناقش مسائل أسلوبه ومشكلات بيانية ليرد على المعتزلة وهو رأى من أعلام أهل السنّة، في كتابه (نظم القرآن) واستمر في تأدية جهوده إلى أن توفاه الله عام ٢٧٦ هـ، فقد ترك لنا نظرية في نقد الشعر أفاد بها أهل عصره، صنف الشعر فيها إلى أربعة أصناف وفقاً لنظم الألفاظ والمعاني من حيث الجودة والرداءة.

فمن الشعر ما حسن لفظه وحسن معناه، ومن الشعر ما ساء لفظه وحسن معناه ومن الشعر ما ساء معناه وساء لفظه، ومن الشعر ما ساء معناه وساء لفظه ولم تقف جهود ابن قتيبة عند هذا الحد، بل كانت له جهود لغوية أخرى في كتابه نظم القرآن، عالج مشكلة إعجاز القرآن من حيث نظمه، وأوضح رأي أهل السنة في إعجاز القرآن وأسرار نظمه، وسمو تأليفه عن سائر كلام العرب ونظومهم.

تناول قضية الاعجاز تناولاً منظماً ومستعرضاً الفنون الأدبية واللغوية، ليستعرض بعد ذلك نظم القرآن من حيث نظم الألفاظ وضم بعضها إلى بعض للتآلف مع المعاني، تآلف الروح مع الجسد، ولم يفته ما تحققه الألفاظ بانسجامها مع المعاني من موسيقى ونغم وتنسجم والروح الإنسانية، وأن صفة القرآن تفوق كل أثر بياني عند العرب.

ثم تناول غزارة المعاني وقدسيتها، وإنها جامعة لزبدة الشرائع السماوية بل تزيد عنايتها موضحاً ما للقرآن من أثر نفسي في الوجدان من حث على الواجبات وتقديس للفضيلة وخشوع لله عز وجل.

ويوضح ابن قتيبة جوانب الإعجاز في التأليف والنظم، فيرى أنها تتعلق بأمور عديدة أهمها النظم بمعنى ضم الألفاظ بعضها إلى بعض في تأليف دقيق بينها وبين المعاني فيجريان معاً في سلامة وعذوبة كالجداول ثم العناية بالنغم والموسيقى، يشمل النظم، الضم والايقاع الداخلي في الآيات

وتلاؤم الحروف وتلاحم النظم مع المعاني، مدعماً بالسجع والفواصل والأزدواج والسجع والطباق والجناح، والقرآن بما جمع من هذه المميزات الأسلوبية تفوق كل أثر بياني عند العرب.

تناول ابن قتيبة لغة القرآن كأداة للتعبير عن الرسالة ثم بين قيمتها البيانية ومكانتها اللغوية بين اللغات الأخرى من يونانية وفارسية وهو احتجاج للاعجاز أن عناية ابن قتيبة بالمعانية لا تقل عن عنايته باللفظ، ويرى أن العرب تتصرف بها في حكمة وفقاً لمناسبة المعاني تتصرف فيها الدلالة على دقة اللغة وقدرة العرب على التعبير وهذا دليل دقة الملكة، وهو دليل على الدقة في التركيب ودليل على دقة الملكة في أهلها.

ثم تناول الكلمة واشتقاقها ثم تلاه المجاز بالأهمية.

الفصل الثاني :

وتزدهر الجهود اللغوية نتيجة للازدهار الحاصل في الحياة العامة، وخاصة بعد أن قطع المسلمون مرحلة طويلة في حياة الإسلام والمسلمين، وفي نهاية القرن الثالث الهجري، ولدت جهود أخرى بعد جهود ابن قتيبة ألا وهي جهود قدامة بن جعفر المتوفي سنة ٣٣٠ هـ وجهود قدامة هذه مزيج من الأعمال اللغوية والنقدية الهامة، وخاصة في كتابيه نقد النثر ونقد الشعر، وتتجلى أعماله اللغوية في نظريته اللغوية، والتي تشبه إلى حد بعيد أعمال اللغويين الأوربيين المعاصرين لنا، فإن كانت نظرية تشومسكي هي نظرية لغوية توليدية، للجمل لم يسمعها أحد من قبل أو لم يقلها أحد من البشر.

فإن قدامة بن جعفر بنظريته لحد الشعر قادرة على إنتاج التفعيلة، والكلمة العشرية والبيت الشعري وفي كل الأغراض الشعرية، وحول جميع المعاني، فهي في رأي نظرية إبداعية خلاقة لنظم العبارة، وتضاهي أبدع الجهود اللغوية المعاصرة.

تناول قدامة بن جعفر قضيتي اللفظ والمعنى، تناول الخبير الماهر والعارف لمقادير المعاني ومقادير الكلام، فأعطى للفظ أهمية كبرى، وأعطى للمعاني مكانتها اللائقة وأولاها العناية الفائقة، وتنبه لحالات الائتلاف بينهما في صناعة البيت الشعري ونظم القصيدة.

فقد جعل للمعاني نعوتاً، وللألفاظ صفات لتميز جيد الشعر من رديئه فالمعاني أقسام وأنواع لها مميزاتها ونعوتها التي لا تكاد تحصى، ولهذه المعاني بشتى أنواعها لها ما يماثلها من اللفظ.

وتتجلى براعة قدامة اللغوية بتخصيصه المعاني والألفاظ إلى حالات ائتلاف والتحام ونسبة، فيجعل لصناعة الشعر حداً ونظاماً وكأنها عملية حسابية منطقية، فالشعر عنده موزون مقفى ذات معنى وهي شروط فاصلة بين ما هو شعر وما هو نثر، كي يفرق المرء بين صياغة الشعر وصياغة العبارة النثرية في الخطابة والمقامة والمقالة، لأن حدود الشعر معروفة للعرب جميعاً، وتتراوح هذه الصفات بين الجودة والرداءة في النظم.

ويتضح لنا مما تقدم ذكره، أن صناعة الشعر ونظمه هي صياغة لفظية حول معان مقصودة مستهدفة في ذهن الشاعر، وذات دلالية على موقف وجداني معين، مثل قدامة هذه العملية بقصائص الورق وقطع من الخشب، والتصوير، وهي عملية صناعية، ومن الطبيعي أن يأخذ النقاد على قدامة ومنهجه، وخاصة أن مادة الوجدان غير خاضعة للمقاييس العلمية.

وجدير بالذكر الإشارة إلى ما حرى له قدامة، وهي حالة الائتلاف والمقابلة بين الألفاظ والمعاني، وذلك أن يجعل المرء المعاني مقابلة للغرض المقصود على اعتبار انها موجودة بالطبيعة.

يدركها البدوي والأعجمي والعربي لها صورتها بالأذهان، فإذا طلبها شاعراً كانت شعراً، وأذا طلبها خطيب صارت خطبة وإذا طلبها أمير أو خفير

باتت كلاماً.

ويعتبر قدامة قضية المساواة بين اللفظ والمعنى حالة من حالات الائتلاف بأن يكون اللفظ مساوياً المعنى لا يزيد ولا ينقص عنه، وهي مقاييس أشار إليها الكتّاب والخطباء مثل قدامة وأمثال ابن المقفع والجاحظ.

ثم أن الإئتلاف عند قدامة حالة متنوعة وفقاً للفظ والمساواة والوزن مع اللفظ والمعنى مع الوزن، بأن تكون الأغراض مواجهة للمعاني من أجل طلب الوزن وطلب الصحة.

ويضع قدامة بن جعفر لحالات الائتلاف التي ذكرتها شروطاً وأسباباً منها:

آ ــ ائتلاف اللفظ مع المعنى.

ب ــ ائتلاف اللفظ مع الوزن.

جـ ــ ائتلاف المعنى مع القافية.

وبالتالي تصبح صناعة الشعر ونظمه أجناس عديدة جعلها ثمانية. ومن هذه الآراء جميعها ندرك أن قدامة بن جعفر قد أولى عنايته خاصة للمعاني، اعتمدت عليها نظريته النقدية اللغوية في الشعر، وبهذا تكون المعاني جوهراً للدراسات اللغوية عند العرب بل ولب الدراسات النقدية والأدبية والنحوية والشعرية واللغوية.

والجدير في جهود قدامة اللغوية ونظرية الدقيقة المتفحصة لصياغة العبارة ونظم الشعر، وحالات الائتلاف بين الألفاظ والمعاني والوزن والقافية والمعاني وأقسامها والألفاظ وصفاتها، أن دراسته هذه كانت أكثر نضجاً من آراء ابن قتيبة، حيث أن قدامة قد اعتبر المعاني أساس الدراسات اللغوية في بنية العبارة وفي البيت الشعري وفي الغرض الشعري وفي القصيد وقسم

ذلك بين الجودة والرداءة، ولهذه الآراء مجتمعة مكانتها العلمية عند اللغوي المعاصر الأوربي، وبذلك يفتح للباحثين المحدثين عهداً جديداً.

وجدير بالذكر أن أعمال قدامة اللغوية قد ساهمت في عملية تطوير الدراسات اللغوية ودفعت بها من القرن الثالث الهجري إلى القرن الرابع.



تطور الجهود اللغوية في القرن الرابع الهجري:

تعتبر الجهود اللغوية المبذولة في هذا العصر جهود متطورة متقدمة على سواها في المراحل التاريخية السابقة، وهي دراسات شارك فيها بعض من المتفلسفة أمثال جهود قدامة السابقة وهي مرحلة بين عصرين، وجسر موصل بين العصرين، ثم تلا ذلك مجموعة من جهود المتكلمين في الإعجاز، أمثال علي بن عيسى الرماني المتوفي سنة ٣٨٦ هـ، وحمد بن إبراهيم الخطابي المتوفي سنة ٣٨٨ هـ ومحمد بن يزيد الواسطي وبعض من المتأدبين أمثال أبي هلال العسكري المتوفي سنة ٣٩٥ هـ وهو صاحب كتاب الصناعتين في العشر والنثر، ولم تكن هذه الجهود وحيدة في هذا العصر، بل أيدتها جهود لغوية ونقدية أخرى قادها النقاد، وفي طليعتهم أبو القاسم الحسن ابن بشر الآمدي، وعلي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة والمتوفي سنة ٣٩٢ هـ، وأبو الفرج الأصبهاني، وبديع الزمان الهمذاني.

وتعد هذه الفترة من حياة أمتنا العربية، مرحلة خصبة غنية ثرية رفعت من شأن اللغة وطورت من عمل الفكر، فالشعر في نظرة هؤلاء هو إصابة معنى وإدراك غرض بألفاظ عربية سهلة عذبة خالية من التكلف والاخلال، وهو صحة سبك وحسن نظم وحلاوة نفس وقرب متناول. وأبرز ما يميز جهود هؤلاء الدقة والوضوح، وضبط المعايير النقدية لصياغة الشعر وصنع

الأدب وصياغة العبارة، وإن الكلام أولاً وأخيراً مبني على الفائدة في حقيقته ومجازه، وإذا عدل الكلام عن هذه الطريقة إلى ما يشابه الحقيقة أو ما يقاربها كان الخطأ، فالدقة مطلب في استعمال اللفظ في نظم العبارة كي يؤدي دلالته.

وهي طريقة الآمدي في النظم، ويعتقد هؤلاء جميعاً أن الكلام المبني على الفائدة يجب أن يدل بعضه على بعض، ويأخذ بعضه من بعض وأن تعلق كل لفظة بما يلها، وتكون هذه المقاييس صحيحة إذا أرادوا المعنى، فالمعاني أساس للدراسات النقدية واللغوية، عندما ترد الألفاظ في مواقعها تكون المعاني معبر عنها بألفاظها.

إن نقاد هذه المرحلة وبلغاءها وكتابها هم من أنصار الصياغة حسب ائتلاف المعاني مع الألفاظ، فالألفاظ والمعاني على نفس القدر من العناية والأهمية، إن كلمة دون معناها التقصير عن العناية وليست من الأضداد في شيء، ويرى الآمدي والقاضي والجرجاني، إن في حسن النظم نظم صياغة العبارة حسناً ما بعده حسن، إذا طلب المعبر المعنى مع الألفاظ المعبرة عن المقاصد، يجب أن تأتي اللفظة مع أختها المشاكلة لها في الحسن والقدرة على التعبير.

وفي هذه الفترة يتوصل كل من الآمدي والقاضي والجرجاني إلى معايير نقدية واحدة ويشتركان في جهود لغوية واحدة ومعتبرة، فقد أدرك الجرجاني ما أدركه الآمدي، ما للألفاظ من دور في صنع العبارة أو ما للمعاني من مكانة في التعبير، فلولا لطيف المعاني واجتهاد الشعراء فيها وإقبالهم عليها لما تفاوتت أساليب الشعراء والكتّاب عند نقاد هذه الفترة، فحسن التأليف وبراعة اللفظ، والمعنى المكشوف بهاءاً وحسناً ورونقاً حتى كأنه أحدث فيه غرابة لم تكن وزيادة لم تعهد.

والجديد في عصر الآمدي وعصر القاضي الجرجاني، هو إدراكهما البنية العميقة للجملة، فقد أدركوا المعاني بأنواعها وأقسامها وأحسوا معنى المعنى، واعترفوا بالبنية السطحية، وإن الكلام يجب أن يبحث على الفائدة التامة.

ذلك هو الكلام الذي يدل بعضه على بعض، ويأخذ بعضه بناصية بعض وأن يكون المقصد من نظم العبارة هو طلب المعاني المرتبة في النفس وأن الكلام أصوات محلها من الاسماع محل النواظر من الابصار وترى الصورة تستكمل الشرائط الحسن وتستوفي أوصاف الكمال.

وتذهب في الأنفس كل مذهب، وتقــف في التحام بكل طريق لم تجد غيرها دونها في انتظام المحاسن والالتئام والخلقة وتناصف الأجزاء وتقابل الأقسام وهي أحظى بالحلاوة، وأدنى إلى القبول، وأعلق بالنفس وأسرع مما زجه للقلب.

ويبرز القاضي الجرجاني مزايا جيد الكلام المنظوم والمنثور ويجعل من تلك المميزات طريقاً لنظم العبارة، وتلمس من هذه الآراء إشارة واضحة إلى البنية العميقة ومستوياتها الصرفية والنحوية اللاصقة للبنية السطحية.

ويتأثر الجرجاني والآمدي في دراستهما لنظام العبارة الشعرية بائتناس بروح العلم التي سادت عصرهما.

ينبغي للمرء أن يدرك سوء النظم وجودته، فـإن رداءة اللفظ تذهب بحلاوة المعنى وتفسد الذوق، فحسن التأليف وبراعة اللفظ تزيدان المعنى كشفاً وحسناً، وهي جهود حرصت على تجويد العبارة مع الاهتمام بالمعاني كي تساير واقع الحياة العامة.

جهود المفكرين في الإعجاز خلال القرن الرابع الهجري:

تناول الرماني قضية الإعجاز والظاهرة البلاغية من وجوه عدة فتعرض

للمعاني وأهميتها بالبحث والألفاظ ودورها الدلالي في التعبير ودور البلغاء في صنع البلاغة لمعرفة الإعجاز.

جعل الرماني البلاغة عشرة أقسام وجعل بلاغة القرآن في أعلى طبقات البلاغة وذلك لأن بلاغة البلغاء ممكنة، ومن أقسام البلاغة الإيجاز والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان.

وهذه البلاغة ثلاثة طبقات، منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة ومنها ما هو الوسائط، فما كان أعلاها طبقة فهو إعجاز القرآن وأسلوبه الخالد وما كان ذلك فهو ممكن مثل بلاغة البلغاء.

ويعرف البلاغة بقوله: هي إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، فاعلاها من الحسن هي بلاغة القرآن وأعلا طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم.

ونخلص من هذه الآراء إلى فكرة الرماني الثاقبة، من أن المعنى هو أساس في كل تعبير لغوي، ولا يأخذ الرماني بآراء السابقين حول تعريف البلاغة أمثال ابن المقفع والجاحظ.

ويولي الرماني عناية فائقة لبنية الجملة السطحية والعميقة بتناوله بحث الإيجاز، والإيجاز عنده هو تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى ويجعله على وجهين: آ ـ حذف . ب ـ قصر، فالحذف هو إسقاط كلمة من الجملة. والقصر هو بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف.

فإن كانت عناية الرماني بالبنية السطحية للجملة وبشكلها الخارجي عناية فائقة فإن عنايته بصحة المعنى ووضوحه كانت أكبر.

ومن الجهود اللغوية البارزة عند الرماني، تناوله قضية التلاؤم وهي

حسن النظم وجودة الرصف، ويستوحي لذلك شيئاً مما قاله الجاحظ وابن قدامة ويجعل قضية تلاؤم اللفظ مع المعنى ثلاثة حالات:

آ ــ متلائم في الطبقة العليا.

ب ــ متنافر يستثقله اللسان ومتلائم دون الطبقة العليا، والتلاؤم بصفة عامة، حالة لغوية وظاهرة بلاغية تمس تعديل الحروف وتأليف الكلام.

والمتلائم من كلام الأدباء والبلغاء قريب من بلاغة القرآن، وذلك بين تأمل القرآن والفروق واضحة، ويتناول الرماني في كتابه قضايا لغوية أخرى مثل باب الفواصل لشدة أهميته بموضوع المعاني، ثم السجع والتجانس وهو جانب لغوي يتناول الأسلوب ويجعله جانباً من أبحاثه ومن البلاغة. وبهذا يترك الرماني المجال مفتوحاً أمام الجهود الأخرى لتضيف آراء جديدة في بحث إعجاز القرآن الخالد، وتعاصر هذه الجهود جهود رائد فكر في المجال اللغوي والنحوي والديني ألا وهو حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي.

أمتازت دراسة الخطابي للإعجاز بالدقة والغزارة بالمادة وعمق الفكر وسعة الأفق وهو من علماء المسلمين المجدين في البحث عن الإعجاز ودقة نظم الأسلوب القرآني من الوجهة اللغوية خاصة، وقد أعاب على المقلدين وقصور كلامهم عن الإعجاز يمكن أن نجعل من جهود الخطابي اللغوية حلقة واصلة بين جهود الرماني وجهود القاضي عبد الجبار-الأمدي فيما بعد.

تناول الخطابي قضية النظم القرآني خاصة والنظم عامة بعناية فائقة، وخاصة للعلاقة الرابطة بين الألفاظ بعضها ببعض، داخل العبارة والآية ثم قسم الكلام إلى ثلاثة أقسام وهي لفظ حامل ومعنى به قائم، ورباط لها واثق، وأن اللفظ والمعنى عنده لا يفترقان، إن كل لفظ عنده مقرون بمعنى خاص داخل الذهن، ولا يمكن للمعاني أن تقوم بدون ألفاظ وهذه الأفكار شبيهة إلى أحدث ما توصل إليه اللغويون المحدثون في الغرب.

من أن اللفظ رمز للفكرة، ولا يوجد فكر بدون لغة، ولغة دون فكر، ويقول:

«وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل، ولا أعذب من ألفاظه ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه».

وتأتي جهود الخطابي اللغوية متممة لجهود الرماني وممهدة لنظرية النظم.

وفكرة نظم القرآن عند الخطابي تكاد تكون أوضح، وأوسع أفقاً مما كانت عليه عند الجاحظ وعند ابن قتيبة، وعند الرماني.

ثم أن فكرة النظم هذه شاملة للفظ والمعنى في أداء التعبير، وتحقيق الدلالة التامة من جميع أوجهها المادية والمعنوية والنفسية، تجمع هذه المقومات وحدة عضوية متأصلة باللفظ والمعنى.

ومن الأمور الهامة التي توصل الخطابي إليها هو حسن تأليف النظم وما يتضمنه من تلاؤم متأتي من الألفاظ المعبرة عن المعنى بأدق صورة، وحسب مقتضى الحال وبما يتضمن عناصر الأسلوب ويعتمد بذلك على ثقافته الجامعة والمتنوعة ودقة التفكير، فالنظم بمثابة المادة العضوية الجامعة للأنسجة الحيوانية وهي مادة اللحام الجامعة للألفاظ مع المعاني، وهي صورة الألفاظ المتفاعلة مع المعاني لإثارة الدلالة.

ولشدة عناية الخطابي بالنظم، أفرد بحثاً للألفاظ وآخر للمعاني، فالألفاظ والمعاني عناصر للأسلوب، وهي الصورة والشكل والمضمون، أي البنية السطحية والبنية العميقة وبذلك يقضي على فكرة الفصل بين الفكر واللغة .

فاللفظ والمعنى لا يفترقان، ثم أن فكرة التلاؤم وفكرة مقتضى الحال

والألفاظ والمعاني جميعها تجتمع بمقوماتها داخل النظم، وهي من الأفكار المتطورة على الأفكار السابقة.

فالقرآن الكريم صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ مع أقدس المعاني في أحسن نظوم التركيب والتأليف متضمناً الفكر الديني مع الرسالة السماوية، إلى جانب ظاهرة الأثر النفسي مع فكرة النظم وبذلك يضع بين أيدنا فكرة النظم الذي يرى فيه الإعجاز.

أبو هلال العسكري: صاحب كتاب الصناعتين في النثر والشعر وهو كتاب جامع لفنون القول والبلاغة والبديع، وجعل البلاغة ضرورية لفهم الإعجاز القرآني ولتمييز جيد الكلام مع رديئة، وتعتبر جهود العسكري بهذا الكتاب وسيلة لتبصير الدارسين بأصول الكتابة مع معرفة أصول الطرق السليمة للتعبير.

من أهم الأبواب التي تناولها: هي سر صنعة الكلام، وترتيب الألفاظ وحسن النظم وجودة الرصف، وهي أبواب تضمنت البنية السطحية للجملة وللتراكيب، وللبنية العميقة المتفاعلة مع معاني النحو والصرف، وإذا بهذه الأبواب تجمعها الوحدة العضوية الجاعلة من النظم وسر الكمال بالإعجاز القرآني.

ومن جهوده اللغوية البارزة: نظم العسكري الحديث في نظم الكلام إلى بلاغة وفصاحة، تكلم عن المعاني فخصها بالبلاغة، ثم تناول الفصاحة فوصفها بحلاوة اللفظ ودقة التعبير مع حسن الدلالة، وأحس أن هناك علاقة عضوية قائمة بين الألفاظ والمعاني للربط بين الفكر واللغة.

وهو اتجاه لغوي جديد بحيوية جديدة: «فالكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها ويعبر عنها ويحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ، لأن المدار بعد ذلك على إصابة المعنى، وهي

التي تحل محل الأبدان والألفاظ تجرى مجرى الكسوة ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة».

والمعاني عند العسكري أساس لدراساته اللغوية فهي عنصر هام في بناء العبارة الشعرية والنثرية، وهو اهتمام شبيهة إلى حد بعيد باهتمام اللغويين المعاصرين بالبنيوية، إلا أن العسكري لم يستطع تفصيل الحديث عن البنية السطحية والبنية العميقة، لأن اهتمامه كان منصباً على حسن الدلالة ودرجة التراكيب من التعبير، فلكل لفظة موضعها في صياغة التراكيب يجب ألا تتعداه إلى غيره، وأن تأتي هذه الألفاظ متلاحقة كحبات اللألىء في سلك يجمعها، وأن يكون اللفظ فخماً وسهلاً وعذباً، غير مستكرهة في مواضعها، وخير التراكيب عنده هي أن تسابق المعاني إلى القلب مع تلاحق الألفاظ، وهي فكرة مستوحاة من جهود الجاحظ، وهي صلة روحية مترابطة عبر الزمن، وبهذا تكون دراسة العسكري أكثر شمولاً من دراسة الرماني والخطابي، حيث أن دراسته اللغوية تعدت الوحدة اللغوية: اللفظة ثم الجملة ثم النص، لكنها دراسة تحتاج إلى المزيد من التعليل والتفصيل، فأحسن الكلام ما يكون جزلاً وسهلاً لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدوداً مستكرهاً ومتوعراً متقعراً، ولا خير في معان استكرهت قهراً، والألفاظ إذا أوجبرت قسراً، ولا خير فيما أجيد لفظه وسخف معناه، وجميع أجناس الكلام تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب، وحسن التأليف يزيد المعنى إشراقاً وبهاءاً ووضوحاً، وهو الجديد في فكر العسكري اللغوي.

يتضح أن اهتمام العسكري بنظم العبارة والمعاني والألفاظ كان اهتماماً متوازياً مع دقة هذه الدراسة التي عملت لمستقبل دراسات وجهود لغوية أخرى.

ويقول أبو هلال العسكري:

«من النظم ما لا يمكن حله أصلاً بتأخير لفظه وتقديم أخرى منه، حتى يلحق به التعبير والزيادة والنقصان».

الفصـــل الثالث:

مرحلة النضوج اللغوي في القرن الخامس الهجري:

جهود أبي بكر الباقلاني:

تعتبر الجهود اللغوية في القرن الخامس الهجـري جهوداً تمثـل مرحلة النضوج ويشارك في هذه المرحلة كثير من رجال الفكر اللغوي في مجالات البحث الديني والنحوي والنقدي.

تبدأ هذه الجهود بجهود أبي بكر الباقلاني المتوفي سنة ٤٠٣ هـ، وهي حلقة وصل بين الجهود اللغوية المبذولة في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع ورغم ذلك يلاحظ المرء فيها شيئاً من التجديد والتطور والسبق على سابقتها.

ومن جهود الباقلاني الناضجة، هي نظرته المتفحصة والهامة في نظم القرآن وإعجازه للإنس والجن، تحدث عن نظم القرآن بوجه عـام وعن تأليف الألفاظ بعضها ببعض بوجه خاص، ذكر أسلوب القرآن وطرق التعبير فيه، مقارناً إياها بأساليب العرب منذ الجاهلية وخاصة عند فطاحل الخطباء وأمراء الشعر، ثم تناول المعاني مقارناً بها معاني أصحاب الشعر والنثر، مبرزاً سمو معاني القرآن ومبرزاً الضعف والثغرات عنـد أفضل النـاطقين بالعربية، منذ أن خلق الله الإنسانية حتى أيامه فأسلوب فطاحل الفصحاء والشعراء لا يمكن أن يرقى إلى أسلوب القرآن، ومنها كان الإعجاز، والعجز عن معارضته والعرب هم أهل فصاحة ولسان.

تناول أبو بكر الباقلاني حسن النظم مثلما تناوله السابقون له، موضحاً طرق التعبير في القرآن وطرق التعبير عند العرب، وإن نظم القرآن مخالف لكلام البشـــر.

ولكن نظم القرآن نظم متميز وأسلوب متفحص له شأن عظيم.

فهو أحسن كلام العرب، ولكن هذه المفاهيم عند الباقلاني لم تكن جديدة على أقـوال السابقين في النـظم، حيث تناولـه الألفاظ والمعـاني ودورهما من خلال النظم، ذلك أن الباقلاني كان مهتماً بأسلوب القرآن ككل، فاهتم بالصياغة بعيداً عن الفصل بين اللفظ والمعنى، ذلك أن اللفظ جزء من النظم بوجه المعنى، وأن أداة التعبير تتحدث عن البلاغة وعن الفصاحة وجعلهما من دعائم الإعجاز، وأن نظم القرآن أعلى مراتب النظم.

وتمثل جهود الباقلاني مرحلة جامعة لجهود السابقين له في الإعجاز، يجد المرء فيها قدرة على الشمول وسعة بالأفق والنضج، وليس فيها شيئاً جديداً.

وتلي جهود الباقلاني، جهود أخرى أكثر جدية وأعظم نضجاً في مجال دراسة النظم القرآني يتقدم هذه الجهود جهود القاضي عبد الجبار الأسدي المتوفي سنة ٤١٥ هـ.

تناول القاضي عبد الجبار قضية إعجاز القرآن في كتابه المغني في أبواب التوحيد والعدل وفي جزئه السادس عشر.

أشار فيه إلى أن أسلوب القرآن في المرتبة الأولى من حيث البلاغة والفصاحة وأنه أعجز الإنس والجن، وأعجز العرب عن معارضته وهي حجة رسول الله (ﷺ).

اهتم عبد الجبار بمفهوم الفصاحة مقابل اهتمام فريق آخر بالنظم وكأن

النظم ومفهوم الفصاحة متساويان، لاحظ عبد الجبار صور تراكيب الكلام، وهي نظرة أساسية في بلاغة العبارة وفصاحتها ومعيار الفصاحة هو جزالة اللفظ وحسن المعنى، ويقابل هذا المفهوم، مفهوم النظم عند الباقلاني وأن الكلام الفصيح مراتب .ونهايات، وتأليف الجملة تقع بطرق مختلفة منها العادة على استعمال الكلام وضم بعضه إلى بعض، ومعرفة نظم الكلام ضروري كمعرفة العلوم الأخرى كعلم الحساب وهذه إشارة إلى أن نظم الكلام بطرقه المتعددة ومستوياته المتفاوتة، علم شبيه بالعلوم الأخرى لكن تفسيراته لهذا العلم لم ترق إلى مستوى القواعد العلمية أو إلى الحدود النظرية.

تناول الألفاظ ومواقعها في التراكيب وكيفية الائتلاف بين الكلمات بعد أن تنضم إلى بعضها بعضاً، انطلاقاً من بنية الكلمة كوحدة لغوية إلى أن تناول الجملة ثم التراكيب الأخرى.

وكذلك هو القول في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض والكلمة مؤلفة من الحروف فالعلم بها هو العلم بالحروف، وكذلك هو القول في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض، فكل ذلك من باب العلم والإدراك، فكما أن العلم بالجواهر والفرق بين المؤتلف منها وغير المؤتلف والتفرق بين الأشكال والمؤلفات ضروري فكذلك هو القول في الكلام.

الكلام عند عبد الجبار الأسدي مراتب ونهايات وأن جملة الكلمات وإن كانت محصورة فتأليفها يقع على طرائق مختلفة من الوجوه.

وبذلك تختلف مراتب الفصاحة، وبالتالي يجعل عبد الجبار من الفصاحة ميداناً للتسابق والمنافسة للفصحاء والبلغاء.

وبذلك لا يمكن أن يكون القرآن الكريم ميداناً للتسابق، بل هو مقياس

---

(١) عبد الجبار الأسدي المغني ـ ص ٢١٠.

للتكامل فطرق تعبير القرآن خارجة عما ألفوه.

تناول قضية التحدي بالقرآن وعلل لها طويلاً، مختصراً ذلك أن التحدي كان بالقرآن وأسلوبه وليس بالمعاني، وهي مجالات أخرى تسابق إليها المفكرون والشعراء والكتّاب.

ويقترب عبد الجبار كثيراً بتفسير الفصاحة على إنها جزالة اللفظ وحسن معنى مع الباقلاني وغيره بمفهوم النظم، أي أن هذه الفصاحة لا تظهر بأفراد الكلام وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالمواقع، وليس لهذه الأقسام رابع.

وعبد الجبار بتفسيره الفصاحة على هذا النحو من النضوج الفكري والدقة العلمية، ويلتقي مع مفهوم النظم عند الأقدمين واللاحقين ويعتبر هذا المفهوم أوسع شمولاً من المفاهيم السابقة، ولأول مرة نجد فكراً لغوياً ينادي بمعاني النحو كأساس للدراسات اللغوية إضافة إلى المعاني والألفاظ تحت شعار الفصاحة وبهذه الأفكار الناضجة يعتبر بمقدمة اللغويين والباحثين المتوسعين في فكرة النظم ومفهوم الإعجاز وهو الجديد عند عبد الجبار.

وسنجد لهذه الأفكار الناضجة صداها عند متكلم آخر في القرن الخامس الهجري ألا وهو عبد القاهر الجرجاني، ومن المهم أن تعرف أن عبد الجبار قد وضع بين أيدينا مفتاح نظرية النظم الذي اعتمد عليه عبد القاهر في نظريته اللغوية ألا وهي معاني النحو بمعناها الصرفي والنحوي والنفسي شكلاً ومضموناً وصورة وصوتاً فتظهر قيمة هذه المفاهيم بنظرية عبد القاهر وبذلك تعتبر جهود عبد الجبار فتحاً جديداً لعلم اللغة عند العرب وطوراً حديثاً لإدراكه معاني النحو، وما ترسمه من فروق لغوية في التعبير،

وبالتالي تضعنا هذه الجهود أمام مرحلة لغوية جديدة هي مرحلة لغوية جديدة هي مـرحلة النبوغ الفكـري وهي مرحلة تـطويريـة وفقـاً لتـطور العقليـة العربيـــة.

جهود ابن رشيــق القيرواني:

يساهم ابن رشيق القيرواني بجهود لغوية جد قيمة على غيرها، من الدراسات اللغوية التي سادت عصره، وكيف لا وهو ناقد فذ، وبالتالي أتت جهوده مصورة المستوى اللغوي الذي وصل إليه البحث اللغوي والنقـد كافة، ومن الجهود اللغوية التي قدمها في كتابه العمدة، خص منه جزءاً ضمنه بحث اللفظ والمعنى.

هكذا وتفرض قضية اللفظ والمعنى نفسها على كل ناقد ولغوي ونحوي وأديب، في كل عصر لأنها عماد البحث النقدي واللغوي.

توصل ابن رشيق بأبحاثه تلك إلى أن اللفظ والمعنى متلازمان تلازم الروح في الجسد، إذ اللفظ جسم وروحـه المعنى، وقد يصـاب اللفظ بأمراض تؤثر على المعاني وتعجزها، كما تؤثر المكروبات والأمراض في الأجسام وبالأرواح فتعجزها، وكل الخطر إذا أصيبت المعاني بالأمـراض والعلل، فإن الجسم من الطبيعي أن يصاب بالشلل والكلل، وما يصيب أحداهما يصيب الآخر وما يصيب الجسم ينعكس على الروح والحيوية، ومن أقواله السابقة: «اللفظ جسم روحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته».

وقد سبق إلى مثل هذه المعاني مفكر آخر اسمه العتابي في القرن الرابع الهجري إلا أن نظريته لم تصل إلى هذا المستوى من النضج.

إن ابن رشيق أدرك وعلى نحو جيد طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة وخاصة أن الباحثين في عصره، قد اهتم البعض منهم بالمعاني والبعض

الآخر قد اهتم بالألفاظ، وقف ابن رشيق من أعمال الجانبين وقفة المتبصر والخبير العارف فوصل إلى رأي حاسم، وأن الألفاظ والمعاني متلازمة ذلك أن اللغة والفكر لا يمكن أن نفصل بينهما بفاصل.

وبهذه الجهود القيمة يفتح المجال لأفكار أخرى، ولباحثين آخرين يقولون كلمتهم بقضيتي اللفظ والمعنى، ويتصدر الجهود بعد ابن رشيق جهود ابن سنان الخفاجي وعبد القاهر الجرجاني، وبذلك تصل الجهود التي ابتدأها المفكرون منذ القرن الثاني الهجري، تصل إلى مستوى النظرية في القرن الخامس الهجري.

وفي هذه المرحلة التاريخية، تأتي جهود ابن سنان الخفاجي والمتوفي سنة ٤٦٦ هـ لتضيف نصيباً خيراً من الجهود اللغوية إلى الجهود السابقة، ومن هذه الجهود تناوله بحث الفصاحة والبلاغة في كتابه الشهير سر الفصاحة.

عني ابن سنان الخفاجي بتفسير الفصاحة وما تنطوي عليه من مقومات من صور للبيان والبديع والألفاظ وخصائصها وما بين الألفاظ من فروق، وما بين الفصاحة والبلاغة من فروق مستفيداً من جهود الجاحظ وجهود القاضي عبد الجبار الأسدي.

فقد خص الفصاحة بالألفاظ، وخص البلاغة بالمعاني، والألفاظ معاً وهي فكرة مستوحاة من بعض جهود قدمها أبو هلال العسكري، ويبدي ابن سنان ويعيد حول خصائص الفصاحة حاشداً جل الأفكار التي قالها المفكرون السابقون له في خصائص اللفظ وخصائص العبارة منذ أيام الجاحظ قبل ذلك، منها قوله: «أن تجد التأليف اللفظ بالسمع حسناً ومزية على غيرها أو أن تساوي في التأليف من الحروف المتباعدة، وأن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح»، وهي ثمانية شروط خاصة بصفات اللفظ.

لاحظ ابن سنان أن جهود المفكرين السابقين يمكن جمعها في بحث واحد يخدم إعجاز القرآن، فهو متأثر بالجاحظ والرماني وأبي هلال العسكري وبآراءه القاضي عبد الجبار بقوله الفصاحة هي سبب الإعجاز بالقرآن.

ومن لطيف ما تنبه إليه أثناء مقارنته شروط الفصاحة ومقوماتها بمقومات النظم، الفروق الفاصلة بين العبارة النثرية والعبارة الشعرية وما يقال في تفضيل الكلام بين النظمين وما يحتاجه مؤلف الكلام من إمكانيات ومقومات.

ويتضح للقارىء أن ابن سنان قد عالج فنون البلاغة والبديع في ثنايا كتابه سر الفصاحة، والواقع أن جل ما جاء به ابن سنان في كتابه من أسرار الفصاحة هي معايير فاصلة بين الفصاحة والبلاغة وكان أحسن ما تناوله من جهود لغوية خاصة باللفظ المفرد كوحدة لغوية تابعة لمادة الدرس اللغوي، ثم تناول المعنى وجودته في صور الكلام المتعددة، ثم سخر جهود قدامة بن جعفر لابراز سر الفصاحة من أجل خدمة القرآن الكريم.

وفي نهاية هذه الجهود اللغوية تتهيأ الظروف وتتكلل بالنجاح عندما يجمعها عبد القاهر ويسخرها لتخدم القرآن الكريم داخل نظرية لغوية شاملة ألا وهي نظرية النظم في كتابه دلائل الإعجاز.

إن قضية العلاقة بين اللفظ والمعنى كانت تحت مجهر العلماء العرب وأبحاثهم منذ أكثر من عشرة قرون فقالوا فيها الكلام الكثير.

وكان من الطبيعي أن يقف الإنسان أمامها، ويحاول إدراك سر ذلك الارتباط بين الدلالة التي تنتشر في نفسه وبين الصياغة التي حملت له الدلالة وكانت طبيعة العلاقة ذلك الارتباط من أثار في عقول الفلاسفة واللغويين والأدباء.

الفصــل الرابع :

ميلاد نظرية النظم :

جهود عبد القاهر الجرجانــي :

يعد عبد القاهر الجرجاني رائد فكر وزعيم نهضة فكريـة في القرن الخامس الهجري، وإن جهوده اللغوية كانت صورة حقيقية لعصره المزدهر بشتى أنواع الثقافات المتنوعة، وللإمام عبد القاهر فضل كبير على العربية وخاصة في صياغته نظرية النظم الشاملة لبنيـة جملتنا العـربية السـطحية والعميقة.

فقد اكتملت في عصره الدراسات اللغوية والنقدية عند العرب وانتظمت بفضله الجهود المتواصلة في عصره، وأقبل الـدارسون والمفكـرون على دراستها، أمثال الإمام الزمخشري في كتابه الكشاف، والفخر الرازي في كتابه الإيجاز في دراسة الإعجاز، ويوسف بن يعقوب السكاكي في كتابه مفتاح العلوم، والقزويني في كتابه الإيضاح، هذا وقد أعجب الدارسون المحدثون في عصرنا هذا بجهود عبد القاهر اللغوية والنحوية والنقدية.

وأشير هنا إلى نظرية النظم هذه بشتى أقسامها، من تقديم وتأخير، وفصل ووصل، وحذف وقصر وإيجاز وتعريف وتنكير وتوضيح لحالات المسند والمسند إليه وما تنطوي عليه الجملة العربية من أسـرار للشكل الخارجي للبنية السطحية، وما تتضمنه من بنية عميقة.

هذه النظرية بتشى فروعها: أبرز معالمها عبد القاهر إلى حيز الوجود وجعلها هي الصورة التي يرى فيها الإعجاز القرآني، مع حقيقة العلاقة الجامعة للبنى السطحية والعميقــة.

وهذه النظرية نتيجة لجهود لغوية وفكرية متواصلة عمرها خمسة قرون أو ما يزيد على ذلك. جمع عبد القاهر شتات الأفكار ووحدها في إطار منظم، ثم رسم الحدود وجعل التقسيمات وأبرز المضامين ثم أرجعها إلى نظرية علمية لنظم الكلام عند العرب، فجاء منهجه اللغوي فيها واضحاً.

ربط عبد القاهر بين نظريته اللغوية في النظم وبين الإعجاز ليخدم القرآن واللفظ والمعنى مع التصوير الفني مع رقي الصياغة ليخدم القرآن الكريم وليبرز مكامن الإعجاز في أسلوبه.

إن الاتجاه اللغوي الذي سار عليه عبد القاهر في نظريته وأشار إليه السلف هو اتجاه علمي يرفض أن تكون الكلمة أبسط عنصر لغوي ذي دلالة، وهو اتجاه يرفض الفصل بين اللغة والفكر، فلا فكر بدون لغة، ولا لغة بدون فكر وهو اتجاه علمي شبيه بالاتجاهات اللغوية المعاصرة.

فالألفاظ خادمة للمعاني ومعبرة عنها، والعلاقة بينهما عضوية مبصرة ثابتة لأن اللغة رداء للفكر، كما أنها مصورة لها.

إن الطريقة التي اتبعها القرآن الكريم في التعبير عن معانيه القدسية هي التي أبرزت أغراضه وموضوعاته، ومن هنا كان دور عبد القاهر عظيماً في كشف مثل تلك الأسرار اللغوية، وذلك في تقديره قضية النظم ضمن اللفظ والمعنى، في طريقة الأداء الحاسم لتصوير المعاني، فإذا اختلف طرق الأداء والتعبير عن المعنى الواحد، لا بد أن يتبع هذا الاختلاف وتبدل يصور هذا المعنى في النفس والذهـــن.

وبذلك يربط المعاني بطرق الإداء ربطاً لا يجوز الحديث بعده عن المعاني والألفاظ كل على انفراد.

ولا نفصل بينهما بفاصل، ولن يبرز المعنى الواحد في موضوع إلا في صورة واحدة، وأي تبدل بالألفاظ لا بد أن يقابله تبدل بالمعنى.

ويأخذ مفهوم النظم عند عبد القاهر مفهوماً متطوراً ومتميزاً، يسمو بالفكر العربي إلى مكانة سامية، فالنظم عند عبد القاهر يتضمن الأسلوب، والمعنى الصرفي ومعنى النحو بمعناه الواسع، ليشمل المعنى النحوي والمعاني الحقيقية ومعنى المعنى، أي المعاني القريبة والبعيدة والايحاءات.

فالنظم هو تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، مع توخي معاني النحو بين الكلم حسب الأغراض التي يصاغ بها الكلام، وأن هذا النظم له قواعده وضوابطه العلمية منها:

«واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء عنها، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه، غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه».

في هذا القول دقة علمية ومنهج لغوي وضوابط لغوية ما نادى أحد بها من قبل فهي منهج علمي يضاهي أحدث ما وصل إليه علم اللغة العام في عصرنا هذا.

فمعاني النحو هي جوهر الدراسات اللغوية عند عبد القاهر فأسباب إصابة الصواب في نظم العبارة والجملة والنص، هي معاني النحو، وكذلك هو شأن أسباب عيوب النص، هو إهمال معاني النحو فكل نقص في النظم اللغوي عائد إلى غموض المعاني.

وبهذه الآراء العلمية واللغوية التي تضاهي أشهر النظريات اللغوية عند الغربيين أمثال نظرية نوم تشومسكي، فلا يمكن للمرء أن يرى كلاماً قد وصف بصحة نظمه، أو فساد نظمه، أو وصف بمنزلة وفضل منه إلا ويعتبر سر ذلك راجع إلى معاني النحو وأحكامه وحسب ترتيب المعاني في النفس، وبهذا النظم نستطيع خلق جمل لم يقلها أحد ولم يسمعها أحد من

البشر ونسيء أعداد هائلة من الجمل دون الوقوع بالخطأ، أن اسما ما سعى إليه عبد القاهر من نظريته هو الوصول بتعبيراتنا اللغوية إلى مستوى رفيع كي يأتي التعبير مساوي الحقيقة عند القارىء والسامع والمتكلم بدقة علمية متناهية بحيث تأتي صور الكلام مساوية المعاني صورة بصورة، حساً ولوناً وحركة وحيوية وموقفاً ومفهوماً دون أي التباس.

ويجعل عبد القاهر من معانيه أصبغة تعمل منها الصورة، أو النقش أو النحت ولا معنى لهذه الفنون بغير إيحاءات، فكل صورة تنطق بما تملكه من إيحاءات ومعان، والنقش والنمانم نرى عما فيها من إبداع.

«وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الاصباغ التي تعمل منها الصورة والنقش فكما ترى الرجل قد اهتدى في الاصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التحبير والتدبر في النقش والاصباغ، وفي مواقعها ومقاديرها، وكيفية مزجه له وترتيبه إياها إلى ما لم يهتدي إليه صاحبه».

وفي نظم رفيع مثل هذا نقتفي فيه آثار المعاني ونتحسسها، ونتتبع ترتيبها في النفس الإنسانية ليتضح فيه لنا حال المنظوم بعضه من بعض وحسن انسجام المعاني في ذاته وفقاً لترتيب المعاني بالنفس.

ويعتبر عبد القاهر بنظريته هذه من أنصار الصياغة والصلة والالتحام بين الألفاظ والمعاني، وأن عملية التفكير اللغوي هذه تتم في آن واحد.

فالأديب حينما يكتب لا يفكر بالألفاظ ولا يطلبها إنما يطلب المعاني وإذا ظفر بها فاللفظ أمامه.

«إن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتبها وتنظمها، وإنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك».

يعتبر عبد القاهر الجرجاني هي الأصل في كل تعبير لغُوي فالألفاظ خدم للمعاني تنتظم من أجلها وتتلاحق كي تصورها.

والواقع العلمي يؤكد أن الأديب يفكر بالمعاني وأما الألفاظ هي التي تتبع المعاني، ولا يمكن للمعاني أن تتبع الألفاظ.

نجد لهذه الأفكار صداها عند اللغوي الحديث في الفكـر العـربي والغـربي، وتستمر في جـديتها ورقيهـا على أحدث النـظريـات اللغـويـة المعاصرة. قال عبد القاهر:

ما في اللفظ لولا المعنى وهل الكلام إلا بمعنـــاه».

وبهذه الأفكار يطل عبد القاهر من فجر التاريـخ على أحدث الآراء اللغوية عند علماء أوربا وأمريكا أمثال نودبيه بقوله: «من أن الكلمة ثمرة الفكرة» وقول المفكـر الفرنسي عنـدما تصـل الفكرة إلى تمـامها تصبـح بكلماتها». .

ومن هذه الأفكار وأمثالها كانت لنظرية النظم قيمتها العلمية في شتى فروعها، فلمعاني النحو قيمة علمية عظمى، وللدلالة قيمة كبرى، والفصاحة قيمة علمية مماثلة، ولفكرة المعاني هيْ الأصل في كل تعبير لغوي قيمة عظمى، ولنظم الكلام قيمــة علمية عليــا.

إن التقارب الكبير بين أفكار تشومسكي العالم اللغوي الأمريكي وجميع أصحاب المدرسة اللغوية التحويلية التوليدية، وأفكار عبد القاهر الجرجاني في تلك القيم التي ذكرتها واضح لكل لغــوي:

لقد ربط عبد القاهر المعنى مباشرة بالبنية النحوية الشاملة، وجعلها الدليل على الإعجاز، كما ربط أصحاب المدرسة التحويلية المعنى مباشرة بالبنية النحوية وهو لقاء علمي متأخر عبر الزمن، وقد جعل الأوربيون هذه الفكرة خطوة متوسطة للتركيب والمعنى .وبإمكانية كـل المشاكـل المتعلقة

بالمعنى كغموض بعض العبـارات والمعاني المختلفـة لجملتين تركيبهمـا الخارجي واحد.

وبهذه الأمور اعتبر تشومسكي صاحب أحدث نظرية لغوية عند الغرب رغم ما فيها من جوانب سلبية، فقد اعتبر تشومسكي القواعد بمثابة النحو من اللغة هو بمثابة القلب من جسم الإنسان، وأن النحو كلمة شاملة للنحو والصرف مع النظام الصوتي بشكل عام ثم هو إصطلاح شامل لهما كانت آراء عبد القاهر أدق وأشمل وأعمق بقوله:

«وأعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها أو تحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها».

هذا ونجد الكثيرين من المفكرين الدينيين واللغويين عند العرب قديماً وحديثاً، وخص بالذكر جميع من جاءوا بعد عبد القاهر، فقد انحصرت جهودهم حول جهود عبد القاهر، وما زالت نظرية عبد القاهر أجود ما يعتز به التراث العربـــي.

إن علم المعاني هو الوسيلة الكاشفة عن المعاني ودلالات الألفاظ التي تصاغ من أجلها، وهي الدلالة الفعليـة المسماة عنـد الغربيين بخـواص التركيب وعلم لتركيب الكلام ونظمه، ويقابل هذا المفهوم عند العـرب معاني النحـــو والنظم التي أشار إليها السلف. وهو فرع من فروع علم اللغة العام مهمته البحث في خواص الجملة وكليـاتها من حيث تـأليفها ومواقعها. وواقع الأمر أنا لا نستطيع الفصل بين النحو والصرف في المواقف الوظيفية وأن الدراسة الصرفية دائماً في خدمة معاني النحـو، ولا يمكن العناية والاهتمام بإحداهما دون الأخرى.

القيمة العلمية لنظرية النظم، ونكتفي هنا بتقديم القيمة العلمية لنظرية النظم مع الإشارة إلى أقسامها والإشارة إلى دراسة هذه النظرية في كتاب سابق تناولت فيه النظريـــة بإسهاب مع قيمتها العلميـــة.

البــــاب الثانـــي:

مشكلــة اللغــة والفكـــر:

إن مشكلة اللغة والفكر هي مشكلة عند علماء الفكر قاطبة وعلى الخصوص عند علماء النفس، واللغة وأهل المنطق، وهي مشكلة لا يجوز عزلها عن مشاكل الإنسان الأخرى، لأنها تهم الإنسانية جمعاء، ثم أن العلاقة بين الفكر واللغة وطيدة صميمة، فاللغة تقدم للفكر تصاريف جاهزة وتساعد الفكر على وصف الأشياء بخصائصها، وتساعده على اكتشاف التجارب ووصف الحقائق، وتضع تحت يديه أساليب مدروسة معروفة.

وبذلك لا يمكن للمرء أن يستغني عن اللغة لأنها وسيلة لابراز الفكر من حيز الكتمان إلى حيز الوجود والتصوير بل هي عمادة المفكر الصائب والمتأمـــل.

فالدماغ عضو التعبير عن الفكر، والعلاقة بين الفكر والدماغ معقدة مرهقة ثم أن اللغة جوهر التفكير في نظر العلماء جميعاً، وبهذا لا بد أن يكون للغة علاقة كبيرة بنمو التفكير المنطقي الواضح، حيث أن اللغة تساعدنا على التفكير والاستمتاع والتنفيذ والعمل.

ولا يخفي على علماء اللغة والمنطق، أن اللغة حكم وتعبير، يجب على المرء أن يحيك التعبير الكتابي والصوتي والصامت أيضاً.

فالدماغ يضمن تلاؤم الفكر مع الظروف في كل لحظة من حياة الإنسان

ليضمن اتصال الفكر بالواقع دون انقطاع بواسطة الحواس وعن طريق اللغـة.

وهذه اللغة التي يصفها العلماء بنعوت عديدة حسب مظاهرها ووفقاً لوظائفها هي عبارة عن سلاسل كلامية مترابطة كترابط حلقات الذهب والفضة والنحاس والحديد، فمنها السلاسل الذهبية، ومنها السلاسل الحديدية، فمنها المتصل ومنها المتقطع.

وفي دراسة العلماء لهذه السلاسل الكلامية كشف عن عادات لفظية متأصلة بالفكر والفروق، وهذا عائد في الحقيقة لوجود علاقة طبيعية بين الفكر واللغة، قد تكون قوية وقد تكون هزيلة ضعيفة لا تقوى على الربط. وهي التي تلائم بين الألفاظ تارة وتلائم تارة أخرى بين المعاني وهذه العلاقة التي تحدث عنها المفكرون وعلماء اللغة اليوم وقالوا أنها سر غامض، أو أنها مبهمة لم تتضح بعد، وجدت أنها غير ذلك بل هي خليقة ذات زمان ومكان وحياة وظروف.

هذه العلاقة ممتدة عبر الزمان نطقاً وفي المكان تشغل حيزاً من المكان برهة من الزمان تعمل على مولد الرمز النحوي والصرفي وتربط الصوت بالمعنى، ولهذه العلاقة قوة عاقلة هادفة منظمة جاذبة إذا تهيئت لها كل الظروف المواتية، وهذه العلاقة تتفاوت بين الضعف والقوة والحسن والصحة والمرض، والشدة والرخاوة وحسب الظروف والمناسبات وعمق الفكر أو سطحيته أو اضطرابه، ومن الدلائل على تفكير اللغويين اليوم أمثال عبد العزيز القوصي بقوله:

«إن الشيء الذي ينبغي ألا ننساه هو أن محاولة حصر العلاقات الرابطة بين المفردات ستظل مجرد محاولات، وهي علاقات لا يمكن حصرها على وجه الدقة»[1].

ويقف علماء اللغة في عصرنا الحديث حيارى من أجل معرفة قوة الترابط بين الكلمات داخل سياق من التعبير المنطقي، بل ما زالوا يتساءلون عن قوة هذا الترابط وضعفه.

أعاد بعض العلماء اللغويين هذه القوة الرابطة إلى العادات المكتسبة ويميل هذا الجانب في التراث العربي كل ما ينادي بالفصاحة والبلاغة والبيان وأشار إليها البعض الآخر إلى وجود قرائن في الكلام تكشف عن هذه القوة فقال عنها في فكر المعاصرين ميخائيل نعيمة أنها قوة هادفة عاقلة منظمة لهذا الكـــــون.

ويشير إليها علماء اللغة عند الغرب وهم كثيرون يتقدمهم سابير أحد علماء اللغة في أمريكا «أن النظرات السابقة والتي تناولت العلاقة بين الفكر واللغة لا تخص الفرد وحده وطرق تفكيره ونظرته إلى العالم، ولكنها تمتد لتشمل حضارات بأكملها»[1].

ثم تستمر هذه التساؤلات حول هدف معين، وهو كيفية ارتباط الألفاظ بعضها ببعض أثناء ائتلافها مع المعلقي في نص من النصوص الفكرية.

يجد المطلع أن لهذه التساؤلات المتعددة في عصرنا هذا، إجابات شافية في تراثنا العربي، يقول عبد القاهر الجرجاني:

«ولا يكون الضم ضماً، ولا الموقع موقعاً، حتى يتوخى فيها معاني النحو وإنك إذا عمدت إلى ألفاظ فجعلت بعضها إلى جانب بعض من غير توخي معاني النحو، لم تكن قد صنعت شيئاً تدعي به مؤلفاً»[2].

إن معاني النحو عند عبد القاهر سبب مباشر لإنتظام الألفاظ وتلاحمها

---

(١) دلائل الأعجاز. عبد القاهر الجرجاني، ص ٢٤٠.
(٢) دلائل الأعجاز. عبد القاهر الجرجاني، ص ٢٤٠.

في مواضعها فتتلاقى مع المعاني على الوجه الثري بِتَرقيه العقل ويتقبله الذوق.

ولهذه الأفكار اعتبار أنها في النص وفي الجملة والكلمة، وهذا ناشيء في الحقيقة من حسن المعاني وحسن تلاقيها وترتيبها في النفس وتشمل معاني النحو عند عبد القاهر لأبواب النحو المختلفة وإلى المميز النحوي في الكلمة، كما تشمل أبواب الصرف والموقف والغرض والعاطفة والفكر، وهذه الأفكار متقدمة على عصرنا.

إن النظريات السابقة عن العلاقة بين الفكر واللغة تخص وطريقة تفكير مجتمع معين ونظرته إلى العالم وتخص الجماعة اللغوية ثم طريقة تفكيرهم في نظم اللغة التي يتكلمونها إلى أن تشمل أيضاً طرائق النظم بل تلك البنية من مظاهر التفكير الأخرى إلا أن قضايا اللغة موضوعها مقصور على ما يدور في الذهن وما يدور حول مجال الحواس، فالتعبير اللغوي مرتبط ارتباطاً مباشراً بالمعنى العام والتفكير أيضاً حسب أسرار كل لغة من لغات المجتمعات البشرية.

هذا وأرى أنه لا يمكن لنا أن نحلل اللغة أو أن نعرف طرائق تجميعها بدون أن نعرف الظروف التي تولد فيه العلاقة بين الصوت والمنطق وهو المهم عندي لمعرفة أسرار لغة من اللغات.

غموض العلاقة في فكر المحدثين:

استمرت قضية العلاقة بين الفكر واللغة تفرض نفسها على أفكار الباحثين المعاصرين في مجال اللغة والفلسفة، واستمر التساؤل عن طبيعة هذه الخليقة بين الفكر واللغة، وبين طبيعة التفكير الإنساني وطبيعة اللغة الإجتماعية من هذه التساؤلات ما هي طبيعة اللغة؟ ومن أي شيء تتكون، بل ما هي علاقتها بالفكر؟ وهل الفروق الظاهرية بين اللغات هي فروق

أساسية أم في فروق نسبية؟ ثم وأين تكمن تلك الخلافات، وبعد ذلك ما هي علاقة ذلك بقوة الترابط بين الكلمات بل ما هي الظروف التي تتعايش فيها جل هذه العناصر.

لم يكتف العلماء، وبالخصوص علماء اللغة بدور اللغة من أن يقتصر دورها كوسيلة للإتصال بين البشر، بل ذهبوا باحثين عن دورها الحقيقي في شتى مجالات المعرفة الإنسانية ثم انتقلوا إلى أولية التفكير بالمعاني إلى أسبقية العاطفة للفكر واللغة، فاللغة والفكر عند معظم المفكرين كتلة واحدة، إلا أن بعض المفكرين قد اعتبر التفكير نوعاً من الكلام الصامت ذلك هو إتجاه المدرسة السلوكية في علم النفس اللغوي، أمثال جون واتسون وسكينر، حيث لا وجود للفكر بدون لغة ولا لغة بدون فكر.

وإن الفكرة لا تظهر إلا إذا تجسدت في كلمة، وأن الفكرة التامة تجد كلماتها فالتلازم شيء طبيعي، المعنى يستلزم اللفظ، واللفظ يستلزم المعنى. ومن الأهمية بمكان لهذه الأفكار، أن نكشف عن سبب هذا التلازم، وإلا تغمض أعيننا عن وجود علاقة طبيعية بينهما، حيث أن الفكرة الناضجة تصبح بكلماتها وأن الكلمة ثمرة للفكرة، ولاكلاهما يعتمد على الآخر، فاللغة بالنسبة للتفكير الإنساني علامة مميزة ومتبادلة، وأن اللغة تؤثر بالفكر والفكر يؤثر باللغة، فاللغة ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار بل أنها هي التي تشكل الأفكار.

ويرى بعض علماء اللغة عند الغرب، أمثال سابير وتلميذه بنيامين لي رؤوف أن البنية اللغوية أو التركيب اللغوي هو الذي يحدد الفكر ويسيطر عليه سيطرة تامة، مما أدى بالكثيرين إلى إعادة التفكير بوظيفة اللغة.

إن وظيفة اللغة برأي هؤلاء، هي تمكين الجماعة من جعل الإنتباه أكثر شمولاً، ثم تمكن الجماعة من أن ترمز إلى عقلها الجماعي، فتعطيه قوة

يصير بها عقلاً جماعياً وشعوبياً، وهنا تلعب اللغة دوراً هاماً في السلوك الجماعي، لتؤدي التعبير عن الإحساس والرغبة.

هذا واللغة في حقيقتها رموز لأفكارنا، والكلام جسم خارجي روحه المعنى والفكرة مادته الداخلية، والمعنى روح والدلالـة ناتـج تلك البنية العميقة والسطحية، كما أن الفصاحة هي نتيجة حاصلة عند بعض الأفراد من المران والتعود والحفظ والتمكن في إدراك الحس والتأثير.

ويشير العالم اللغوي العربي ابن جني إلى هذا بقوله:

«اللغة أصوات يعبر عنها كل قوم عن أغراضها».

وعلى هذا الأساس فإن الإستجابة اللفظية التي تصدر عن الطفل مثلاً ما هي إلا تعبير عن المعنى الذي تكون لديه ومن هنا كان السلوك الصادر عن الفرد الذي ارتبط شرطاً فمع اللفظ يمكن أن يشير إلى الشيء الذي يشير إليه اللفظ.

غير أن الفاظ اللغة أنواع: منها المنظومة والمسموع والمكتوب، وهي مستويات أيضاً ومن هذا التقسيم يمكن أن نصل إلى لغة الأبكم والأصم، بهذا التقسيم والعرض اليسير لن تتردد بالتسليم بوجود العلاقة بين الفكر واللغة، علاقة جامعة هادفة مبصرة متغلغلة بين الكلم المنطوقة والمسموعة أو المكتوبة والمقروءة حتى يظن السامع والقارىء والمتكلم أنه سمع أو قرأ نفس الذي فهمه وأدركه الناطق والكاتب.

وقد قسم المفكرون اللغويون الأسماء إلى أسماء كلية وأسماء جزئية على أن نفهم الكلام الجزئي على أنه وحدة من الوحدات التي تشير أو تشترك في اسم كلي وأن الإسم الجزئي والكلي شيئان نسبيان ثم أن الكلام في عرف اللغويين القدامى عند العرب قسمان أو على ضربين. ضرب تصل منه إلى الدلالة والغرض بدلالة اللفظ وحده وضرب آخر من الكلام أنت لا

تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن تلك اللفظ معناه الذي يتقضيه موضوع اللغة.

«وإذا قد عرفت هذه الجملة فهنا عبارة مختصرة وهي تقول لك المعنى ومعنى المعنى».

فمن الكلام ما وضع لأكثر من معنى ومنه ما وضع لمعنى مجرداً، ومن الكلام ما نقل إلى غير معناه مثل إنتقال الدلالة، لذلك وجبت النظرة على إعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية طبيعية يمكن أن توجه نظرة الإنسان إلى العالم علماً أن التفكير بطريقة واحدة ومعينة يتشابه فيه أناس آخرون.

ويلي هذه النظرة الإهتمام بطرق تراكيب الكلام وانتظام أجزائه بعضها مع بعض وإلى بعض، وقد نالت هذه الدراسة اهتمام عدد كبير من اللغويين المحدثين في الغرب أولاً ثم عند العرب المحدثين ثم عند رجال الفلسفة اللغوية، وذلك لصلة اللغة بالعقل وبالعاطفة، فقد تناولها علماء النفس اللغوي، لأن هذا النوع من الدراسة دراسة جدية في علم اللغة العام. وذلك من تشابك حدود اللغة مع العلوم الأخرى حيث أن المعنى هو أن المحتوى الفكري بين الشكل والمضمون، وبين اللفظ والمعنى ثم أن قضية التلازم التي أشرت إليها سابقاً هامة جداً في فكر المعاصرين من أهل اللغة والمنطق والفلسفة، فإن تبديل كلمة بأخرى داخل جملة من التعبير الفكري شيء خطير جداً قادر على تغيير طبيعة النص، فإنها تبدل المعنى عن أصوله لا محالة، وفي هذا المجال وفي مثل هذه القضايا تفاوتت آراء العلماء.

تفاوت نظرة العلماء حول طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر:

تفاوتت نظرة العلماء اللغويين حول طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر أثناء بحثهم عن أسرار طبيعة العلاقة للرابطة بين الألفاظ والمعاني أو بين الصوت والمنطق أو الفكر واللغة.

رأى بعض العلماء في مجال الفكر اللغوي، أن العلم بمواقع الألفاظ لا يكشف عن حقيقة الوجدان حيث أن اللغة برأيهم وسيلة للتعبير والتبليغ وليست غاية بحد ذاتها وأن اللفظ لا يصير تعبيراً كاملاً عن المقاصد.

ورآها البعض الآخر أن اللغة بحد ذاتها غاية ووسيلة يسعى إليها، وأن هذه النظرة تفيدنا كثيراً وتكشف عن حقيقة الوجدان. ومن هؤلاء العالم اللغوي جون لوك، وهو أحد علماء النفس اللغوي في القرن السابع عشر. إذ لاحظ وجود هذا الحبك اللغوي بين التعبير والتفكير.

حيث أن الإنسان يعيش في بيئة اجتماعية معينة، وهذه الحياة تفرض عليه وعلينا التخاطب والتفاهم، وحجة لوك العالم الإنجليزي في ذلك، أن الكلمة تدل على معنى والمعنى لا يأتي من الشيء المادي وحده وله الكلمة تدل على فكرة. إذ الكلمات رموز لأفكارنا وإشارة حسية لها، وإشارات حسية لمشاعرنا، وقال عنها فريق آخر اقتبس أفكاره عن علماء الغرب اللغوي، ويمثل هؤلاء في عالمنا العربي، الدكتور ريمون طحان، والدكتور نايف خرما، والدكتور كمال يوسف الحاج وقالوا عنها:

«إن اللغة تتألف من أصوات تنتظم مجتمعة في وحدات صوتية وفق نسق معين، وحسب نظام معجمي وصرفي ونحوي يصيغ الأسلوب بصيغة معينة.».

إهتم هؤلاء بالعلاقة بين الفكر واللغة ورأوا أن العلاقة قائمة بين اللغة والفن واللغة وفوق الشعور، ثم توصل هؤلاء إلى معرفة أن اللغة تتألف من أصوات تنتظم وفق مستويات وأنظمة معينة دون تعيين تلك المستويات وطبيعتها.

هذا وقد أراد أحد علماء اللغة عند الغرب الأمريكيين، أمثال لابتيز أحد فلاسفة اللاهوت أن يجعل اللغة علماً شبيهاً بعلم الفيزياء والكيمياء

والرياضيات، ومن أقواله في هذا الميدان، أن اللغات بمثابة الكتاب وعلينا أن نحسن قراءته، ولكي نحسن هذه القراءة ينبغي أن تقرأ أولاً لنفهم ثانياً».

وكان لأهل المنطق رأيهم أثناء تناولهم أقسام الإدراك للالأشياء المفردة واللغة، هي وسيلتهم لإدراك التصورات، وهي حصول صورة لشيء ما في الذهن كأن مسمع اسماً من الأسماء يمثلنا معنى ذلك الإسم، فإن هذه القضيـة المنـطوقـة والمكتـوبـة تختلف عن الحكم اختـلافـاً أساسي أ كأن مسع إسماً ونفهم صورة غير الصورة السمعيـة الحقيقية فيختلف مفهومها في الدماغ، وهذه الإستدلالات تمثل نوعاً من عمل الفكر.

من هنا نلاحظ مدى تفاوت نظرة العلماء وتنوع تفكيرهم واختـلاف نظراتهم في تقديرهم لمسألة العلاقة بين الفكر واللغة، ولكل من هؤلاء تقديراته فلأهل المنطق قضيتهم وتقديرهم ولرجال اللغة تفحصاتهم، ولأهل الفلسفة نظرتهم ولكل من هؤلاء نصيبه في علم اللغة العام.

الكشف عن طبيعة العلاقة:

يشير كثير من اللغويين المحدثين إلى أهمية الصلة الواقعة بين اللغة والفكر واسموها علاقة ذات قطبين، وذات مكان وزمان، ومن أنها علاقة صميمة بين التعبير والمنطق.

وإن هذه العلاقة مازالت سراً غامضاً في تفكيرهم، وحلقة ضائعة من حلقات علم اللغة العام، وقد أخذ علماء العرب المحدثين هذه الأفكار عن الغرب، إلا أن هذه الإتجاهات كان لها أهمية عندي دفعت توجيه جهود عديدة نحو ما هو فارض نفسه عند العرب، فقد جعلوا لي مجالاً واسعاً وهاماً للبحث من الأهمية بمكان الإشارة أكثر من مرة إلى ظروف طبيعة العلاقة بين الصوت والمنطق على أنها كانت سراً في تفكيرهم.

هذا ومن الأمور الطبيعية في مجالات النظم، نـظم الكلم أن تزداد المعاني عمقاً كلما ازدادت الألفاظ دقـة في التعبير وكلمـا ازدادت دائرة معارف الإنسان ثم تزداد المعاني عمقاً وتقيداً، وبذلك يضطر الإنسان إلى استعمال الفاظ جديدة، وهذه الألفاظ بذواتها لا تكون لها معنى إلا إذا انتظمت وفق قوانين معينة وطرق معينة ومعروفة حسب طرق النحو والصرف والدلالة، فالنحو والصرف بأبوابه المختلفة يحكن نظم الكلم ويرتبها وفق معاني النحو، بل وحسب ترتيب المعاني في النفس وحسب وقائع الأحداث المنطقية، ثم أن هذه الأنظمة هي التي تحكم الكلام وتقيم الصلة الطبيعية بين اللفظ والمعنى، ومعنى المعنى. وقد جرت محـاولات أخرى لـربط المعنى المباشر بالبنية النحوية الأساسية للجملة دون حاجة إلى افتراض تصور ودون حاجة إلى افتراض بنية داخلية وبنية عميقة أو معنى المعنى وهي القيم التي أشـار إليها نـوم تشومسكي وتحـدث عنها عبـد القاهـر الجرجاني، وهذا ما أشار إليه مكولي في كتابه القواعد التحويلية وقالـو بإمكانه بحث المشاكل اللغوية المتعلقة بالمعنى، ثم غموض بعض الجمل والمعاني المختلفة لجملتين تركيبهما واحد.

وتوصل رجال الفكر من هذه الأبحاث، إلى أن المعاني الكلية لا يمكن أن يحكمها النظام النحوي وحده في الكلام، واعتبروا معاني النحو لب أو النظام النحوي لب الدراسات اللغوية في هذا القرن، وقلب الـدراسات اللغوية جميعها لأنه يصل بين الأصوات والمعاني، علماً بأن النظام الصرفي يبحث في أمور أخرى حول كيفية تنـظيم الأصوات المفـردة للتعبير عن المعاني المفردة.

كأن هدف أنصار مدرسة تشومسكي هو الوصول إلى نظام متكامل قادر على توليد عدد غير متناه من الجمل، مع الحفاظ على العلاقة القائمة بين الأصوات والمعاني أو اللغة والمنطق.

ولهذه الجهود اللغوية الحديثة مكانتها عند كل باحث بالرغم ما اتصفت به من قصور ذلك ما جعلني اتجه بعملي باحثاً عن صحة وجود العلاقة الطبيعية القائمة بين اللفظ والفكر، بين الكلمة والكلم والجملة والنص، لأن الكلمة داخل نص لغوي هي جزء لا يتجزأ من وحدة عضوية متكاملة، ومن هنا ذهبت باحثاً عن طريق علمي يدعم العمل اللغوي، فجعلت العلاقة بين الفكر واللغة حدثاً مولوداً ذات زمان ومكان له صفات منها القوة المتغلغلة في طبيعة كل كيان لغوي حي، فهي سر السعادة وسر الشفاء، وسر الوضوح وسر الغموض والتعمية، هي قوة ذات طبيعة متفرعة تتراوح بين القوة والضعف والنمو والإكتمال، فهي كتيار كهربائي متناوب له طبيعته وآثاره من آثار مغناطيسية وكيمائية وحرارية وضوئية.

وشبهت هذه العلاقة بالحرية الحقيقية التي يبحث عنها الشرفاء أيام الظلم وشبهتها بقوة العلم، والعلم قبسة من نور الله، فالعلم كشاف مبصر ولادة للحرارة والقوة وضاح للخير كشاف فضاح للشر، يولد في الرؤوس حرارة وفي النفس شهامة، وكذلك طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة. فهذه العلاقة ذات طبيعة معنوية، نرى فعلها ولا نبصرها، تولد فلا تموت ترى قوية في أساليب فطاحل الشعراء والخطباء، ونراها أعظم قوة وأكثر إجلالاً ووضوحاً ودقة متكاملة في أسلوب القرآن، ونظمه المعجز للأنس والجن فهي في أعلى طبقة من نظام القول لها دعائمها ومميزاتها، تستمد هذه القوة طبيعتها من طبيعة اللغة الإنسانية فهي ذات طبيعة رمزية وطبيعة اجتماعية وعضوية، وقد أشار كثير من المفكرين إلى مثل هذه الصفات، فهذه العلاقة قادرة على ضم أجزاء الكلام ضماً متلاحقاً كأجزاء من الصيغ المتلاحقة ينضم بعضها إلى بعض، حتى تكثر في العين إلى أن يهجم علينا الحسن دفعة منها.

ويأتي ك ما يملأ العين غرابة وبعدها تعرف فضل صاحبتها متشبهة له

بالبنية وطول الباع لأنها كانت قـادرة على تصويـر المعاني بجـلاء شكلاً ومضموناً ولوناً وحساً وحركة.

فوضع الكلام بهذا الشكل مثله مثل من يأخذ قطعة من الذهب والفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة ثم يصنع منها خاتماً وحلياً أو سواراً، وهذه حالة شبيهة بمن يصنع من الكلام صياغة وتصويراً وتعبيراً وموسيقاً والحاناً وجمالاً. إن اللغة عند القادرين عليها وسيلة فعالة لتصوير وجدان الأمة بأفكارها ومعالمها وحقائقهـا وخصائصهـا واتحادهـا وتفككها وانتصارها وتفكيرها، فاللغة عند الأمم الراقية هي دليل على دقة الملكة في أهلها، يصورون بها عمق الروح وحب البقاء، وحب التفكير وحب الحسن والجمال. وبعد ذلك حتم البحث على إشارة إلى كيفية مولد هذه العلاقة، وكيف تلتحم المعاني بالألفاظ، ثم ماذا يجري داخل الدماغ من عملية فكرية وكيف تولد العبارة في السكون أثناء التفكير الصامت، فمولد العبارة مرهون إلى حد بعيد بمولد التفكير داخل النفس الإنسانية مثل انطلاقها إلى عالم الأصوات أو عالم الكتابة والغناء.

«إنك ترتب المعاني أولاً في نفسك ثم تحذوا على ترتيبها الألفاظ في نطقك أثناء إتحاد أجزاء الكلام داخل تعبير لغوي، وسبيل المعاني كسبيل الأصباغ التي تعمل منها الصورة والنقش والنحت».

يقول أبو حيان التوحيدي «أن المعاني تكون موجودة في النفس فتحوم عليها الفكر بالذهن الدقيق والفن الدقيق ويلقيها للعبارة».

ذكرت سابقاً أن هذه العلاقة هي حدث معنوي وهي ذات روح وهذه الروح جزء من روح صاحبها قطعاً أو كتابة أم غناء وهذه الروح من عند الله.

﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أتيت من العلم إلا

قليلا﴾ تلك هي طبيعة العلاقة المولودة بيْنَ اللفظ والمعنى، داخل ساحة الإحساس بالمعاني، بهذا يصدق قولنا من أن هذه العلاقة تولد فلا تموت، تبقى حية داخل العبارة وداخل النص، وأقصى ما تكون فيه من حيوية وقدرة على الإداء نجدها في النصوص وفي القرآن الكريم، فهي علاقة مبصرة عاقلة قاصدة خادمة، وهي مظهر من مظاهر الروح الأزلية كما أشارَ إليها ميخائيل نعيمة بكتابة الغربال.

«فهي علاقة قابعة على كل شيء الكائنة في كل شيء متغلغلة في الكلمات أو في الكون المنظم لنبصر فعلها ولا نبصرها».

ولهذه العلاقة أقسام وأجزاء، أصغر فأصغر إلى أن نصل بهذه القسمة إلى الذرات والجواهر، وإلى الجسيمات الصانعة الملتحمة مع بعضها بعضاً كالتحام عناصر المواد كالمغناطيس كل ذرة منه هي مغناطيس ذات قطبين، ويشير إلى مثل هذا النظم أحد علماء الأصوات اللغوية بيترانـد راسل بقوله:

«فالمادة مكونة من كهارب موجهة وأخرى سالبة، والكترونات وبرتونات فتجتمع الإلتكترونات أو البترونات في جسم واحد فتذوف فيفني أحدهما الأخر».

وتوضيحاً لما توصلت إليه رسمت مخططاً لغوياً يوضح سر ما يجري داخل الدماغ على افتراض وجود حافظتان داخل الدماغ أو داخل القشرة السنجابية للدماغ أحداهما حافظة المعاني وأخرى حافظة للألفاظ تصبان في ساحة الإحساس بالمعاني، وعندما يلقي الدماغ بالمعاني إلى داخل ساحة الإحساس الخاصة بالمعاني تتبعها الأللفاظ، وتتم هذه العملية ضمن عملية فكرية واحدة حيثْ يحوم الفكر حول المعاني ويلقيها للعبارة فتبدأ عملية الإلتحام في حالة ملائمة اللفظِ للمعنى، وهنا تتفاوت هذه العملية بين فكر

وآخر وفي لحظة الإلتقاء تولد العلاقة، بمولد العبارة، وبهذا تتم عملية خلق العبارة في السكون داخل النفس الإنسانية.

يقول الدكتور نايف خرما: «وقد دلت التجارب أن الإنسان يختزن الألفاظ مثلما يختزن المعاني في آن واحد، أما من حيث المعنى فمن الواضح أن الإنسان يختزن المفردات في مجاميع مترابطة من حيث معانيها».

تبدأ عملية النطق بإرسال المعاني من حفيظة المعاني المتكونة من تجارب الإنسان فمنها العميقة ومنها البسيطة، ومنها الحقيقة ومنها السخيفة، ويقابل هذه المعاني مفردات في الحفيظة اللفظية تناسبها وهي مكتسبة خلال عمر الإنسان، وفي هذه المجالات يتفاوت الكتاب والشعراء والبلغاء والفصحاء والناس جميعاً.

ثم أن دائرة الإحساس هذه نسبية عند الإنسان إذا ما قورنت بدائرة الإحساس للمعاني القرآنية عند الله عز وجل، ومن هنا كان أسلوب القرآن معجز، ومن هنا كانت الثغرات في أساليب الفصحاء والبلغاء.

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾.

إن جوهر اللغة هو هذه العلاقة الكائنة بين اللغة والفكر، فإذا استطعنا أن نفهم كيفية تكون التراكيب اللغوية عند الإنسان، والتي يدفعها للآخرين حتى تصل إلى الذهن، ثم كيف يتم تحليلها إلى رموز نفهم معانيها، فإذا استطعنا ذلك نكون قد ألقينا ضوءاً على عملية التكلم أو ما سميتها بالحدث اللغوي، وهو مولد العلاقة بين اللفظ والمعنى.

هذا وقد أدرك المناطقة شدة التحام أجزاء الكلام مع شدة الإتصال بين اللغة والفكر، رأى أحد أصحاب المباحث اللغوية والمباحث المنطقية أن

التراكيب اللغوية هي أداة أو هي سلاح للتفكير، وعلى هذا الشكل تكون العملية اللغوية عملية إدراكية تشتمل على علاقة بين اللفظ المدرك والصورة التي أوجدت بها العملية اللغوية.

يتألف التنظيم اللغوي من عناصر عديدة بل من أجزاء معقدة، يقوم كل عنصر منها بوظيفة حيوية تسهم جميعها في خلق حياة داخل نص من النصوص وتعبير من التعابير.

ومن الأهمية بمكان أن أحاول توضيح ما يحصل داخل الدماغ من تفاعل تفكيري وحدث لغوي، وخاصة عندما يمر التفكير من البنى العميقة إلى البنى السطحية، وقد تناول المفكرون اللغويون هذا الجانب وهم أصحاب المدرسة التحويلية أي أصحاب النظرية التوزيعية بقيادة رائدهم توم تشومسكي ومساعدوه ومؤيدونه وهم الذين حللوا الشكل اللغوي إلى أقسامه ومؤلفاته المباشرة ليكتشفوا المبنى العميق للغة، والتي اعتبروها نقطة انطلاق نحو حدث لغوي ونظرية جدية شاملة لدراسة المدلول.

جاءت القوانين التي توصلوا لها لتشرح تلك العلاقة وتوضحها بين الأصوات والمعاني غير أن قوانيهم هذه وجهودهم لم تتكلل بالنجاح.

لقد جعلت من جهود هؤلاء نقطة انطلاق للإستفادة بكل ما وصلوا إليه كي أقارن به ما هو موجود عند العرب من تراث.

إن علاقة الكلمة بالشيء علاقة قوية متفاوتة ومتباينة من حين لآخر حسب نظم المعاني في النفس، ثم أن غاية الكلمة المستعملة هو التعبير والترويح عن النفس وارضاؤها، كي تكون الألفاظ في مواقعها وتفصح عن مضمونها في نطاق الحياة، فإن العلاقة الحاصلة بين الكلمة والفكرة وليس بين الكلمة والشيء لأن الأفكار هي التي تعن الأشياء، ويفهم من هذا الكلام أن الإنسان هو الذي يعطي الكلمات للمعاني.

فهناك حاجة الإنسان إلى التعبير عن الأفكار للآخرين، وهناك عدم ربط ضمني بين الأفكار وجرس الحروف، وقد أشار العالم السويسري دي سي سير إلى مثل هذه القيم الفكرية.

إذ أن الرمز اللغوي يجمع بين مفهوم وصورة، وليس بين شيء واسم وأن مفهوماً معيناً يثير في الذهن الإنساني للصورة التي تلائمه. ثم أن التمييز الحاصل بين البنى السطحية والبنى العميقة تثير مجموعة من التساؤلات منها:

آ ـ لماذا كانت اللغة تتضمن بنية سطحية وبنى عميقة تختلفان في طبيعتها في لغة معينة.

ب ـ ولماذا تنتظم كل لغة وفق نظام معين.

جـ ـ ونجد مثل هذه التساؤلات عند الكثيرين من اللغويين المحدثين، وهي كثيرة عند اللغويين الغربيين وعلماء النفس اللغويين، نجد الإجابة عن مثل تلك الأسئلة في فكرنا العربي. هو أن المطلع على أسرار لغة من اللغات يشعر بوجود قوة خفية تربط بين اللفظ والمعنى مرتبطة بالدلالة وبالصورة التي يثيرها اللفظ... وقد أشار كثير من المفكرين واللغويين والنقاد العرب إلى بنية التركيب مبنى ومعنى. من أن اللغة لا تعني شيئاً إذا لم تعبر عن فكر، وأن إختلاف المبني عن المعنى هو اختلاف نوع ودرجة وشكل، وليس اختلاف في طبيعة، حيث أن الفكر يجب أن ينزع نحو لغة حيث أنهما يتعايشان في جسم واحد، ثم أنه لا يوجد خط فاصل بينهما والصلة بينهما مستمرة عضوية كلاهما واسطة وكلاهما غاية وبينهما تولد العلاقة الطبيعية بين اللغة والفكر، وهذه العلاقة متشعبة تلازم المادة الصوتية مع الدلالة لتعكس الواحدة وجودها في الأخرى، إذ لا صميم للوجدان بدون لغة، وأن البنى العميقة هي أساس للبنى السطحية وهي أساس

التفكير. وهي التي تستوعب المفاهيم وأن البنى السطحية وظيفتها صياغة المفاهم على شكل جمل وشريط كلامي.

يتناول رجال المنطق هذه الدراسة باحثين عن طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة ويتلمسون الدقة والوضوح، ويطلبون الوضوح المتناهي في استعمال اللفظ مواضعه لتشكيل تركيب لغوي لأنها أداة التفكير المطلوبة.

وقد توصل هؤلاء إلى أن البنى السطحية كانت نتيجة آلية لبنى كانت في الأعماق، وأن البنى العميقة هي أساس التفكير وهي التي تولد المفاهيم أي أن المعاني هي الأصل في كل تعبير لغوي لذلك أقول:

فأن المبنى اللغوي الواضح وليد معنى واضح، وأن المعنى الغامض هو ناتج من قصور الفكر، وأن المعنى الغامض يولد مبنى لغوي غامض، وبين المجالين المتباينين تظهر أهمية العلاقة بين اللغة والفكر، وتبدي لنا شيئاً من مظهرها الغامض. وأسرارها المستورة والتي قالوا عنها أنها غامضة وواقع الأمر أن هناك وحدة حال تربط الدراسات المعجمية بالدراسات الصوتية وتقوم المميزات النحوية والصرفية بدورها الهام بجميع أجزاء الجملة أو تعمل على التحامها وتماسها بل ونظمها حتى لا تنفصل.

يأخذ التركيب اللغوي دوره في صياغة المفاهيم، وهذا التعبير يأتي بعد إدراك الفكرة، ثم يشير إلى تلك الحالة الإدراكية، وتعتمد هذه القضية على ذاكرة جيدة بل وعى فكرة ناضجة وعلى معبر كفوء، كي يكون قادراً على جعل اللغة رمزاً لحقيقة الحياة الإجتماعية ورمزاً لواقع علمي وفكر عام.

وفي هذا الميدان أشير إلى أعمال الباحثين في حقل علوم اللغة وإلى العاملين في ميدان الفلسفة اللغوية الذين أولوا عناية هامة بالعلاقة القائمة بين الفكر واللغة أي الغاية واللغة والفن، حيث مزج هؤلاء ابحاثهم بالمنطق

والفلسفة، فتعاونت دراسات متنوعة على إيضاح العلاقة بين الأصوات والمنطق، وبذلك أظهروا شكل التعبير والأسلوب المتأثر بروح الأثر الأدبي، فقد اعتبروا الجملة في النص ومطابقة للتذكر والمفهوم ووقائع ماضية ومكنتهم هيكلية اللغة أو بنيتها السطحية التعرف على كيفية عمل الفكر وتحركه وخضوعه للإرادة أثناء صياغة اللغة حول فكرة من الفكر.

إن اللغة في قوم من الأقوام شكلاً ومضموناً ترسم صورة تفكير تلك الأمة بل هي صورة وجدان تلك الأمة، من هنا كان لدراسة اللغة العربية أهمية كبرى عند الباحثين العرب لأنها خير سبيل لمعرفة الشخصية العربية في تطورها وفي خطوطها وملامحها خلال العصور، ثم دراسة طريقة نظم الكلام في تراكيب الكلام ونظمه وربط أجزائه خير سبيل لرفع شأن لغتنا إلى مصافي لغات العالم المتمدن.

موقع النحو عند أصحاب علم اللغة:

يرى علماء الغرب أصحاب المدرسة التحويلية أن موقع النحو من اللغة هو بمثابة لقلب من جسم الإنسان، وأن كلمة قواعد عندهم تشمل أبواب النحو والصرف، وتشمل النظام الصوتي، ونظام المعاني وبهذا تكون معاني النحو عندهم اصطلاح شامل لجميع القواعد التي بها علاقة بوجوه اللغة المختلفة.

ذلك ما رآه علماء اللغة عند العرب منذ القدم في القرن الخامس الهجري أو قبل ذلك بكثير.

ومما جاء عند العرب بهذا الخصوص: أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن نضعها في النفس وضعاً واحداً، وأن يكون حالك فيها حال الثاني من يضع في يمينه ما يضعه في يساره هناك، وحال من يضع في يساره حال ما يضع في يمينه هناك».

وليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو تعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها.

ثم أن واضع الكلام مثله في ذلك مثل من يأخذ قطعاً من الذهب والفضة فيذيبها حتى تصير قطعة واحدة فتعمل منها خاتماً أو سواراً، وجملة الأمر أنه لا يكون هناك نظم وترتيب في شيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة.

«فالنظم أنه ليس شيئاً غير توخي معاني النحو بين الكلم وأنك ترتب المعاني في نفسك ثم تحذوا على ترتيبها بالألفاظ في نطقك وأنا لو فرضنا أن تخلوا الألفاظ من المعاني لم يتصور أن يجب فيها نظم وترتيب».

من هنا كان اهتمام العرب قديماً بقوة الترابط بين الألفاظ والمعاني، لذلك اهتم المحدثون بالنحو وبالكلمات التي تدخل في التراكيب أو الجملة وتفحص علماء النحو قديماً وحديثاً وظائف المفردات ـ وفق أواخر حركات آخر الكلمات وحسب موقعها في الجملة أو في النص، وتوصلوا بدراساتهم إلى أن الوظيفة التعبيرية لنظم عبارة من العبارات.

وتلعب أواخر الكلمات في لغتنا دوراً هاماً مع اختزانها بالمميز النحوي والصرفي، فاللغة تستوعب المفاهيم وتتحكم بالفكر، وتؤثر فيه ويؤثر فيها لكنهم وفقوا دون الغاية ولم يتوصلوا إلى القواعد المنظمة لمبنى العميق للغة ولا حتى إلى الظروف التي تدفع بالمبنى السطحي للغة، وكل ما فعلوه هو الإشارة إلى قواعد النحو والصرف، ثم إلى القواعد التحويلية وهي التي طلع بها تشومسكي بقوله أن النظام اللغوي يتألف من أجزاء أو من مستويات يقوم كل قسم منها بوظيفة حيوية تسهم في الحياة في التعبير.

وفي هذا المجال يشير أحد علماء الفلسفة بيتراند راسل متسائلاً: ما هي الألفاظ من حيث هي أحداث جسدية؟ وما هي الظروف الجامعة للغة،

والتي تؤدي إلى استعمال لفظة دون أخرى ودون غيرها في مجال معين؟ ثم ما هي العلاقة القائمة بين اللغة والفكر وبين الكلمة المسموغة والكلمة المنطوقة، ثم ما هي الإشارة التي تنتج أو التي تترتب على سماعنا الكلمة المنطوقة؟.

هذا وفي رأي أنه لا خلاف على دور الكلمة وما تؤديه من أدوار ووظائف مادية وأخرى معنوية في شتى ميادين الحياة ولكن الخلاف كان قائماً ومازال حول طبيعة العلاقة والظروف التي تولد فيها مع المقومات الصانعة لها؟ وهي العلاقة التي استحقت منا العناية والدرس والبحث الطويل، وأما قضية الكلمة وظروفها وطبيعتها، فقد أجاب عليها السلف منذ القرن الثالث والرابع الهجري أو قبل ذلك، من أننا نرى اللفظة فصيحة في موضع وغير فصيحة في مواضع أخرى وأن هذه الصفة مكتسبة من المعنى.

«إن المزية التي من ألجلها استحق اللفظ بأنه فصيح عائد في الحقيقة إلى معناه، فإنا نرى اللفظة تكون في غاية من الفصاحة في موضع ونراها في عينها فيما لا يحصى من المواضع وليس فيها من الفصاحة قليل أو كثير».

وأشرت هنا إلى أن جهود العالم اللغوي فرديناند دي سوسير كانت بداية ثورة لغوية في علم اللغة العام وهي ثورة على المفاهيم القديمة وبعد ذلك جاءت جهود سابير وبلوم فيلد في امريكا، فقد تعرضوا في دراستهم إلى بنية الكلمة والعبارة السطحية والعميقة، ويهمني في هذا المقام إبراز بنيانية الفكر والتي تفيدنا في معرفة تحركه وعمله الذهني والمنطقي وكيف تتم تحولات هذه العمليات المعقدة بواسطة اللغة والتي هي قوالب شكلية للفكر، حيث أن التنمية اللغوية هي من قوالب الفكر، وأن البنى العميقة هي أساس الفكر.

ورأيت أن أشير إلى أن عصرنا سيفخر بأن له الفضل في تبين ما يحصل داخل الدماغ من تفكير عندما يمر التفكير بين البنى العميقة والبنى السطحية ولا يسعني هنا إلا أن أشير إلى جهود القدامى العرب.

إهتمام اللغويين العرب باللفظ والمعنى:

كان اهتمام الأقدمين العرب باللفظ والمعنى اهتماماً عظيماً، فقد اهتموا باللفظ مثلما اهتموا بالمعنى لدورهما في صياغة التفكير وتصوير المشاعر وإبراز الحقائق، ويتقدم العرب في هذا المجال أبو عمر أبو عثمان الجاحظ بقوله:

«ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، وأن يعرف أقـدار الألفاظ ويوازن بينهما وبين أقدار المستمعين، فيجعل لكل طبقة قدراً من المعاني ثم يقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين وعلى أقدار تلك الحالات».

إن الإهتمام باللفظ والمعنى إذن قديم عند العرب تناوله النقاد والبلغاء والفصحاء والفلاسفة واللغويون والنحاة، وربطوا بين الأفكار واللغة، وأشير أيضاً إلى رأي آخر للجاحظ: لا يكون الكلام يستحق البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، فلا يكون لفظه أسبق من معناه إلى قلبك». فقد أدركوا مواطن الحسن والجودة في التعابير النثرية والشعرية وأدركوا أيضاً مواطن الضعف والركاكة، وأحسوا بوجود علاقة صانعة لحضور الحياة في التعبير، وأنها علاقة رابطة بين الأصوات والمنطق، كما هو الحال عـنـد الأمدي الناقد الفذ في القرن الرابع الهجري بقوله:

«ألا ترى البلغاء والفصحاء لما وصفوا ما يستجاد ويستحب من النثر والنظم قالوا هذا كلام يدل بعضه على بعض، وأخذ بعضه برقاب بعض،

قيل هذا صحيح في قولهم أو لم يزيدوا هذا الجنس من النثر والنظم ولا قصدوا هذا النوع من التأليف وإنما أرادوا المعاني... إن الكلام الفاظ تشتمل على معاني تدل عليها ويعبر عنها، ويحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى حسن الألفاظ، وأن المدار بعد ذلك على إصابة المعنى ذلك ما أكده العسكري: ولا خير في معان إذا استكرهت قهراً والفاظ إذا اجبرت جبراً وقهراً، ولا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه ولا غرابة إلا إذا أشرق لفظه مع وضوح المعنى وظهور المقصد.

ويرى الخطابي أن المعاني تحملها الألفاظ، وهي نتائج العقول وولائد الأفهام وبنات الأفكار، وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لحام الألفاظ وزمام المعاني، وبه ينتظم المعنى وأجزاء الكلام ويلتئم بعضه ببعض، فتقوم له صورة في النفس يشتكل معها البيان.

وتأكيداً لما جاءت به أقوال السلف السابقة من دقة في استعمال اللفظ وإيضاح للمعاني، ويشير الخطابي إلى أن القرآن بنظمه وجودة سبك الفاظه وأعجازه تفوق كل نظم وبأن أسلوبه فوق الأساليب لذلك كان معجزاً.

«وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور في غاية من الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من الفاظه ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً أفضل من نظمه وهو المعجز للأنس والجن».

اهتمام العرب بمعاني النحو:

الإهتمام بمعاني النحو قديم جداً عند العرب، وكان اهتمامهم يتزايد كلما كانوا يتعمقون بدراسة أسلوب القرآن الكريم، إذا أشار إلى ذلك المرزباني وأكد عليها ابن قتيبة ثم الخطابي، وبعد ذلك أخذت طابعاً جديداً عندما أخذ العرب يتعمقون بالحضارة وخاصة أيام القاضي عبد الجبار

الأسدي، وعبد القاهر الجرجاني ثم الذين جاءوا بعده وأخص بالذكر الإمام الزمخشري والفخر الرازي، ويوسف بن يعقوب السكاكي والقزويني.

فقد وصلت عناية العرب بمعاني النحو في القرن الرابع والخامس الهجري مرحلة النضوج والإبداع، فوصلت تلك الجهود إلى مستوى النظرية.

إن معاني النحو هذه شاملة لمعاني النحو من حيث الفاعلية والمسند والمسند إليه وأبواب الصرف مع النحو بشكل عام، وهو إهتمام يضاهي أزهى الدراسات اللغوية اليوم عند الغرب، وهي العماد الأول في نظم الكلم وضم بعضها إلى بعض، بأن يشمل هذا الضم صفة الكلمة وموضعها من النص والجملة وبالموقع والمناسبة والصفة، إن هذا الضم الذي يتواصفه البلغاء والفصحاء، نظم روحه المعنى وجسمه اللفظ وقد يضعف بضعف إحدى العناصر المقومة للتعبير، وقد يصاب بالعلل والأمراض كما هي حالة الأجسام التي تصاب بالأمراض والعلل: وفي هذا المجال نشير إلى أبرز الأقوال الدالة على إهتمام العرب بمعاني النحو:

«هذا كلام وجيز يطلع عليه الناظر على أصول النحو جملة، وكل ما به يكون النظم دفعة، وينظر فيه في مرآة تريه الأشياء المتباعدة والأمكنة قد التقت به حتى رآها في مكان واحد، وأما النظم نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنه يقتفي في نظمها آثار المعاني وتركيبها وفق ترتيب المعاني في النفس، هو نظم يتضح فيه حال المنظوم بعضه من بعض، وليس هو النظم بمعناه ضم الشيء كما جاء واتفق، وليس الغرض بنظم الكلم إن توالت الفاظها في النطق، بل أن تناسب دلالتها وتلاحق معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل، وكيف يتصور أن يقصد به إلى توالي الألفاظ في النطق، بل إن تناسقت دلالالتها أو تلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل.

وكيف يتصور أن يقصد به إلى توالي الألفاظ بالنطق، بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ومن أقواله أيضاً:

«واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على أصوله وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا يزيد عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا مزيغ عنها ولا تحل بشيء منها».

ثم وأنت إذا أردت الحق لا تطلب اللفظ بحال وإنما تطلب المعنى، وإذا ظفرت به، فاللفظ معك وإزاء ناظرك. .

والنظم في معاني الكلم دون الفاظها وأن نظمها هو توخي معاني النحو. ومن هذه الأقوال يمكن لنا أن نصل إلى قواعد تنظيمية أو قانون تجمعي خاص بالنظم والعبارة عند العرب.

المعنى هو أصل كل تعبير لغوي.

معاني النحو + قوانين علم النحو+ توالي الألفاظ بالنطق+ تناسق الدلالات+ تلاقي المعاني على الوجه الذي ارتضاه العقل، باعتبار حال المنظوم بعضه مع بعض مع الأصوات المنظومة.

وهذا يعني تداخل التعبير مع المنطق عبر ارتباط الفكر باللغة واتحادهما وبذلك يستطيع ناظم العبارة أن ينسج الملايين من الجمل التي لم يقلها لأحد من قبل بعد أن يمر التعبير من الشروط المعلومة وفقاً للقانون التجميعي لنظم العبارة المنطقية.

وبذلك يتضح رأي عبد القاهر بالنظم أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وعلى المرء أن يترتب المعاني أولاً في النفس ثم تحذوا حذوها الألفاظ في النطق وهو اصطلاح شامل للأصوات ولحركات الكلمات وللمعاني الصرفية جملة والتي لها علاقة بجميع وجوه اللغة المختلفة.

وأن هذه الجهود تستساعدنا كثيراً في الكشف عن طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة أو بين الأصوات والمنطق واللغة والفن لإضافة دليل علمي جديد للعلاقة التي مازالت سراً غامضاً في تفكيرهم، وحلقة ضائعة من حلقات علم اللغة العام.

البـــاب الثالـث

انكشاف طبيعة العلاقة:

بدأت الثورة اللغوية عند العرب حينما انصب جهود السلف الفكرية حول دراسة أعجاز القرآن، فكان للغويين فضل، وللنقاد دور، وللمتفلسفة جهود، ولرجال الدين تفسيرات وتوضيحـات عملت جميعها على تـطوير الدرس اللغوي، وبذلك أصبحت النظرة العلمية تتجـه نحو نـظم القرآن وأسلوبه المعجز...

هذا وأن الثورة اللغوية عند الغرب في القرن السابع عشر أيام العالم اللغوي دي سوسير، ذلك ما أشرت إليه سابقاً، فقد كان دي سوسير رائد فكر للمدرسة الوصفية التي أخذ عليها استيعاد المعاني من التحليل اللغوي، ثم تطورت الجهود وفقاً لتطور الحياة الفكرية في الغرب إلى أن وصلت عند نوم تشومسكي في امريكا.

فقد أضاف هذا العالم اللغوي إلى الدراسات السابقة عنصر المعاني، فأصبح المعنى جزءاً رئيساً من نظريته التحويلية، إذ أخضع المعاني إلى التحليل وفقاً للمنهج العلمي، واعتبر النظام النحوي لباً للدراسات اللغوية المعاصرة، فموقع النحو بمثابة القلب من جسم الإنسان وكلمة قواعد فهي تشمل النظام الصرفي بالإضافة إلى معاني النحو بأبوابه المختلفة ولهـذه الأفكار مكانتها في العصر الحديث لما لها من أثر على الدرس اللغوي في

الغرب والشرق، ومن هذه المقارنة بين جهود العرب القديمة وجهود اللغوية المعاصرة يجد المطلع أن العرب كانوا سباقين لمثل هذا النوع من الدراسات، فيجد المرء في دراساتهم عمقاً وفكرياً يمتد إلى يومنا هذا. انصبت الدراسات اللغوية عند الغربيين على القواعد التحويلية والقواعد الصرفية والقواعد الصوتية وعلى القواعد النحوية.

تناول المفكرون الغربيون التركيب الأساسي للجملة من أجل الوصول إلى البنية الداخلية أو البنية العميقة، ثم إلى قواعد المعاني ثم المعنى الأصلي، فقد زودتهم القواعد التحويلية بمعلومات قيمة عن البنية الخارجية للجملة وأرشدتهم تلك الأنظمة الصوتية نحو الطرق التي تنطق بها الجملة، وهو أهم نظام المعاني إلى معنى الجملة ومعنى المعنى، فمعاني النحو عندهم توضح طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة أو الصوت والمنطق إلا أن هذه الجهود لم تكن مقنعة لعدد كبير من الباحثين اللغويين المعاصرين لما فيها من قصور لغوي، ثم أنني لم أر فيها شيئاً جديداً غير ما هو معروف عند العرب. ومن أبرز ما أشاروا إليه من قواعد والتي سموها القواعد التحويلية.

آ ــ القواعد التحويلية الأولية.

ب ــ القواعد النحوية.

جـ ــ القواعد الصرفية والشكل الصوتي.

د ــ ثم أضافوا إليها عنصر المعاني.

وقد زودتهم هذه القواعد التحويلية وفي طليعتها معاني النحو أو النظام النحوي بالمعلومات عن تركيب الجملة الأساسية ثم البنية العميقة ثم البنية السطحية، ثم المعنى البعيد وما يرمي إليه.

لكن تلك الجهود بكل ما اتصفت به من مقومات خلال المنهج

العلمي، لم تكن مقنعة لعدد كبير من اللغويين المعاصرين، لما وجه إليها من نقد ولما فيها من ثغرات افقدتها صفة الشمول.

هذا وقد امتزجت جهود المدرسة التحويلية بجهود فلسفية وأبحاث منطقية كقول أحدهم «لا شك في أن مثل هذا الدرب من التصور لا وجود له إلا بعد أن تمر رحلة التأمل اللغوي في شريط طويل، أي بعد أن يتفرغ العقل للتفتيش عن ماهية الجمل ثم ماهية الألفاظ، وماهية العلاقة بينهما، أم الأصول فيها فهو استخدام فطري».

وقد تزايدت الأدلة العلمية التي تشير إلى أن للسلوك اللغوي علاقات. عديدة بالخصائص الوظيفية الحسية لجسم الإنسان، ولعلاقاته المختلفة داخل الإطار الإجتماعي منها: العلاقة بين اللغة وتركيب جهاز السمع والنطق والذوق، والإدراك.

ومنها ما هو بين الدماغ والتخصصات التي اكتشفت في القشرة السنجابية للدماغ والتي اسموها مراكز الإرتسام للمراكز العصبية وتتعلق بالحواس الخمسة من حس وإدراك لغوي.

والذي يحدث هنا عند اكتساب الخبرات المرئية والمكونة والمسموعة والملموسة، هو أن هذه الخبرات ترتبط ارتباطاً حتمياً بالفكر، تبعاً للمؤثرات الخارجية والداخلية ترسم في الذهن صورة، وهنا تتفاوت المؤثرات وتختلف الإستجابات من إنسان لأخر.

يتضح لنا من كل ما تقدم في المجالات السابقة المنطقية منها والفلسفية واللغة تزايد عدد الأدلة التي تشير إلى أن للسلوك اللغوي علاقات عديدة بها صلة مباشرة بالوظيفة الجسيمة لأعضاء الصوت عند الإنسان ويتضح للمرء أيضاً أن العبارات المولودة داخل التفكير الصامت هي ذات مستويات متعددة تبرز على شكل أصوات متلاحقة تجمعها قواعد صوتية ثم مستويات نحوية

وأخرى صرفية تدل على موقف وعاصفة تجمعها أبواب النحو والصرف، ومن هذه المستويات، ما هو ذات مستوى افقي، ومنها ما هـو ذات مستوى عمودي، تلتحم بعضها ببعض لتعبـر عن صور الكـلام ومفهومـه بألـوانه وأصواته وحركاته.

فالعلاقة بين الفكر واللغة هي ذات إتجاهات معقدة متداخلة وأن الدماغ وحده عند الإنسان، هو القادر على نظم مثل هذه المستويات الضامن لعملية نظم الإتصال وجعلها عملية واحدة، وتلك هي علاقة الروح بالجسد، إن هذه النتائج بالغة الأهمية لأنها توضح كيفية المنهـج العلمي المتبع في الوصول إلى سر العلاقة القائمة بين التعبير والمنطق.

كان العرب أقدر الناس من غيرهم في لمس هذه العلاقة وفي طبيعة المفكرين في فكرنا العربي والإسلامي عبد القاهر الجرجاني بقوله:

أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا تتوخى في الألفاظ من حيث هي الفاظ ترتيباً ونظماً وإنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك اتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها وإنك إذا فرغت من عملية ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني أو تابعة لها، ولاحقة بها.

والعلم بموقع المعـاني في النص علم بموقـع الألفاظ الـدال عليها بالنطق».

وبهذا يعتبر عبد القاهر الجرجاني بفكرة الفـذة تقدم على كثيـر من العلماء اللغويين في العصر الحديث، بل وسابق لعصره، فهو رائد فكر وزعيم نهضة لغوية. في تراثنا الفكري، وهو من أنصار الصلة والإلتحام بين الفكر واللغة.

وبهذا النوع من التفكير يفسر لنا سر عملية خافية على كثير من علماء النفس اللغوي، وهي كيفية حدوث الحدث اللغوي في الدماغ، كيفية تكون التركيب اللغوي عند الإنسان داخل الدماغ، ثم كيفية يمكن للإنسان أن يصنع الملايين من الجمل وهو ما تساءل عنه أهل الفلسفة اللغوية وعلماء اللغة المعاصرون، بل وكيف تكون التراكيب عند الإنسان داخل ساحة الإحساس بالمعاني.

فاللسان مرآة صادقة تعكس صورة التفكير (المرء بأصغريه قلبه ولسانه) ومن هذه القيم بل من هذه الأبحاث ننتقل إلى اهتمامات أخرى، وهي مكانة المعاني في الفكر اللغوي العربي.

مكانة المعاني في فكرنا المعاصر:

إن الإهتمام بالمعاني قديم جداً عند اللغويين العرب بل عند الكثيرين من المفكرين المسلمين، فلا نظم ولا تأليف بنية الكلم إلا بعد أن تفكر بالمعاني وترتبها داخل النفس، فعند ذلك لن يحتاج المرء إلى جهد فكري كي يرتب الألفاظ ترتيباً آخر، فالألفاظ تتبع المعاني المرتبة في النفس.

«وليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله».

فالمعاني روح والألفاظ أجساد لتلك المعاني، فالمعاني جوهر والألفاظ أوعية لهذه الجواهر.

إن اللغويين الغرب كانوا قد اكتفوا بإحساسهم لطبيعة العلاقة كمسلمات أساسية ومفروغ منها فلم يشرحوا ظروف تلك العلاقة، بل اكتفوا بالإشارة لها. ورأينا طليعة هؤلاء مثل الجاحظ بقوله:

«أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه تظاهر لفظه».

وكما أشار إلى ذلك ابن رشيق القيرواني:

«اللفظ جسم روحه المعنى، ثم اشاروا إلى مقومات التعبير الأخرى كالألفاظ. أشاروا إلى الألفاظ وصفاتها من صلابة وطواعية وسلاسة، وعذوبة ولين ثم أشاروا إلى مواقعها في التعبير، وكان هذا مرهون بحسن تعليلهم للمعاني، وقد أشاروا أيضاً إلى المعاني وجودتها وقيمها، وأخذت هذه الأبحاث كثيراً من اهتمام النقاد واللغويين العرب، على شتى عصور اللغة تناولها علماء البيان والبديع والبلاغة والفصاحة والنظم، وكذلك أصحاب الفكر الديني في الفقه وشراح الحديث، والقرآن، وسخروا أبحاثهم لخدمة القرآن الكريم، ثم أخذت هذه الأبحاث طوراً جديداً عند المحدثين، ثم وجدناها تختلط بآراء فلسفية وأخرى منطقية تحت سيطرة منهج علمي حتى أصبح المطلع يشعر أنه أمام أفكار مستوردة من هنا وهناك، فبقيت جهودهم محدودة نسبياً لأنها لم تعد إلى الأصول العربية.

ومما هو جدير بالذكر، الإلتفات نحو التداخل الحاصل بين الشكل والمضمون أو التعبير مع الصورة الدلالية أو المعنوية، إذ أن إتحاد أجزاء الكلام وإدخال بعضها ببعض واشتداد ثاني منها بأول كان على المرء أن يضعه في النفس وضعاً واحداً، كي يكون حال السامع والناطق واحداً، كحال من يضع في يمينه ههنا حال من يضع في يساره هناك، ولا يكون الضم ضماً ولا الموقع موقعاً حتى يتوخى في ذلك معاني النحو.

وهذه هي أجود الطرق وأدقها وضوحاً لصنع العديد من الجمل التي لم يقلها أحد من قبل، أضف إلى ذلك ما تعنيه معاني النحو من قيمة علمية في مجال الفكر اللغوي، فالمميز النحوي رمز في غاية الأهمية وهو رابط مادي قابل للتبدل والتغيير، وهو الذي يحول دون اختلاط المعاني ويمنع الإلتباس، ويصف المفردة المضبوطة بالحركة ضمن باب من أبواب النحو

العبارة، فاظهر ان الاساس في النظم، هو الجزء الأول من المنطق لانه بدء تحديد عملية التفكير، وكلما كنا دقيقين بالوصف حددنا بالضبط التداخل الحاصل بين الشكل الصوتي والتعبير الكتابي مع الصورة الدلالية، وهذا ما فعله علماء اللغة في العصر الحديث، خلال محاولتهم الجادة في إيجاد نظام لغوي متكامل قادر على توضيح الطرق الناجحة لخلق الملايين من الجمل فكشفوا خلال ابحاثهم عن المستويات اللغوية المتداخلة التي تخلق التركيب، واندفع وراء هذا الإتجاه بعض المعاصرين اللغويين أمثال الدكتور تمام حسان، وريمون طحان، ونايف خرما، وحنفي بن عيسى فذهب هؤلاء بعيداً عما هو مطلوب بالبحث عنه وهي العلاقة بين الفكر واللغة، واكتفوا بالإشارة إلى غموضـها، وبقيت جهود نوم تشومسكي اللغوية مصدر الهام لهم ولعدد كبير من اللغويين الغربيين.

ولو رجع الباحثون إلى تراثنا اللغوي لوجدوا في نظرية عبد القاهر الجرجاني وقدامة بن جعفر كثيراً مما هم في انشغال فيه...

قد نضج قدامة بن جعفر ونجحت جهوده اللغوية في صياغة نظرية قادرة على صياغة الجملة النثرية والجملة الشعرية والتي لم يقلها أحد من قبل وقصائد لم يقلها أحد، وفي أغراض من الفخر والمدح والوصف والرثاء الخ.. ومن أقوال قدامة في هذا المجال أن أول ما يحتاج إليه في العبارة عن هذا الفن لمعرفة حد الشعر المائز، عما هو ليس بشعر، وليس يوجد في العبارة عن ذلك أبلغ ولا أوجز مع تمام الدلالة.

من أن يقول فيه: أنه قول موزون مقفى يدل على معنى، ولما كان

الشعر صناعة كان الغرض في كل صناعة أزاء ما يصنع ويعمل بها على غاية التجويد والكمال. وإذا كان جميع ما يؤلف ويصنع على سبيل الصناعات والمهن له طرفان أحداهما غاية الجودة والآخر غاية الرداءة، وحدود بينهما تسمى الوسائط وإذا كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة وللشعر فيها كالصورة كما يوجد في كل صناعة من أن لا بد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور فيها مثل الخشب للنجارة، والفضة للصياغة، وهي صياغة أنواع الكلام. فما محاولة نوم تشومسكي في إيجاد نظرية لصنع عدد غير متناه من الجمل شبيه إلى حد بعيد بجهود قدامة اللغوية التي كانت عند العرب في القرن الثالث الهجري.

ونجح ايضاً عبد القاهر الجرجاني بنظريته اللغوية، وكل ما جاء فيها من تقديم وتأخير وفصل ووصل، وتعريف وإنكار الخ... ونجح أيضاً باعتبار معاني النحو كمقوم أساسي في صياغة العبارة واعتبر المعنى أساساً لكل نظم لغوي.

وإن كل ما جاء به المحدثون، لا يتعدى إدخال معاني النحو وجعلها لباً للدراسات اللغوية المعاصرة ولا يتعدى جهود القدماء العرب في الوصول إلى نظرية لغوية شاملة، وبهذا يكون العرب قد توصلوا إلى نظرية لغوية في القرن الرابع الهجري، وبذلك تبقى لهم الريادة الفكرية بزعامة عبد القاهر الجرجاني.

وعلينا اليوم أن نطور تلك الجهود ونبرزها بطابع عصري يلائم تطورات للعصر حتى تكون لغتنا قادرة على صياغة كل ما هو جديد يناسب المدنية الجديدة بكل ما فيها من مظاهر.

هذا لو كان الغرب على يقيم مما وصلته جهودنا اللغوية لكانت جهودهم اليوم وقد قطعت أشواطاً بعيدة هما هو عليه الآن.

فللأجيال الحالية دورها في صنع واقع لغوي يخضع لمنهج علمي متطور، وللأجيال القادمة دورها أيضاً في إضافة جديد إلى الحياة الفكرية الحاضرة، ولكل واحد منا له نصيبه من هذه الجهود. وموجزاً القول: ربط العرب بين طبيعة التركيب الصرفي والنحوي والصوتي للغة، وبين طريقة التفكير في المجتمع العربي، وربطوا كل ذلك بالمعاني مع الفلسفة ومع مظاهر التفكير الأخرى، وبقيت قضايا اللغة مرتبطة ارتباطاً مباشراً بما يدور في الذهن من تفكير، وما يدور جول مجال الحواس، فالتعبير اللغوي مرتبط ارتباطاً مباشراً بالوعي العام وبالتفكير الإنساني جملة، واستمرت قضية الترابط والتلازم تشغل عقول المفكرين على مر العصور المواضي، ذلك أن صحة طبيعة العلاقة كانت غير واضحة في تفكيرهم.

الباب الرابع

قضت طبيعة البحث الخروج من هذه الدراسة المتنوعة بنتائج تخدم علم اللغة العام، حيث أن الجهود اللغوية استمرت في تطورها من المفهوم إلى النظرية ومن النظريات إلى التطبيق وفي العصور الحديث حاول علماء اللغة تسخير شتى العلوم لتخضيع علم المعاني للقياس والتجربة، وانتهجوا منهجاً علمياً من أجل الوصول بالأبحاث المعاصرة إلى مستوى النظرية القادرة على الإبداع إبداع الجملة والفقرة ثم النص.

ومن باب المحاولة وعن طريق الدرس، وجدت أن المعاني يمكن تخضيعها لبعض القوانين الرياضية الحديثة وخاصة قانون التركيب الداخلي الخاص بالمجموعات المعرفة.

حيث أن المعاني قد تكون على شكل مجموعات معرفة على شكل كتلة ووحدات وزمر وعناصر، ثم أن هذه المعاني تربطها بالبنية السطحية

ارتباطات عضوية، وتجمعها علاقات عديدة ومتنوعة كعلاقة الترابط وعلاقة التوافق وعلاقة النظير، وعلاقة التكامل وعلاقة التعدي وعلاقة التعاكس، لهذا خصصت الباب الرابع للدراسة التطبيقية القائمة على المنهج الرياضي وذلك من باب خضوع البحث للقياس الكمي والإحصائي المتماشي مع المنهج الوصفي، إلى جانب الإستقراء والمقارنة والتقييم لتخضيع علم اللغة كعلم من العلوم الإنسانية للمنهج الرياضي.

وتمر هذه الدراسة في معاني الجملة كوحدة ومجموعة معرفة، وكتلة متميزة عن الجملة التي تليها، ثم الجمل داخل فقرة ثم إلى النص كوحدة موضوعية تجرى عليها العمليات الإحصائية، إحصاء الكلمات، وفرز للأسماء عن الأفعال والحروف بأنواعها ثم تصنيف كل نوع حسب الزمَن والنوع والمناسبة ودور العقل والفعل كصانع للحدث ثم تعداد المعاني ونسبتها إلى البنية السطحية على أساس أن المعاني هي الصانع للبنى السطحية؛ وبعد ذلك اخضاع المعاني للقانون الرياضي على أساس أنها مجموعات معرفة وأن هذا القانون بخواصه التجميعية والتبديلية والنظرية يملك عنصراً حيادياً واحداً.

وبعد ذلك بحثت عن نوع العلاقات في كل مجموعة، ثم العلاقات بين مجموعتين متميزتين، ثم العلاقات المتعدية لتشمل الفقرة والنص وهذا بطبيعة الحال يوضح طبيعة العلاقة القائمة بين الفكر واللغة وأنها لم تعد سراً غامضاً.

ومن باب الإفادة حولنا المعاني إلى صور كركاتورية يمكن أن يقرأها الصغير والكبير، وأن نصنع منها لعباً للأطفال ونعلمهم قراءة الصور كأفلام الصور المتحركة.

أو تداريب للدارسين على مائدة البحث اللغوي، وذلك عن طريق

تحريك صور المعاني بتقديمها أو تأخيرها، أو عن طريق إضافات صور لمعاني متقاربة، وبذلك تستطيع أن تنتج جملاً لم يقلها أحد من قبل، وهو الهدف المنشود الذي لم يصل إليه المحدثون في الغرب.

الفصـــل الأول:

تضمن هذا الفصل من الباب الرابع، الحديث عن القوانين المعاصرة الرياضية، وعلى الخصوص قانون التركيب الداخلي الخاصة بالمجموعات المعرفة بمقوماته وخصائصه التجميعية والتبديلية والنظرية وعنصره الحيادي، وينص هذا القانون على أن تعريف القانون التركيب الداخلي أو العملية على المجموعة المعرفة.

هو تثبيت قانون أو قاعدة تسمح بأن نلحق بعنصرين ما عن المجموعة ب متمايزين أو منطبقين ومأخوذين ضمن ترتيب معين، عنصراً ثالثاً من المجموعة المعرفة ف، يدعى مركباً من العنصرين الأولين بواسطة هـذا القانون.

يمكن اعتبار المجموعة المعرفة في قانـون التركيب الـداخلي، هي مجموعة من المعاني المعرفة بالحرف ف، وقد تكون هذه المجموعة عدة عناصر مشتركة ومرتبة ترتيباً معيناً حسب ترتيب المعاني في النفس، كأن تمثل هذه المجموعة من المعاني صوراً صوتية في جملة أو صورة صوتية في فقرة، أو أن تكون هذه المعاني مرتبة ترتيباً علمياً كالمعلومات التي تتناول تجربة من التجارب أو مجموعة من الفضائل الخاصة في خطبة أو مقالة.

وهذه المجموعة بحكم أنها معـرفة فهي تخضـع للقانـون الريـاضي الحديث الخاصـة بالمجمـوعات المعـرفة بخـواصه التجميعيـة والتبديليـة والنظيرية وعنصره الحيادي ومع الحديث عن طبيعة العلاقات الناشئة بين

عناصر كل مجموعة أو الحديث عن العلاقات الناشئة بين عناصر مجموعات متعددة.

وهذا معناه أن يشمل البنية العميقة للجملة وللفقرة التي انتجت البنية السطحية، وأن العلم في بنية المعاني هو علم بمعاني انتظام الألفاظ في جملة أو فقرة أو مقالة.

يقول الدكتور ابراهيم أنيس:

«فإذا انتظمت العبارة ورتبت ذلك الترتيب المعني، سرت فيها الحياة وعبرت عن مكنون الفكر، وما يدور في الأذهان، وليست اللغة في حقيقة أمرها إلا نظاماً من الكلمات التي ارتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً تجمعه قوانين معينة لكل لغة».

تضمن هذا الفصل الحديث عن بعض التطبيقات للظواهر اللغوية التي حملت المعاني على شكل مجموعات، من هذه المجموعات المتعددة والمتنوعة، أشكال مختلفة ومتساوية مع بعض المجموعات الأخرى كأن تتساوى مجموعتان في الدلالة إذا اشتملت كل مجموعة على عناصر متساوية مع مجموعة أخرى، كأن تقول أن مجموعة عناصر الآية الكريمة في معانيها ﴿فالله يحكم بينهم﴾ تتساوى في عناصر معانيها مع عناصر مجموعة المعاني في الآية الكريمة ﴿والله خير الحاكمين﴾ إلا أن قضية ترتيب العناصر في كل مجموعة عما هو عليه في زمر المعاني في المجموعة الثانية وقد تكون بعض مجموعات من المعاني خاوية نشير لها بإشارة ∅ وهذا ما يجده الباحثون في كلام مسيلمة الكذاب، عندما أراد تقليد القرآن، أو يجده المرء في كلام الثرثارين والمضطربين، ومن المعاني ما يكون على شكل مجموعات جزئية تنتمي إلى مجموعة أكبر منها نشير إليها بإشارة احتواء [كأن تكون مجموعة من التفاح في سلة رب منزل تحتوي على مجموعة أو مجموعات غذائية أو

مجموعة من الفدائيين تمنمي إلى منظمة التحرير الفلسطينية أو إلى بعض الدول العربية بينهما علاقة احتواء أو انتماء، هي مجموعات صغيرة ضمن مجموعات كبيرة.

وهناك مجموعات مكملة، ومجموعات من المعاني متممة داخل فقرة أو داخل نص.

وبالرجوع إلى الفصل ذاته وإلى الباب ذاته يتضح المنهج ككل.

الفصــل الثــاني:

تضمن هذا الفصل الحديث عن طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة وكيفية تقريب المفاهيم الإنسانية إلى المفاهيم الرياضية كي تصبح العلاقات المبهمة مكشوفة، والأسرار الغامضة، مرتبة ملموسة تناول هذا الفصل الحديث عن الحدث اللغوي ومكوناته وزمانه ومكانه لتحديد ظواهر الحدث، ليتدرج في سياق المادة المفيدة ثم محاصرة هذا الحدث اللغوي لمعرفة منطلقاته من المعادلة المفقودة بين الظاهرة اللغوية والبعد الزمني والمكاني المحيط به. وكان من الضروري تعريف مفهوم طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة ومفهوم العلاقة بين الرياضة بين مجموعتين أو بين عناصر مجموعة واحدة معرفة، وبذلك يسهل فهم طبيعة المستويات الأفقية والعمودية والعلاقات المتشابكة بين الفكر واللغة، مثل العلاقات الفردية والمزدوجية والرمزية، العلاقات المنظمة والمتشابكة، وقد مثلنا لذلك بأشكال رياضية، كي يسهل فهم العمليات الغامضة في قضايا علم اللغة.

فقد وضح هذا الفصل أشكال العلاقات وطبائعها ضمن عملية تفاعل الحدث الصوتي مع الفكر في محيط المكان والزمان.

فالعلاقة بين الفكر واللغة وهي من نوع العلاقة الدالة والمعرفة بين عناصر مجموعتين أو عناصر مجموعة مرتبة منظمة يمكن تجسيمها في

مستويات تتضمن عناصر كل مجموعة، ويمكن تمثيل ذلك بمجموعة من المجسمات النقطية على المستوياتِ المعينة نسميها تحويل نقطي، وبذلك يمكن تقسيم العلاقة إلى فروع ونطوط واصلة بين عناصر المجموعات المشتركة والمتشابكة، وتحديد الصلة وطبيعتها بين العناصر المكونة لكل مجموعة معرفة، وقد مثلت لذلك بمجسيمات وجداول.

إن مثل هذا النوع من الحديث يوضح طبيعة العلاقة ويحدد إتجاهها ونوعها داخل مجموعة من المعاني التي تمثل البنية العميقة أو دور هذه المجموعة وقدرتها على بعث البنية السطحية وصلتهما بعضهما ببعض. ومجمل القول في هذا الفصل أنه بحث يعتمد على الحدث العلمي ويسلم بقدرة العقل البشري عن طريق البراهين المحسوسة مع الشواهد لإدراك ما يقع من علاقات بين البنى العميقة والبنى السطحية.

فالعلم يستخدم المفاهيم أولاً، ثم عندما يبلغ أعلى درجات الكمال يستخدم الرياضيات، الذي هو أكمل العلوم لذلك لجأت في بحثي هذا إلى استخدام بعض القوانين الرياضية الحديثة، وليس كل الرياضيات كي لا تبتعد عن طبيعة البحث كظاهرة لغوية اجتماعية.

فقد استعنت بالإحصاء داخل العلوم الاجتماعية مع استخدام بعض الظواهر الرياضية كما سبق ذكره، لإدراك طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة.

الفصل الثالث:

قضت طبيعة البحث أن يكون هذا الفصل هو الثمرة التي يجنيها زارع أشجار الثمار بعد صبر طويل كي لا يكون الحديث عن طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة حديثاً وشرحاً وتفصيلاً على صفحات الكتب يخضع للبحث النظري.

خصصت هذا البحث للتطبيق العملي يستعمله أصحاب علم اللغة في تحليلهم للجملة ولعناصر معاني الجملة ولتركيبها أيضاً وفضلت الانتقال من البنى العميقة والبنى الصوتية إلى التصوير حسب المعاني والمفاهيم، وتحويلها إلى صور كرتونية مرقمة.

بحيث تحول نصاً من النصوص إلى صور مجسمة إذا اجتمعت أعطت معنى تاماً لجملة أو فقرة أو نص فيها المعاني الجوهرية والإيحاءات ومعنى المعنى.

وتخضع هذه الصور إلى عملية التحريك والتركيب عن طريق الترقيم ليسهل على الباحث تحريك معنى مكان آخر، وتقديم معنى على آخر، ليظهر العيب في ذلك أو الاضطراب، وبهذا نصنع من النصوص عمليات تجريبية خاضعة للتجريب، حتى يكشف المرء قضية ترتيب المعاني في النفس، وأن المعاني هي الأصل في كل تعبير لغوي.

قضت طبيعة البحث إلى تخضيع النص كوحدة موضوعية، وتخضيع المعاني والجمل كوحدة عضوية إلى عملية الإحصاء والعد والجمع والمقارنة والتقسيم والتعليل، وتمر هذه الطريقة.

آ ــ بالقراءة والفهم وتحديد المناسبة والمقام وعصر النص، وطبيعة الحياة العامة التي وجدت فيه.

ب ــ إحصاء عدد الكلمات التي صنعت النص، ثم تعداد الحروف، والظروف ثم تعداد المعاني التي شملها النص، وبعد ذلك نفرز الأسماء عن الأفعال وأنواع حروف المعاني.

جـ ــ نعود إلى الجمل بحثاً عن المستويات الصرفية، والمستويات النحوية والمعجمية، ثم الفواصل النفسية التي تقع كدوافع في بعث البنية الشكلية للجملة ثم توضيح طبيعة النوع من ذكر وأنثى مفرد ومثنى

وجمع، إحياء جماد، إنسان، ونبات وحيوان إلخ..

د ـ تجسيم المعاني وتحديد طبيعتها، هل هي مجموعات متكاملة، أم مجموعات متممة لبعضها، هل هذه المعاني لينة أم صلبة، هل بين هذه المجموعات من المعاني اتساع لمعاني أخرى، وبذلك يمكن توليد جمل لم يقلها أحد من قبل يكون هذا بتقديم معان متقاربة متآلفة متجانسة، وهذا ممكن لتوضيح المفاهيم الغامضة أو المعاني التي تحتاج إلى شرح وتوضيح.

ق ـ يجب معرفة المعاني الجزئية والكلية لمعرفة طريقة تركيبها وتجميعها على شكل كتل وزمر ومجموعات حتى يمكن تحديد المعاني الجوهرية والمعاني الثانوية مع طبيعة الإيحاءات.

ن ـ بهذه الطريقة يمكن تحديد أنواع العلاقات وطبيعة كل منها في مجموعة معرفة من المعاني أو من مجموعتين متجانستين، أو متناظرتين أو متساويتين، وتحديد أنواع هذه العلاقات بين الترابط والتوافق والإنتماء والاحتواء، والتناظر والتعدي والتعاكس.

ط ـ تحويل هذه المعاني إلى مجسمات كاركاتورية، أو صور متحركة ملونة مشخصة مرقمة يسهل تفكيكها وتجميعها عن طريق الأرقام من الخلف بحيث يمكن للمرء أن يقدم منها ما حقه التأخير أو أن يؤخر ما حقه التقديم ليدرس الدارس النص ويسجل ما يحصل من اضطرابات واختلافات ويقارن إلى أن يصل إلى طبيعة النص وحقيقته.

أجريت تجارب وفق هذا الطريق المرسوم على نصوص من العصر الجاهلي لسهولة البحث، ومن باب التبسيط، وتركنا تمارين للدارسين ثم أشرت إلى إمكانية أجزاء مثل هذه التجارب على أي نص أدبي أو علمي أو تاريخي، وسهولة تخضيع النصوص إلى هذا المنهج.

واكتفيت بهذا القدر لأن تحليل نص من النصوص مهما كان صغره قد يحتاج إلى عشرات من الصفحات، وقضت طبيعة البحث الأكادمي أن يترك مثل هذا العمل إلى إخراج كتاب تطبيقي يتناول النصوص حسب العصور وحسب النوع وحسب المواضيع، وبذلك يكون لدارسي علم اللغة كتباً نظرية وأخرى عمليـــة.

والله المـــوفـق

**** .... **** .... **** .... ****

**** .... **** .... ****

****